

الموسوعة الشامية في تاريخ الحروب الصليبية

مآخِذُ التَّارِيخِ الحُرُوبِ الصَّلِيبِيَّةِ

اوروبا في العصور الوسطى ومراحل وقائع الحروب الصليبية

تأليف وتحقيق وترجمة

الأستاذ الدكتور سهيل زكار

دمشق

١٩٩٥ - ١٤١٦ هـ

الجزء الثالث

مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية

٣ - (اوربا في العصور الوسطى ومراحل وقائع
الحروب الصليبية)

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، وجاء هذا الجزء في بابين عالجت في الباب الأول بعض ملامح تاريخ أوربا في العصور الوسطى بما يخدم غرض موسوعتنا ، والدافع إلى كتابة هذا الباب هو التعرف إلى أصول الفرنجة الذين تحملوا أعباء مشروع الحروب الصليبية ، فلطالما وجهت التهمة من قبل المؤرخين المعاصرين إلى العرب بتقصيرهم في هذا المنحى ، حيث ما من واحد من المؤرخين الأوائل الذين كتبوا عن أحداث الحروب الصليبية جشم نفسه عناء السؤال : من هم الفرنجة ، ومن أي أصل انحدروا ، وما هي عاداتهم وتقاليدهم وقوانينهم ومؤسساتهم ، ولأي شيء قدموا من أوربا ، إلى غير ذلك من أسئلة مفيدة ، ولنفي التهمة حديثا ، وفي سبيل التوازن في المعلومات وشمولية أبحاث المدخل تحدثت عن بعض الملامح الأساسية للتاريخ الأوربي في العصور الوسطى بشطريه الشرقي والغربي .

وفي أيامنا كثر عدد الكتب بالعربية المؤلفة والمترجمة حول تاريخ أوربا في العصور الوسطى بشكل عام أو حول الشطر الغربي ثم الشطر البيزنطي كل على حدة ، والمؤلفات الغربية اعتمدت على الدراسات الأوربية الحديثة حول هذا الموضوع خاصة ما كتب بالانكليزية والفرنسية ، وأعني بهذا أنها نادرا ما عادت إلى الأصول والمصادر الأوربية القديمة لتعذر الحصول عليها ولعوائق اللغات والقدرة على التفرغ الطويل ، وفعلت أنا الشيء نفسه ، ففي مكتبي

أعداد كبيرة من أفضل المؤلفات الانكليزية حول التاريخ الوسيط ، وكنت اهتمت بهذا الجانب من المعرفة التاريخية منذ أن كنت طالبا في لندن ، لأن رسالة الدكتوراه التي أعدتها ارتبطت بشكل وثيق بالتاريخ البيزنطي ، ولتتمركز اهتماماتي منذ ذلك الحين حول تاريخ الحروب الصليبية ، وحدث أثناء اعمالي للتدريس في جامعة محمد ابن عبد الله في فاس أن توليت تدريس تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، وكنت آنذاك قد أعدت أملية جامعية حول هذا الموضوع . وافدت الآن من هذه الأملية ، وصحيح أنني قبل أن أعدها وبعده قرات عددا كبيرا من الكتب حول التاريخ الوسيط إلا أنني اعتمدت في عملي على عدد مركز من الكتب تقدمها ما كتبه المؤرخ هنري بيريون حول التاريخ السياسي الوسيط وحول التاريخ الاقتصادي ثم كتابه « محمد وشارلمان » ، ومع هنري بيريون استفتت إلى أبعد الحدود مما كتبه المؤرخ سدني بينتر ، ومن أبحاث تاريخ كمبرج عن العصور الوسطى سياسيا واقتصاديا ، وبالنسبة لهذا الكتاب العملاق راجعت بشكل مكثف أبحاث الجزء الرابع في طبعته الجديدة لأنه أوقف على تاريخ بيزنطة ، ولأن الأستاذة هسي أشرفت عليه ، ولهذه العاملة المؤرخة العديد من الكتب والأبحاث حول التاريخ البيزنطي ، ومن أفضل أعمالها ترجمتها لكتاب أوسترو غورسكي حول تاريخ بيزنطة ، فهذا الكتاب معدود بين أفضل ما كتب حول تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، وعرفت الأستاذة هسي عن قرب ، لأنها كانت عضوا في لجنة الحكم على اطروحتي للدكتوراه ، ومع كتابات الأستاذة هسي وترجماتها عدت إلى ما كتبه المؤرخ المختص ببيزنطة وأعني هنا فازلييف ، وفازلييف كتاب عن العلاقات العسرية البيزنطية نقل إلى العربية باسم « العرب والروم » وهو ما يزال يعد من الأصول الممتازة في بابيه .

ومع أن اعتمادي - كما سلف وقلت - جاء على مصادره بالانكليزية وعلى ما ترجم إليها من أصول خاصة كتاب اينهارد عن حياة شارلمان ، فإنني حصلت على بعض الفوائد من المؤلفات العربية على الأخص ما كتبه الأستاذ الجليل المؤرخ سعيد عبد الفتاح

عاشور ، وامللي كبير ان يفي الملخص الذي قدمته بالغرض .

ومن هذا الملخص نعرف قصة انتشار المسيحية في بعض الاقطار الاوربية المتوسطة ، وان جل اوربا كانت شعوبه عندما قام الاسلام وثنية ، وعلى هذا كانت اوربا مهياة لتلقي رسالة التوحيد ، واية سعادة كانت يستنالها هذه الشعوب لو نجحت المشاريع العربية في فتح القسطنطينية ويوم بواتيه ، ومع انه لامكان لكلمة « لو » بالتاريخ ، لاشك لدي ان البشرية كانت وحضارتها ستسعد وستختصر الوقت وتختزل الزمان ، ولا ستحال حينها قيام ما اطلق عليه اسم الحروب الصليبية التي ما تزال مستعرة حتى يوم الناس هذا ، واعتقد انها ستبقى حتى يرث الله الارض ومن عليها .

واوقفت فصول الباب الثاني على دراسة موجزة وموجهة حول مراحل تاريخ الحروب الصليبية ، فقد رفضت منذ زمن مديد ما اعتاد عليه المؤرخون الاوربيون لدى بحثهم في تاريخ هذه الحروب ، فهؤلاء جعلوا - في الغالب - احداث هذه الحروب جزءا - يكاد ان يكون كاملا - من تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، ونحن نختلف مع الاوربيين حول هذه القضية ، فهناك اسباب اوربية مباشرة وغير مباشرة لتفجر احداث الغزو الصليبي ، ولكن وقائع هذه الحروب قد قامت على ارض الشام العربية ، وانتهت على هذه الارض بالذات بالنصر العربي والهزيمة الاوربية ، وجوهر القضية هنا ليس في كون ان المنتصر هو الذي يكتب التاريخ ، لكن بالبحث عن الحقيقة بشكل علمي ومنطقي ، وفي تاريخ الحروب الصليبية قد تكون الاسباب الاوربية لتفجر هذه الحروب هامة غير ان الاله هو معرفة اسباب اخفاق العرب في التصدي أولا للغزاة الصليبيين وفي عدم تمكنهم من اقتلاعهم إلا بعد وقت طويل وجهود مضنية .

لقد قسم الباحثون الاوروبيون تاريخ الحروب الصليبية إلى حملات متتالية اختلفوا في تعدادها وتسمياتها ، والمثير للانتباه هنا ان هؤلاء الباحثين انفسهم ارحوا لما قام به الصليبيون في المانيا او فرنسا او بلغاريا او الامبراطورية البيزنطية في إطار التاريخ

الوسيط الخاص بكل بلد من هذه البلدان ثم في الاطوار الأوروبية العام.

من الانصاف تطبيق هذا المعيار على بلاد الشام وبالتالي تفسير مراحل تاريخ الحروب الصليبية شاميا عربيا مع عدم إغفال الشأن الأوروبي . ومن هذا المنطلق يمكن القول إن الحروب الصليبية قد مر تاريخها بطورين رئيسين :

(أ) الطور الأول ، وقد ارتبط بقيام هذه الحروب وعمليات الاحتلال حتى وصل التيار الى مداه الاقصى وكان ذلك امام أسوار حلب سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ومن ثم انعكس .

(ب) الطور الثاني ، وقد ارتبط بحرب التحرير والاسترداد ، ومرت هذه الحرب بأربع مراحل ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن الوطن العربي في المشرق تحملت أعباء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها . وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة واستغلال الامكانيات وشخصيات القادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ومرحلة حلب ومرحلة دمشق ومرحلة القاهرة .

— في مرحلة الموصل تمت الحيلولة دون سقوط حلب ، وتحول موقف العرب من الدفاع إلى الهجوم . وكان أبرز إنجازات هذه المرحلة تحرير الرها سنة ٥٣٩ هـ / ١١٤٤ م والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيسا في المشرق ، وذلك تحت لواء عماد الدين زنكي . وفي مرحلة حلب استلم نور الدين محمود بن زنكي لواء القيادة فذشط في الشام نشاطا كبيرا ووجد حلب مع دمشق ثم مد الوحدة إلى مصر واعد العدة لتحرير القدس وإزالة الوجود الصليبي نهائيا . وتولى صلاح الدين الأيوبي القيادة في مرحلة دمشق بعد وفاة نور الدين بشكل مفاجيء عام ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م ، وفي ظل قيادة صلاح الدين تلقى الكيان الصليبي اقصى ضربة نالها في تاريخه يوم حطين

سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، وبعد حطين جرى تحرير القدس مع أجزاء واسعة من المناطق المحتلة .

وبعد وفاة صلاح الدين صارت القاهرة مقر السلطنة الأيوبية العظمى ، ومنها قاد كل من خلفاء صلاح الدين من الأيوبيين أولا ثم من المماليك أعمال التحرير فصفوا الوجود الصليبي نهائيا .

إن أبرز وقائع هذين الطورين هو ما عالجته في الباب الثاني ، وجاء جل اعتمادي على المادة التي حوتها موسوعتنا مع مصادر أخرى إضافية ، ومررت ببعض الحوادث بشكل عابر ، غير أنني وقفت مطولا عند صلاح الدين ومعركة حطين ، فهنا جوهر النصر العربي ولب القضية التي ربحناها عسكريا وسياسيا واقتصاديا ، وقيما وأخلاقا فيها الكثير من الشمائل النبوية والمثالية الإسلامية ، فقد تربح الهمجية معركة وتسفك دما ، لكن الخلود للشمائل المحمدية التي احتذاها صلاح الدين يوم تحرير القدس ، وكما سيظل هذا اليوم صفحة مشرقة ممجدة لدى كل إنسان متحضر سيبقى ما صنعه الفرنجة قبل ذلك بقرابة قرن ، يوم اجتاحوا القدس ، وصمة عار في جبين التاريخ الأوربي الوسيط .

وبعد صلاح الدين وفي ظل حكم الدول الأيوبية ، تعطلت مسيرة التحرير إلى حد بعيد ، وفقط استؤنفت بشكل فعال بعد هزيمة حملة لويس التاسع وتأسيس السلطنة المملوكية ، لذلك استحدثت أعمال التصفية للوجود الصليبي في ظل المماليك بعض العناية مع أن موسوعتنا ليس فيها مواد أساسية عما حدث بعد ما يعرف بالحملة الرابعة ؛ وسبب هذا أنني لم أستطع بعد الحصول على ما يكفي من مصادر غير عربية حول وقائع ما يعرف باسم الحملة الخامسة ثم الحملة السادسة ، كما وهناك مصادر عربية أساسية غير منشورة أسعى بشكل حثيث للحصول على نسخ مصورة عنها ، وعندها بأن الله سأكمل مشروع هذه الموسوعة .

وللحروب الصليبية مالا يحصى من الدروس ، وسيبقى على رأس هذه الدروس أن الداء القاتل للأمة العربية هو التمزق ، فالتمزق

ترافق دوما مع الفتن وفي الفتن ألقى بأس الأمة بين صفوفها فأنهكت
نفسها بنفسها واستضعفها عدوها فسعى إلى اقتباسها وإبادتها ،
فضلا عن الاستهانة بها ، والدواء كمن دوما في الوحدة القائمة على
ما جاء في دين التوحيد وفي الشرائع الحميدة ، فالنبي المصطفى عليه
أفضل الصلاة والسلام كان غيريا لم يعرف الأنانية ، أثر رضى الله
ومصلحة الأمة على أي شيء آخر ، وكانت السلطة لديه صلى الله
عليه وسلم إحدى الوسائل لتطبيق الشريعة وإسعاد بني البشر ، ولم
تكن طريقا لملك يورث أو لاستبداد واستعباد وشهرة ذائعة .

لي أمل كبير في أن أكمل مشروع هذه الموسوعة وأن يستفيد منها
كل عربي ومسلم وأن تلقى محاولتي لتفسير مراحل الحروب
الصليبية العناية الكافية إن نقدا وإن تطويرا والله الموفق إلى
إسداد، وله الحمد والمنة، والصلاة والسلام على نبينا المصطفى وعلى
آله وصحبه وسلم .

دمشق الشام

١٧ - رجب الفرد ١٤١٣ ١٠ - كانون الثاني ١٩٩٣

سهيل زكار

الباب الأول

الفصل الأول

الانتقال من العصور الكلاسيكية الى العصور الوسطى

تواجه الباحث في تاريخ ما يدعى بالعصور الوسطى في أوروبا عدة مشاكل وعقبات ، ترتبط بتسمية هذه العصور ، وحدودها الزمانية والمكانية مع أحوالها وأحوال أناسها ، من حيث الأصول العرقية ودرجات التطور الحضاري وطبائع وأنواع العقائد التي أخذت بها وتأثرت بما جاء بها .

وتسمية هذه العصور بالوسيطية جاء من اصطلاح الباحثين على تقسيم العصور التاريخية عامة الى أقسام ثلاثة هي : القديمة . ثم الوسيطية ، فالحيثة ، وليس من المناسب هنا الدخول في نقاش حول هذا المصطلح من حيث صحته . ومطابقته للواقع التاريخي ، لكن يكفي أن نذكر أن هذا الاصطلاح ما هو الا أداة ليسهل بواسطتها البحث ، وأننا حين نقول عصور قديمة ، ثم عصور وسيطة لا نعني أن هناك حدودا حادة تفصل بين هذه العصور ، ثم أننا حين نقول عصور بالجمع نعني أن التاريخ القديم تألف من فترات فيها تشابه وتناظر وكذا التاريخ الوسيط .

ويقودنا هذا كله نحو أولى مشاكل العصور الوسطى ، وهي متى بدأت هذه العصور - إذا كانت قد وجدت - ثم متى انتهت ؟ إن أية محاولة للتعرض لايجاد أجوبة لهذه الأسئلة ستكون عملا عابثا ما لم يقدم لها بمقدمة يبحث فيها بأصول تاريخ أوروبا في العصور الوسطى .

كانت قارة أسمية سباقة في معرفة الحضارة والثقافة للقارة الأوروبية ونظرا لارتباط أوروبا بأسمية ، فقد تم انتقال المؤثرات الحضارية الآسيوية الى أوروبا ، لكن هذه المؤثرات لم تكن الوحيدة

التي غزت أوربة بل ينبغي أن يضاف إليها المؤثرات الأفريقية لمصر وشمال أفريقية وحين نبحث في تاريخ الحضارات التي قامت في أوربة قبل العصور الوسطى نجد أن أصول هذه الحضارات كانت شرقية ، ولهذا نجد تاريخ هذه الحضارات شديد الارتباط طوال حياته بالشرق ، وفقط عندما تم قطع الأواصر بين أوربة والشرق قامت العصور الوسطى ، وعندما أعيدت هذه الروابط انتهت هذه العصور وبدأت العصور الحديثة .

وأبرز الحضارات التي قامت في أوربة قبل العصور الوسطى هي : الحضارة الإغريقية ، ثم الرومانية ، ولا حاجة بنا هنا لاستعراض التاريخ الإغريقي بمراحله قبل الإسكندر وبعده ولا تاريخ الإمبراطورية الرومانية ذلك أن هذا لا يعنينا هنا ، ويكفي أن نستعرض بشكل موجز التاريخ المتأخر لروما ، فهذا التاريخ هو المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ أوربة في العصور الوسطى .

من المعروف أن روما اضطرت أثناء صراعها مع دولة قرطاجة إلى احتلال بعض الأراضي المجاورة لإيطاليا بغية اتخاذها خطوط دفاع أولى في العمق ، وقد ولد هذا الطمع في احتلال المزيد من الأراضي فكان أن استولت على سردينيا وصقلية ، كما استولت على إسبانيا سنة ١٩٧ ق . م ، ذلك أن إسبانيا كانت قد مهدت السبيل لغزو هانيبال لإيطاليا أثناء الحروب البونية ، وأثناء هذه الحروب توسعت قدرة روما البحرية ، ونظرا لتحالف قرطاجة مع مقدونية ، سعت روما للانتقام من مقدونية ، وفي سنة ١٩٧ ق . م . هزمت روما مقدونية فسمبب هذا احتكاكها بالدولة السلوقية ، وفي سنة ١٩٠ ق . م انتصرت روما على أنتيوخس الثالث ملك سورية السلوقي ، وبذلك تغلغل نفوذ روما داخل أسية الصغرى على أبواب سورية ، وهكذا تابعت روما أعمال توسعها وكان ذلك بشكل رئيسي داخل بلدان المشرق المتحضرة فقد احتلت روما سورية ، وعندما حاولت التوسع شرقا اصطدمت بالإمبراطورية الفارسية ، فتوقفت أعمال توسعها في ذلك الاتجاه مع نهر الفرات لكن من سورية أنتقل

النفوذ الروماني نحو مصر ، وقد ضاع استقلال مصر وغدت مقاطعة رومانية بعد معركة أكتوم سنة ٣١ ق.م ، وكان قد حدث قبل هذا بزمان بعيد اخفاق هانيبال أمام روما ، وقيام الجيوش الرومانية باحتلال قرطاجة ثم الشمال الافريقي ، وهكذا نجد روما مع نهاية القرن الأول لما قبل الميلاد قد أصبحت صاحبة السيادة على شواطئ البحر المتوسط ، ونتيجة لذلك غدا هذا البحر بحيرة رومانية .

وقد ترتب على التوسع الروماني نتائج خطيرة جدا ، فقد وجدت روما نفسها سيدة للجزء الأعظم من العالم المتحضر في أوربة وإسسية وأفريقية ، وتمتلكة للميراث الحضاري لهذا العالم بكل محتويات هذا الميراث الثقافية والمدنية والفكرية والاجتماعية ، كما ان هذا التوسع منح روما ثروات لا تقدر ، وقد كان لهذا الثراء أثرا إيجابية وسلبية على المجتمع الروماني ، فانحطت الاخلاق ومن ثم تأثرت الادارة الرومانية بذلك كثيرا .

فروما حققت توسعها بوساطة الادارة العسكرية ، لذلك نجد ان السيف كان هو مصدر السلطة الفعلي في هذه الامبراطورية ، ورجال السيف - أي الجند - هم أصحاب الشأن الأول في الدولة ، وسعيا وراء سرعة التحرك العسكري نجد الدولة الرومانية قد قامت بمد العديد من الطرق المرصوفة لوصول روما العاصمة بكافة اجزاء الامبراطورية ، وجهد رجال السلطة الرومان في تأمين الأمن ، وكان لهذا انعكاسات على النشاط التجاري ، ونقل منتجات الشرق الأدنى والأقصى إلى روما ، ونقل التجار دائما أنواعا من البضائع : مراية مستهلكة ، وغير مراية ثقافية وحضارية لها صفة الديمومة والتغيير .

ولم تتوسع روما داخل البقاع الاوربية إلا بقدر ما فرضته ضرورات الأمن والدفاع والحاجة إلى التوسع ، وكان لهذا نتائج في غاية الخطورة ، فعلى يد شعوب أوربة غير المتحضرة والمترومئة كليا سيتم اسقاط روما والقضاء نهائيا عليها وبالتالي قيام العصور الوسطى .

لقد كان لطبيعة الحكم في روما العاصمة والمدن الإيطالية وداخل المقاطعات ، ومشاكل حقوق المواطنة الرومانية أن وجدت مجالات كبيرة لخلق المشاكل والفوضى مما كان سببا دائما للشكوى والثورة .

فرجال الأعمال الكبار وأصحاب الأموال والتجار ممن لم يتمتعوا بحقوق المواطنة الرومانية اضطروا الى التأثير على أصحاب السلطان وسواهم بوسائل غالبا ما كانت ملتوية ، وهذه الأوضاع الشاذة لفتت انتباه بعض المصلحين لكن غالبا ما كانت عبثا جهود هؤلاء أمام قوة اندفاع التيار العام الذي منح القوة حيناً ، ثم تحول فقاد نحو الانهيار .

ومعلوم أن تاريخ روما قد مر بعدة مراحل يراها بعضهم : المرحلة الملكية ، ثم الجمهورية وبعد ذلك الامبراطورية ، وقامت الامبراطورية فعليا بعد نصر اكتافيوس في معركة اكتيوم سنة ٣١ ق.م حيث نال لقب أوغسطس ولمدة قرنين ونيف عاشت الامبراطورية الرومانية ازهى عصورها ، ثم بعد ذلك أخذت مظاهر الضعف تبدو عليها ، وقد جرت عدة محاولات للإصلاح ، والذي يهمننا هنا هو تتبع هذه المحاولات منذ اعتلاء دقلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤ م .

ففي أيام هذا الامبراطور كانت قد اختفت مظاهر الديمقراطية في الحكم وغدت السلطة في حوزة مجموعتين واحدة مسدنية واخرى عسكرية ، وكان لكل مجموعة احوالها الخاصة ومشاكلها ، وحين استلم دقلديانوس عرش الامبراطورية لم تكن هذه الامبراطورية تعاني من المشاكل الداخلية فحسب ، إنما كانت تعاني من ضغوط خارجية تمثلت في شعوب أوربة المجاورة أراضيها لرومة - الشعوب الجرمانية - وبالامبراطورية الفارسية .

وقد سعى دقلديانوس الى دفع المخاطر عن امبراطوريته والى القيام بالعديد من الإصلاحات الداخلية ، خاصة في ميادين

الادارة ، لكنه اخفق مثل غيره في مواجهة المشاكل المالية للدولة ، فقد ازدادت نفقات هذه الدولة وضعفت موارد التجارة وتضاءل نشاط التجار لانعدام الأمن في كثير من المناطق ، ونظرا لازدياد الحاجة الى المال قامت الدولة بفرض المزيد من الضرائب مما زاد في التفاوت الطبقي والاستغلال ودفع نحو المزيد من الشكوى والتحريك الثوري .

وفي ايام دقلديانوس أدرك هذا الامبراطور ان مستقبل دولته لن يستمر في أوربة ، بل في الشرق ، لذلك نراه يتخلى عن روما ويتخذ من ميلان عاصمة ومركزا ، كل هذا في حين اهتم به بالمقاطعات الشرقية واتخذ لهذه المقاطعات مركزا اداريا خاصا في مدينة نيقوميديا على بحر مرمرة ، وبذلك وضع اللبنة الاولى في عمل تقسيم الامبراطورية الى قسمين غربي واخر شرقي العمل الذي سيتم على ايدي خليفته قسطنطين الكبير .

لقد قسم دقلديانوس امبراطوريته الى اربعة اقاليم ادارية كبرى كان على رأس كل اقليم حاكم يلقب «اوغسطس» او يلقب قيصر وهذا أوجد لدولته امبراطورين مع نائبين لهما .

وعندما بلغ دقلديانوس الستين من عمره تخلى سنة ٣٠٥ عن العرش لقسطنطين الكبير ، وقد اعقب نزول دقلديانوس عن العرش قيام حروب اهلية استمرت سبعة عشر عاما ، وبعد ما تحقق لقسطنطين النصر في هذه الحروب اخذ على عاتقه اكمال تنفيذ خطط سلفه الاصلاحية ، وكان لأعماله في هذا المجال أعظم الآثار في الانتقال من العالم القديم الى العالم الوسيط ، فقد اعترف بالمسيحية ثم تبناها وتخلي عن روما القديمة واستبدلها بروما جديدة بناها على ضفاف البسفور ، وقد حملت روما الجديدة اسم قسطنطين فعرفت بالقسطنطينية وهي مازالت تعرف بهذا الاسم ، وعلى الصعيد الاداري أدخل قسطنطين نظام الحكم الوراثي ، فصار منصب الامبراطور وراثيا محصورا في أسرة من الأسر تعتمد على دعامتين هما الجيش والكنيسة.

وسندع أمر الحديث عن دوافع قسطنطين في سياسته الدينية إلى مكان آخر ، لكن ينبغي ألا يفوتنا تقرير أن إقدام قسطنطين على بناء عاصمة جديدة لدولته وهجرة العاصمة القديمة قد طوى صفحة من التاريخ ارتبطت بمدينة روما ، وأذاك تركت روما بسدون امبراطور فعال ، فقامت البابوية وسعت لتحل محل الامبراطورية ، ولولا هذه الخطوة لما استطاعت البابوية الوصول إلى ماوصلت إليه من عظمة ونفوذ في العصور الوسطى .

إن اتخاذ القسطنطينية ذات الموقع الحصين عاصمة للامبراطورية وقيام الامبراطورية الرومانية الشرقية قد صان كما يقال عادة أوربة من الفتح الاسلامي فقد حالت القسطنطينية بين العرب المسلمين وبين دخول أوربة الشرقية .

وبعد وفاة قسطنطين عانت الامبراطورية من العديد من الحروب الاهلية وازدادت الضغوط الخارجية عليها ، كما تعقدت المشاكل الاجتماعية ، فقد تضاعف عبء الضرائب وكثر عدد العبيد العاملين في الصناعة والزراعة وتضاؤل عدد الأحرار ، وانحطت أحوال المدن ، لقد كانت الامبراطورية تسير ببطء نحو نهايتها المحتومة ، وكانت تعاني الام الموت .

ومع نهاية القرن الرابع انقسمت الامبراطورية إلى قسمين ، وصار القسم الشرقي متميزا عن الغربي دينيا ولغويا وحضاريا ، ففي هذا القسم وجدت اللغة الاغريقية بينما استمرت اللاتينية - إلى أمد - في الغرب وقامت في روما القديمة الكاثوليكية ، واستمرت في الشرق الحضارة ذات الأصول الهلنستية ، في حين اخذت أسباب الحضارة والثقافة في الغرب تضمحل بشكل متتابع ، وهكذا نلاحظ أن عوامل مختلفة تضاعفت على إسقاط الامبراطورية الرومانية وإنهاء العصور القديمة وابتداء العصور الوسيطة ، ولقد تميزت العصور القديمة بمزايا حضارية وفكرية خاصة ، في حين نجد أن المسيحية كانت الصانع الأكبر

- ٩٥٦ -

لحضارة العصور الوسطى وكانت المؤثر الأعظم في جميع مجالات
الحياة فما هي قصة هذه الديانة ؟ .

المسيحية والعالم الروماني

يرى عدد من الباحثين أن الدولة الرومانية وصلت إلى ذروة قوتها وعظمتها أيام حكم أوغسطس الذي كان أول أباطرتها ، ويرى بعضهم الآخر أن الدول بعد وصولها إلى الذروة لاتمكث هناك طويلا بل تأخذ بالانحدار ليس في طريق العودة نحو الأصول لكن في الانحدار نحو النهاية .

وفي أيام أوغسطس حققت روما أمجادا عسكرية طائلة ، لكن المجتمع الروماني الذي كان سيده صاحب السيف عانى آنئذ من الانحلال الفكري والعقائدي الديني ، فلم تعد الديانة الرومانية الوثنية الملققة من عدة ينابيع وأصول بكافية لمتابعة الأخذ بها ، كما أن المدارس الفلسفية من رواقية إلى أفلاطونية حديثة لم تستطع تقديم الزاد الروحي لشعوب الامبراطورية ، وقد استعار الرومان من ديانات الشرق القديم الشيء الكثير ، وكان هناك بالاضافة للديانات الوثنية الديانة اليهودية ، لكن هذه الديانة بانغلاقها على اتباعها ، وبما لحقها من انحرافات عجزت عن أن تقوم بدور فعال داخل المجتمع الروماني ، وعلى هذا نجد أن المجتمع الروماني كان يعاني من الفراغ الديني الروحي ، ونلاحظ قيام العديد من المحاولات لملء هذا الفراغ ، وغالبية هذه المحاولات صنعت في الشرق ، وقد تحقق لواحدة منها فقط نجاحا كبيرا .

ففي أيام أوغسطس ولد السيد المسيح عيسى بن مريم في بلدة بيت لحم في فلسطين ، ولد كما هو مجمع عليه في كافة المصادر من أم عذراء لم يمسها بشر قط ، وهناك خلاف حاد في المصادر حول الحياة المبكرة وحتى المتأخرة للسيد المسيح ، لابل إن الخلاف شمل كافة مراحل حياة المسيح فأدى ذلك ببعضهم إلى إنكار وجوده

تاريخيا ، والذي اعتدل قال بأن المعلومات المتوفرة حوله في المصادر المسيحية فيها زيف كبير واختراع ، ومهما يكن الحال فإنه من المؤكد أن رسالة المسيح كانت طوال حياته عبارة عن حركة إصلاحية داخل الديانة اليهودية . أي كانت حركة محلية ضيقة ، على أنه بعد غيبة المسيح (وبعضهم يذكر في أيامه الأخيرة) نقلت الحركة إلى العمل العالمي ، ومن المؤكد أن الذين تولوا عمليات نشر المسيحية في العالم هم غير المسيح ، ولقد كان لعمليات النشر هذه انعكاسات متميزة على العقيدة المسيحية تبعا للزمان والمكان ، وخلال قرون ثلاثة اضطرت المسيحية أولا للرومنة بشكل عام وللتأقلم مع كل قطر وبلد بشكل منفرد ، فكان نتيجة لهذا قيام عدة ديانات مسيحية متصارعة وهكذا إن الصراع بين الديانات المسيحية كان واحدا من أهم مميزات العصور الوسطى وصانعا لأحداثها .

إن معلوماتنا عن تاريخ المسيحية في عصورها الأولى هي معلومات غير مؤكدة ، ثم إن المتوفر من الأخبار عن انتشار المسيحية والطرق التي اتبعتها أيضا غير كافية فيها الكثير من الغموض ، على أنه برغم كل هذا نجد من الثابت أن الفضل الأول في تنظيم المجتمعات المسيحية الأولى ووضع قواعد اللاهوت وما يرتبط من مبادئ المسيحية الخلقية مع أمور الحياة والموت وغير ذلك يعود هذا إلى القديس بولس ، وهو أيضا المنظم الأول للكنيسة وباني أركانها الأولى .

وقد سهل على المسيحية الانتشار في العالم الروماني توفر طرق المواصلات مع توفر الأمن واستتبابه ، وزيادة على ذلك اعتماد جميع مقاطعات العالم الروماني لأحدى لغتين وهما : اللاتينية والاعريقية ، وقد يسر هذا نشر المسيحية ، لكنه منذ البداية فصمها فكان هناك مسيحيين : لاتينيين وأخرى إغريقية .

ولم تعارض الامبراطورية في البداية أعمال التبشير بالمسيحية ، فالسياسة الرومانية سمحت بحرية المعتقد ، وشرطت على المواطن الروماني الاعتراف بالالهة الكبار للدولة وعبادة الامبراطور ، وعدم

القيام بنشاط يهدد الامبراطورية ، ولكن ما إن انتشرت المسيحية حتى بدأت المشاكل فالنصارى مثلهم مثل اليهود رفضوا الهة الديانة الوثنية الرومانية كما رفضوا عبادة الامبراطور ، كما اخذوا في رفض الخدمة في الجيش الروماني ، وكان لهذا ردات فعل من لدن السلطات الرومانية ، مما دفع النصرانية إلى العمل بالسر وأخذ اتباعها بممارسة الطقوس بشكل سري ، وكوّن النصارى تجمعات سرية ، ولاشك أنه كان لذلك أكبر الأثر على تطور العقيدة المسيحية وأدخل عليها الشيء الكثير من العقائد والأفكار الغريبة عن أصولها . ومع ازدياد انتشار المسيحية أخذت الدولة الرومانية في اعتبار هذه الديانة ديانة ممنوعة وخطرة ، وحظرت اعتناقها وممارسة طقوسها ، وأخذ أصحاب السلطة الرومان في روما والأقاليم في ملاحقة النصارى والتنكيل بهم بشتى السبل من تحريق وتعذيب ، وتحدثنا المصادر عن قيام نيرون باحراق العديد من النصارى وكذلك اقدام غيره على ذلك ، ولاقت المسيحية في أوائل تاريخها الزواج بين مختلف طبقات المجتمع الروماني خاصة بين الطبقات الدنيا ، والمسيحية كعقيدة تقضي بالتسليم وعدم المناقشة ، وهي بهذا مناقضة للعقائد المستندة الى الفكر الفلسفي وهي التي سادت المجتمع الروماني ومن قبله الاغريقي ، وكان معنى انتشار المسيحية ثم انتصارها النهائي الحاسم انهاء للعصور القديمة الكلاسيكية وبداية عصور جديدة يتحكم بها الفكر المسيحي ، وهي العصور التي تسمى بالعصور الوسطى .

وإثناء انتشار المسيحية لم تكن السلطات الرومانية تشكل التحدي الوحيد لهذه الديانة ، بل أضيف اليها الافلاطونية الحديثة واليهودية والغنوصية ثم المانوية وغير ذلك من العقائد ، واستطاعت المسيحية خلال صراعها مع هذه العقائد ان تكتسب منها الشيء الكثير وتتبناه وهكذا فسان عمليات الصراع هذه ماكانت الا عمليات بناء للعقيدة المسيحية وتكوين لها ، برغم أن هذه العمليات أبعدها كثيرا عن أصولها الأولى ولذلك قبع السيد المسيح في أقصى الزوايا الباهتة لهذه الديانة وأصبح مع الأيام صورة خيالية غير فعالة ، وهذا الحال

هو الذي دفع العديد من الباحثين في العصر الحديث الى القول بانه شخصية لم توجد تاريخيا .

ومع نهاية المائة الثالثة للمسيح غدت الديانة المسيحية باتباعها داخل الامبراطورية الرومانية قوة ليس فقط لايمكن قمعها لابل لايجوز تجاهلها والاستهانة بها ، وقد دفع هذا العديد من الاساسة الرومان الى اعادة النظر في مواقفهم من النصرانية واتباعها ، وخاصة ايام الازمات الداخلية والحروب الاهلية ففي سنة ٣١٣ م اصدر الامبراطور قسطنطين مرسومه في ميلان عرف فيما بعد باسم مرسوم ميلان - اعترف به بالمسيحية كشرعية قانونية يحق لاتباعها ومعتنقيها اعلانها وممارسة طقوسها بكل حرية مثلها مثل بقية الديانات ، ولقد كان لهذا المرسوم ابعاد الآثار ويرى بعضهم فيه التاريخ الذي انتهت فيه العصور الكلاسيكية القديمة وبدأت به العصور الوسطى ، وقد اختلفت الآراء حول الدوافع التي دفعت قسطنطين العظيم الى اصدار مرسوم ميلان الشهير متذكرين ان الامبراطورية الرومانية قامت على اساس الوثنية مع عقيدة تالية الامبراطور ، واذا تذكرنا بالمسيحية ما نزل من نوازل ، فان مرسوم ميلان لم يقض على مكانة الوثنية الرومانية فحسب ولم ينه عهد الاضطهاد بل هيا الفرص امام المسيحية في سرعة الانتشار ، ونقلها من مكانة الملاحق من قبل السلطة الى مكانة المدعوم من قبل السلطة ، ثم الى السلطة ذاتها ، وهكذا سارت النصرانية على سنن غيرها من الديانات السالفة ، فغدت الى حد كبير احدى ادوات السلطة الزمنية الكبرى ، لابل اكبر الادوات ، ولم تكن هذه الاداة في جميع الحالات مطوعة ، لكن غالبا ما جعلت كذلك، وتاريخ العصور الوسطى في اوروبا والامبراطورية الرومانية الشرقية هو تاريخ السلطة ومشاكلها وطرق استخدامها لهذه الاداة .

ومن هنا جاءت اهمية اعتراف قسطنطين بالمسيحية ، وليس من باب المغالاة ان قال بعض الباحثين بان العصور الوسطى بدأت مع

اعتراف قسطنطين ، وربطوا هذا ببناء القسطنطينية التي جعلها قسطنطين عاصمة روما الشرقية ، ومعلوم ان العديد من الباحثين يرى ان العصور الوسطى قد انتهت مع سقوط القسطنطينية للمسلمين .

ومرة اخرى ما هو الحافز الذي حدا بـقسطنطين الى اصدار مرسوم ميلان ، هل كان ذلك اعتناق هذا الامبراطور للمسيحية وايمانه بها ؟ هذا ما يراه بعضهم ، وهذا ما ينفيه بعضهم الآخر الذي يثبت ان قسطنطين لم يتنازل عن مكانته في العبادة من قبل رعاياه ، وظل طوال عهده وثنيا ، والذي دفعه الى ذلك حاجته السياسية لدعم النصراني فهو قد فهم مشاكل عصره ، وادرك موازين القوى في عالمه ، فأراد ان يتحكم بهذه الموازين ويستغلها لصالحه ولصالح اهدافه ، لكن عندما نقل قسطنطين العاصمة الى الشرق ترك روما لقدرها الذي حكم عليها بالسقوط وهي مدينة الشيطان ليقوم مكانها مدينة الله على حد قول القديس اوغسطين ، فروما التي خلت من الامبراطور قام فيها البابا وسعى البابا لياخذ مكان الامبراطور ، ولاقى مسعاه هذا العديد من العقبات ، فبذلت البابوية كل طاقاتها في سبيل تذليل جميع العقبات ، ودخلت حلبة كل صراع ، وعلى هذا فان احدى مزايا العصور الوسطى قيام البابوية في روما وصراعها مع الامبراطورية البيزنطية ومع حكام اوربة الغربية في سبيل مد نفوذها وجعله يشمل العالم اجمع كما كان حال اباطرة روما العظام .

ولقد شهدت المسيحية منذ اوائل عهودها خلافات مذهبية عميقة للغاية كان لها اثارها الخطيرة على تاريخ اوربة والشرق معا وليس المكان الآن هو لدراسة هذه الخلافات بشكل مفصل ، انما سنكتفي بالاشارة اليها حسب الحاجة ووقت المناسبة .

وكانت كبريات مشاكل الخلاف تتعلق بطبيعة الاقانيم الثلاثة : « الأب » « الابن » « روح القدس » مع طبيعة العلاقة بين هذه الاقانيم وطبيعة السبيدة العذراء أم عيسى ، وبدأت المشاكل عندما

واحدة من اثيرا الى فيليا (فيليا موقع على شاطئ البحر الأسود) وكان عليها التربص حتى وصول رسل غودفري وهم في طريقهم الى بوهيموند وبقيّة الامراء وحدث في نفس ذلك الوقت الحادث التالي: وجه الامبراطور الدعوة الى بعض الامراء الذين كانوا بـرفقة غودفري لمقابلته ، وابتغى من وراء ذلك أن ينصّحهم بأن يحرضوا غودفري على تقديم يمين الولاء للامبراطور ، واضاع الامراء اللاتين - كما جرت عادتهم - الوقت كله بكلماتهم الجوفاء المعتادة ، وبولعهم بالقاء الخطابات الطويلة ، ولذلك انتشرت اشاعة كاذبة وراجت حتى وصلت الى الفرنجة ، و كان فحواها بأن الامراء قد اعتقلهم الكسيوس ، لذلك ما لبثوا أن ثاروا واخذوا يزحفون في صفوف متتالية نحو القسطنطينية ، مبتدئين بالهجوم على القصور القريبة من البحيرة الفضية (١٥) ، فدمروها تدميرا كاملا ، ثم هاجموا اسوارها لكن ليس بالمنجنيقات - ذلك انه لم يكن لديهم هذا السلاح - إنما بكتلهم اعتقادا منهم أنهم بأعدادهم الكبيرة يمكنهم اشعال النيران في البوابة التي دون القصر (١٦) على مقربة من مشهد القديس نيقولا (١٧) ولم يكن سواد العامة في بيزنطة ودهم الذين تولاهم الهلع ، نظرا لعدم معرفتهم بفن الحرب ، ولهذا ضربوا صدورهم وانتحبوا عندما راوا صفوف اللاتين ، بل استولى الرعب حتى على الجماعات القريبة من الامبراطور والشديدة الاخلاص له ، متذكّرين يوم الخميس الذي سبق وتم الاستيلاء به على المدينة (١٨) وكانوا يخشون أن يحل بهم في هذا اليوم الانتقام (١٩) بسبب ما حدث لهم يومذاك) وتسارع جميع الجنود المدربين نحو القصر في فوضى ، لكن الامبراطور بقي هادئا: فلم يحاول التسليح ، أو حتى وضع درع على جسمه ، أو حمل ترس أو رمح بيده ، أو اشهار سيفه ، بل جلس بكل هدوء وثبات على العرش الامبراطوري ، ينظر اليهم بوجه مشرق ، مشجعا اياهم ، وبأثا الروح العالية والطمأنينة في قلوبهم ، وكان الامبراطور في تلك الساعة مجتمعا مع اقربائه وكبار القادة للبحث والتشاور حول خطط المستقبل ، وقد أصر - بالدرجة الأولى - على أنه ينبغي ألا يغادر شرفات الاسوار لقتال اللاتين

حدة والتمزق سعة وذلك لانعدام الرابط الموثق ولتوفر الأهواء والمطامع .

لقد حضر مجمع نيقية حوالي ثلاثمائة من رجال الدين النصارى وترأس الامبراطور نفسه جلسات المجمع مع انه لم يكن معمداً وما زال وثنياً ، وأدان مجمع نيقية أريوس وقرر اعدام كتاباته ونفيه وملاحقة أتباعه ، وفعلاً نفي أريوس ، لكن ذلك لم يؤثر كثيراً على عقيدته ، فقد ظلت منتشرة في الشرق ، ومن الشرق سيتم نقلها إلى الشعوب الجرمانية في أوربة ، ونظراً لكثرة أتباع أريوس فقد قام الامبراطور عام ٣٢٧ م باستدعاء رجل الدين هذا من منفاه ، ولعل من دوافع الامبراطور لاتخاذ هذه الخطوة قوة أتباع أريوس في الشرق ، واعتزاه نقل العاصمة إلى القسطنطينية ، وهذا يعني أن الامبراطور قسطنطين كان على استعداد لتغيير ميوله الدينية المعلنة وذلك حسب الظروف الطارئة ، وحسب الحاجة السياسية وفي سنة ٣٣٤ عقد مجمع ديني جديد في مدينة صور وفيه تم نقض قرارات مجمع نيقية السالفة وأصدر العفو عن أريوس ، وتم حرمان اثناسيوس ونفيه ، وفي سنة ٣٣٦ توفي أريوس في القسطنطينية بشكل مفاجيء مما احزن أتباعه وجعلهم يعتقدون انه مات مسموماً ، ومما اثلج صدور خصومه فعندوا ذلك ضربة الهية حلت به ، ولم يلبث الامبراطور قسطنطين بعد أريوس طويلاً فقد توفي في العام الثاني أي سنة ٣٣٧ م .

وكان قبل وفاته قد قسم الامبراطورية بين ابنائه الثلاثة : قسطنطين الثاني ، وقسطنطيوس وقنسطنز ، وكان لهذا اثاره على الكنيسة فقد دعم كل واحد من هؤلاء كنيسة بلاده وجهها ضد كنيسة الآخر فدعم صاحب القسطنطينية الأريوسية حتى أيام امبراطور أورثيودوسيوس (٣٧٩ - ٣٩٥ م) فقد دعا هذا الامبراطور سنة ٣٨١ الى مجمع ديني عقد في القسطنطينية ، وفيه تم تحريم الأريوسية وملاحقة أتباعها والتكليف بهم في كافة انحاء الامبراطورية .

وعلى الرغم من الصراع الداخلي بين النصارى فقد حققت المسيحية في مدة وجيزة بعد قسطنطين انتصارا ساحقا على الوثنية الرومانية فتم الغاء هذه الديانة ومصادرة معابدها ، وكان لهذا النصر نتائج كبيرة استدعت تنظيم العلاقات بين الدولة والكنيسة ، كما تم تنظيم الكهنوت داخل الكنيسة ، واخذت الكنيسة في السعي لتأمين الموارد المالية لنفقاتها ، فقامت بحيازة الاملاك ونيل الامتيازات العظمى ففدت بعد فترة وجيزة غنية جدا تمتلك موارد هائلة ، وغالبا ما تم استغلال هذه الموارد لغايات فردية ومطامع ذاتية لبعض الكهنة ورجال الدين .

وفي هذا الوقت قامت الكنيسة باصدار دراسات لاهوتية دينية وسعت نحو استهواء المثقفين والمفكرين ، وبذلك قامت قواعد اللاهوت المسيحي ، واخذ هذا اللاهوت يحل محل التراث الفلسفي للعصور السالفة .

ولقد قمنا خلال حديثنا هذا كله بذكر البابوية في اكثر من مناسبة ، لذلك يحسن بنا القيام بالحديث عن هذه المؤسسة وذكر تاريخها بشكل منفرد .

تطلب التيار الانفصالي الذي اذساقته فيه الكنيسة قيام مؤسسة لاهوتية قوية في مكان استراتيجي له خلفية تاريخية لتقود عمليات الصراع ، فكان ان قامت البابوية في الغرب مستغلة الانفصام الحاد بين الشرق والغرب ، وقامت في روما عاصمة الامبراطورية العتيدة التي اختفى فيها عرش الامبراطور الاله ، فكان ان حل محله عرش الامبراطور الحبر الاعظم خليفة السيد المسيح .

لانملك من المعلومات ما هو مؤكد وواضح للتأريخ للعصور الاولى لاسقفية روما وكل ما نعلمه ان حواربي السيد المسيح ورسله انتشروا في الارض واستقر بعضهم في كبريات مدن العالم الروماني ، وهناك اسسوا قواعد كنائس ، ونظرا لندرة المدن الهامة في الغرب وكثرتها في الشرق فاننا نجد الكنائس المنسوبة الى الرسل في الشرق اكثر منها في الغرب وهي كنائس القدس وانطاكية

والإسكندرية ، ولم يوجد في الغرب الا روما وقد نازعها في البداية قرطاجة ، لكن كما تغلبت روما الوثنية على قرطاجة وقهرتها من قبل تغلبت كنيسة روما على كنيسة قرطاجة فانفردت في العالم الغربي وتفردت في نيل الزعامة ، وكان عليها أن تتصدى لكنائس الشرق وخاصة الكنيسة التي احدثت في القسطنطينية بعد اتخاذها عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية . وربطت كنيسة روما تاريخها بالقدس بطرس ، وكان اسمه الاصيل سمعان ، لكن روي أن السيد المسيح دعاه بطرس أي الصخرة ، وقال بأنه الصخرة التي سببنى عليها كنيسة الرب ، وعلى هذا اعطاه تفويضا بسيادة الأرض واعطاه أيضا مفاتيح السماء فجعله زعيما للرسول ومقدما عليهم جميعا ، لذلك فان كنيسته هي مقدمة على غيرها من الكنائس ورئيسها زعيم لجميع كهنة الديانة المسيحية في العالم .

إنما معظم هذه الحجج قد قدم بعد انتصار المسيحية وقيام الصراعات الداخلية فنحن لانملك إلا نادر المعلومات عن أساقفة روما في القرنين الأول والثاني لكن بعد قسطنطين أخذت المصادر تشير إلى بعضهم وإلى ما قاموا به من أدوار ومن هؤلاء داماسوس الأول (٣٦٦ - ٣٨٤ م) الذي صنف مؤلفا دافع فيه عن مكانة كرسي روما الكنسي وأكد فيه على زعامتها على سواها ، وفي أيامه ترجم الانجيل إلى اللاتينية ، ومن عهد خليفته سيركيوس (٣٨٤ - ٣٩٩) ترجع أقدم المراسيم البابوية التي وصلتنا وبعدهما اشتهر البابا ليو العظيم (٤٤٠ - ٤٦١ م) حيث تم في عهده الاعتراف بسيادة كنيسة روما على غيرها من كنائس الغرب .

وفي هذا الوقت قال أباطرة القسطنطينية بالمساواة بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية الحديثة واستمروا في عقد المجمع المسكونية لمعالجة هذه القضية ودعمها ففي مجمع خلقيدونية عام (٤٥١) أصر الأساقفة المشاركة على هذه المساواة ، في حين رفض مندوب البابا ليو ذلك واستشهد بقرارات مجمع نيقية في تقديم

روما على سواها ، ومع الأيام ازداد تمسك بابوات روما بدعواهم
ففي سنة (٤٥٥) اصدر الامبراطور فالنشيان الثالث إمبراطور
الغرب مرسوما يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب للبابا .

وقد زاد من مكانة كنيسة روما وتفرداها في الغرب ازدياد التجاء
الناس في الغرب إلى أساقفة هذه الكنيسة لفض الخصومات
واستئناف الأحكام الدينية للكنائس الأدنى ، وقد حازت كنيسة روما
ثروة كبيرة جدا ، وساعدتها هذه الثروة على التحكم وتنفيذ
مشاريعها الامبراطورية ، وأخيرا عندما سقطت الامبراطورية
الغربية عام ٤٧٦ م خلت روما إلا من البابا فتفرد بسلطانه .

وتحققت السيادة الفعلية لروما على كنائس الغرب في عهد البابا
غريغوري الكبير (٥٩٠ - ٦٠٤ م) وقد حدث هذا في وقت تعمقت
فيه الخلافات مع الكنيسة الشرقية حول تفسير طبيعة المسيح وعلاقة
عنصر الناسوت فيه بالعنصر اللاهوتي ، ففي سنة ٥٣١ م ادان
مجمع أفسسوس الآراء القائلة بفصل الطبيعة البشرية عن اللاهوتية ،
وقد تزعم رجال الكنيسة الجماعات القائلة بالطبيعة الواحدة مع أن
مجمع خلقدونية ٤٥١ م ادان مذهب الطبيعة الواحدة واخذ بالرأي
بوجود طبيعتين للمسيح ، وهو المذهب الذي سيعرف بالملكانية وقد
استمرت هذه المشكلة كينبوع دائم لمسائل الخلاف بين كنائس
الشرق والبابوية وكانت مشاكل الخلاف هذه مزية أساسية من مزايا
تاريخ العصور الوسطى .

الامبراطورية الرومانية والشعوب البربرية

لقد قمنا حتى الآن بفحص عدد من القضايا التي ساهمت في جلب نهاية الامبراطورية الرومانية وبالتالي ، نهاية العصور الكلاسيكية ، ومن ثم بداية العصور الوسطى ، وفي الحقيقة جميع ماتناولناه قد ساهم في جلب نهاية هذه العصور لكنه لم يقد بتسديد الضربة التي أجهزت على روما وأسقطت عرشها الامبراطوري ، لقد كانت شعوب أوربة البربرية هي التي عجلت بدنو نهاية العصور الوسطى ، وسددت الضربة القاضية إلى عرش روما ، فما هي قصة العلاقة بين روما والشعوب البربرية ، وما هو المقصود بلفظه بربرية ؟

كان الناس بالنسبة للرومان وقبلهم بالنسبة للاغريق يقسمون إلى قسمين : الشعب الروماني ، والشعوب البربرية ، ذلك أن الشعب الروماني عد نفسه شعبا متحضرا متقدما وما سواه أدنى منه مرتبة وأقل مكانة ، وقد رأى بعضهم أن لفظة بربرية تعني التوحش وعدم معرفة الحضارة ، والحقيقة ليس الأمر كذلك تماما إنما المرجح أن المقصود كان الشعوب ذات النظم القبلية والحياة البدوية ، فقد كانت أراضي الامبراطورية الرومانية كلها في أوربة وأسية وإفريقية محاطة بشعوب ذات نظام عشائري بدوي ، تكون لدى هذه العشائر الأسرة عادة النواة الأولى في المجتمع ، والأب هو سيد الأسرة وله حرية التصرف تجاه زوجته وأولاده ، حتى أنه كان يستطيع بيعهم أو تأجيرهم أو رهنهم ، وسيد الأسرة هو المسؤول بالوقت نفسه عن أسرته من كافة الوجوه ، وغالبا ما كان رب الأسرة يمارس صناعة الفروسية والصيد والقتال ويترك أمور تربية الماشية للنساء ، كما يترك أمور الزراعة إن وجدت للعبيد ، وعلى هذا فعمل العبيد هنا يختلف عنه لدى الشعب الروماني ، فالعبيد

لا يقومون بالخدمات المنزلية ، ذلك ان منزل البدوي لا يحتاج إلى خدمات كبيرة .

وتكون عدة أسر عشيرة ، وتكون عدة عشائر قبيلة ، وتكون عدة قبائل شعبا من الشعوب البدوية ، والسيادة في العشائر للأكثر شجاعة ونبلا وكرما وأريحية ، وسيد العشائر والقبائل هو مقدم بين مقدمين ، ولم تعرف الشعوب البدوية في مراحل حياتها الأولى مبادئ توريث الزعامة ، وعندما عرفت لها غدت الزعامة مرتبطة لابن ثروة أو أملاك إنما بعدد الاتباع والشجاعة ونبل المنحدر ، وشغل نبل النسب الدور الأعظم في تسهيل الوصول إلى الزعامة .

وكانت غالبية الشعوب البربرية وثنية ، لكن شعوب أوربية البربرية كانت تعرف الامبراطورية الرومانية كما أن الرومان كانوا يعرفون هذه الشعوب ويتعاملون معها ، وكانت غالبية الشعوب البربرية الأوربية من اصول جرمانية أو كلتية ، وفي الحقيقة لم يكن هناك خط واضح يفصل بين الشعوب البربرية وشعوب الامبراطورية الرومانية ، ففي القرن الرابع لم تفصل حدود الامبراطورية بين شعبها المتحضر والشعوب البربرية ، بل شملت الاراضي الرومانية بعض المقاطعات التي سكنت فقط من قبل شعوب بربرية مثل غاليا (فرنسا) وبريطانيا ، ونجد منذ القرن الرابع للميلاد مجموعات من المرتزقة من اصل جرمني تخدم في فرق الجيش الروماني العاملة والاحتياطية ، كما نجد عددا كبيرا من كبار ضباط الجيش الروماني كانوا من اصل جرمني ، وقد جاء النبلاء الرومان بأعداد من أفراد الشعب الجرمني ليعملوا في ممتلكاتهم كخدم ومستعمرين ، وعلى هذا كانت الحضارة الرومانية متغلغلة في عمق الاراضي البربرية وبعيدا عن الحدود السياسية للامبراطورية الرومانية ، وهنا علينا أن نتذكر أن العقل الروماني كان عقلا سياسيا ، لذلك فإنه رغم قربهم من عدد من البلدان البربرية بدرجات متفاوتة فإن الرومان لم يعملوا على تقوية هذه الحالة واستغلالها ، لادراكهم عجزهم عن القيام بحكم البلدان

البربرية ، والحقيقة أن عمليات رومنة الشعوب البربرية بشكل مكثف لم تتم من قبل السلطات الرومانية لكنها تمت فيما بعد على أيدي البعثات التبشيرية المسيحية .

ومن الملاحظ أنه في القرن الرابع كانت الشعوب الكلتية عبارة عن مجموعات ضعيفة وبقايا شعب كان في القرون الماضية قويا جدا تحكم بالأراضي الممتدة من وسط ألمانيا مع بلاد البلقان وحتى شواطئ المحيط الأطلسي ، وقد طور هذا الشعب حضارة متقدمة بعض الشيء ، فقد كان أفراد من هذا الشعب يحسنون صناعة المعادن والأسلحة وتحليلتها ، لكن على العموم نجد هذا الشعب في أيام غزو يوليوس قيصر لغاليا وبريطانية أضعف عسكريا من الشعوب الجرمانية ، ونتيجة لذلك فقد أزاحهم الجرمان من معظم أراضيهم شرقي نهر الراين وأجبروهم على عبوره ، وقد قامت روما:

في القرن الأول الذي سبق المسيح بغزو غاليا وبريطانيا ، وتمكنت روما من احتلال معظم أجزاء انكلترا وولز لكنها لم تتمكن من احتلال اسكوتلندا وايرلندا وفي إيرلندا انحصرت معظم بقايا الشعب الكلتي ، وقد دعا الرومان إيرلندا باسم سكوثيا لأن القرصان الاسكوتش مع الغزاة الاسكوتلنديين كانوا شوكة رعب في جنب المحتلين الرومان لبريطانيا .

ويبدو أن الكلتيين لم يطوروا نظاما سياسيا متقدما ، فقد بقي النظم لديهم هو الرابط العشائري والقبلي ، وكانت ديانتهم بدائية يعبد فيها عدد من القوى الطبيعية ولها طقوس معقدة يقودها رهبان يدعى واحدهم درويد ، ولم تعرف القبائل الكلتية الوحدة بل عاشت في صراع داخلي حربي دائم ، ولعل أهم ما قدمه الكلتيون للحضارة الوسيطة كان في مجال الخيال الأدبي والقصصي والشعري الخصب ، مع أدوات معدنية وزجاجية محلاة ومزينة بنقوش ، لكن الجانب الفكري أكثر أهمية فهو الأصل الأول لقيام قصص الملك آرثر والكأس المقدسة والطاولة المستديرة .

واهم من الشعوب الكلتية وأبعد خطرا في صنع تاريخ أوربة في العصور الوسطى هم الشعوب الجرمانية ، وأقدم مسكن معروف لهذه الشعوب هو الأراضي المحاذية للقسم الغربي للبحر البلطقي مع الأجزاء الجنوبية لشبه الجزيرة الإسكندنافية - أي شبه جزيرة جوتلاند كما عرفت في العصور الوسطى - والسواحل الشمالية للشاطئ الألماني وحتى نهر الأودر ، ومن هذه الأراضي انتشرت الشعوب الجرمانية نحو قلب أوربة ، ومع بداية عصر المسيح كانوا قد احتلوا معظم ما يعرف اليوم بألمانيا ، وقد أوقف زحف هجرتهم حدود الإمبراطورية الرومانية المحصنة وخاصة في المناطق الغربية والجنوبية ، ولكن في الجنوب الشرقي لم تكن هناك تحصينات مماثلة لذلك تغلغت أقسام من الشعوب الجرمانية إلى داخل الأراضي الرومانية ، وقد تمكن الجناح الشرقي للشعوب الجرمانية من عبور المناطق المدعوة الآن ببولندا وأوكرانيا حيث احتل السهوب الواقعة إلى شمال البحر الأسود ، وفي القرن الرابع للميلاد واجهت الشعوب الجرمانية الإمبراطورية الرومانية من لدن نهر الراين حتى نهر الدون ، ففي المناطق المنخفضة للأراضي المجاورة لهذا النهر استوطنت قبائل الفرنجة ، وفي المناطق العليا القبائل الألمانية ، وفي بوهيميا وجدت قبائل المراكوني ، في حين احتل الوندال السهل الهنغاري ، ومن هناك وحتى نهر الدون عاشت شعوب القوط وخلف الفرنجة وجدت الشعوب الساكسونية وفي شبه جزيرة إسكندنافيا وجدت أصول الفايكنغ والإنكليز ، وإلى الشرق من الساكسون وجدت قبائل اللومبارد .

ونحن حين نذكر أسماء مثل الفرنجة والساكسون فأننا لانعني قبائل بل مجموعات كبرى من القبائل كانت متشابهة في العادات والنطق ، ولكن يبدو أن الشعوب الجرمانية قبل أن تشرع في هجرتها كانت لا تختلف عن بعضها بعضا في اللغة أو العادات ، إنما بعد الهجرة قامت مجموعات مختلفة متميزة لغويا وثقافيا واجتماعيا تبعا للبيئة والظروف التي وجدت نفسها بها ، وتضخمت هذه الفوارق وظهرت واضحة في القرن الرابع

للميلاد ، وبدأت بشكل واضح بين الشعوب الجرمانية الشرقية والشعوب الغربية ، فالسكسون والفرنجة واللمان تحركت جموعهم جنوبا ، وكانت المناطق التي استقرت بها مجددا مشابهة لمواطنيها السلاف ، وقد ظلوا على اتصال بالشعوب الانكليزية من الجوت (اجداد الفايكنغ) الذين لم يهاجروا لكن اللومبارديين والوندال والقوط هاجروا نحو مناطق تختلف عن بلدان شمال شرقي اوروبا ، فالأراضي الواقعة في شمال البحر الاسود مع هنغاريا هي سهوب رعوية وحين جاءت الشعوب الجرمانية الى هذه المناطق غدت شعوب فرسان واصحاب قطعان للرعي ، وكانت هذه المناطق مع سهوب جنوبي روسيا عبارة عن أراضي تفصل بين المزارع السلافية والمستعمرات الاغريقية على البحر الاسود وشعوب اسية البدوية ، وكانت تعرف الغزو الدائم ومسكونة من قبل مجموعات متباينة من الاجناس ، وعندما هاجر إليها القوط تمكنوا من قهر جميع الشعوب فيها والسيطرة عليها ، لكنهم أي القوط لم يتوطنوا ، كمستعمرين بل كانوا عبارة عن اقلية عسكرية تحكم اكثرية متباينة في كل وجه .

وكان الحال في القرن الرابع أن الشعوب الجرمانية المجاورة للحدود الرومانية كانت تقوم بالالاغارة على احدى المقاطعات الرومانية فتهزم حرس الحدود وتتوغل داخل الأراضي الامبراطورية وتظل تقوم بأعمال السلب والنهب حتى قدوم نجدات من الجيوش الرومانية التي تقوم بدحرها ومصادرتها ، ومن جهة ثانية كانت شعوب الجوت والانكليز تتركب البحر وتغير على السواحل الرومانية ، ولمعالجة هذه الأعمال الخطرة قامت روما بتقوية حدودها وحصونها ، وباستئجار أعداد من المحاربين الجرمان كمرتزقة في جيوشها للعمل ضد بني جلدتهم لدفعهم عن الأراضي الرومانية ، وهكذا أصبحت حدود الامبراطورية من الجانبين مقطونة بقبائل جرمانية ، وعلى العموم كان أخطر الشعوب الجرمانية على روما هم القوط ، ولقد انقسم القوط الى القوط الغربيين والقوط الشرقيين ، وقد طور القوط نظاما سياسيا متقدما

على بقية نظم الشعوب الجرمانية ، وعاش القوط الغربيون على طول شواطئ الدانوب والشرقيون قامت لهم دولة امتدت املاكها من نهر الدنستر حتى الدون ، وكان القوط يتحركون تحت قيادة ملوكهم ، وفي القرن الرابع كان القوط على اتصال بالامبراطورية ، وقد قام العديد من النبلاء القوط بزيارة القسطنطينية حيث تعلموا الكثير من العادات والتقاليد الرومانية في الحياة والمعيشة. وفي منتصف هذا القرن بدأ القديس اوليفلا الذي قدم من القسطنطينية بتحويل القوط الى المسيحية ، وكانت البعثات التبشيرية التي تولت هذا العمل تتبع المذهب الأريوسي لذلك غدت الشعوب الجرمانية تدين بالنصرانية ، لكن تبعا للعقيدة الأريوسية المعادية لعقيدة البابوية .

لقد كان للقوط الشرقيين الآن جبهات ثلاث ، ففي الجنوب كانت المواجهة مع الامبراطورية الرومانية ، وفي الشمال وجد بحر البلطيق وشعوب الصقالبة (السلاف) واخيرا في الشرق وجدت شعوب اسمية الوسطى البدوية ، وفي القرن الرابع كانت الأراضي الشرقية هذه مقطونة من قبل شعوب اسميوية ضعيفة ، دعيت باسم اللان ، لكن في حوالي سنة ٣٧ تدفقت من داخل اسمية موجات من شعوبها التركية المغولية وكانت هذه الشعوب ذات اعداد وفيرة ومقاتلة من الطراز المرعب ، وقد عرفت باسم الهون ، وفور تدفقها اجتاحت شعوب اللان وأتت لمواجهة القوط الشرقيين .

ان المعلومات المتوفرة عن المؤسسات السياسية لدى الشعوب الجرمانية الغربية قليلة ، ويبدو انهم كانوا يديرون امورهم ببساطة متناهية فقد كان هناك محاكم عامة فيها يتم فض القضايا ، وقد ترأس كل مجموعة منهم مقدم ، وكانت اهداف انظمتهم القضائية احلال نوع من النظام محل الاعمال الفردية في الاقتصاد الناري ، فاذا ما جرح انسان اخر قام المصاب بتقديم شكوى للمحكمة ، وتقوم المحكمة بدعوة الجاني للمثول امامها واذا لم يفعل ذلك اعتبر خارجا على القانون ، وهنا صار بإمكان المجني عليه

الانتقام وغدا ذلك مخول له قانونيا ، وفي حال امتثال الجاني أمام المحكمة يستطيع تبرئة نفسه اذا جاء بعدد من الشهود يشهدون بعد اقسامهم الايمان انه لم يقترب جرما ، لكن اذا أخفق في البرهنة على براءته كان عليه أن يدفع الدية تبعا لتعريفه ثابتة ، وطبعاً اختلفت هذه التعريفات تبعا لنوع الجريمة والناس المتورطين بها .

وكانت وظائف الرئيس أيام السلم قليلة لاتتعدى رئاسة المحكمة ، ذلك انه وجد بالأصل ليقود جماعته وقت الحرب ، وعندما كان يعزم مقدم جرمانى على القيام بحملة ما ، كان يدعو شجعان قومه لكي يصاحبوه في مغامرته ، وكان هؤلاء يقسمون على خدمة رئيسهم بصدق وذلك مقابل تزويده إياهم بالأسلح والطعام والخياب وبجزء من الغنائم ، وعرفت مجموعات المقاتلين بأسماء مختلفة تبعا لحجمها ونوع تسليحها ، ومهمتها ، وغالبا ما احاط بكل رئيس حاشية خاصة كانت تصحبه في كل حل وترحال ، وكانت تقوم بوظيفة حرسه الخاص اثناء الحملات الكبيرة .

وفي العصر الحديث قام عدد من الباحثين بوصف الشعوب الجرمانية بأنها كانت شعوبا ديمقراطية ، وهذا الوصف قام على ادراك لبعض العناصر الديمقراطية الاولى لدى هذه الشعوب ، ولكن اطلاقه بشكل عام يمزج بين حالتين وهما : الحكومة الديمقراطية ، وفكرة ان الفرد يتمتع بحقوق لاتستطيع أية حكومة انتزاعها منه ، ومعروف ان الديمقراطية تعني حكم الشعب ، ومع ذلك نجد حكومات ديمقراطية تحد من حقوق الأفراد بشكل كبير يفوق ما تقوم به بعض الحكومات الاوتوقراطية ، وفي الوقت نفسه قد نجد حكومة هي ليست ديمقراطية لكنها تعتقد بأنه محرم عليها اغتصاب حقوق الأفراد وظلمهم ، وبدون شك ان الفصل في الخصومات في محكمة شعبية عامة لدى الجرمان كان عملا ديمقراطيا ، لكن عدم اعتراف القانون بالمساواة بين الجميع لم يكن ديمقراطيا .

وغالبا ما انتخب المقاتلون الجرمان رئيسهم ومقدمهم من بين صفوفهم ، لكن الاختيار كان في كثير من الاحيان يتم من بين افراد

الأسر النبيلة بيد أنه لم توجد لدى الجرمان قواعد ديمقراطية لمحاكمة الرئيس ومشاركته في اتخاذ قراراته ، ولهذا لا يجوز أن نحمل بعض العناصر الديمقراطية البسيطة في المجتمع الجرمني أكثر مما تحتمله حقا ، ولم يوجد بين الجرمان حكومات أو لوائح لها بين شعب بدوي لا يعرف الاستقرار والتجمع الكثيف في مكان واحد ، وعلى العموم كان الفرد الجرمني يتعشق الحرية ويكره أن يتدخل أحد في شؤونه ، وحين كان ينفذ أمرا أصدر إليه من مقدمه كان لا ينفذه طاعة بل إدراكا أن ذلك لمصلحته هو كفرد من مجموعة متماسكة ، ولا شك أن حب الحرية هذا كان له أثره البعيدة على تطور الحضارة والنظم في أوربة الغربية .

وكان بعض مقدمي الجرمان قد نال لقب « ركس » أي ملك من الامبراطورية الرومانية وعلى الأخص أولئك الذين كانوا في خدمة الامبراطورية ، أو تدفع لهم المبالغ مقابل خدمات ، وعندما عم وجود هذا اللقب بين الزعماء الجرمان فإن أولئك الذين لم تمنحهم روما هذا اللقب قاموا بمنحه لأنفسهم ، ولم يكن الملوك كلهم سواء في الواقع ، فواحد منهم قد يكون زعيم عصابة من المقاتلين حجمها متفاوت وآخر قد يكون ملكا لدولة قوطية كبيرة ، ومن الجدير بالأهمية أن نتذكر بأن العالم الروماني القديم قد عرف كلمتين نقوم الآن بترجمتها ترجمة متساوية بمعنى ملك وهما ركس وبازليوس وقد اعتاد الرومان منح لقب ركس لكل زعيم غير روماني قاموا بمنحه منصبا مع بعض الصلاحيات، لكن لفظة بازليوس كانت تعني ملكا عظيما له مكانة سامية مقدسة ، إنها كانت تعني الامبراطور لذلك لم يطلقها الرومان على أحد غير أباطرتهم ، ويمكن القول بكلمة موجزة أن لفظة ركس بين الجرمان عنت مقدما وظيفته الأساسية القيادة في الحرب.

واعتمدت الشعوب الجرمانية في حياتها على الزراعة والقتال وكانت الوحدة الزراعية هي سكان قرية ما ، كما أن الوحدة القتالية كانت هي عصابة واتباع مقدم ما ، ومن المعتقد أنه وجد لدى

الجرمان في قراهم نمطين للعمل الانتاجي الزراعي ، فالأول أن الانتاج تم بإدارة القرية من قبل مقدم من المقدمين أشرف على عمال جميعهم كانوا أرقاء ، والثاني أن القرية كان يتم فيها الانتاج من قبل مجموعة من الرجال الاحرار العاديين ليس لهم مقدم أو ليس متسلطا عليهم أحد المقدمين ، وكانت الأراضي الزراعية للقرية تجعل في قسمين يزرع أحدهما هذا العام ويترك الآخر ليزرع في العام التالي ، ويترك الأول ليسترد خصوبته ، وفي القرى التي أديرت من قبل الرجال الاحرار تم توزيع الأراضي بشكل متساو بين الاسر في حين تركت المراعي والغابات مشاعا دونما توزيع ، وعاش الناس في القرية متجاورة بيوتهم ومحاطة بأراضيهم الزراعية وفصلت كل قرية عن الأخرى بغابة كبيرة ، وعلى هذا يمكن الافتراض أن القرى وأراضيها الزراعية تم انتزاعها من الغابات والاحراش التي كانت تغطي أوربة البربرية

ومن الملاحظ أن الجرمان في القرن الرابع أولوا القتال عناية أكبر من الزراعة ، ذلك أنه كان أسهل أن يحصل المرء على قوته بنهبه في ساعات من أن يتعب طوال العام ويشقى من أجله ، ولقد كانت الغارات على الأراضي الرومانية مربحة وممتعة في الوقت نفسه وكان أفضل من هذا أن يخدم الانسان كمرتزق في الجيش الروماني ليسرق في رعاية القانون .

ويبدو أن القوط الشرقيين عاشوا في دولتهم في جنوب روسيا كمنتصرين عسكريين كان على رعاياهم تأمين كل احتياجاتهم ، ولقد كانت رغبة العيش بدون عمل دافعا أساسيا للجرمان في هجر مواطنهم وعبور الحدود الرومانية ، فلقد كان العيش في مواطنهم صعبا للغاية ، والحياة قاسية ، والصراع بين القبائل على أشده ، في حين أن الطرف الثاني من الحدود كان فيه مزارع متطورة خصبة وبلدان مزدهرة ، وإذا ما تمكن انسان من عبور الحدود كان في أسوأ الظروف يستطيع العيش من أعمال النهب ، وفي أحسنها السيطرة على قرية مسالمة وإدارتها والتصرف

بها والاستبداد بأهلها ، وعلى هذا لم تطمح الشعوب الجرمانية نحو إسقاط الامبراطورية الرومانية وكل ما أرادته مقاسمتها ثرواتها .

إن عمليات جرمنة المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية مع رومنة الشعوب الجرمانية التي سارت بببطء وانتظام في القرنين الثالث والرابع وميزات هذين القرنين ، قد ازدادت سرعتها في القرن الخامس ، والحق أن ذلك ابتداء فعلياً بعد سنة ٣٧٠ م بفضل الانقضاء الهوني على القوط الشرقيين ، واستمرت عمليات تدفق الجرمان على الأراضي الرومانية نتيجة لهذا المحرض وبالسّعة المتزايدة نفسها لمدة قرنين تقريباً ، وكانت مناحي الهجرة بشكل عام جنوبية أو غربية ، ولقد دخل الجرمان الأراضي الرومانية تحت ظل أحوال مختلفة وأسباب متنوعة لا بل متباينة ، ففي سنة ٣٧٦ م طلب القوط الفارين من وجه الهون الذين انقضوا عليهم عبر المنفذ الواقع بين جبال أورال وبحر قزوين ، طلبوا بالحاح ورجاء من الامبراطور الروماني فالنز (٣٦٤ - ٣٧٨ م) أن يشملهم بحمايته وراء حدود امبراطوريته المحصنة ، وقد استجاب لطلبهم وسمح لهم رغبة في الاستفادة منهم لحماية حدود امبراطوريته من الهون ، وكان عدد الجرمان الذين اجتازوا الحدود عبر نهر الدانوب حسب بعض التقديرات يفوق المليون ومائة ألف محارب ، وقد أحدثت هذه الهجرة ردات فعل عنيفة داخل الامبراطورية حيث لم يخلد هؤلاء المحاربون الى الراحة بل أخذوا يذشطون في أعمال السلب والنهب ، وعندما حاول الامبراطور وضع حد لهذا النشاط هزموه وذبّحوه ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن جميع الشعوب الجرمانية شقت طريقها عبر الحدود الرومانية بأشكال سلبية أو نصف حربية فوضوية اللهم إلا بالنسبة للإنكلو - سكوت والوندال فهؤلاء دخلوا المقاطعات الرومانية كغزاة بكل مآتعيه الكلمة ، وشقوا طريقهم بالحرب كفاتحين عسكريين .

وفي القرن الخامس صار الحال أننا بتنا نجد معظم المقاطعات الرومانية الغربية مدارة من قبل ضباط من أصل جرمانى يقودون

عساكر جرمانية وقد اعتبر بعض هؤلاء مثل الوندال والانكلو - سكسون انفسهم اعداء للامبراطورية ، في حين اعتبر بعضهم الآخر نفسه حليفا لروما ، وكان جل هؤلاء من القوط . ذلك ان ثيود سيوس العظيم (٣٧٨ - ٣٩٥ م) خليفة الامبراطور فالنز تصالح مع القوط وتحالف وسمح لهم بالاقامة في عدد من الاقاليم واعفاهم من الضرائب مقابل تأديتهم الخدمة العسكرية وكان السماح مقدمة لاستيلائهم على عدد من المقاطعات الرومانية وبالتالي إقامة مؤسسات ملكية فيها ، ولهذا يمكن القول بأن الممالك الجرمانية ظهرت لأول مرة داخل الاراضي السالفة حيث عاش الجرمان المهاجرون فيما سلف تحت ظل القانون والنظام الروماني ، اما الآن فقد عاشوا تحت ظل قانونهم الخاص ، ولهذا يعتبر بعض الباحثين أن العصور الوسطى بدأت فعليا في هذا القرن . وبعد وفاة الامبراطور ثيود سيوس كان الذين اعتلوا عرش روما الغربي عبارة عن شخصيات ذات وقع اسمي لاحكم فعلي لتحكم الضباط الجرمان فيهم ، وفي اوائل القرن الخامس سعى قائد اسمه ستليشوبوساطة جيش جنده من الجرمان وحتى من الهون ، سعى عبثا نحو منع الوندال من تخريب مقاطعة غاليا ، ومنع القوط الغربيين المستقرين قرب البحر الادرياتيكي من دخول ايطاليا ، ولقد قتل اثناء مسعاه هذا ، وقام الوندال بعبور ايطاليا الى غاليا واثناء عبورهم نهبوا روما ، وتابعوا سيرهم من فرنسا نحو اسبانيا حيث جرفوا الوندال امامهم ، ولقد احتل القوط الغربيون اسبانيا مع جنوب فرنسا وتمكن الوندال من العبور الى شمال افريقية حيث تملكوها من اسيادها من الضباط الجرمان . ومع حلول عام ٤٩٠ كانت ايطاليا في حوزة القوط الشرقيين وكانت اسبانيا مع جنوب فرنسا بيد القوط الغربيين وكان الوندال يملكون سواحل شمال افريقية .

وكانت اعداد هذه الشعوب البربرية قليلة نسبيا لذلك نجدهم لا يتركون اثرا دائما مستمرا في الاماكن التي حازوها ، وسبق ان اشرنا الى ان كل من القوط الشرقيين والغربيين كانوا على معرفة بالحضارة الرومانية ومتأثرين بها وذلك قبل دخولهم اراضي

الامبراطورية الرومانية الغربية ، وعلى الرغم من أنهم نادرا ما انقادوا لأوامر السلطات الرومانية وكثيرا ما حاربوا جيوش روما فانهم ظلوا يعتبرون انفسهم حلفاء الرومان ، وقد مارس القوط كلا الدورين في مناسبات كثيرة ، من ذلك - كما راينا في سنة ٣٧٨ م هزموا جيشا رومانيا قاده الامبراطور فالنز وفتكوا بالامبراطور نفسه ، ونقيض هذا انه في سنة ٤٥١ م قام القوط الغربيون بالاندماج في الجيش الروماني لشمال غاليا مع مجموعات من الفرنجة ، وقد عملت هذه القوات ضد أتيل ملك الهون (- ٤٥٣ م) الذي كان يغزو غاليا آنذ .

وقد عولت الجيوش القوطية في عيشها في ممالكها داخل الأراضي الرومانية على نتاج الأراضي الزراعية ، وكان على كل مالك أرض محلي ان يؤدي قسما من منتوجاته لأحد المحاربين القوط مع أسرته ، ولقد ادعى ملوك القوط انهم وكلاء للامبراطور الروماني وكانوا يظهرون عظيم البهجة والسرور عندما كانت روما ترسل لأحدهم لقبا ما يدل على التوكيل والمشاركة في الحكم ونبل المنزلة والتقدير ، ومعلوم ان القوط حين دخلوا أراضي الامبراطورية الرومانية كانوا يدينون بالمسيحية حسب العقيدة الاريوسية وهي مخالفة لعقيدة رعاياهم ، كما كانت لهم أعرافهم وقوانينهم الخاصة بهم ، ولهذا فقد حكم القوط بعد هجرتهم تبعا لقوانينهم الخاصة وتركزت المقاطعات الرومانية تدار وفقا لقواعدها السالفة ، ولقد عد الرهبان الكاثوليك القوط هراطقة ، وعلى العموم كان ملوك القوط في غاية التسامح عينوا عددا بسيطا من رجال الدين الاريوسيين ، وتركوا البقية العظمى في يد الرهبان الكاثوليك ، ومع ذلك لم تكن الكنيسة الرومانية لتستكين في ظل حكم هرطقي وهذا مما عقد الأمور .

لقد دمرت هجرة القوط والوندال امبراطورية روما الغربية بشكل فعلي ، كل هذا رغم ان الامبراطور الروماني الشرقي جستنيان الذي حكم في القسطنطينية من ٥٢٧ الى ٥٦٥ كان قد نجح في

القضاء على كل من الوندال والقوط الشرقيين واسترد قسما من جنوب اسبانيا من القوط الغربيين ومعلوم ان خلفاء جستنيان اعوزتهم المصادر والظروف فعجزوا عن الاحتفاظ بمكتسبات جستنيان ، وفي سنة ٥٦٨ م حدثت هجرة جرمانية جديدة هي هجرة اللومبارديين الذين استولوا على ايطاليا ، ومع نهاية القرن السادس نجد امبراطورية القسطنطينية تحكم صقلية مع اجزاء من ايطاليا بينها روما ورافينا والبندقية فقط ، والبقية من اراضي ايطاليا كانت في ايدي اللومبارديين .

انه لمن الامور الشديدة الصعوبة أن نستطيع تقدير اثار هجرة الجرمان على البلدان الغربية الواقعة في حوض البحر المتوسط وخاصة من النواحي الاقتصادية ، وهذه مسألة ما تزال تثير جدلا كبيرا بين الباحثين ، فبعض من هؤلاء يرى ان هذه المقاطعات كانت قبل ان يتدفق عليها الجرمان بأعداد كبيرة في احوال تفقر وسير في دروب الفقر والانحطاط وكل ما صنعه الجرمان هو انهم عجلوا بالوصول الى الانحطاط والفقر والعزلة الاقتصادية ، لكن من المؤكد ان هذا التعجيل كان حاسما فالتخريب الذي سببته أعمال الحرب بين الفئات الجرمانية المتناحرة ثم بين الجرمان والجيوش الرومانية لا بد انه كان هائلا ، وكانت اثاره على الاحوال الاقتصادية والاجتماعية والحضارية اهل ، ففي احوال السلم وعندما كانت الامبراطورية الرومانية في أوج عظمتها وجدت من المتعذر القضاء على القرصنة وقطع الطرق ، وكان لهذا الانعكاسات الكبيرة على المواصلات التجارية والثقافية ، ومع حالة الفوضى وانعدام الأمن الذي كان من حصاد هجرة الجرمان توقفت التجارة لأنه لم يعد هناك من يتجرا على نقل البضائع ثم ان الثروات والأموال تبذرت في الغرب فلم يعد هناك من يمكنه الشراء .

ومع هذا لم يتدمر كل شي دفعه واحدة ففي القرن الخامس كان مايزال في المقاطعات التي احتلها البرابرة بعض النبلاء الرومان يعيشون في قصور ظلت مراكز للثقافة الكلاسيكية ، لكن هؤلاء

النبلاء كانت اعدادهم قليلة وكان عليهم ان يعاشروا رجال القوط المتخلفين الذين كانوا لا يقيمون وزنا لما لديهم من ثقافة وحضارة ، هذا وان الدمار الذي نجم عن تحركات الجيوش الجرمانية كان ابلغ من كل تقدير ، فروما نفسها عاصمة الامبراطورية القديمة ومركز العالم الروماني نهبت مرتان من قبل الجموع البربرية ، مرة بشكل بسيط من قبل القوط الغربيين اولا ثم بشكل رهيب من قبل الوندال سنة ٤٥٥ وبنستدل من كتابات شهود عيان ومعاصرين ان هاتين الحادثتين قد هزتا العالم الروماني بشكل عنيف جدا ، وعلى هذا نجد ان الامبراطورية في الغرب في نهاية القرن الخامس قد تمزقت سياسيا واقتصاديا وثقافيا وانحطت مكانتها الى الحضيض .

لقد نجت مؤسسة رومانية غربية واحدة من الدمار وعاشت لتقوم بدور عظيم جدا في صنع احداث تاريخ اوربة في العصور الوسطى ، الا وهي الكنيسة الكاثوليكية ، ذلك ان قادة الجيوش الجرمانية برغم عدم كاثوليكيتهم احترموا الكنيسة وصانوا ممتلكاتها ورجالها ، مدركين ان ذلك انفع لهم وسهل عليهم التحالف مع الكنيسة واستغلالها خاصة بعد اندثار روما ومؤسساتها على ايديهم ، وساعد تطور الاحوال اسقف روما على التقدم بين اساقفة الغرب والانفراد بالعاصمة الامبراطورية التي خلت من عرش امبراطورها ، فعندما احتل اللومبارد وسط ايطاليا حالوا بين نائب الامبراطور البيزنطي المقيم في رافينا وبين متابعة ادارة شؤون روما ، وهكذا صار اسقف روما حاكمها المدني وحاكم ما انضاف اليها من ضواحي ، وهكذا عاشت الكنيسة وكسبت مع مرور الأيام القوة والسمعة والشهرة .

ومن الملاحظ اننا في حديثنا عن الامبراطورية الرومانية واثار الشعوب الجرمانية عليها اوقفنا حديثنا على ما جرى في مقاطعات الغرب الاوربي الواقعة في حوض البحر المتوسط وبذلك اهلنا بعض مقاطعات الامبراطورية النائية مثل حدود الراين وشمال غاليا

وبريطانيا علما بان هذه المقاطعات ساهمت بنصيب اوفر في صنع التاريخ الاوربي الوسيط ولعلنا فعلنا ذلك لان دور هذه المقاطعات في صنع التاريخ الروماني كان هامشيا مثل مواقعها .

فعندما كان على الجيش الروماني الدفاع عن اراضي الامبراطورية الكائنة في الحوض المتوسط سحب فرقه التي كانت مرابطة في بريطانيا وغاليا للتصدي للوندال والقوط ، وهذا اتاح السبيل امام الاقوام الجرمانية التي كانت داخل الحدود الرومانية وتعمل لحساب روما للدفاع عن حدودها ضد بني جلدتها الجرمان ، فاتيح امامها السبيل للتوغل داخل الاراضي الرومانية ، فقد جاء الالمان الى الوسط الشرقي لغاليا واستقروا فيه ، واحتل البيرغنديون وادي الرون ، وتحالفت قوى غاليا المختلفة عام ٤٥١ م فتمكنت من منع الهون من احتلالها .

وفي سنة ٤٨٦ قام كلوفس الذي كان من قادة الفرنجة ، وكان عسكريا ناجحا وسياسيا بارعا ، قام بالتوسع داخل غاليا على حساب غيره وذلك بعدما تحالف مع الكنيسة الكاثوليكية وتزوج من احدى الاميرات الكاثوليكيات ، واثناء توسعه تخطى مع اتباعه عن الاريوسية وعمد كاثوليكيًا ، وهكذا غدا كلوفس حامي الكاثوليكية والمدافع عنها ، ويروى انه اخذ على نفسه عهدا الا يبقى في غاليا من يعتقد الاريوسية وهكذا وبهذه العلة تمكن كلوفس الذي كان يحمل اللقب الروماني ركس من السيطرة على معظم اجزاء غاليا ، وغدت فرنسا الحصن الحصين للكاثوليكية .

وكمنت قوة الفرنجة في كون موطنهم الاصلي كان قريبا من غاليا التي هاجروا اليها ، على ان الاعداد التي دخلت منهم مهاجرة الى غاليا لم تكن كبيرة نسبيا ، ويبدو ان غالبيتهم - اي المهاجرين - استقرت في المناطق الواقعة شرقي باريس والى الشمال الشرقي منها ايضا وكانت هذه الاراضي مهجورة غير مستعملة ، فاقاموا فيها عدة قرى جديدة ولم يوجد الى الغرب من باريس مثل هذه القرى ولا ايضا في جنوبي اللوار، على انه برغم طبيعة اعداد الفرنجة

في فرنسا ، فانهم غدوا حكام غاليا السياسيين والعسكريين ، وحاز الموظفون لدى ملوك الفرنجة مع رجالات هؤلاء الملوك ممتلكات لنفسهم وامتزجوا بطبقة الارستقراطية الغالية - الرومانية لكن تأثيرهم على الأسس والقواعد الثقافية كان قليلا ، فقد استمر الفلاحون يحرثون حقولهم كما فعلوا في الماضي ، وتكلم هؤلاء لغة عامية خاصة انحدرت من اللاتينية ، وهذه اللغة هي التي ستكون ماسي يعرف فيما بعد باللغة الفرنسية ، وحكم النبلاء الفرنجة في المدن التي استولوا عليها بجانب إساقفة الكنييسة ، لكن الفرنجة لم يدخلوا أية تعديلات على التقسيمات الادارية القديمة ، والفارق الجوهري بين دولة الفرنجة وبقية دول الشعوب الجرمانية من وندال وقوط شرقيين وغربيين هو ان الفرنجة احتفظوا بالشعوب التي قهروها ، وهكذا أقاموا مملكة جرمانية على قواعد رومانية - غالية .

واذا ما تركنا غاليا ومضيئنا نحو بريطانيا نجد انه ليس لدينا تاريخ مؤكد يحدد وقت انسحاب الجيوش الرومانية من الجزيرة البريطانية ، وفي العادة يقال بأن ذلك كان عام ٤٠٧ ، لكن مهما يكن الحال فان تاريخ هذه الجزيرة منذ هذا التاريخ وحتى القرن السابع هو في غاية الغموض ، ويبدو انه إثر انسحاب الرومان قامت مجموعات اسكوتلندية من جزيرة ايرلندا بالاستيلاء على بريطانيا وأقامت مملكة حكمتها مع ايرلندا أو حكمت جزءا منها مع ايرلندا ، لكن خلال ذلك الوقت لم يتوقف الجرمان عن الاغارة على السواحل البريطانية وأخيرا جاءوا اليها مهاجرين للاستقرار، وعلى العموم كان سكان بريطانيا في العصر الروماني يقطنون الأماكن المرتفعة ويتبعدون عن وديان الأنهار والأراضي المستنقعية مع الغابات ، وعندما جاء المهاجرون الجرمان الى بريطانيا قدموا من مواطن عاشوا فيها في قلب الغابات لذلك وجدوا الأراضي غير المقطونة في هذه الجزيرة مثالية وموافقة لمزاجهم وعاداتهم فاستعمروها ، ولاشك ان بعض المهاجرين قطن في أماكن كانت مستعمرة وقد تم التمازج بين المهاجرين والسكان القدامى احيانا

سلاميا واحيانا أخرى بعد صراعات طويلة ، ورويدا رويدا انتصر
الجرمان ، وفي الربع الأول من القرن السابع كانت غالبية اجزاء
انكلترا في ايديهم ، وقد جاء غزاة بريطانيا مما يعرف الآن باسم
الدانمـارك ومن جنوب المانيا ، وقد دعوا انفسهم
بالانكليز ، والساكسون والجوت وكانوا متقاربين باللغة والعادات
والتقاليد ، وليس من النافع الحديث عن كل واحد من هذه الشعوب
انما تكفي الإشارة اليهم بشكل مجمل وذلك باسم انكلو -
سكسون ، ولقد كانت سيطرة هذه الشعوب على انكلترا اوفى واكثر
عمقا من هجرات بقية الشعوب الجرمانية الى المناطق المختلفة من
اوربة ذلك انهم ازالوا الشعوب البريطانية بالقتل والاستعباد
والتهجير ، وانكلترا الجرمانية زرعت اراضيها من قبل المهاجرين
الجرمان ، وهذا امر لم يحصل في بقية الاراضي الاوربية التي هاجر
اليها الجرمان وحتى انه لم يبق في اجزاء بريطانيا الاخرى عدا
انكلترا ، حيث ان الجرمان كانوا فاتحين عسكريين يحكمون شعوبا
مقهورة وعلى العموم لم يدمر الانكلو - سكسون سكان انكلترا
البريطانيين فحسب بل ازالوا كل معالم الحضارة الرومانية من
بريطانيا وهذا امر لم يحصل في بقية اجزاء اوربة الرومانية التي
احتلتها الشعوب الجرمانية ، وكان حال بريطانيا في القرن السابع
انها غدت مقسومة بين الكلتيين والجرمان .

ان ما قمنا به حتى الآن هو البحث في الاصول الكلتيية والجرمانية
والرومانية التي كون تمازج تراثها تاريخ اوربة في العصور
الوسطى ، لكن عمليات هذا التكون التمازجي لم تمر بسلام ووقت
قصير ، بل عبر عصور اشتد فيها الصراع وتعاضلت ابعاده
وصوره ، وكانت الخليطة الناتجة هي ماندعوه عادة باسم حضارة
العصور الوسطى ، وعلى هذا فإن القانون الروماني أخذت مؤثراته
تظهر على التفكير الاوربي منذ القرن الحادي عشر ، والمؤثرات
الكلتيية الحضارية أصبحت مهمة منذ القرن الثاني عشر ومؤثرة على
الثقافة الجرمانية ، وعليه إن على القارئ الذي يود التعرف الى ما
حدث في تاريخ العصور الوسطى ان يكون متمتعا بعظيم الصبر أثناء

دراسته لأصول هذا التاريخ ، وبديهي أنه بدون فهم هذه الأصول على شدة تعقيدها لا يمكن استيعاب أية قضية من قضايا التاريخ الوسيط .

لقد غيرت هجرة الشعوب الجرمانية الوضع الجغرافي والزراعي والاقتصادي للعالم الأوربي ، كما زلزلت التوازن العسكري في أوربة.

وفي الوقت الذي تمكن الجرمان فيه من احتلال المقاطعات الغربية للامبراطورية الرومانية ، فإنهم لم يتعدوا طور الاحتلال الى التغيير البشري والعرقى ، فلقد كانت اعدادهم قليلة ، لذلك كان حالهم حال جيش محتل أكثر من حال شعب مهاجر يبغى أن يحل محل شعب آخر ، ولقد استطاع الجرمان الاحتفاظ بالمقاطعات التي استولوا عليها ما دام ليس هناك قوة عسكرية أخرى تستطيع طردهم ، لكن في القرن السادس تمكن الامبراطور البيزنطي جستنيان من القضاء على القوط الشرقيين والوندال في كل من ايطاليا وشمال افريقية ، وبعد قرن ونيف قضى المسلمون على القوط الغربيين في اسبانيا ، وعلى هذا صحيح أن الجرمان حطموا الكيان السياسي لروما الغربية في مقاطعاتها الغربية الواقعة على البحر المتوسط ، لكن هؤلاء الجرمان عجزوا عن تقديم نظام بديل يحل محل النظام الروماني ، ولهذا نجد أن مراكز القوة السياسية تنتقل من المقاطعات الرومانية الى الأراضي الأوربية التي كانت الموطن الأصلي للشعوب الجرمانية أو الى ما جاورها من مقاطعات استعمرها الجرمان بشكل كامل ، ومع سقوط مملكة القوط الشرقيين في ايطاليا أصبح الفرنجة القوة العسكرية المتحكمة والفعالة في غرب أوربة ، وكما ذكرنا من قبل فإن مراكز قوة الفرنجة كانت في الشمال الشرقي لغاليا وفي وادي الرين ، ومع أن حضارة العصور الوسطى نشأت من اندماج العناصر الحضارية الجرمانية بالعناصر الرومانية وتطورها ، إلا أن هذه الحضارة لم

تدشأ في حوض البحر المتوسط بل في أراضي الشعوب الجرمانية الأولى قبل الهجرة.

ولقد كان لنقل مركز السلطة والسياسة والحضارة من مقاطعات البحر المتوسط الى شمال أوربة تأثير على جغرافية أوربة السياسية والاقتصادية ، وتأثير المحيط الجغرافي الجديد على الحضارة الوسيطة يأتي من انه معلوم أن مناخ شواطئ البحر الأبيض المتوسط معتدل جاف ، والتربة في الأراضي المتوسطية خفيفة والغابات قليلة والأنهار ليست كثيرة ، فالري الزراعي قليل كما أن الأراضي الصالحة للزراعة غير كافية وغير عظيمة الخصب وأراضي شمال أوربة كانت باردة في الشتاء لطيفة في الصيف كثيرة الأمطار ، وكانت مغطاة بالأحراش والغابات وعندما قام المستعمرون الجرمان بتنظيف بعض البقاع من الأشجار وجدوها تنتج كميات كبيرة من الحبوب ، وكانت الأرض ومنتجاتها قاعدة الاقتصاد في العصور الوسطى ، وعلى هذه القاعدة اعتمدت دول أوربة الغربية الوسيطة لكن لماذا اعتمدت أوربة الغربية فقط على موارد أرضها الزراعية ، اكان ذلك عن اختيار أم إجبار ، وأخيرا وتبعاً لهذا اكان الحال الاقتصادي هو الذي حدد بداية العصور الوسطى أم سقوط روما السياسي على يد الفاتحين الجرمان ؟

ان افضل من حاول معالجة هذه المسألة هو المؤرخ البلجيكي - هنري بيرين - وجاءت خلاصة افكاره في كتاب نشر بعد وفاته دعاه باسم «محمد وشارلمان» وقد اثار ما قدمه بيرين في هذا الكتاب زوبعة كبيرة بين العاملين في تاريخ أوربة في العصور الوسطى ومازال مع انه مضى على نشره سنين عديدة ، وكان ما قدمه بيرين من رأي هو ان الفصل بين العصور القديمة الكلاسيكية والعصور الوسيطة قد قام بعد سنة ٨٠٠ م ، أيام حكم شارلمان وليس أيام الهجرة الجرمانية في القرن الخامس ثم السادس .

ويقدم بيرين عرضاً مؤيداً لأفكاره ملخصه ان الأراضي التي تشكلت منها الامبراطورية الرومانية في عصورها المتأخرة أي من

بعد القرن الرابع ، كانت تلك المحيطة بالبحر المتوسط ، حيث ان هذا البحر كان بحيرة رومانية وصلت بين مقاطعات الامبراطورية ولم تفصل بينها ، فقد كانت هذه البحيرة طريقا سافرت عبره الديانات والفلسفة وانواع البضائع التجارية ، كل هذا مع عقائد مصر وثقافات الشرق وعبادة مثرأ والمسيحية ، وفيما بعد نظام الرهبانيات وحياة الديارات ، وعلى طول شواطئ البحر المتوسط امتدت طرق القوافل التي انتقلت عليها كنوز الشرق وبضائعه الرائعة من عاج وتوابل وحريير وورق البردي والخمور والزيوت ، وفي المقابل أرسل الغرب الى الشرق منتجاته وخاصة العبيد ، ولقد كان هناك وحدة نقدية للامبراطورية تمثلت بالموليدوس الذهبي ، ولقد اشرف على ادارة الأعمال التجارية وتنظيمها داخل الامبراطورية التجار اليهود والتجار السوريون .

وهنا يطرح سؤال حول : ما هي مؤثرات هجرة الشعوب الجرمانية على الامبراطورية الرومانية وذلك عندما قامت في القرنين الرابع والخامس ؟ لقد قهرت المقاطعات الغربية بما فيها ايطاليا من قبل الشعوب الجرمانية الغازية وزالت السيادة الرومانية السياسية من الغرب ، ولقد كان هذا في حد ذاته فاجعة عظيمة ، بيد انه برغم ذلك لم يجلب نهاية العصور الكلاسيكية كما ظن بعضهم من قبل .

وحيث ان القبائل الجرمانية الغازية شكلت اقلية صغيرة في البلاد المفتوحة ، ومع اننا لانملك ارقاما محددة، لكن تقديرات المؤرخين تقول بأن عدد القوط الشرقيين في ايطاليا لم يتجاوز المئة ألف وكذا عدد القوط الغربيين في اسبانيا وجنوب فرنسا ، وعدد البيرغنديين في جنوب شرقي فرنسا حوالي خمسة وعشرين ألفا ، ولم يبلغ عدد الوندال الذين عبروا الى الشمال الافريقي اكثر من ثمانين ألفا ،

وعلى هذا لم يتجاوز عدد الشعوب الغازية بالنسبة للشعوب المقهورة نسبة اعلى من واحد الى مئة ، وليس هناك ما يثبت ان هؤلاء الجرمان تلقوا امدادات جديدة ، بل على العكس نقصت اعدادهم

بفعل البيئة الجديدة وبفعل الحرب ، واخيرا اطيح بهم عسكريا وتم امتصاصهم .

ومن الواضح أن جرمنة البلاد المفتوحة كان محدودا جدا ، فقط ظهر واضحا في بقاع وقعت مباشرة على الحدود الشمالية للامبراطورية ، حيث تلاصقت مع المواطن الأصلية للشعوب الجرمانية ، لكن فيما عدا ذلك فاننا نجد التأثير اللغوي الجرمانى على الفرنسية لايتجاوز ثلاثمائة كلمة وكذا الحال بالنسبة لجميع اللغات الاوربية الأخرى ، وكما حدث في ايطاليا ومقاطعات الغرب الرومانى إن الفاتحين الجرمان تم امتصاصهم من قبل السكان المحليين حيث ما زال نجد بقايا عناصر شقراء في كل من ايطاليا وشمال افريقية يفترض بعضهم انها من بقايا المهاجرين الجرمان .

وعلى هذا فان الاحتلال الجرمانى وان قضى سياسيا على الامبراطورية الرومانية الغربية لكنه لم يقض على الحضارة والنظم وتقاليده المعيشة والادارة الرومانية ، لقد استمر وجود روما الغربية ، بدون استقلال سياسى ، لكن هذا البقاء استمر ايضا يسير في طريق التقهقر والانحدار وعندما زال الحكام الرومان من الوجود وحل محلهم حكام من اصل جرمانى ، فإننا نجد أن هؤلاء الجرمان تابعوا السير على النهج الرومانى نفسه ، ولم يقوموا بتدمير المؤسسات الكلاسيكية الثقافية بل حافظوا عليها ، ولم لا فالجرمان كانوا متأثرين الى أبعد الحدود بالحضارة الرومانية وكانوا يعرفون ثقافة روما قبل قهرها سياسيا ، وظلوا هكذا بعد نصرهم عليها ، وفي حالات كثيرة تنازلوا عن عاداتهم وتبنوا الطريقة الرومانية لسموها وتقدمها ، ولذلك ما أن زالت قوى الجرمان العسكرية حتى ذابوا حضاريا وتم امتصاصهم من قبل الشعوب المقهورة ، وخلال هذا كله تابعت المؤسسات الثقافية الكلاسيكية سيرها نحو النهاية ، ولم يكتب البقاء الا لمؤسسة رومانية ثقافية واحدة كانت هي الكنيسة وصحيح أن الكنيسة احتفظت بوجودها لكن كأداة تخضع لادارة رجال الدنيوية ، وهذه

الادارة تابعت اختيار موظفيها من خارج النظام الكندي ورجال الكهنوت ، وحكمت المقاطعات المقهورة حكما استبداديا كما كان الحال أيام الامبراطورية ، وظلت الادارة في أيدي طائفة الموظفين من السكان المحليين المثقفين ، واستمرت قواعد الجباية تعتمد في جمع الضرائب من النقد العين المضروب من الذهب ، وإسبس الجرمان - كما سبق الذكر - ملكيات في الأراضي التي استولوا عليها ، لكن مامن ملكية ضمت شعبا بأسره ، فكانت دولة وطنية لأمة من الأمم ، بل استمر نظام التوزيع الإداري الروماني قائما دونما تعديل أو تغيير ، والتعديل الذي تم بواسطته إعادة توزيع هذه المقاطعات حدث في القرن السادس من بعد ماستمكنت جيوش الامبراطور جستنيان امبراطور روما الشرقية من إعادة السيطرة على معظم مقاطعات روما الغربية حيث عاد البحر المتوسط زمن جستنيان مرة ثانية بحيرة رومانية وهنا حدثت ردات فعل جرمانية ، فقام اللومبارديون بعبور جبال الألب واستقروا في شمال إيطاليا ، لكن هذه الحادثة لم تعطل شيئا من الواقع المذكور انفسا وهم بدورهم تم امتصاصهم فيما بعد ، وهكذا ظلت الحياة والأمور هي ذاتها ، وكما كان فيما مضى استمر السوربون واليهود في ممارسة النشاط التجاري فجلبوا البضائع الشرقية الممتازة وظلت مقاطعات البحر المتوسط مترابطة حيث تابعت بلاد إيطاليا وإسبانيا وفرنسا على سبيل المثال استيراد الجمال من شمال افريقية لتستخدم في عمليات النقل ، ويمكن أن نجد في مدينة نربونته وهي مدينة فرنسية الآن - نموذجا لما كان عليه الحال في القرن السادس ، ففيها وجد القوط والرومان واليهود والسوربون والاغريق ، وعاشوا جنبا الى جنب وكل نشط في ميدانه ، وسلفت الاشارة الى أن الحكام الجرمان لغربي أوربة اعتمدوا في اداراتهم على رجال ذوي ثقافة رومانية ، وليس فقط ذوي ثقافة بل عادات وتقاليد رومانية ، واستمر استعمال اللاتينية والاعتماد على ادبها برغم ما ألم بها من انحطاط ، وبكلمة موجزة لقد تغير وجه أوربة

الغربية إثر احتلالها من قبل الشعوب الجرمانية لكن ليس بعمق انما بشكل بسيط فقط .

ثم جاءت الطامة الكبرى الحقيقية ووقعت الواقعة في القرن السابع ففادت الى ابلغ النتائج في التاريخ الاوربي ، وكانت هذه الطامة هي ظهور العرب كقوة عظمى بسبب قيام الاسلام ، وحدث الفتوحات العربية الكبرى ، فقد توفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عام ٦٣٢ م وبعد وفاته صلى الله عليه وسلم بفترة وجيزة جدا حدثت الفتوحات العربية الكبرى بعنف وسرعة كبرى مذهلة ، وعندما قام الاسلام كانت الامبراطورية البيزنطية تمتلك البلدان المحيطة بشرقي البحر المتوسط ، وكان يتربع على عرشها الامبراطور هرقل الذي هزم الامبراطورية الساسانية ، واوصل دولته الى ذروة القوة والمجد ، وخيل اليه ان مامن قوة في الدنيا باتت تهدد دولته ، ولم يخطر ببال هرقل ان ياتيه الخطر من بداءة شبه جزيرة العرب ، ولكن خابت حساباته وغدت اماله سراب .

ففي سنة ٦٣٤ عبرت جيوش العرب المسلمين نهرا الاردن ، وهزمت هذه الجيوش قوات بيزنطية في أكثر من معركة وفتحت دمشق وتابعت سيرها شمالا فطردت هرقل نفسه الى داخل اسية الصغرى ، وغدت سورية كلها للعرب الذين زحفت جيوشهم نحو مصر فافتتحوها ومن مصر ستتوجه نحو شمال افريقية ، ومن المغرب ستعبر مضيق جبل طارق - كما يعرف الآن - الى اسبانيا ، وهكذا وبسرعة غير متوقعة فقدت بيزنطة البحر المتوسط مع مقاطعاتها الكائنة على هذا البحر ، وفجأة تحول البحر المتوسط من بحيرة رومانية الى بحيرة عربية ، وتوغل العرب داخل اوربة ، ولم يوقف تسوغلهم إلا النيران اليونانية عند أسوار القسطنطينية وشارل مارتل في بواتيه (ودولة الخزر في جبهة البحر الأسود) .

وهناك فوارق لا يمكن عدها بين العرب الفاتحين والجرمان الذين سبقوهم بالصراع مع روما ، فالفتوحات العربية لم تكن مجرد

هجرة بداءة بل كانت عملا عقائديا حضاريا ، لذلك لم تمتصهم شعوب البلدان المفتوحة بل هم قاموا بتعريب هذه الشعوب وتحويلها إلى الاسلام ، والاسلام بعقيدته في التوحيد خالف غيره من الديانات وخاصة النصرانية ، وصحیح أن الشعوب الجرمانية حين قهرت بعض مقاطعات روما كانت أريوسية وكان سكان البلدان المفتوحة كاثوليك لكن كل من الأريوسية والكاثوليكية يجمعهما المسيح ، وكانت شعوب الجرمان أدنى ثقافة وحضارة من شعوب روما ، ولم يكن العرب كذلك، هذا ولا يمكن مقارنة الفتح العربي بأعمال التوسع الجرمانية فالعرب باسلامهم كانوا أرحم شعب عرفه التاريخ .

لقد كانت نتائج الفتوحات العربية على أوربة الغربية عظيمة جدا ، ومن المعلوم أن الامبراطورية الفرنجية هي التي أوقفت الزحف العربي ضد أوربة الغربية ، ذلك أن هذه الامبراطورية كانت تعيش عصر قوتها الذهبي ، لكن لماذا تحول مركز القوة الفعالة في أوربة الغربية من المقاطعات المتوسطة التي سلف وكانت غنية مزدهرة فيها تجارة رائجة إلى الأراضي الفرنجية في الشمال التي كانت أفقر من الأراضي المتوسطة، إنما هي زراعة تنتج الحبوب ؟ يبدو أن السبب الرئيسي في ذلك هو انهيار التجارة الجنوبية ، فقد شطرت الفتوحات العربية البحر المتوسط إلى قسمين ، النصف الشرقي حيث الامبراطورية البيزنطية ظلت حية بفضل متانة أسوار القسطنطينية وكثرة مواردها واستراتيجية موقعها ، ثم بفضل وجود النار اليونانية واحتفاظ هذه الامبراطورية بقوة بحرية معتبرة ، أما القسم الغربي فقد استولى عليه العرب ، وحدث في مقاطعات أوربة الغربية انقلاب هائل ، ففي فرنسا أهم هذه المقاطعات اختفت جميع البضائع الشرقية التي كان التجار السوريون يجلبونها ، لقد انعدم وجود ورق البردي والتوابل والزيوت والحريير والذهب أيضا ، ودمرت المؤسسات التجارية المحلية بعد أن انتابها الضعف والافلاس ، وفي جنوب فرنسا ظهر مكان التجار المحليين تجار مشاركة جدد عملوا كوسطاء بين العالم

العربي والغربي ، ولقد كانت أهم النتائج المباشرة لتوقف التجارة عجز سريع وكبير في دخل السلطة الملكية ، مما جعل الملك يعتمد أكثر فأكثر على النبلاء من ملاك الأراضي ، ولقد كان هذا السبب الرئيسي في اضمحلال الحياة السياسية والاجتماعية في زمن الميروفنجيين في القرن السابع - وهذا أمر سنذكره بالتفصيل في المستقبل - وقد تأثر جنوب فرنسا أكثر من الشمال فاندحطت مدن الجنوب في حين استمرت مدن الشمال في اعتمادها على الحياة الزراعية وفي الشمال وجد الفرنجة ، ومن مقاطعات الشمال الفرنجية جاء أجداد الأسرة الكارلونية - أسرة بيبين وشارلمان ، لقد كانوا من نتاج الأرض البلجيكية من قرب لبيج حيث حتى اليوم ما تزال تعيش أسرة تحمل اسم بيبين وتنسب إليه .

ويمكن أن نلاحظ أن الفوارق كبيرة للغاية بين الأحوال في فرنسا أيام الدولة الكارلونية في القرن الثامن أو التاسع وبين الأحوال أيام الدولة الميروفنجية في القرنين السادس والسابع ، فالالاقتصاد الآن أصبح قائماً على الزراعة بدلاً من التجارة ، وقد حلت الفضة محل الذهب في النقد ومعيار التعامل ، وقامت الكنيسة بطرد الموظفين المدنيين من الإدارات ، وغدت اللغة اللاتينية لغة حديث وكتابة فقط داخل الكنيسة ، وحلت بين الناس عاميات لاتينية أخذت مكان اللهجات الإقليمية ، وتطورت أدوات الكتابة وانتظمت لكن ما يدعى عادة باسم النهضة الكارلونية التي قامت على اللغتين الأغريقية واللاتينية مع أدابهما كانت محدودة وعابرة ومرتبطة بعدد من العلماء في الطبقات العلية ولم تتوغل بين صفوف الناس العاديين .

إن هذه الآراء التي قدمها هذا المؤرخ البلجيكي الأصل في كتابه محمد وشارلمان قد أثارت كما ذكرنا عاصفة من الجدل ، حيث حاول بعضهم أن يرد عليه فيدحض بعض الآراء التي قدمها ويبطل الكثير من الشواهد التي اعتمد عليها ، من أن التجارة لم تنقطع ولم تتوقف بل ضعفت ، وأن استمرار الاستيراد سبب انعدام الذهب في

الغرب بشكل تدريجي ، لكن مهما تكن حرارة الدفوع التي رفعت
ضد آراء بيرين تبقى نظرياته أقوى وأمتن فبالنسبة له لولا محمد لما
ظهر شارلمان ، يعني أننا نستطيع فهم تاريخ تطور الامبراطورية
الكارلونية فقط عندما نتحدث عن التوسع العربي في غربي
أوربة ، فالضغط العربي هو الذي ولد حياة زراعية وقوة عسكرية
في فرنسا وهو الذي سبب وجودها في الشمال وأخذها هذا الاتجاه .

إن هذا الذي طرح حتى الآن يدعونا أولا وقبل كل شيء أن نتوقف
ريثما نتعرف الى تاريخ كل من الدولة الميروفنجية ثم الامبراطورية
الكارلونية في غربي أوربة ، وإلى تاريخ الامبراطورية البيزنطية في
شرقي أوربة وأسية الصغرى .

الامبراطورية البيزنطية والحضارة الارثوذكسية

الشرقية

لقد وضعت هجرة الشعوب الجرمانية وأعمال توسعها في القرن الخامس مقاطعات الامبراطورية الغربية تحت سيطرتها ، لكن غالبية الأجزاء الشرقية من الامبراطورية الرومانية نجت من الاحتلال الجرمانى برغم أنها عانت من غارات هذه الشعوب المدمرة ، ولم يتح لهذه الشعوب الاستقرار في مقاطعات أوربة الشرقية ، ثم إن بقية مقاطعات الامبراطورية في أسية لم تصيبها أية مضار من قبل الشعوب الجرمانية .

ولقد سبق لنا أثناء عرضنا لتاريخ الامبراطورية الرومانية المتأخر وعلاقة هذا التاريخ بظهور المسيحية وانتصارها مع هجرة الشعوب الجرمانية أن تحدثنا عن انشطار الامبراطورية الرومانية إلى شطرين واحد في الغرب وآخر في الشرق ، كما تحدثنا عن إقامة الامبراطور قسطنطين الكبير لمدينة القسطنطينية في موقع مستعمرة اغريقية قديمة عرفت باسم بيزنطة ، وكان هذا الموقع في غاية الأهمية ، فهو وإن وقع في البر الأوربي إلا أنه كان وثيق الصلة بأسية ، فالقسطنطينية مدينة أوربية أسيوية برية بحرية ، يسهل الوصول منها إليها برا وبحرا إلى أوربة وأسية وروسيا ، ويمكن الدفاع عنها ضد الغزاة من أسية من الجهة الأوربية ومن الجهة الأسيوية ضد الغزاة من أوربة ويمكن أن تقوم بدور صلة وصل تجاري وحضاري وعسكري بين القسارتين الأسيوية والأوربية ، وكانت محاطة بشعوب متباينة ، يصعب اتحادها ، ويسهل تكوين جيوش منها لخدمة أغراض الدولة والدفاع عنها .

ولقد اتخذ قسطنطين من مدينته الجديدة مركزا للجزء الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، وأخذت روما الشرقية في النمو والازدهار

وذلك في الوقت الذي كانت فيه روما الغربية القديمة تسير في مناحي الضعف والاضمحلال السياسي والحضاري .

ومنذ أيام قسطنطين وربما قبل ذلك ظهرت بـوادر شـطر الامبراطورية الرومانية الى شـطرين ، لكن قيام ذلك رسميا تأخر بعض الوقت الى سنة ٣٩٥ م أيام الامبراطور ثيوديسيوس العظيم الذي قسم الامبراطورية بين ولديه ، وجعل هناك امبراطورية غربية لاتينية اللغة كاثوليكية المذهب ، وأخرى شرقية أغريقية الحضارة أرثوذكسية المذهب .

ولقد خلف الامبراطور ثيوديسيوس في حكم روما الشرقية ابنه اردكاينوس (٣٩٥ - ٤٠٨ م) ثم ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠) ، وأهم ما حدث في هذه الفترة أن الامبراطور الأخير جمع القانون الروماني وقام بتبويبه ، وكان لصدور هذه المجموعة القانونية التي حملت اسمه تأثيرا كبيرا خاصة على التطور القانوني الإداري لدى دول الشعوب الجرمانية في أوربة الغربية خاصة في إيطاليا وإسبانيا .

وبعد وفاة ثيودوسيوس الثاني شهدت الامبراطورية الشرقية بعض التقدم ذلك أن الأباطرة الذين تربعوا على العرش كانوا على درجة لا بأس بها من الكفاءة والمقدرة ، وأشهر الذين جاءوا بعده الامبراطور زينون (٤٧٤ - ٤٩١) فقد خلص هذا الامبراطور دولته من خطر القوط الشرقيين ، وعندما كان زينون يحكم في القسطنطينية تم خلع آخر أباطرة روما الغربية وكان اسمه روملوس اغسطس (٥٧٥ - ٥٧٦) ولئن تمكن الامبراطور زينون ومن جاء بعده مباشرة من حماية أوربة الشرقية من مخاطر الهون والشعوب الجرمانية ، فإنهم لم يستطيعوا القيام بأي عمل لاستعادة الغرب أو إنقاذه وذلك حتى جاء جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥) .

لقد انتقلت السلطة الى جستنيان عام ٥١٨ م بعد ما تم تبنيه من قبل خاله الامبراطور جستين الأول وتعيينه نائبا للامبراطور وشريكا ، وحكم هذا الامبراطور صاحب الطاقات غير الاعتيادية

الامبراطورية لمدة سبع وأربعين سنة فتحقق له ما لم يتحقق لسواه فكان آخر اباطرة روما وأول اباطرة بيزنطة .

وكان جستنيان صاحب طاقات كبيرة مع حظ كبير ، فلحسن حظه وجد في خدمته عدد من الجنرالات الكبار كان على رأسهم بلزاريوس وناريس ، وكان جيش الامبراطورية قوامه من المرتزقة البرابرة ، إنما كان جيد التسليح ثقيلة وحسن التدريب ، وقد استطاع جستنيان بجيشه على رأسه جنراليه أن يقهر أعداء الامبراطورية ويحقق لها مكاسب كبيرة .

وكان أعداء الامبراطورية كثر ، على رأسهم في الشرق الامبراطورية الساسانية ومع بداية حكم جستنيان كان على رأس هذه الامبراطورية قبان ، وفي أيامه كانت الامبراطورية الساسانية تعاني من عديد من المشاكل الداخلية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية ، ففي عهده قامت حركة مزدك وردات الفعل المعادية لها التي تمخضت عن عزل قبان واستلام ابنه كسرى انوشروان للعرش (٥٣١ - ٥٧٩) حيث أخذ في إعادة تنظيم الامبراطورية داخليا ، لذلك قبل مسالة الامبراطورية الرومانية.

وكان جستنيان قد استغل اضطراب أحوال فارس الداخلية فشن حربا قصيرة ضد بني ساسان من سنة (٥٢٧ حتى ٥٣٢ م) ، وانتهت هذه الحرب بهدنة اغتتمها جستنيان فحول جيوشه نحو الغرب ، وخلال حملات استغرقت عشر سنوات تمكنت قوات بيزنطة من تحطيم دولة الوندال في شمال افريقية ، فأعادت هذه المقاطعة الغنية إلى حظيرة الامبراطورية ، وقد احتاج جستنيان إلى ضعف في هذه المدة لاسترجاع إيطاليا من القوط الشرقيين ، ومع إيطاليا كسبت جيوش الامبراطورية جنوب إسبانيا من القوط الغربيين وعلى الرغم من أن كل من بريطانيا وغاليا ومعظم إسبانيا ظلت في أيدي البرابرة الجرمان إلا أن جستنيان استرجع من هذه الشعوب قلب الامبراطورية الرومانية في كل من الشرق والغرب ، ولكن هذه الحملات جعلت الخزانة البيزنطية تتحمل أكثر من طاقتها ، ويجادل

بعضهم مسائل تثار حول أعمال جستنيان الحربية ومغامراته في الغرب من أنها كانت غير مجدية ، ذلك أنه كان عليه أن يركز نشاطه الحربي ضد الامبراطورية الفارسية ، فالذي خلفه على عرش الامبراطورية عجزوا عن الاحتفاظ بالأجزاء الغربية التي استعادها جستنيان ، ولاقوا مصاعب كبيرة جدا في مواجهة الفرس ، فبعد وفاة جستنيان بأعوام ثلاثة دخلت قبائل اللومبارد إلى إيطاليا ثم تمكن القوط الغربيون من استرداد جنوب إسبانيا ، ومع ذلك بقيت صقلية مع جنوب إيطاليا وشمال افريقية في جملة ممتلكات الامبراطورية في الغرب .

الامبراطورية البيزنطية وخصومها.

لقد دعي جستنيان آخر أباطرة روما ، وهو بالحق جدير بهذا اللقب ، ذلك أنه على الرغم من احتفاظ من خلفه على عرش الامبراطورية الشرقية بهذا اللقب إلا أنهم لم يكن لهم سيادة على القسم اللاتيني الغربي من الامبراطورية ، كما أن هتمامهم السياسي بهذا القسم كان ضعيفا ، فهم على هذا كانوا حكاما للقسم الهلنستي الشرقي من الامبراطورية ، ولهذا يعرفون عادة باسم الأباطرة البيزنطيين وتعرف دولتهم باسم الامبراطورية البيزنطية ، وفي الحقيقة إننا عندما دعونا جستنيان آخر أباطرة روما ، جاء ذلك بسبب أن البلاط في عصره كان يستخدم اللغة اللاتينية ، إنما أخذ في هذا العصر بالانحلال من استخدام هذه اللغة وزيادة الاعتماد على الاغريقية ، ومن هنا كان جستنيان أول أباطرة بيزنطة ، وليس هذا فقط إنما نجد ذلك يظهر بالمباني التي شيدت في هذا العصر وعلى رأسها كنيسة أياصوفيا التي ما تزال قائمة حتى يومنا هذا ، فبناء هذه الكنيسة يختلف في نمط هندسته عن النمط الروماني ، فهو شرقي سقفه جاء على شكل قباب وليس مسطحا مثل المعابد الرومانية ، ونمط السقوف المقببة هو نمط سوري الأصل ، وبسبب تخلي جستنيان عن النمط الروماني في البناء فهو وإن كان آخر أباطرة روما فإنه موجد فن العمارة البيزنطي .

ولقد عاشت الامبراطورية البيزنطية ٨٨٨ سنة بعد وفاة جستنيان ومن الممكن تقسيم هذه الفترة المديدة إلى أقسام ثلاثة الأولى من سنة ٥٦٥ وحتى ٧١٦ ففي هذا القسم كافحت الامبراطورية من أجل البقاء ضد العديد من القوى المعادية ، واثناء ذلك استطاعت إقامة نظام اقتصادي متين وتطويره مع نظام سياسي للحكم ونظام عسكري ، وخطت خطوات حضارية متميزة عن بقية أجزاء أوربة ، ثم جاء القسم الثاني من ٧١٦ إلى ١٠٥٧ م حيث عاشت لمدة قرون ثلاثة زاهية حيث كانت أغنى وأقوى دولة في أوربة وأكثرها حضارة وثقافة ، ففي هذا القرن عاشت أوربة الغربية في عصورها المظلمة ، حيث سكنت من قبل شعوب مختلفة في كل الميادين الحضارية في حين عاشت وتطورت في بيزنطة حضارة جديدة مزجت بين المسيحية والتراث الهلنستي ، وكان القسم الثالث الذي غطى أربعة قرون وامتد من ١٠٥٧ وحتى ١٤٥٣ م فترة انحسار مستمر في مسالك الضعف والانهيار الحضاري والعسكري والسياسي حتى أخيرا سقطت القسطنطينية للعثمانيين فزالَت الامبراطورية من الوجود .

وقليلة هي الدول التي شغلت دورا تاريخيا يماثل في الأهمية دور بيزنطة ، ففي هذه الدولة جاء إلى الوجود ما يدعى باسم حضارة أوربة الشرقية، وفيها حفظت عناصر الثقافة الكلاسيكية حتى تمكنت أوربة الغربية من استعادة نشاطها فتسلّمت هذه العناصر حيث قامت بتطويرها ، وعلى أساسها أقامت الحضارة الأوروبية الحديثة .

وكافحت الامبراطورية البيزنطية في الفترة الأولى (٥٦٥ - ٧١٧) من أجل وجودها في وجه أعداء انقضوا عليها من كل جانب ، وكان الأفار أشد الأعداء في جهة الشمال ، والأفار كانوا واحدا من الشعوب الآسيوية من أصل تركي ، وكان مركز سيطرة هذا الشعب في السهل الهنغاري ومناطق غربي الدانوب وشرقي جبال الألب ، وبأحواز مناطق هذا الشعب عاشت شعوب

بربرية مماثلة مثل قبائل الصقالبة (السلاف) وأحيانا تعاون الأفار والسلاف في نشاطهم ضد الامبراطورية ، على انه كانت عناصر الأفار عناصر إغارة وسلب ونهب ، ولم يكن لها خطط للاستيلاء على بعض مقاطعات الامبراطورية والاستقرار بها ، وقد دمرت هذه العناصر الأراضي الواقعة في جنوبي الدانوب وظهرت مرات عديدة على مقربة من أسوار القسطنطينية ، لكنها لم تكن من القوة بمكانة تمكنها من اقتحام أسوار المدينة الحصينة ، وعندما كان أباطرة هذه الفترة يشغلون أنفسهم في تحصين حدود دولتهم الآسيوية فقد كان بمكنة الأفار النشاط كيفما شاءت إرادة عصاباتهم ، واختلف حال الصقالبة قليلا فعلى الرغم من تحالف الصقالبة مع الأفار إلا أن قبائل هذه الشعوب كانت ترغب في احتلال موطن تستقر فيه ، وقد نجحت في ذلك ضمن المقاطعات الأوربية الشرقية ، ويرى بعضهم أنه في القرن السابع انتشر الصقالبة في جميع أجزاء الامبراطورية الأوربية مما غير من طبيعة أجناس وشعوب هذه الأجزاء بما فيها اليونان ذاتها.

ولم يصرف الأباطرة كبير جهد وعناية بالمقاطعات الأوربية لدولتهم ، وكانوا يثقون بمناعة أسوار عاصمة ملكهم ، ولذلك أوقفوا جهودهم في سبيل حماية المقاطعات الآسيوية الغنية ، وعلى حدود هذه المقاطعات وجد أقوى أعداء بيزنطة وأشدّهم شكيمة ، ألا وهو الامبراطورية الساسانية الفارسية ، التي كانت ذات عداء تقليدي مع روما ، وكانت سياستها تعتمد دائما على العمل في سبيل الوصول الى شواطئ البحر المتوسط ، ولقد استطاع الفرس أيام الامبراطور البيزنطي فوقاس تحقيق أحلامهم فتمكنوا من احتلال سورية ومصر وزحفوا القوات نحو أسية الصغرى ، وفي هذه الظروف الحرجة قام الأفار بحصار القسطنطينية ، وهكذا خيل للناس أن الامبراطورية جاء أوان دمارها ، لكن أسوار العاصمة صمدت في وجه الأفار ، ولم يكن لدى الفرس اسطولهم الخاص لينشط في البحر المتوسط ، وهنا أرسل حاكم إفريقية هرقل ابنه وسميه على رأس قوة تمكنت من الاستيلاء على القسطنطينية حيث

عزلت الامبراطور فوقاس وسببت قتله ، وتم تنصيب هرقل امبراطورا جديدا .

وسعى هنا الجندي الممتاز والاداري الشجاع نحو تجنيد جيش يحارب الفرس ، واعلنها حربا صليبية ضد فارس التي سلبت صليب الصليبوت من القدس (الخشبة المعتقد انه تم صلب المسيح عليها) وبواسطة حرية العمل في البحر تمكن هرقل من انزال قواته على الساحل السوري فحرب القوات الفارسية في جنبها واطرافها فهزمها واخذ يطاردها حتى اشتبك معها في معركة فاصلة سنة ٦٢٧ م قرب خرائب مدينة نينوى التاريخية فهزم الفرس وسحق جيشهم وطرد فلول هذا الجيش حتى اسوار المدائن العاصمة الساسانية حيث فرض صلحا مذلا على الفرس .

وبينما كان هرقل يقاتل الفرس كانت بقعة نائية لكنها قريبة من حدود سورية والعراق تشهد حوادث ستبدل وجه الأرض ، فقبل خمس سنوات من معركة نينوى كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم قد هاجر من مدينة مكة الى يثرب بعد عمل دعوي استمر ثلاث عشرة سنة ، وفي المدينة أسس هذا النبي العظيم دولة مركزية عقائدية ، وتمكن من توحيد قبائل شبه جزيرة العرب تحت راية عقيدته السماوية الجديدة ، وتوفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم في عام ٦٣٢ م وكان هذا مصادفا لاقامة هرقل في سورية حيث كان يحتفل بنصره ويعيد تنظيم دولته ، وبعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وسلم بأقل من عامين ، وبفضل عقيدة الجهاد التي جاء بها هذا النبي من عند الله ، اندفع العرب من شبه الجزيرة كالسيل الجارف ، فتمكنت قواتهم المنظمة الفتية من ايقاع الهزيمة بالجيوش البيزنطية والساسانية ، فلقد حطمت الجيوش المسلمة الامبراطورية الساسانية وازالتها من الوجود ، وطردت الجيوش البيزنطية من سورية ومصر ، ثم من شمال افريقية ، وهددت القسطنطينية ذاتها .

وكان للفتوحات الاسلامية ابعاد الآثار على بيزنطة ، فقد بات

على هذه الامبراطورية أن تعيد تنظيم ادارتها ومواردها بعدما حرمت من اراضي اسيية وافريقية الغنية ، كما بات عليها أن تعيد النظر في سياستها الدينية وتزيد من الاعتماد على مقاطعاتها الاوربية ، وصار الآن تاريخ بيزنطة في الدرجة الاولى تاريخ العلاقات مع الاسلام ودولته في المدينة ثم في الشام ثم في العراق ، وبعد ذلك في الشام ومصر ، كما هو تاريخ صراع الامبراطورية من أجل الحفاظ على اوروبا الشرقية ومواردها في وجه الطامعين .

لقد درست العلاقات العربية البيزنطية من قبل أكثر من باحث وتعرضنا في الجزاين الماضيين الى ما يعنينا الآن من الموضوع ، ولذلك سنركز الحديث حول ما يمكن دعوته بالتاريخ البيزنطي الداخلي المحض .

لقد الم بالدولة البيزنطية في ظل أسرة جستنيان ثم أسرة هرقل تطور بعيد للغاية وسريع ، حيث يبدو أن اباطرة هذه الفترة اندكوا مليا أن بقاء الامبراطورية واستمرار وجودها يعتمد إلى أبعد الحدود على مواردها الاقتصادية ، وكانت الزراعة على رأس هذه الموارد ، ذلك أنها لم تؤمن للدولة الحبوب لعيش سكانها فحسب بل أمنت الطاقة البشرية لأعمال التجنيد والحرب ، وقد جهد الاباطرة في العناية بالزراعة وأعمار الأرض ، ونلاحظ أن الصقالبة الذين دخلوا اراضي الامبراطورية في اوروبا الشرقية لم يكونوا جميعا قد دخلوا على شكل غزاة ، بل جلبت أعداد كبيرة منهم لأعمار الأرض ، وفعلا استطاع هؤلاء المعمرين زيادة الانتاج الزراعي ، ومع نهاية هذه الفترة الاولى كانت اسيية الصغرى مع المقاطعات الاوربية مكتظة بالسكان ، والحياة فيها مزدهرة ، وكانت أهم المزروعات هي الحبوب والخضار وحدائق الفواكه والعنب والزيتون ، وتذكر الأخبار أنه في زمن جستنيان أخذت بيزنطة في انتاج الحرير بكميات كبيرة .

ووجد في الامبراطورية العديد من المدن ، وكانت المدن مراكز

للصناعة والتجارة ، وقدّر بعضهم عدد سكان القسطنطينية في هذه الفترة بمليون كما كان هناك من المدن ما كان تعداد سكانه نصف مليون ، وقد تم الانتاج الصناعي من قبل مجموعات منظمة حسب نظام الاصناف ، او من قبل جماعات تعاونية متضامنة ، وكانت التعاونيات مع الاصناف كلها تسيطر من قبل الدولة وباشرفها المباشر ، وكان لكل صنف حق احتكار نوع من البضائع ، وكانت الدولة تشرف على شراء المواد الخام وتأمينها ثم تقوم ببيع المنتجات بعدما يكون تم صنعها حسب مواصفات محددة وتبع طرائق معينة ، وكانت الدولة تتدخل في تحديد الاجور والارباح ، وفي الحقيقة كان كل شيء في الامبراطورية يقع تحت المراقبة المباشرة للدولة والتي كانت تتدخل في كل شعبة من شعب الحياة ، وكان من نتائج ذلك قيام عمل صناعي واقتصادي منظم مخطط له وكانت غالبية المنتجات بضائع كمالية غالية الثمن تصلح للتصدير ، مثل المنسوجات الحريرية والصوفية الممتازة وأنواع الزرابسي والمجوهرات والأدوات العاجية وغيرها المحلاة والمزينة ، وروعت المنتجات المرتبطة بالأمور الدينية وأعطيت من العناية الشيء الكبير مثل الأيقونات المختلفة الأشكال وسوى ذلك مما تم تقليده في بلدان كثيرة ، وإلى جانب هذه المنتجات اهتمت الصناعة بأنواع الأسلحة والعتاد الحربي ، وقد احتكرت الدولة لنفسها المنتجات هذه وتصرفت بها حسب سياسة خاصة .

وكما وقعت الصناعة تحت اشراف الدولة كذلك كان حال التجارة حتى يمكن القول بان تجارة الحبوب والحرير لم يكن يحق للأفراد العمل بها بل كان ذلك محصورا بالدولة فقط ، ولاشك أن هذا الحال كان له مؤثراته على المغامرات التجارية والتلاعب بالأسعار ، وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة تشرف على التجارة والصناعة يلاحظ أن ذلك كان داخليا فقط أي أن أعمال التصدير والاستيراد كانت في يد تجار أجانب ، فالدولة كانت تتعامل أثناء عمليات التجارة الخارجية مع تجار أجانب وليس مع حكومات ، وكانت القسطنطينية أوسع سوق تجاري في العالم ، إليها حملت بضائع

الشرق والغرب ومنها حملت المستوردات والمنتجات ، وكان هناك
أحياء خاصة بالتجار الأجانب الذين تمتعوا بالحماية وبحقوق
خاصة وامتيازات ، وقد تولت سفن دويلات ايطاليا مثل أمالفي
والبندقية ورافينا نقل معظم البضائع ، وقد حمل التجار الذين
جاءوا الى القسطنطينية من اقصى الأرض معهم في طريق عودتهم
منتجات هذه المدينة وذلك بعدما باعوا بضائعهم ، وتمت عمليات
البيع والشراء لاعن طريق المقايضة بل بالعمللة البيزنطية التي كانت
وحدتها الأساسية من الذهب ، وكانت النقود البيزنطية مقبولة في
كافة أنحاء العالم نظرا لعناية الدولة بعملة الذهب وعدم التلاعب به
ثم لاحتكارها عمليات ضرب النقود الأمر الذي لم يكن سائدا في
أوربة وغيرها من البلدان والدول ، وبسبب طبيعة الوضع التجاري
للإمبراطورية لم يوجد في المجتمع البيزنطي بيوتا تجارية ثرية كما
كان هو الحال في الدولة العباسية ، ولذلك لا يمكن الحديث عن اثر
الطبقات الأرستقراطية التجارية في صنع التاريخ البيزنطي لعدم
وجود هذا النوع ، هذا وقد شكلت أصناف الحرفيين طبقة وسطى في
المجتمع البيزنطي وكانت الطبقات العليا مكونة من رجال السلطة
وملاك الأرض ، وقد ارتبطت السلطة بالجيش ، ومن الملاحظ ان
بيزنطة أولت الجيش عناية فائقة من كافة الجوانب من تسليح
وتدريب وامتيازات ورواتب ، وقد تطورت العلوم العسكرية في
بيزنطة بشكل سريع ، وظهر في التاريخ البيزنطي عدد من العباقرة
العسكريين الذين برعوا في الميادين النظرية والعملية ، وكان قوام
الجيش البيزنطي يتكون من سلاح الفرسان الثقيل الذين كانوا
وخيولهم مدرعين وكانوا يعتمدون على قوة الخرق لرماحهم القوية
والناتجة عن اندفاع خيولهم ، وبالإضافة للفرسان وجد الرجال
الذين تسلحوا بالنبال والرمح والحراش والسيوف ، وعملت
الأسلحة كلها متعاونة في المعركة حسب نظام تعبئة له
نظرياته ، وكان سلاح الفرسان يعتمد في عناصره البشرية على
المواطنين الأحرار من بيزنطة وكان لكل فارس خدمه الذين كانوا
يعتنون بالخيول ويطبخون الطعام ويغسلون الثياب ، وفي المعركة

كان الخدم يتولون حراسة أسيادهم ، وقد منح كل فارس اقطاعية من الأرض خاصة تقوم بأوده وتؤمن له ماكان يحتاج اليه من نفقات ، وكان سلاح المشاة يتكون من نوعين وذلك حسب التسليح ، فقد كان هناك المشاة الثقيل والمشاة الخفاف ، وكان سلاح القسم الأخير القوس والذنباب في حين كانت اسلحة القسم الأول السيف والفأس والحرا ب ، وكان على رأس كل واحد منهم خوذة ويرتدي درعا أو سابغة ويحمل في يده درقة أو ترسا معدنيا .

وقد قسمت الامبراطورية الى عدة مقاطعات عرفت باسم البنود حكم كل منها ضابط كبير حصر في يديه السلطات المدنية والعسكرية وكان تحت تصرف حاكم كل بند من البنود مابين ثمانية الاف الى عشرة الاف وكما سلفت الاشارة نبغ عدد من الأباطرة في العلوم العسكرية ، ومن هؤلاء الامبراطور مورييس (٥٨٢ - ٦٠٢) فقد ألف رسالة في العلوم الاستراتيجية ، وأهم منه الامبراطور ليو (٨٨٦ - ٩٨٢ م) فقد كتب رسالة في العلوم العسكرية شرح فيها كيف ينبغي أن يكون نظام الجيش البيزنطي وتسليحه كما شرح خطط القتال التي ينبغي لهذا الجيش تنفيذها والأخذ بها اثناء قتال كل شعب من الشعوب ، وعلى سبيل المثال نجده يتحدث عن القتال مع العرب ويبين كيفية التعامل مع الجيوش المسلمة التي كانت تقوم بأعمال الشناتات والصوائف داخل الأراضي البيزنطية في اسية الصغرى ، فبعد ماكان قائد البند يصله الانذار بعبور جيش عربي للحدود ، وذلك بواسطة نقاط المراقبة التي كانت ترسل اخبارها بواسطة المرايا أو النار والدخان أو الطيور وغير ذلك من السبل ، كان عليه ان يرسل في الحال قوة صغيرة تمنع الغزاة من السلب وفي الوقت نفسه يستنفر فرسانه ويقودهم ، ويرسل مشاته لتنتشر في الممرات الجبلية الصعبة كيما تحول بين المسلمين وبين التراجع ، ويقوم هو بفرسانه باجبار الغزاة على التراجع بشكل غير منتظم دون خوض معركة مواجهة ، وكان يقوم بالاشتباك ويلتحم بالجيش الغازي ساعة تتمكن مشاته من التطويق ، وبواسطة هذه القواعد القتالية تمكنت قوات بيزنطة من

تحطيم العديد من الجيوش العربية الكبيرة ، وكان ضباط الجيش البيزنطي جنودا محترفين بكل ماتعنيه الكلمة ، وعلى عكسهم كان بارونات الغرب الأوربي حيث كانوا هواة قتال شجعانا بلا نظام ولا قواعد للقتال ، يندفعون دون حساب للنتائج ، وكان الضابط البيزنطي لا يتورط في القتال مالم يكن ضامنا للنصر ، وذلك ان بيزنطة كانت ذات موارد محدودة لا يمكنها المغامرة لأن ذلك كان يتعلق بمصير وجودها .

وقد اشار كل من موريس وليو الى اهمية الاتصالات السياسية للحيلولة دون العمل العسكري غير مضمون النتائج ، لكن كان على الضابط القائد لاحدى الحاميات أو سواء من ذوي الشأن عندما يتوصل الى قناعات فيها انه لا جدوى من المفاوضات كان عليه تضييع الوقت وتضليل العدو ، ومن جهة اخرى اعداد الجيش لانزال ضربة مفاجئة وبلا مقدمات ، وكان من المفيد قبل الشروع في الالتحام كتابة رسائل من والى داخل جيش العدو وجعل هذه الرسائل تحمل أسماء كبار ضباط الخصوم ، وجعل بعض الرسائل يقع في قبضة قائد جيش العدو ، فليس اسهل من تحقيق النصر على جيش قيادته متفسيخة لا يثق أفرادها ببعضهم بعضا ، لقد كان على الضابط البيزنطي ان يتصرف ببراعة وخداع ، ولا شك ان هذا كان وراء وسم البيزنطيين باللا أخلاقية في الحرب والسياسة ، وبالجبن والفدر وذلك من قبل خصومهم في أوربة الغربية والعرب سواء .

ولقد كانت الحكومة في الامبراطورية عبارة عن جهاز معقد متسع لكنه قادر على تأدية مهامه ، انما بنفقات عالية للغاية ، وغالبا ما كان هذا الجهاز يصاب بالفساد والتعفن ، وذلك في عهود كل الأباطرة الضعفاء ، ولهذا نجد ان كل واحد من الأباطرة العظماء يعمل عند تسلمه السلطة على إعادة تشكيل الإدارة وتنظيمها ، ومعروف انه قام على رأس الإدارة والحكم امبراطور واحيانا اكثر من امبراطور وكان اختيار الامبراطور في هذه الفترة ينبغي ان يتم بشكل انتخابي ، ويصبح انسان ما امبراطورا عندما

يختاره مجلس الشيوخ أو الشعب أو الجيش كل على انفراد أو اجتماع ، لكن منذ جستنيان أخذ بمبدأ التوريث وقبل ، وقامت أسر وراثية حاكمة ، لذلك نجد منذ القرن الثامن أنه عندما كان يرث العرش الامبراطوري رجل ضعيف فيثور عليه قائد الجيش أو سواه يتحكم به ولا يعزله بل يبقيه حاملا للقب الامبراطوري ، وفي القرن الحادي عشر وجدت قاعدة مقبولة أنه يحق العرش فقط لمن تم انجابه في الحجرة الارجوانية من القصر الامبراطوري ، على أن النظام الذي ساد قبل القرن الحادي عشر كان له محاسنه ومضاره ، وكان بالامكان ازاحة الامبراطور الفاسد بواسطة الثورة ، لكن غالبا ماكان ذلك يكلف الدولة نفقات وجهود كبيرة للغاية أو يمزقها ويسبب الحروب الاهلية ، وبالتالي سيطرة رجال ليسوا من ذوي الصلاح على السلطة .

وكان الامبراطور البيزنطي انسانا مقدسا تم تعيينه من قبل الرب ليتحكم برقاب البشر ، وكان يتوج ويعمد باحتفالات بهية للغاية ويصير كل شيء ارتبط به مقدسا ، فعندما تبني هرقل لقب بازيلوس أعلن عن نفسه انه انسان له صفات علوية ربانية ، أو بالأحرى هو نصف انسان ونصف اله ، لذلك كان على رعاياه السجود له كما فعل اجدادهم تجاه الامبراطور الروماني الوثني ، وعاش الامبراطور في بلاط كله أبهة ، فقد قطن في قصر رائع تألف من عدة ابنية على شاطئ البسفور احيطت بالحدائق الغناء ، وكذلك حياته كلها مراسم وطقوس ، وكان اينما تحرك احيط بطائفة من الموظفين والخدم والحرس ، وكانت حياة البذخ داخل القصر ذات نفقات عالية ، كان على الرعية الفقراء تحملها ، ولقد استدعى تركيب الامبراطورية البيزنطية ومواريتها أن يكون على رأسها انسان ليس له نظير بين البشر ، وهذا ماحرص عليه البلاط ، ويذكر انه عندما كانت جحافل المغول تجتاح اسية ، استقبلت سفارة مغولية في القسطنطينية فعاد افرادها ليخبروا زعامتهم انهم عادوا من دولة لايمكن قهرها لقوتها و ثرائها المرعب ، لذلك يحسن تجنب قتالها .

وكان الامبراطور البيزنطي حاكما اتوقراطيا مطلقا ، ليس

لصلاحياته حدود اوضو أبط حتى أنه يشرف على الكنيسة ويسيرها ويوافق على تعيين البطريرق أو يعينه ، وكان يدعو المجلس الكنسي للاجتماع برئاسته ، ويصدر القرارات ممهورة بامضائه ، لكن سلطة الامبراطور على الكنيسة لم تكن قط مطلقة ، وتميز سكان الامبراطورية بتدينهم واهتمامهم الزائد بالمشاكل الدينية ، وكان الامبراطور يتجنب المواجهة في الخصومة مع البطريرق خاصة في المسائل التي تثير الجماهير .

ولقد حكمت الامبراطورية البيزنطية خلال الحقبة الثانية ٦١٦ - ١٠٥٧ م من قبل اسرتين وقد تم تأسيس الأسرة الاولى من قبل ليو الايسوري وبقيت هذه الأسرة في السلطة من ٦١٦ وحتى ٨٦٧ م ، وأسست الثانية من قبل باسيل الاول ودعيت باسم الأسرة المقدونية وحكمت هذه الأسرة من ٨٦٧ وحتى ١٠٥٧ خلال هذه الحقبة كانت الشعوب البلغارية قد اندمجت بالقبائل السلافية وكونت في شمال الامبراطورية دولة قوية كانت دوما معادية للامبراطورية الى ابعد الحدود ، ومع استمرار العداوة بين دولة البلغار والامبراطورية قام حكام البلغار فتبنوا لقب قيصر ، وهو اللقب الذي سيرته ملوك روسيا فيما بعد ، وهم حين فعلوا ذلك ارادوا أن يظهروا بمظهر النند للامبراطور البيزنطي وليس التابع ، وقد تم تحويل البلغار الى المسيحية لكن هذا لم يترك أي أثر على سياستهم المعادية لبيزنطة ، وكان لهذه السياسة نتائج مهيلة ، فقد سفكت كميات كبيرة من الدماء بين الطرفين في معارك كثيرة ، وتمكن البلغار في أكثر من مناسبة من هزيمة جيوش الامبراطورية وحصار القسطنطينية ذاتها ، لكن عدم وجود اسطول لديهم حال دون تمكنهم من فتحها وبالتالي القضاء على الامبراطورية ، ولقد تعرضت حدود دولة البلغار لضغط عسكري جاء من قبل شعوب روسيا ، وكان أشد هذه الشعوب شكيمة البشناق ، وتحالف البشناق مع الامبراطورية ضد البلغار ، وأخيرا نجد الامبراطور باسيل الثاني الذي عرف بلقب جزار البلغار يتمكن

في حملات استمرت من ٩٩٦ م وحتى ١٠١٨ م من قهر البلغار ودمج دولتهم في امبراطوريته .

وكان العرب اعدى اعداء الدولة البيزنطية واقواهم ، ولن نتحدث عن العلاقات البيزنطية العربية ، بل سنكتفي بالاشارة الى بعض الامور اشارة عابرة ، اما فيما يتعلق بمزيد من التفاصيل فيمكن مراجعة ذلك في كتابي تاريخ العرب والاسلام .

لقد هدد العرب ايام الدولة الاموية الامبراطورية وحاصروا عاصمتها أكثر من مرة ، وملكوا اسطولا قويا حاز النصر تلو الآخر من الاسطول البيزنطي ، وعرف العرب نظام الصوائف والشواتي ، وكان بنو أمية يشعرون بخطر بيزنطة لأن عاصمة دولتهم كانت في دمشق ، لكن بعد سقوط الدولة الاموية واتخاذ العراق مركزا للخلافة ، شغلت هذه الدولة نفسها في مشاكل اراضي الخلافة الشرقية في خراسان ، وكان ما اولته من اهتمام للعلاقات مع بيزنطة قليلا نسبيا ، لقد اعتمد العباسيون على مبدأ الدفاع العسكري على عكس سياسة بني أمية الهجومية ، لذلك قام العباسيون بتحسين مراكز الحدود مع بيزنطة فأقاموا ما عرف بنظام العواصم ، وكان اهتمام الدولة العباسية بالاسطول اقل من اهتمام الدولة الاموية به وفي عهد الخلفاء الأوائل من بني العباس قام عدد منهم مثل الرشيد ثم ولديه من بعده المأمون والمعتصم بنشاط عسكري كبير ضد بيزنطة جعلها تشتري السلام بمبالغ كبيرة .

وعلى الرغم من أن جبهة البلغار مع جبهة الاسلام استولت على وقت اباطرة بيزنطة واستهلكت جل اهتماماتهم ، إلا أن هؤلاء الاباطرة أدركوا ، أنهم لا يمكنهم اهمال العلاقات مع أوربة الغربية ، ولهذا نجد الامبراطور الايسوري الذي عد نفسه امبراطور رومانيا يدخل في حوزته البندقية مع أجزاء من جنوب إيطاليا وصقلية وسردينيا ، وزيادة على ذلك نجد البطريرق البيزنطي على الرغم من استقلاله في منصبه الكنسي نجده مع الامبراطور يعترف نظريا بأن

البابا هو راس كل الكنائس ، وحيث ان البابا كان متورطا بمشاكل اوروبا الغربية ، وبسبب ان الامبراطور البيزنطي كان يرى نفسه امبراطورا رومانيا ، لذلك نجد كثيرا من الابطرة يتاثرون فيما كان يجري في دول اوروبا الغربية ويتفاعلون معه .

على ان اول مواجهة حقيقية وقعت بين بيزنطة واوروبا الغربية كانت في سنة ٨٠٠ م عندما قام شارلمان (٧٦٨ - ٨١٤) ملك الفرنجة باتخاذ لقب امبراطور ، وأعلن عن اعادة قيام للامبراطورية الرومانية ، إنما رومانية مسيحية مقدسة ، وكانت بيزنطة تحكم آنذ من قبل الامبراطورة ايرين والدة الامبراطور قسطنطين السادس ، وقامت ايرين بعزل ابنها وسملت عيناه وأعلنت نفسها امبراطورة حاكمة اصلية لبيزنطة وليس بالوصاية على ابنها كما الحال من قبل وكان شارلمان حين أعلن نفسه امبراطور يدعي خلو العرش الامبراطوري من رجل يشغله ، وفي البداية رفضت ايرين الاعتراف بالخطوة التي أقدم عليها شارلمان وجرت مباحثات بين الطرفين، وفي سنة ٨٠٣ م توصل الطرفان الى اتفاق يتم به حل المشكلة وتوحيد الامبراطورية الشرقية العتيدة مع الامبراطورية الغربية الفتية وذلك بزواج ايرين من شارلمان ، لكن حدوث انقلاب داخلي ضد ايرين حال دون تنفيذ ذلك ، وبعد هذا الحدث أصبحت أحداث الغرب الأوربي ذات اثار فعالة على بيزنطة لذلك يحسن بنا التوقف هنا في حديثنا عن بيزنطة لنعود فنحدث باحثين في حوادث تاريخ اوروبا الغربية والمقدمات التي أدت الى قيام شارلمان وعلان امبراطوريته ثم نعود الى عرض هذه القضايا بشيء من الإسهاب والتفصيل .

إنما قبل أن نختم هذا يحسن بنا القيام بعرض للسياسة الدينية والمشاكل العقائدية التي عاشتها الامبراطورية في هاتين الفترتين ، أي منذ أيام جستنيان وحتى بداية القرن التاسع ، لقد ابتغت سياسة جستنيان الدينية السيطرة على الكنيسة مثل السيطرة على الادارة العسكرية والمدنية للدولة ، فلقد أراد جستنيان أن يكون

امبراطورا يجمع في يديه بين صولجان الملك وعصا راعي الكنيسة وأن يضع على رأسه تاج الملك إلى جانب تاج الشوك الموروث عن المسيح ، وقد اتجهت جهوده نحو توحيد العالم المسيحي وكنائسه تحت سيطرته ، وجعله يتبع كنيسة واحدة هو سيدها الفعلي ، وقد جهد أولا في سبيل القضاء على بقايا الوثنية وجميع أنواع الهرطقات قضاة تاما ، لذلك تمسك بما أصدره أسلافه من مراسيم دينية ، وتابع عملية اغلاق المدارس الفلسفية في أثينا وسواها وأقصى عن مهنة التدريس جميع المتنورين بالفلسفة الهلنسية ، وأراد أن يمارسها كل انسان بعيد عن الشبهات التحررية والفكرية كما أقصى اليهود عن جميع الوظائف الرسمية ، وفي عصر جستنيان واجهت الكنيسة انقسات جديدة كان مصدرها سورية السريانية ، ففي منطقة الرها شمالي شرقي سورية حدثت مشادات دينية وطرحت بعض القضايا والتفسيرات الجديدة حول طبيعة شخصية المسيح ، وتمثل هذا بحركتين عرفتا بحركة الذساطرة وحركة اليعاقبة ، فقد قال الذساطرة إنه إذا كان المسيح قد ولد ولادة بشرية فأمه السيدة العذراء هي انسان عادي ليس لها أية صفات علوية ، وخالفهم اليعاقبة في ذلك فقاموا بمنح العذراء الصفات الالهية العلوية ، وأيدت الدولة اليعاقبة الذين عرفت حركتهم باسم المونوفيزتية ، ونكلت بالذساطرة وطاربتهم ، مما دفع بعض هؤلاء الى ترك سورية والهجرة الى الأراضي الساسانية ، ومن هناك نشط الذساطرة فأوصلوا المسيحية الى الشرق الأقصى كما شغلوا بورا بارزا في نقل الثقافة السريانية الى بلاد فارس وتابعوا هذا الدور فيما بعد ، بعد قيام الاسلام وقيام حركة الترجمة الى العربية في العصرين الأموي ثم العباسي.

وحاول اليعاقبة أن يقدموا تعليلا للعلاقة بين الطبيعتين اللاهوتية والناسوتية في شخصية المسيح ، وقد رفضت البابوية هذا التعليل ، وحينما قام الخلاف أيام جستنيان حول هذه المسألة تآرجح الامبراطور بين الكاثوليكية والمونوفيزتية ، وبعدما دخلت

قواته روما اتخذ موقفا محددا من هذه المسألة ، الا وهو موقف زوجته ثيودورا ، التي دانت بمذهب اليعاقبة ، وحينما رفض البابا فجليوس هذا الرأي اعتقله جنود الامبراطور وساقوه الى القسطنطينية حيث عقد في سنة ٥٥٣ مجمع كنسي مسكوني جديد برئاسة الامبراطور اقر فكرة اليعاقبة لكن هذا لم يؤد الى تلاحم الكنيستين الشرقية والغربية بل زاد من حدة الانقسام بينهما ، فبعد وفاة جستنيان بفترة وجيزة دخل اللومبارديون ايطاليا فأنهوا السيطرة البيزنطية على روما ، ولا بد من الاشارة هنا الى ان من دوافع تأييد افكار اليعاقبة كونهم اصحاب القوة في سورية ومصر ، وكان الامبراطور مضطرا الى اخذ ذلك بعين الاعتبار ، لكن تطور الاحداث فيما بعد ، خاصة بعد قيام الاسلام وفتح المسلمين لكل من سورية ومصر جعل الامبراطورية تفكر في إيجاد سياسة جديدة تتقرب فيها من البابوية ، ولهذا نجد الامبراطور قسطنطين الرابع يحاول استرضاء البابا اجاثون (٦٧٨ - ٦٨١ م) فتم عقد مجمع مسكوني جديد سنة ٦٨١ م في القسطنطينية قرر اعدام المونوفيزتية ، وطبعاً عاشت هذه العقيدة واستمرت موجودة وهي عقيدة الكنيسة المصرية في ايامنا هذه .

وبعد هذا المجمع عانت المسيحية من مشاكل جديدة وتعلقت هذه المرة بمسائل مختلفة عما مضى ، لقد تعلقت بعبادة الصور أو كما تعرف عادة بمشكلة عبادة الايقونات ، ذلك ان المسيحيين أخذوا في تصوير بعض مراحل حياة السيد المسيح وذلك ربما منذ القرن الرابع وزينت الكنائس بهذه الصور مع تماثيل كثيرة ، وأخذ بعضهم يقدر هذه الصور لا بل يعبدها ورأى بعض المتنورين في ذلك نوعاً من انواع الشرك الوثني ، وانقسم الناس بين مؤيد لتقديس الصور وآخر رافض ، وارتبط ذلك بالسوية الثقافية مع التراث الفكري لكل مجتمع من المجتمعات المسيحية، فحيث وجد التراث الهلنستي في الامبراطورية البيزنطية فقد كان تيار المعاداة للايقونات قويا ، وعكس هذا كان الحال في اوروبا الغربية المتدنية ثقافياً .

وبدأت حرب الأيقونات خارج العالم المسيحي سياسيا، لقد بدأت في ديار الاسلام، فقد أصدر الخليفة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٣ م أمرا بتحريم عبادة الأيقونات ، ذلك أن الاسلام حرم الشرك وعبادة الأوثان ، ومن ديار الاسلام انتقلت الفكرة الى بيزنطة وسواها من ديار المسيحية ، وتمسك الامبراطور ليو بفكرة تحريم عبادة الصور وعارضته البابوية فكان هذا سهمتا جديدا طرح في معترك الخلاف بين الشرق والغرب .

ففي سنة ٧٢٦ م أصدر الامبراطور ليو قرارا بتحريم عبادة الصور وأمر بإزالة جميع التماثيل والصور من الكنائس ، وريت البابوية عليه بحرمانه من المسيحية وطرده من الكنيسة ، فقام بمصادرة أملاك البابوية في كافة المقاطعات التابعة له في جنوب إيطاليا وصقلية وفصل الكراسي الأسقفية في هذه المناطق عن البابوية ولقد ساعدت هذه الصراعات البابوية وزانت من تحكمها بإيطاليا وشجعتها على التعاون مع الدول البربرية وكانت المقدمات الأولى لقيام امبراطورية شارلمان .

ستهزم مع الأيام حركة معارضة عبادة الصور ، وسيترافق انتصار عبادة الصور مع تقديس بقايا القديسين والاعتقاد بصدور المعجزات عن هذه البقايا وعن بعض الأيقونات ، وأخذ الناس يرتحلون من مكان الى آخر لزيارة الأيقونات والبقايا المقدسة ، وتطور هذا مع تطور الحياة التجارية وحركات النقل إلى إبداع ما سيعرف باسم عقيدة الحج في المسيحية مما سيكن له أوسع الآثار في رواج الحركة الصليبية .

الفصل الثاني

الفرنجة ودولهم

الدولة الميروفنجية:

يعد بعض المؤرخين أن أهم حدث كان قد نجم عن تاريخ هجرة الشعوب الجرمانية وغزواتها لأراضي روما هو قيام دولة الفرنجة ، ذلك أنها الدولة الوحيدة التي كتب لها البقاء والاستمرار ضمن أراضي روما ، ولم تلق مصير دول الوندال والقوط الشرقيين ثم الغربيين الذين قضى على ممالكهم البيزنطيون ثم المسلمون ومما يذكر أن قبائل الفرنجة كانت بين أنفسهم في القرن الثالث نوعاً من التحالف البدائي، لكن مظاهر قوة هذا الحلف أخذت تظهر في القرن الخامس وكان أهم كتل هذا التحالف كتلتان عرفتا باسم الفرنجة البحريون والفرنجة البريون ، وفي القرن الرابع كان قد تم استقرار هاتين الكتلتين داخل الأراضي الرومانية ، ولم تكن القبائل الفرنجية آنذاك تكون مجموعة قومية أو قبائل أمة واحدة لقد كانت هذه القبائل مجموعة كتل متفرقة متباينة في كثير من الجوانب ، والأمم الجرمانية وجدت بعد قيام دولها وليس قبل ذلك وذسمع عن قبائل الفرنجة لأول مرة حينما حاربهم الأمبراطور الروماني جوليان (٣٦١ - ٣٦٣ م) ونراهم بعد ذلك يقاتلون ضد مصالح الأمبراطورية أو لحسابها ، ونجدهم فيما بعد يتعاونون مع جيوش الأمبراطورية والقوط للتصدي للهون وحماية غاليا من أتلا وقواته . وعقب هذا الحادث استقرت هذه القبائل في أراضي غاليا فصارت كلها قبائل بربرية بشكل فعلي .

وكان لكل قبيلة زعيمها الخاص بلقب من أصل روماني يعني ملك ، ومن بين العديد من الزعماء كان واحد عرف باسم جليديريك ، وكانت منطقة نفوذه هي منطقة الحدود الحالية بين بلجيكا وفرنسا ، وحين وفاته سنة ٤٨١ م خلفه في منصبه ابنه كلوفيس (٤٨١ - ٥١١ م) الذي يعد المؤسس الحقيقي لدولة الفرنجة التي عرفت باسم الدولة الميروفنجية ويحسن قبل الحديث عن دولة كلوفيس وتوسعتها أن نذكر أن الفترة الواقعة ما بين (٥٠٠ - ٩٠٠ م) في تاريخ أوربة الغربية تعد فترة تحول من الحضارة الرومانية ومما يمكن دعوته بالحضارة الجرمانية إلى حضارة العصور الوسطى ، ففي خلال هذه الفترة استقرت الشعوب الجرمانية ووطرت مؤسساتها ، وصارت عاداتها السالفة عبارة عن قواعد قانونية ، وبدلاً من حال كانت فيه التقنية الزراعية بدائية جداً لشعوب نصف بدوية نصف مستقرة طورت الشعوب الجرمانية زراعتها لأن اقتصاد مؤسساتها وحكوماتها اعتمد كما سبق وذكرنا على الأرض ومنتجاتها الزراعية ، وخلال هذه الفترة اختفت الوثنية مع العقيدة الأريوسية من بين صفوف الشعوب الجرمانية وصارت الشعوب جميعاً كاثوليكية أو بالأحرى رومانية كاثوليكية .

وكان الشكل الأساسي للحكم في هذه الفترة مادعاه المؤرخون باسم الحكومات الجرمانية ، وعلى الرغم من أن الممالك ونظمها في معظم بلدان أوربة عاشت قصيراً إلا أنه كتب لها الاستمرار في انكلترا وبلدان إسكندنافيا وغاليا ، ونجد في النظم الجرمانية أنه كانت أهم وظيفة للزعيم أو الملك الجرمني قيادة شعبه في الحرب ، وكان من حق الملك دعوة كل فرد قادر على حمل السلاح للانخراط تحت رايته ، وكان الملك الجرمني يتم اختياره لكن غالباً ما يتم الاختيار من بين أفراد أسرة زعامة ملكية واحدة ، ولقد اعتقدت الشعوب الجرمانية وقبائل الأنكلوسكون أن ملوكها قد انحدروا من صلب أحد الآلهة الجرمان ولذلك عدت الأسرة المالكة الجرمانية أن حقها في الحكم محصور لها دون سواها وعد الملوك الجرمان أن واجباتهم هي القيادة في الحروب والإشراف على رعاية بعض

الاحتفالات والتقاليد وفيما عدا ذلك كان الملك يصرف وقته في تجميع الذهب والفضة والمجوهرات ومعاشرة النساء الجميلات بدون قيود زواجية أو عددية ، ومعاقرة الخمر واكل اللحوم بشكل عظيم ومقادير هائلة .

وصحيح أن دراسة الممالك الجرمانية ونظمها أمر له شأنه ، إلا أننا سنقتصر هنا على دراسة مملكة الفرنجة ثم ممالك انجلترا لأنها قد كتب لها الاستمرار والبقاء الفعال .

وبعدما عدا كلوفيس زعيم الفرنجة البحرين ، أخذ بالتوسع في غاليا فاستطاع في سنة ٤٨٦ م الاستيلاء على منطقة سوايسون لكنه برغم توسعه وتأسيسه لمملكة مستقلة فعلية ظل يعد نفسه موظفا في خدمة الامبراطور وينوب عنه في حكمه لمنطقته ، ونلاحظ أن جميع الذين حكموا الدولة الفرنجية بعد كلوفيس كانوا جميعا يطبعون رأس الامبراطور الروماني على نقودهم وبقيت في أيام كلوفيس الإدارة تسير حسب النظم الرومانية السالفة لذلك يمكن عد كلوفيس من بعض الوجوه مجرد خليفة للحاكم الروماني لغاليا ، ورغم أن الماضي الروماني لم يتم قطعه بقيام مملكة الفرنجة ، إلا أن هذه المملكة تأثرت قليلا بالفكر السياسي الروماني ، وكما سلفت الإشارة فقد اعتقد ملوك الأسرة الميروفنجية أنفسهم بالانحدار من أحد الأرباب : ولقد كانوا يطلقون شعورهم ويجعلونها تتدلى على اكتافهم كإشارة إلى نسبهم الرباني ، ولم يكن الملك وراثيا من أب إلى ابن بل كان وراثيا ضمن العائلة المقدسة ، وبعد وفاة الملك كان يتم انتخاب ملك جديد ، ومن ثم يتم تتويجه ، وكانت أهم عملية في احتفالات التتويج حمل الملك المنتخب على ترسة المقاتلين كدليل على الاعتراف بالانتخاب ، وكانت المملكة تعالج قضاياها كممتلكات خاصة بالعائلة المالكة .

وتميزت حركة الفرنجة في ظل كلوفيس بالتوسع الاقليمي والحربي والسياسي ، لذلك يرى بعضهم في كلوفيس فاتحا عسكريا ومؤسسا لمملكة وليس قائدا لشعب مهاجر وبخل كلوفيس في صراع

ضد بقية الشعوب الجرمانية في إيطاليا وسواها وعلى حساب ممتلكاتها توسع ، ولعل من حسن حظ الفرنجة أن مواطنهم الجديدة في غالبا ظلت على صلة وثيقة بمواطنها لما قبل الهجرة ، لذلك تلقى الفرنجة روافد دموية دائمة فأمكن لهم الاستقرار والبقاء الأمر الذي لم يحدث لبقية الشعوب الجرمانية . وكان كلوفيس سياسيا بارعا ، وقد قام عام ٤٩٦ بالاقدام على اعتناق المسيحية ، لكن ليس حسب المذهب الأريوسي مذهب بقية الشعوب الجرمانية إنما حسب العقيدة الكاثوليكية الرومانية ، وبذلك تميز ملوك الفرنجة عن غيرهم من ملوك الشعوب الجرمانية ، فكانوا أبرياء من كل هرطقة ، إلا أن اعتناقهم للكاثوليكية قد تم بهداية ربانية نظرا لتمييزهم عن سواهم ، وأوجد هذا في نفوسهم شعورا داخليا بالتفوق وبأن لهم رسالة سماوية لأن ملوكهم من أصل سماوي ، وحين فعل ملوك الفرنجة هذا فتبنوا مثل هذا الرأي شابهوا بقية ورثة الامبراطورية:الاباطرة البيزنطيين وخلفاء الدولة الاسلامية الذين امنوا بتأييد السماء لهم ، بعدما قامت باختيارهم ، ولاشك أن هذه المشاعر كانت واحدا من أهم المحركات على قيام حركة التوسع الفرنجي ، ووراء دور الفرنجة الكبير في صنع تاريخ اوروبا في العصور الوسطى في اوروبا الغربية .

إن اعتناق كلوفيس للمذهب الكاثوليكي قد جعله يظهر بمظهر المدافع عن المسيحية الشرعية ليس في مملكته بل في جميع اوروبا الغربية ثم العالم المسيحي ، وعنى هذا قيام نوع من التحالف بين الفرنجة والرومان والتألف بين البابوية وملوك الفرنجة ، وهذا التحالف التحالفي كان له آثار بعيدة حيث حظيت شعوب اوروبا الكاثوليكية بود ملوك الفرنجة ورغبت في الدخول في طاعتهم ، وكان لهذا آثاره على علاقات مملكة الفرنجة مع غيرها من الممالك الجرمانية حيث ولد العداء والصراع وكانت الحروب غالبا لمصلحة الفرنجة على حساب الألمان والقوط الشرقيين والغربيين.

وعندما توفي كلوفيس سنة ٥١١ م قسمت مملكته بين اولاده

الأربعة وهكذا ظلت دائما مقسمة ، لكن وجود فكرة للملك أنه حق محصور ضمن الأسرة المالكة كلها خفف من مضار التقسيم هذه وساعد على استمرار أعمال التوسع الفرنجي ولم يمنح الدولة والأقسام حدودا دائمة معترف بها ، وكانت أهم دول المملكة الميروفنجية هي : دولة أوسترازيا وقامت ممتلكاتها على طرقي نهر الراين ، وعرفت الأراضي الواقعة في شمال غاليا باسم دولة نوستريا ، في حين عرفت الدولة المهمة الثالثة باسم برغنديا وأوكتين ، ولقد كانت المؤثرات الجرمانية أقوى في الدولتين الأوليتين بينما كان هذا المؤثر ضعيفا في الدولة الثالثة حيث نتجة لهذا ظلت لاتينية الموارث والمؤثرات .

ومع اعتناق ملوك الفرنجة للمسيحية الكاثوليكية وقيام علاقات جيدة بينهم وبين المؤسسات الدينية ، فإن هؤلاء الملوك كانوا غير متدينين وجل ماكان رجال الكنيسة يطمعون منهم هو تطبيق بسيط لبعض القواعد والأحكام الدينية .

وعلى سبيل المثال نجد أن الزواج الشرعي أو شرعية الزواج امر لم يكن له أي وجود أو معنى لدى ملوك الفرنجة ، فكان الملك الميروفنجي ورجال بلاطة كل منهم يعاشر ماشاء من النساء ولايهتم بشرعية العلاقات ومسائل شرعية ولادة الأولاد ، ولهذا نجد كل ماكانت الكنيسة تطمع به أن يعترف الملك بواحدة من النسوة زوجة شرعية ، ثم يعاشر ماشاء من النساء بعد ذلك ، وطبعاً لم يكن الملك يعارض فرض الزواج الكنسي على رعاياه ، أما عليه وعلى أسرته فلا ، يتزوجون ويطلقون كل حين وحسب كل رغبة ، وحيث وجدت أعداد كبيرة من النسوة المطلقات واليتامى من الفرنجة فقد أخذت الكنيسة بالعناية بهؤلاء ولم يعارض ملوك الفرنجة ذلك ، لهذا صار للكنيسة وظائف اجتماعية في داخل مجتمع الدولة الميروفنجية .

ولم يمتد على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاماً حتى ضعفت وتوقفت عن التوسع والنمو وذلك بشكل مفاجيء ، وعاشت طورا من الحروب الداخلية الأهلية ، وقد استمرت حالة الفوضى هذه قرابة

قرن ونصف القرن وظهر في هذا الوقت ملوك من اسرة كلوفيس يدعون عادة بالملوك الذين يملكون ولا يحكمون ، وفي الحقيقة كان الملوك الذين تولو العرش من ذوي الطاقات الكبيرة انما الغريب ان حياة كل منهم كانت قصيرة لذلك كثر عددهم ، وقل تأثيرهم ، ولهذا تغلب على الحكم في هذا الوقت رجال البلاط والنبل ، واخذ النبل يسيرون شؤون كل دولة ويتحكمون بها مع رجال الكنيسة والدين ، ونالت الكنيسة الكثير من الصلاحيات ومزيديا من الاستقلال عن السلطة الزمنية ، حتى غدت شبه مستقلة ، واحتكر كل نبيل من النبل ملكية من الارض خاصة استقل بها ، وصار من غير الممكن بالنسبة للتاج فرض الضرائب على ممتلكات الكنيسة والنبل .

لقد صارت السلطة مع الزمن بيد أحد النبل الذي كان يتم اختياره في البلاط وحجابه الملك وذلك في سبيل منع الملك من الحكم وبالتالي نزع امتيازات النبل والاضرار بمصالحهم وفي البداية كانت هذه الوظيفة متواضعة لان مهام صاحبها كانت مجرد الاشراف على خدم القصر وموظفيه ولكنها تطورت مع الأيام وصار صاحبها هو صاحب السلطة الفعلية في الدولة الميروفنجية يشرف على جميع ادارات الدولة وعلى النفقات وتوزيع الجباة وحتى قيادة الجيوش المحاربة، ومنذ سنة ٦١٤ م تعاقب على هذا المنصب عدد من النبل عن طريق الوراثة فأصبحت السلطة حصرا في اسرتهم ومنذ سنة ٦٣٩ يوم وفاة آخر الميروفنجيين الكبار وهو داغوبيرت الاول صار تاريخ هذه المملكة واقسامها الثلاث مرتبطا برؤساء البلاط ، وكان رئيس البلاط ايام هذا الملك اسمه بيبين لاندن ، وبعد وفاته حاول كل من ابنه ثم ابن ابنه (اي حفيده) الغناء الملكية الميروفنجية فأخفقا وقتلا ، وقسم صراع وخلال عمليات الصراع كان النصر مؤخرا من نصيب دولة استرازيا فبرز رئيس بسلامها الذي عرف باسم بيبين الثاني وهو ابن بنت بيبين الاول وصار مسؤولا عن بلاط استرازيا ونوسترا وعقب وفاته برز كما سمرى ابنه غير الشرعي شارل مارتل سنة ٧١٤ م واخذ مكانه وسنتحدث فيما بعد عن اعمال شارل مارتل التي ادت الى توحيد مملكة الفرنجة

- ١٠١٨ -

وبالتالي الى انقراض الدولة الميروفنجية وقيام دولة جديدة حلت محلها وهي الدولة الكارولنجية .

حضارة الدولة الميروفنجية

الحياة الاقتصادية

إن ما نملكه من معلومات عن طبقات المجتمع في ظل الدولة الميروفنجية قليل جدا فالذي هو متوفر يتعلق بالأسرة المالكة وطبقات النبلاء والأساقفة ورؤساء الكنائس والديرة ، وقد ملك كل من هؤلاء أملاكاً واسعة للغاية اختلفت الى حد كبير عن طبيعة القرية أو المؤسسة الزراعية أيام الامبراطورية الرومانية ، وقد زرعت هذه الأملاك من قبل أجراء أو وكلاء كانوا أنصاف أحرار ، أي أنهم لم يكونوا من أقنان الأرض ، ولكنهم ماكانوا يملكون الحق في التحرك من المزارع التي يعملون بها ، وقد ملك كل واحد من الأجراء كوخاً حقيراً عاش به مع أسرته ، وذلك بالإضافة الى قطعة صغيرة من الأرض زرعها واعتمد على انتاجها في نفقات عيشه مع أسرته ، وقد أمضى الأجير معظم الوقت في العمل في أرض سيده الكبير دونما مقابل ، ويبدو أن معظم هذه الممتلكات والمؤسسات الزراعية كانت ذات أصل روماني ربما كانت تعود الى بعض أعضاء مجلس الشيوخ الروماني أو كانت من أملاك التاج الامبراطوري لكنها مع الأيام غدت في حوزة النبلاء من الفرنجة ، كما أقام رجال آخرون من النبلاء مع رجال الكنيسة والديرة مؤسسات مماثلة .

ويمكننا أن نلاحظ وجود نمطين من القرى لدى الفرنجة : نمط سكانه رجال أحرار يملكون جميعاً الأرض ويزرعونها بطريقة تعاونية تحت إدارة وتوجيه مجلس قروي أما النمط الثاني فقد كان عبارة عن قرية ملكها أحد النبلاء الفرنجة وسكنها مع أتباعه الذين كانوا في البداية رجالاً لكن مع مرور الزمن أخذوا يتحولون الى حال

الرجال النصف احرار الذين قاموا بادارة المزارع الرومانية القديمة وزراعتها ، وعلى الرغم من استمرار النمط الروماني القديم في الزراعة وقيام مؤسسات زراعية على الطريقة نفسها فقد ظل في المجتمع الميروفنجي اعداد لابأس بها من الناس الاحرار ذوي النشاطات الاقتصادية المختلفة والأوضاع الاجتماعية المتباينة ، وكان هناك مزارعين صغار يملك كل منهم مزرعة يديرها بنفسه ويكاد انتاجها يكفيه مع أسرته ، وكما كان هناك مزارع متوسطة الحجم كان اصحابها يستعينون بعدد من الاجراء ، وقد بلغ عددهم عشرون احيانا وكان هناك اناس لا يملكون ارضا لكنهم كانوا يعيشون بشكل مرضي ، فقد جرت العادة ان تقوم الكنيسة و احيانا بعض الملاك الكبار بمنح احد الناس قطعة من الأرض صغيرة يقوم باستغلالها لنفسه واسرته ، و احيانا قد تكون الأرض كبيرة فيستخدم اجراء للعمل بها .

وكان هذا المقطع يوافق في عقد الاقطاع على ان يدفع اجرة للأرض التي اعطيت له لاستغلالها ، وكانت الاجرة إما كمية من المنجزات أو عبارة عن خدمات محددة ، وكان المقطع يقسم عند صنع العقد بينه وبين المانح يمينا بالولاء والاخلاص لهذا الملاك الكبير ويعاهده على ان يوقف أو يحبس نفسه له ولخدمته مصالحه ، وبعبارة أخرى يقسم على ان يصبح رجلا من رجاله وتابعيه ، وحصل ملاك الأراضي بواسطة هذه الطريقة على اتباع مخلصين وضمنوا في الوقت نفسه اراضيهم ، وقد استخدم في عقود استغلال الأرض حسب هذه الطريقة عدد من المصطلحات كان من أشهرها سيد ومسود أو مولى وتابع .

ومن الملاحظ أن الحضارة زمن الميروفنجيين استمرت في الانحدار في غالبا ، ولم تتوقف عن متابعة السير في هذا المنحى الذي صارت فيه منذ القرن الثالث ، إنما الآن سارت بسرعة أكبر من ذي قبل ، وكان الفرنجة في الدرجة الأولى رجال حرب ولم يكونوا تجارا ، وكان اهتمامهم بالحياة المدنية في الأرياف وسواها ضعيفا

أو منعذما ولم يهتم ملوكهم بالتجارة ولم يعملوا على تشجيعها لذلك أهملوا صيانة طرق القوافل ولم يرمموا الجسور والمعابر ولم يهتموا بمسائل الأمن على الطرق كما لم يقدموا أية ضمانات لحماية التجارة والتجار ، وذلك أن الملك الميروفنجي لم يفكر مطلقا بأن مثل هذه الأعمال هي من اختصاصاته وواجباته .

لكن لم تمت التجارة ضمن المملكة الميروفنجية تماما بل استمر بعض العمل التجاري في بعض الموانئ والمدن الساحلية القديمة ، إنما هذا انحصر فقط في أجزاء من السواحل وانعدم العمل التجاري تماما في داخل أراضي المملكة ، ومع نهاية عصر الدولة الميروفنجية كانت غالبا قد أصبحت بلدا زراعيا ليس له اقتصاد قومي بل قام فيه اقتصاد اقليمي قوامه الزراعة المحلية الانتاج والمحلية الاستهلاك ، وقد كان هناك قليل جدا من المال للتعامل به ، وانعدمت السيولة النقدية أو كانت لذلك كان التجار النزين غامروا وسافروا ندرة .

الحياة الفكرية والفنية:

لم يكن انحسار المدن وشلل الحياة الاقتصادية في العصر الميروفنجي وقساوة الطباع لتؤلف وسطا موانما لتفتش الثقافة وازدهارها ، ولكن لم يختلف كل أثر للثقافة القديمة بغزو البرابرة لغاليا ، فقد بقيت في جنوب غاليا وفي المملكة البرغندية بعض مدارس النحو والبلاغة مفتوحة خلال الثلث الأول من القرون السادس ، واستمرت الثقافة القديمة حية في أواسط العشائل الارستقراطية الكبرى حتى منتصف القرن السابع ، وكان الاساقفة الذين يرجع أصلهم الى الطبقة الارستقراطية محافظين على الثقافة الكلاسيكية وقادرين على نظم الاشعار وتطبيق البلاغة التقليدية خلال القرن السادس بأكمله ، وإذا كانت الارستقراطية الفرنجية في غاليا الشمالية قد رفضت قبول الثقافة الكلاسيكية في مجملها ، وخاصة الشعر والبلاغة ، فقد احتفظت برغم ذلك ببعض الجوانب

العملية منها كالقوانين المكتوبة واللغة اللاتينية ، الا ان هذا لاينفي ان المستوى الثقافي والفكري في العصر الميروفنجي لم يتوقف عن الانحطاط والتردي ، وخير مثال على ذلك كتابات قصص حياة القديسين التي أصبحت الشكل الرئيسي الادبي فقد كان مؤلفوها يطنبون في تقرير الفضائل نفسها ورواية المعجزات ذاتها ، وأخذ الكتاب ، من مؤرخين وأدباء يلجأون الى الكتابة باللاتينية العامة او بلاتينية مليئة بالأخطاء مثل المؤرخ غريغوار اسقف تور الذي وضع كتاب « تاريخ الفرنجة والذي هو عبارة عن مجموعة من القصص لايربط فيما بينها فكرة موجهة ، وكانت قصائد الشعار فورتونا برغم تفوقها على اشعار معاصرة ، تتصف بالتصنع والزيف .

ولم يبق سوى القليل جدا من الأوابد التي أُنشئت في عصر الميروفنجيين وقد حاول مهندسوها اتباع تقاليد أسلافهم – الغاليين – الرومانيين ولكنهم لم يقيموا سوى ابنية متواضعة الأبعاد ، وانحطت أيضا الفنون التشكيلية القديمة ، وتشهد الصور المرسومة على جدران احدى المقابر في بواتيه على مدى الانحطاط الذي وصل إليه تصوير الجسم البشري ، وبرغم ذلك كانت تيجان الأعمدة ومنحوتات التوابيت المصنوعة في اكيثانيا لاتخلو من الأناقة والذوق ، كما أن بعض القبور في المنطقة الشمالية من غاليا تشتمل على تزيينات هندسية جميلة .

غير أن ما أنقذ سمعة الفن الميروفنجي هو فن الصياغة فقد وجد في المدافن الكثير من الحلبي من اقراط وصفائح وخواتم وبوجه خاص الشكالات وأغلب موضوعات هذا الفن ، سواءا كانت حيوانية مبسطة أم هندسية ،مقتبسة عن الشعوب الشرقية ، وتميل أشكالها المختلفة الى تبسيط كبير في الخطوط يقترب من الفن الحديث ، وتعتمد على ابراز الوان الحجارة الثمينة المنزلة أو على التضارب بين وهج المعادن المختلفة الداخلة في الصنع ويمكن أن نذكر بين آثار هذا الفن الصناديق التي كانت تحفظ فيها بقايا

القديسين وهي صناديق خشبية مغطاة بصفيائح معدنية (نحاس أو فضة) محفورة أو منقوشة ، وكان القديس ايلوا من اشهر صنّاع هذه الصناديق .

الحياة الدينية:

الكنيسة الميروفنجية:

سعى ملوك الفرنجة ، كما سعى فيما بعد كبار رجال المملكة ، الى استخدام نفوذ الكنيسة العصرية وسلطانها لما فيه فائدتهم ومصالحهم الخاصة وكانت الكنيسة منذ عهد الامبراطور قسطنطين ، تتمثل على الصعيد المحلي في شخص الاسقف الذي غدا الزعيم الروحي في المدينة وأصبح الممثل الوحيد للكاثوليك والمدافع عن الغالو - رومانيين بعد سقوط الامبراطورية واختفاء الموظفين الامبراطوريين والسلطات البلدية ، وقد انحاز الاساقفة الغالليون الى الميروفنجيين إثر اعتناق كلوفيس للديانة الكاثوليكية وتعاونوا معهم باخلاص ، وقد أدى هذا التعاون خدمات ثمينة للوك الفرنجة لأن الاساقفة كانوا يهتمون بجميع نواحي الحياة المادية والروحية لرعاياهم ، فأخذوا على عاتقهم القيام بالمهام والخدمات العامة التي تخلت عنها دولة البرابرة مثل : مساعدة الفقراء والباذسين ، وإقامة العدل والقضاء بين رعايا المحاكم الكنسية ، وتأمين التعليم الديني للجميع ضمن إطار الدين الروماني الكاثوليكي ، واهتم الاساقفة أيضا بنشر الديانة المسيحية في اواسط الفلاحين الذين ظل الكثيرون منهم على وثنياتهم ، فتضاعف عدد الأبرشيات الريفية ، وكان أكثر هؤلاء الأحرار ينتمي الى الطبقة الارستقراطية القديمة الغنية المثقفة التي انقطعت عن ممارسة الوظائف العامة ، أما الاساقفة الجرمانيون فكانوا اقلية ، ففي مقاطعة اكيثانيا مثلا لم يكن يوجد بين ما يقرب من مائة اسقف سوى اثني عشر اسقفا يحملون أسماء جرمانية ، وقد يكون هؤلاء من أصل غالو - روماني لأن التسمية بأسماء جرمانية

أصبحت شائعة بين الغالو - رومانيين في ذلك الوقت ، ويبدو أن بعض العائلات الارستقراطية الغالو - رومانية كانت تحتكر منصب الأسقفية في بعض المدن ، فقد كان غريغوار أسقف تور سادس شخص يتولى هذا المنصب من العائلة نفسها .

وقد أغدق كلوفيس وخلفاؤه من بعده العطايا والهبات والامتيازات على الكنيسة ، وكانت الهبات العقارية واسعة بشكل أصبح معه الأسقف أكبر ملاك في مدينته ، بالإضافة الى شهادات الحماية والأعفاءات من الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، وساعد الملوك الميروفنجيون على نشر الديانة المسيحية وتعميمها في غاليا فأصدر شيلدوير عام ٥٥٤ أمرا بتحطيم الأصنام ، وأسس الكثير من الملوك والأمراء كنائس وأديرة عديدة في مختلف أنحاء غاليا ، وكان الملوك يطلبون من الأساقفة مقابل ذلك الطاعة التامة ، فاحتفظوا لأنفسهم بحق الدعوة إلى عقد المجمع الديني العامة ، والتدخل في الانتخابات الكنسية سواء بتقسيم مرشح الأسقفية أو بتثبيت الأسقف المنتخب وتسليمه « الأسقفية » وهكذا استمر التفاهم والوفاق بين الملكية الميروفنجية والكنيسة ، وكان الأساقفة ، حتى منتصف القرن السادس على الأقل ، أهلا للمناصب التي يتولونها وقد جعل الناس من بعضهم قديسين لأسباب لم يكن لها غالبا صلة بالدين .

وأخذت الكنيسة الميروفنجية باكتساب الطابع الاقطاعي منذ نهاية القرن السادس ، ووصلت أملاك الكنيسة في بعض المقاطعات درجة من الاتساع لم يعد معها لدى الأسقف وقت للاهتمام بشيء آخر غير ادارة هذه الأملاك والمحافظة عليها ، وأخذ بعض الأساقفة يتصرفون تصرف الأمراء الزمنيين كقيادة الحامية في الدفاع عن المدينة ، وصار الملوك يختارون الأساقفة غالبا من ارستقراطي البلاد مثل كبار الموظفين المدنيين ، مما أدى الى اشتراك الأساقفة في المؤتمرات والثورات التي كان الارستقراطيون يحيكونها ، وأهمل الأساقفة ، منذ القرن السابع ، الاهتمام بشؤون رعاياهم الدينية

أو بنشر الديانة المسيحية بين الوثنيين فانتقلت هذه المهمات الروحية شيئاً فشيئاً إلى أيدي الكليروس النظامي .

الحياة الرهبانية:

يعود نمو الحياة الرهبانية في غالبا واكتسابها أصالتها إلى العصر الميروفنجي وخاصة في نهاية القرن السادس ، فقد شهدت غالبا آنذاك تكاثر عدد الأديرة بحيث أصبح يقرب من مائتي دير خلال قرن ونصف القرن وبنلت فيها الجهود لوضع قواعد وأصول هذا الشكل من الحياة الدينية .

ويعود الفضل في تطور الحركة الرهبانية في غالبا في هذا الاتجاه إلى القديس كولومبان وهو راهب إيرلندي قدم إلى غالبا في الربع الأخير من القرن السادس ، واضطر إلى تغيير مقره فيها عدة مرات بسبب خلافه مع الاساقفة ومع الملك الميروفنجي ، ثم اضطر أخيراً إلى مغادرتها وقد كان للقديس كولومبان وتلاميذه تأثير كبير على الحركة الرهبانية في غالبا تجلى في إنشاء عدد كبير من الأديرة في غالبا الشمالية (أشهرها دير لوكسل) من جهة ، ومن جهة أخرى في اتباع جميع هذه الأديرة في حياتها مبادئ متشابهة طبقاً للقاعدتين اللتين وضعهما القديس كولومبان دون أن تؤلف نظاماً رهبانياً ، ولا تتضمن قواعد القديس كولومبان تعاليم دقيقة فيما يتعلق بالتنظيم الداخلي في الأديرة بل تحدد نوعاً من الحياة المشتركة تقوم على الخضوع أمام الراعي ، وهو السيد المطلق للجماعة الديرية ، وعلى الزهد الفردي الشديد ، وقد كان للرهبان الكولومبانيين تأثير كبير في نشر المسيحية إذ كان الحماس للتبشير الديني أحد الميزات التي يتصفون بها فكانوا يخصصون جزءاً من نشاطهم للتبشير.

ونشأت في غالبا أديرة تبنت قاعدة القديس بندكت . وتختلف القاعدة البندكتية في روحها اختلافاً تاماً عن قاعدة القديس كولومبان

فهي تشدد على أهمية الحياة المشتركة تحت سلطة راعي الدير الذي ينتخب لدى الحياة وتستبدل الذمك الفردي بالصلوات الجماعية وبالعمل ، وخاصة العمل اليدوي ، وقد اتسع انتشار هذه القاعدة في غالبا في النصف الثاني من القرن السابع ولا سيما بعد نقل بقايا القديس بندكت الى دير فلورى على نهر اللوار حوالى عام ٦٧٢ م .
وقد ادى التنافس بين هاتين القاعدتين الرهبانيتين الى نشوء قواعد رهبانية جديدة تحاول التوفيق بينهما .

يتضح مما سبق ان توسع الحياة الرهبانية كان احدى خصائص ومميزات العصر الميروفنجي ، وبعد ان كان الاسقف . حتى اوائل القرن السادس ، هو رجل الدين الذي ينظر اليه عامة الناس بنظرة تقديس واجلال ، حل الراهب محله في هذا الدور تجاه الراي العام المسيحي منذ ذلك القرن .

بريطانيا (المملكة الأنكلو - سكسونية)

لا يزال تاريخ بريطانيا في مطلع العصور الوسطى غير معروف بشكل جيد ، والمعلومات البسيطة المتوفرة لدينا مستمدة من معطيات علم الآثار ، وهي معطيات بسيطة متفرقة يصعب تحديد تاريخها بدقة ، ومن كتابات ثلاثة مؤرخين فقط وهم : الراهب جيلداس الذي وضع كتيباً عن « غزو بريطانيا وخرابها ، أمتدح فيه الإصلاح الذي قام به البريطانيون في القرن السادس وانتقد الزعماء الصغار الذين كانوا يحاولون عرقلته ، وبروكوبيوس القيساري الذي وصف بريطانيا في القرن السادس حسب ما سمعه من مبعوثي ملك الفرنجة الى القسطنطينية ، والمؤرخ الأنكلو - سكسوني بيد الذي وضع نحو عام ٧٣١ م كتاباً سماه « تاريخ الكنيسة » تلبية لرغبة أحد ملوك نورثمبريا افتخر فيه بأعمال ملوك السكسون الأوائل .

ولكن المؤكد أنه نشبت بين سكان بريطانيا من البريطانيين والرومانيين وبين الغزاة الجرمان الأنكل والسكسون والجوت حرب عنيفة لا هوادة ولا رحمة فيها امتدت منذ منتصف القرن الخامس حتى نهاية القرن السادس ، وكانت تتخلل هذه الحرب فترات سلم وهدوء نسبين على اثر المعارك الكبرى التي كان المتحاربون فيها يبيد بعضهم بعضاً .

كانت قبائل السكسون تقطن في الشمال الغربي من جرمانيا بين نهري ايمس والويزر وقبائل الأنكل في الجزر المقابلة لسواحل شبه جزيرة جوتلاند بينما سكنت قبائل الجوت في حوض الراين الأسفل الى جوار بعض الفرنجة .

وقد اخذ القراصنة الذين ينتمون الى هذه القبائل - كانوا يجوبون بحر الشمال - بمهاجمة سواحل بريطانيا الشرقية

والجنوبية مستهدفين السلب والنهب فقط ، ولكن في القرن الخامس وعلى اثر الغارات البربرية الكبرى في القارة الأوربية واذسحاب الرومان من بريطانيا ، اخذت جماعات عديدة من الأنكل والسكسون والجوت بغزو بريطانيا بقصد التوطن والاستقرار فيها . واشتدت هذه الغزوات واتخذت شكل هجرات حقيقية بعد عام ٤٥٠ م .

ففي عام ٤٤٩ م نزلت جماعة من السكسون ، كما يروي المؤرخ بيد ويؤيده في ذلك الراهب جيلداس في منطقة كنت في الزاوية الجنوبية الشرقية من انكلترا وتوصلت إلى تأسيس مملكة سكسونية فيها خلال نحو ربع قرن .

وفي عام ٤٤٧ م قامت جماعات أخرى من السكسون بغزو مقاطعة ساسكس على الساحل الجنوبي من الجزيرة وتوصلت إلى إخضاعها في غضون نحو من خمس عشرة سنة .

وغزت جماعات غيرها ، من السكسون أيضا ، مقاطعة الوسيكس في جنوب الجزيرة حوالي عام ٤٩٤ م واستتب لها الأمر فيها عام ٥٠٨ م وفي نهاية القرن الخامس احتلت جماعة من المغامرين الجوت جزيرة وايت مقابل الساحل الجنوبي .

وهاجمت عصابات من قبائل الأنكل والسكسون السواحل الشرقية للجزيرة عند مصبات الأنهار ولاسيما في خليج واش واتبعوا مجاري الأنهار متوغلين نحو الداخل كمجرى نهر نين ونهر أوز ونهر التيمس وأنشأوا محطات ونقاط ارتكاز لهم في تلك المناطق .

ولم يتم استقرار الغزاة الجرمان في المقاطعات التي نزلوا فيها إلا بعد حروب دامية ومقاومة ضارية عنيفة من قبل البريطانيين ، وكانت المعارك بين الطرفين أشبه بمجازر يسقط فيها آلاف القتلى من الطرفين ، وغالبا ماكان السكسون يلاحقون البريطانيين المهزومين إلى قلب الغابات للقضاء عليهم ، كما أن نقمتهم وبطشهم كانا يتناولان غير المحاربين من سكان المناطق التي يحتلونها فكانوا يستبيحون المدن ويعملون فيها النهب والسلب والقتل .

غير أن البريطانيين الذين اذهلتهم المفاجأة بالغزو استعادوا تنظيم جهودهم وتوحيدها بفضل بعض زعمائهم مثل أوريليانوس فاستطاعوا في القرن السادس إيقاف توسع ممالك الإسكسون في الجنوب والاحتفاظ بكل انكلترا الغربية وحوض التيمس وفرض سياستهم على مستوطنات الانكل - سكسون في حوض التيمس الأوسط . ولكنهم رغم انتصاراتهم العسكرية ، لم يستطيعوا استئصال الممالك البربرية أو إعادة بناء المدن المخرّبة أو القضاء على التنافس والمنازعات بين الزعماء المحليين .

ثم استعاد الجرمان زمام المبادرة والهجوم في اواخر القرن السادس ، وحقق ملوك وسيكس انتصارات حاسمة على البريطانيين ولاسيما في معركة ديرهام عام ٥٧٧ م ، وعلى إثر ذلك انسحب البريطانيون إلى المناطق الجبلية الغربية واعتصموا فيها وهاجر قسم كبير منهم إلى غاليا ، وانتقلت ملكية السهول الخصبة في شرق بريطانيا إلى أيدي الجرمان الغزاة .

ويصبح تاريخ بريطانيا والممالك البربرية فيها شديد الغموض والاضطراب في القرن السابع ، ويبدو أن البريطانيين استمروا في المقاومة في الجنوب حيث أسسوا دولا منيعة في منطقتي كورنويل وويلز الجبليتين ، كما استمرت مقاومتهم طوال القرن السابع ، في شمال انكلترا ، ولم يستطع الانكلو - سكسون تشكيل مملكة موحدة قوية ، ويبدو أن الجرمان شكلوا خلال هذا القرن ثمان ممالك في بريطانيا وهي : مملكة نورثمبريا في الشمال ومملكة لندس على الساحل الشرقي شمال خليج واش ، ومملكة انغليا الشرقية جنوب خليج واش ومملكة اسكس شمال نهر التيمس وممالك كنت وساسيكس ووسيكس وجزيرة وايت في الجنوب ، وفي هذا القرن أيضا تم اعتناق الانكلو - سكسون للديانة المسيحية بفضل البعثات التبشيرية التي أرسلها البابوات إلى الجزيرة .

وكانت هذه الممالك الانكلو - سكسونية في خلاف ونزاع دائم فيما بينها واهمها ممالك كنت ووسكس ومرسيا ونورثمبريا ، وقد حاولت

كل من هذه الممالك الاربعة توحيد بريطانيا تحت سيادتها ، ولكن جميع محاولات التوحيد لم تنجح إلا لفترة بسيطة من الزمن وانتهت بالاخفاق ، وذلك لأنها كانت تقوم على جهود ملك قوي يتمتع بالنبوغ العسكري بحيث يتمكن من إخضاع الملوك المجاورين ، ولأن محاولات التوحيد كانت تصطدم بمقاومة البريطانيين الشديدة الذين عرفوا كيف يستغلون الخلافات بين ملوك الانكلو - سكسون للحيلولة دون تشكيل مملكة انكلو - سكسونية موحدة وقوية .

النظم الانكلو - سكسونية

كان الغزاة الانكلو - سكسون يتألفون من جماعات عديدة لكل منها زعيمها ، وبعد أن تم لها النصر على البريطانيين لم تتحد فيما بينها لتؤلف مملكة واحدة على غرار ما حدث في غاليا الفرنجية أو إسبانيا القوطية ، بل اقامت عددا كبيرا من الدويلات وكان لكل دويلة ملك منتخب من بين افراد عائلة يعتقد أن نسبها يتصل إلى الالهة ، فالملكية لم تكن مؤسسة سياسية بقدر ما كانت امتيازاً لشخص يتمتع بمواهب عسكرية لأن الملك زعيم عسكري قبل كل شيء ، وكان النشاط الرئيسي للملك هو شن الحرب ضد الملوك المجاورين فإذا تغلب على أحدهم ضم مملكته أو فرض عليه الجزية ، وقد نجح بعض الملوك في فرض سيطرتهم على انكلترا بأكملها وحملوا لقب « برتويك » وكان في كل دويلة ، إلى جانب الملك مجلس يدعى مجلس العقلاء يضم أهم نبلاء المملكة وهو الذي ينتخب الملك ، وعلى هذا الأخير أن يستشير المجلس في كل الأمور الهامة .

ويتألف المجتمع من عدة طبقات تختلف نوعاً ما من مملكة إلى أخرى ، وكانت أعلى طبقات المجتمع هي الطبقة التي تشكل أفراد العائلة الملكية ويطلق عليهم اسم أكثيلنغ وكان يليها طبقة النبلاء الذين يحملون لقب ايدل وكان جميع هؤلاء من المحاربين الذين يخدمون الملك وأعضاء الأسرة الملكية ، وأتى على رأس الطبقات العامة في استثمار الأرض الفلاحون الأحرار وتلاههم طبقات عدة من غير الأحرار وأدناها طبقة العبيد .

وقد حافظ الانكلو - سكسون على أعرافهم القديمة وأدشأ الملوك محاكم شعبية رأس كل منها ممثل عن الملك من النبلاء ، وتمتع جميع الرجال الأحرار بحق حضور المحاكمات وكانت الأحكام تصدر

بإجماع أصوات الحاضرين ، وحق للملك أن يصدر ، بالاتفاق مع مجلس العقلاء ، قرارات تعدل الأعراف التقليدية أو تضيف إليها قوانين جديدة .

وكان الانكلو - سكسون ، كغيرهم من الشعوب الجرمانية ، وثنيين يعبدون قوى الطبيعة ، وأشهر الآلهة أودان الذي ادعت أكثر الأسر الملكية أن نسبها يرتقي إليه ، وإلى جانب الآلهة وجد العديد من الكائنات العلوية مثل الفالكيري والايلف ، وتوجد شواهد كثيرة تدل على أنهم كانوا يحرقون الموتى بدلا عن دفنهم .

وكانت الزراعة هي عماد الحياة الاقتصادية ، وكان الانكلو - سكسون يطبقون أسلوب الدورة الثلاثية في الزراعة ، وكانوا يعرفون الحبوب ولكنهم جهلوا أكثر أنواع الخضر والفواكه ، وكانت الصناعة بسيطة جدا تقتصر على صنع الأدوات الضرورية للأعمال الزراعية والأسلحة والحلي أما أهم المبادلات التجارية فكانت مع مملكة الفرنجة والمركز التجاري الرئيسي هو مدينة لندن .

الكنيسة الانكلو - سكسونية

كان اعتناق الانكلو - سكسون للديانة المسيحية الكاثوليكية عاملا مساعدا إلى حد بعيد على تحقيق الوحدة الأخلاقية والسياسية في وطنهم الجديد ، وفي إعادة الصلات بين بريطانيا والعالم الروماني .

ويعود بدء النشاط التبشيري بين الانكلو - سكسون إلى نهاية القرن السادس عندما بادر البابا غريغوري الكبير إلى إرسال بعثة تبشيرية مؤلفة من أربعين راهبا إيطاليا تحت رئاسة أوغسطين ، وحلت هذه البعثة في مملكة كنت حيث سمح لها الملك بالاقامة في مدينة

كانتربري منذ عام ٥٩٧ م ، وكانت توجهات البابا لاوغسطين تتمتع بالاعتدال نحو الجرمان الذين يعتنقون الكاثوليكية الرومانية ونحو البريطانيين المرتبطين بالطقوس الدينية الايرلندية . وكلف البابا ايضا اوغسطين برسم الاساقفة الجدد في بريطانيا .

اقتصرت أعمال التبشير لزمان طويل على مملكة كنت التي كان ملكها يحيى ويشجع المبشرين ، واعتنق هو نفسه الدين الجديد ، وقد حاول المبشرون الايطاليون دون جدوى ، التعاون مع الاساقفة البريطانيين الذين كانوا يعدون الايطاليين اجانباً ويكرهون الجرمان إلى حد أنهم « يخذشون الالتقاء بهم في الجنة في اليوم الآخر إذا هم اهدوا إلى الدين الصحيح » ، واقنع ملك كنت حليفه ملك انغليا الشرقية باعتناق الكاثوليكية والتعمد ، ولكن رعاياه سكان انغليا الشرقية لم يخذوا حذوه ، كما ان سكان مملكة كنت ارتدوا إلى الوثنية بعد موت ملكهم التقى عام ٦١٦ ، مما دفع اوغسطين وزملاءه إلى القنوط والياس حتى كانوا ان يرجعوا إلى غاليا هرباً من ردة فعل الوثنيين ، غير أنهم استعادوا شجاعتهم وتصميمهم على البقاء في بريطانيا ومتابعة التبشير برغم كل المضاعف ، وكانت نتيجة هذا التصميم استمرار بقاء مركز كانتربري حتى توصل احد خلفاء اوغسطين الى تعميم الملك الوثني في كنت ، ومنذ ذلك الحين اصبح ملوك كنت حماة مخلصين للكنيسة .

واحرزت بعثة كانتربري التبشيرية نجاحاً كبيراً عندما اعتنق ادوين ملك نورثمبريا المسيحية واصبحت مدينة يورك مركزاً للأسقفية ، غير ان خلف ادوين شجع الرهبان الايرلنديين واعتمد عليهم في نشر المسيحية في مملكته ، واستخدم ملك نورثمبريا نفوذه وصلات القربى التي تربطه بملكي الويسكس والساسكس لكي يحملهما على اعتناق المسيحية وعلى قبسول المبشرين في مملكتيهما ، وما ان اطل النصف الثاني من القرن السابع حتى كانت المسيحية قد عمت في كل انكلترا الوسطى والشمالية .

وفي عام ٦٦٧ م عين البابا اسقفاً جديداً في كانتربري يدعى

ثيودور . وقد عمل الأسقف الجديد على تنظيم الكنيسة الكاثوليكية في بريطانيا وبعث نشاط بعثة كانتر بري ففرض نظاما شديدا على رجال الدين وعزل الأساقفة المذشقين أو الهرطقة ، ودعا الى عقد مجمع ديني للأساقفة الكاثوليك عام ٦٧٢ م وعين أسقفا لمدينة يورك في نورثمبريا يدعى ويلفرد استطاع بنشاطه وحماسه للكاثوليكية والمذهب الرهباني البندكتي أن يحقق انتصاراً لطريقة البندكتية على الطرق الايرلندية في مملكة نورثمبريا ، غير أن طمعه وجبه للسلطة أدى في أواخر القرن السابع الى ايقاع الخلاف والنزاع بينه وبين ملوك نورثمبريا وأساقفتها الوطنيين ، وقد استمر النزاع مدة طويلة وتدخل أسقف كانتر بري والبابا نفسه فيه .

ورغم أنهما توصلا الى تحقيق تسوية بين الطرفين المتنازعين فقد بقيت بذور الشقاق والانقسام بين كنيسة نورثمبريا والكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وفقد أساقفة كانتر بري وممثلوا البابا في بريطانيا كل سلطة لهم على أساقفة نورثمبريا منذ عام ٧٣١ م حتى أن البابا نفسه اضطر عام ٧٣٥ م الى منح أسقف مدينة يورك مرتبة رئيس أساقفة .

وهكذا كانت انكلترا في اواسط القرن الثامن بعيدة عن تحقيق الوحدة الدينية بعدها عن تحقيق وحدتها السياسية .

الامبراطورية الكارولنجية

- اوائل الكارولنجيين :

أقدم من يعرف من الكارولنجيين هو بيبين لاندن الملقب بالشيخ والذي كان حاجبا للقصر في عهد داغوبيرت الأول . ثم تولى حفيده بيبين الهرستالي الملقب بالشاب حجابة القصر في اوسترازيا في دور الضعف الميروفنجي واصبحت حجابة القصر وراثية في عائلته . وقد استطاع بيبين الشاب ان يحقق الوحدة السياسية لمملكة الفرنجة تحت سيادته بعد انتصاره على حاجب قصر نوستريا في موقعة ترترى عام ٦٣٦ م وتنصيبه ابنه غريموالد حاجبا لمملكتي نوستريا وبرغنديا ولكن بيبين لم يدع خلفا له بعد موته عام ٧١٤ م سوى حفيد في السادسة من عمره لأن ابنه غريموالد كان قد قتل قبل ذلك بوقت قصير . واغتزم كبار مملكة نوستريا هذه الفرصة ليثوروا على عائلة بيبين وينتخبوا واحدا منهم حاجبا لقصر نوستريا وانضم اليهم دوق اكيثانيا فقدم على رأس جيش لمساعدتهم في محاربة الاوسترازيين . وكانت منجزات بيبين تنهار لولا أن ابنه الطبيعي شارل استطاع الهرب من سجن ارملة ابيه وتزعم الاوسترازيين في الحرب وانتصر على النوستريين وحليفهم دوق اكيثانيا في موقعة قرب مدينة سواسون واصبح في عام ٧١٩ سيد اوسترازيا ونوستريا وفي عام ٧٢١ م اعترف بتييري الرابع الميروفنجي ملكا ، وقاد عدة حملات ضد الإسكسون. وفي عام ٧٣٢ م تمكن من ايقاف تقدم العرب في موقعة بواتية ولقب على اثرها بـ « شارل مارتل » (من اللاتينية اي المطرقة) ثم اعاد اخضاع اكيثانيا وبرغنديا محققا بذلك توحيد مملكة الفرنجة من جديد تحت سيادته الفعلية اذ لم يكن للملك الميروفنجي أي سلطة ، وقد اصبح شارل مارتل يتمتع بنفوذ واسع

ولاسيما بعد انتصاره على العرب حيث ظهر بمظهر المدافع عن المسيحية وبلغ من نفوذه أنه ترك منصب الملكية شاغرا بعد موت الملك تييرى الرابع عام ٧٣٧ م ، ولكنه برغم ذلك لم يقسم على قلب السلالة الميروفنجية ، واتخاذ اللقب الملكي لنفسه ، وقد يكون السبب في ذلك راجعا الى وجود حزب قوي بين كبار المملكة يقر بشرعية حكم السلالة الميروفنجية فالجرمان منهم لايزالون متأثرين بالصفة القدسية التي تتمتع بها تلك السلالة التي كانوا يعتقدون ، عندما كانوا وثنيين ، انها من نسل أحد الالهة ، ويرون أن المملكة التي انشأها كلوفيس بقوة السلاح حق طبيعي لأحفاده من بعده ، كما أن الغالو - رومانيين منهم كانوا يرون شرعية حكم الميروفنجيين لأنهم احفاد كلوفيس الذي حقق انتصار المسيحية الكاثوليكية على الوثنية وعلى الأريوسية . والذي تلقى شارات القنصلية ولقب باتريس من الامبراطور ، ويمكن بذلك عده ممثلا أو نائبا في الغرب .

هذا وقد عمل شارل مارتل على تأمين خلافته فقسم المملكة بين ابنه كارلومان وبيبن قبل موته عام ٧٤١ م .

تأسيس الملكية الكارولنجية : بيبين القصير :

٢- انقلاب بيبين القصير :

حكم كارلومان وبيبن الملقب بالقصير ابنا شارل مارتل المملكة الفرنسية بعد موت أبيهما معا ، وأبقيا منصب الملكية شاغرا عدة أشهر اضطرا بعدها إلى انتخاب أحد الميروفنجيين شيلدريك الثالث ، ملكا ويبدو أن ذلك كان بإصرار من جانب كارلومان الذي يعده بعض المؤرخين زعيما للحزب المؤيد تقيا ورعا ، ولذا اعتزل الحكم بعد بضع سنوات وانسحب إلى دير تاركا أخاه بيبين ينفر في الحكم .

أما بيبين الذي أصبح بعد انسحاب أخيه الحاكم الوحيد فكان يتصف بأنه واقعي ، ويزن الأمور قبل الاقدام عليها ، وقد توطدت له السلطة بانسحاب أخيه وهو الذي سيحقق مالم يقدم عليه أبوه أي قلب السلالة الميروفنجية وتأسيس الملكية الكارولنجية . ولكن بيبين لم يتعجل الأمور إذ كان عليه أن يجد أولا المسوغ الشرعي لتنفيذ انقلابه ، وقد وجد هذا المسوغ في الفتوى التي أصدرها البابا ، وتتباين الآراء حول هذا الموضوع : هل بيبين هو الذي سعى إلى إيجاد المسوغ الشرعي الذي يحتاج إليه لدى الكرسي المقدس أم أن الكرسي المقدس هو الذي دفع بيبين ، بشكل غير مباشر ، إلى اللجوء إليه لهذا الغرض ؟ المهم أن حاجة كل منهما إلى الآخر جمعت بينهما . فبيبين كان في حاجة إلى الكرسي المقدس لمنحه الفتوى الدينية التي تسوغ له اتخاذ لقب ملك . وكان الكرسي المقدس في حاجة إلى مساعدة بيبين العسكرية ضد أطماع اللومبارديين التوسعية .

وعندما أصبح اللومبارديون يهددون دوقية روما بالاكتساح انتهز بيبين تلك الفرصة لكي يرسل إلى البابا زكريا وفدا مؤلفا من بركارد أسقف مدينة وورتزبرغ ومن كاهنه الخاص فولراد يطلب إليه باسم الفرنجة : « من الذي يجب أن يكون ملكا عليهم : الأمير الذي لا يملك شيئا من السلطة أم ذلك الذي يملك السلطة ؟ » ولم يتردد البابا في الإجابة : « الأفضل أن يسمى ملكا من يملك السلطة الحقيقية لا من لا يلبس بيده شيء منها » ، وكان هذا بمثابة صك التحالف بين الأسرة الكارولنجية والكرسي المقدس ، وكافأ البابا الكاهن فولراد لما قام به من دور في التقريب بين الطرفين بأن عينه راعيا لدير سان دنس .

كان جواب البابا الحجة التي استند إليها بيبين عندما تقدم إلى كبار المملكة بترشيح نفسه لكي ينتخبوه ملكا عليهم وذلك في عام ٧٥١ م ، فنادوا به ملكا حسب المراسم الجرمانية التقليدية وفي نهاية عام ٧٥١ م مسح القديس بونيفيسس الملك الجديد في مدينة

سواسون مضافاً بذلك على سلطته الزمنية صبغة دينية قدسية . أما الملك الميروفنجي المخلوع شيلديريك الثالث فقد أرسل إلى دير سان برتان ليقضي فيه بقية حياته .

لم يتم هذا الانقلاب في السلالة المالكة ، رغم تأييد البابا دون معارضة فقد أثار على ما يبدو بعض القلاقل والاضطرابات الشعبية المناهضة له ولكن هذه الاضطرابات كانت بسيطة استطاع بيبين إخمادها بسهولة

بيبين القصير والكرسي المقدس :

شعر البابا ايتين الثاني الذي خلف البابا زكريا بالحاجة إلى وضع التحالف مع بيبين موضع التطبيق بعد أن توغل ملك اللومبارديين إيستولف بأعمال توسعية داخل دوقية روما عام ٧٥٢ م ، فأرسل البابا الجديد إلى بيبين يسأله ما إذا كان يمكنه الاعتماد عليه عند الحاجة وكان جواب بيبين إيجابياً .

ولم يعد البابا يفكر بغير الالتجاء إلى ملك الفرنجة ، وكان عليه ، لتحقيق ذلك ، أن ينجو في أن واحد من البيزنطيين ومن اللومبارديين وجاءت المناسبة المواتية لتنفيذ ما يحلم به عندما طلب إليه الإمبراطور البيزنطي أن يلتحق بالمندوب الذي أرسله إلى ملك اللومبارديين ليطلب منه باسم الإمبراطور التخلي عن الأراضي التي احتلها ، وتمت المقابلة مع ملك اللومبارديين في عاصمته بافيا في أواخر عام ٧٥٣ م دون أن تؤدي إلى نتيجة مرضية لأن إيستولف رفض الاستجابة إلى طلب الإمبراطور ، وبدلاً من أن يعود البابا ايتين الثاني إلى روما استطاع الهرب من مندوب الإمبراطور ومن الملك اللومباردي وأخذ طريقه نحو فرنسا .

وعندما أصبح البابا في مأمن خطرت له مسألة هامة : كيف سيستقبله بيبين ؟ ... هل سيستقبله بصفته أسقفاً لمدينة روما كغيره من الأساقفة أم بصفته الحبر الأعظم والرئيس الروحي للكنيسة

المسيحية كلها ؟ ... ولكي لا يدع مجالاً للتردد في هذه المسألة وضع ، حسب رأي النقاد الوثيقة التي عرفت باسم « هبة قسطنطين وهي رسالة موجهة من الامبراطور قسطنطين الكبير إلى اسقف مدينة روما المعاصر له سيلفستر الاول يمنحه فيها الامبراطورية ويقول فيها إن البابا سيكونون من رعايا الحبر الاعظم وأنهم سيقودون مطيئهم في الاحتفالات ، وقد اعتقد رجال العصر الوسيط بصحة هذه الرسالة حتى كشف عن تزويرها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر .

ومهما يكن من أمر ، فقد استقبل بين القصير البابا ايثن عند وصوله إلى المقر الملكي في بونتون حسب ما جاء في تلك الوثيقة وبدأت المفاوضات بين الطرفين في بونتون ثم توبعت في دير سان دنس وقد هدفت إلى تحقيق شرطي التحالف أي : اعتراف البابا الشخصي ببيت القصير ملكا على فرنسا ، وتقديم بين المساعدة العسكرية للبابا ضد اللومبارديين ، وتم تنفيذ الشرط الاول في ربيع عام ٧٥٦ م عندما توج البابا بنفسه بين ومسحه مع ابنه ملوكا على الفرنجة وحماة للرومانيين ، وحرم على كبار رجالات المملكة أن ينتخبوا ملكا عليهم من غير السلالة الجديدة .

بقي على بين تنفيذ تعهده للبابا . فبدأ لذلك مفاوضات مع ايسستولف ملك اللومبارديين لكي يعيد إلى البابا ما احتله اللومبارديين من أرض دوقية روما ونيابة رافين ، ولما كانت المفاوضات عقيمة فقد توجه بين ، يرافقه البابا ، إلى إيطاليا في ربيع عام ٧٥٥ وحاصر ايسستولف في عاصمته بافيا . ولم يرفع الحصار عنها ويرجع إلى بلاده حتى وعد ايسستولف بتنفيذ طلبات ملك الفرنجة . غير أن ايسستولف نكث بوعده وزحف مجددا نحو روما وحاصرها في مطلع ٧٥٦ م ، فعجل البابا بإرسال مندوب إلى بين ثم برسالة مؤثرة حررها باسم القديس بطرس نفسه ، يستنجد فيها بملك الفرنجة . فعاد بين إلى إيطاليا في ربيع ٧٥٦ م وحاصر بافيا وأجبر ايسستولف على أن يسلم مندوب البابا ما كان احتله من نيابة

رافين ، بالاضافة إلى الاراضي التي كان يحتلها في دوقية روما ، كما فرض عليه غرامة حربية وجزية وكان ذلك بداية تكوين دولة الكنيسة التي ستستمر خلال عدة قرون ، وبعد موت أريستولف عام ٧٥٦ م عمل البابا وببسن على تعيين الأمير اللومباردي ديدييه خلفا له ، ومالبث الخلاف أن نشب بين البابا والملك اللومباردي الجديد الذي عاد إلى اتباع سياسة أسلافه ، ولكن ببين سلك سياسة التوفيق بينهما وتوصل إلى تسوية الخلافات بينهما عام ٧٦٣ م .

ببين وزعيم السلطة الملكية:

كان على ببين أن يؤمن توطيد سلطته في داخل مملكته وأن يؤمن حماية حدودها . ولذا فقد اهتم بإخضاع دوقية اكسيتانيا التي كان دوقها يعود إلى التمرد والاستقلال بعد كل مرة يعلن فيها خضوعه للملك ، ولذا كان ببين يوجه إليها كل سنة حملة عسكرية حتى عام ٧٦٨ م حيث قتل الدوق المتمرد وتم إخضاع اكسيتانيا نهائيا .

وتمكن ببين بين عامي ٧٥٢ و ٧٥٩ أن ينتزع مقاطعة سبتمانيا في الجنوب من المسلمين بفضل مساعدة سكانها له ومساعدة اللومبارديين ، وقد عرف ببين كيف يستميل سكان المقاطعات المفتوحة بأن صان لهم سلامة أملاكهم وترك لهم القوانين والأنظمة التي اعتادوا عليها .

وعمل ببين على إخضاع الإسكسونيين الذين كانوا يقومون بالغزو على مقاطعتي هس وتورنجة فوجه ضدهم حملتين عام ٧٥٣ وعام ٧٥٨ وأجبرهم على الرضوخ ودفع الجزية

وكان الاخفاق الوحيد الذي لقيه ببين في سياسته الخارجية هو استقلال دوق بافاريا عام ٧٦٣ فقد كان تاسيلون دوق بافاريا من الرعايا المخلصين لملك الفرنجة ، ولكنه بعد أن ساهم في الحملات الموجهة إلى اكيثانيا ، رأى أن بافاريا لا تجني أي فائدة من ذلك

فأعلن استقلاله عام ٧٦٣ م ، وتوفي بيبين القصير دون أن تتاح له الفرصة لاعادة دوق بافاريا الى الاعتراف بسيادته .

وحافظ بيبين ، برغم تدخله في ايطاليا ، على علاقات ودية مع الامبراطورية البيزنطية ، وقد حاولت بيزنطة جره الى صفها في خلافها مع البابا حول بعض القضايا الدينية كعبادة الصور ومسألة انبثاق الروح القدس الا ان بيبين كان كاثوليكيًا مخلصًا يحترم الدور الروحي الذي يمثلته البابا ، ولذا لم يؤيد بيزنطة في هذا الخلاف .

ويمكن الكلام عن سياسة تقارب بين بيبين وبين الدولة العباسية قائمة على العداء المشترك بينهما للدولة الأموية في الأندلس وقد ظهر هذا التقارب في تبادل السفراء بين بيبين القصير والخليفة العباسي المنصور .

رغم أن بيبين بذل جهودا كبيرة في توحيد مملكة الفرنجة فقد عاد الى تقسيمها قبل موته بين ابنه شارل وكارلومان حسب خط يذهب من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ، فخص ابنه الكبير شارل بولايات المانيا والالزاس وبرغنديا وبروفانس وسبتيمايا وجزء من اكيثانيا وخص الابن الآخر كارلومان بنوستريا واوسترازيا وبقية اكيثانيا .

١ - شخصية شارلمان وبداية حكمه:

ولد شارلمان عام ٧٤٢ م . وكان جرمانيا متين البنیان .متوازن التركيب مستدير الراس ، واسع العينين ، بشوشا ، بسيطًا في مظهره الخارجي وفي نمط حياته . وكان ولوعا بالصيد ، كريما وعطوفا ، وكان ابا محبا لابنائه وبناته ، وقد اكتسب ثقافة جيدة بجهوده الخاصة واحاط نفسه بعدد من كبار المثقفين في عصره .

تولى شارل الحكم مع أخيه الأصغر كارلومان حسب وصية أبيهما بين الذي قسم بينهما مملكته قبل موته . ولكن بدا الشقاق بين الأخوين على أثر رفض كارلومان مساعدة أخيه شارل في اخماد ثورة دوق أكيثانيا عام ٧٦٩ م ، ثم تجدد الشقاق بينهما في السنة التالية بسبب موقف كل منهما تجاه ملك اللومبارديين ديدييه الذي اعتقد أنه ، بتزوج شارل من ابنته ، أصبح في مأمن من جانب ملوك الفرنجة حماة الكرسي المقدس ، فسار الى روما وأجبر البابا ايتين الثالث على أن يسلمه رؤساء الحزب المناصر للفرنجة في الأجهزة الادارية في الكنيسة وذلك في ربيع عام ٧٧١ م ، وبعد وقت قصير مات كارلومان فجأة مخلفا طفلين صغيرين ، فسارع شارل الى احتلال ممتلكاتهما وضمها الى مملكته ، واضطرت أرملة أخيه الى الهرب بطفليها والتجأت الى ديدييه ملك اللومبارديين .

التدخل في ايطاليا:

اتخذ شارلمان موقفا مؤيدا للبابا ووقف ضد غزو اللومبارديين لأراضي الكرسي المقدس وأعرب عن موقفه هذا بتطليق ابنة الملك اللومباردي وقد حاول هذا الأخير قصم عرى التحالف بين البابا وشارلمان بأن يجبر البابا هنادريان الأول على تكريس ابني كارلومان ملكين على الفرنجة ، وبدأ باكتساح الأراضي التي كان قد تنازل عنها للكرسي المقدس ، مصطحبا معه ابني كارلومان لتكريسهما في روما ، وكان شارلمان آنذاك يقود حملته الأولى ضد الإسكسون ، لذا حاول التهرب من تلبية استغاثة البابا والمفاوضة مع ديدييه ولما أخفقت هذه المفاوضات توجه شارلمان على رأس جيشه الى ايطاليا في أواسط عام ٧٧٣ م فاجتاز جبال الالب وتملك الخوف اللومبارديين الذين هربوا أمام زحف جيش الفرنجة والتجأوا ، بعد سقوط مدنهم إلى العاصمة بافيا حيث فرض عليهم الحصار ، وقد امتد الحصار أمدا طويلا مما اتاح لشارلمان الفرصة لقضاء أعياد الفصح عام ٧٧٤ م في روما .

وقد استقبل هادريان الأول شارلمان في روما بمظاهر الحفاوة والتكريم ، ولكنه خشي مما قد تجره اقامة مثل هذا الزائر العظيم في روما من أخطار على سلطة البابا ، ولذا رغب في أن تكون اقامته خارج المدينة المقدسة ، وقد نزل شارلمان عند هذه الرغبة ، واستفاد البابا مما أبداه ملك الفرنجة من النوايا الحسنة لكي يحصل منه على تأكيد جديد للهبة التي منحها أبوه بيبين للكرسي المقدس . وكانت الوثيقة الجديدة التي حصل عليها تمنح الكرسي المقدس ، عدا ما سبق أن منحه بيبين مقاطعة توسكانا مع جزيرة كورسيكا ، ودوقية سبوليت ، ودوقية بينفيان ، والبندقية التي كانت لا تزال تحت الادارة البيزنطية ، وقد اختلف المؤرخون المحدثون في تعليل هذه الوثيقة التي منحها شارلمان الى البابا هادريان الأول ، فمنهم من يذهب الى القول بعدم صحتها ، ويرى بعضهم أن شارلمان أراد أن يكون له حليف قوي في ايطاليا ولذا اقتسمها مع البابا ، بحيث يحتفظ لنفسه بكل ما لم يمنح صراحة الى الكرسي المقدس ، بينما يرى آخرون أن البابا استطاع أن يستغل تقوى شارلمان وورعه لكي يلعب عليه ويحصل منه على تلك الوثيقة . وسواء اكانت هذه الزيادة في الهبة للكرسي المقدس عن طواعية وبارادة شارلمان ، أو أن البابا خدعه للحصول عليها فقد كانت سياسته في ايطاليا خلال العشرين سنة التالية ترمي إلى الحد من مطامح البابا هادريان الأول .

عاد شارلمان بعد قضاء أعياد الفصح في روما الى جيشه الذي كان لا يزال يحاصر بافيا وبعد قليل استسلم ديدييه الذي نفسي الى احد الأديرة وتوج شارلمان نفسه ملكا على اللومبارديين . وكان أول أعماله بعد ذلك أن وضع تحت سيادة البابا الاراضي التي انتزعت من اللومبارديين . عاد شارلمان الى ايطاليا مرة أخرى في أواخر عام ٧٨٠ م تلبية لنداء البابا الذي اصطلح بمعارضة الحاكم البيزنطي في ايطاليا الجنوبية ، عندما طالب بأن يكون له السيادة على دوقيتي سبوليت وبينيفيان ومدينة تيراسينا (جنوب روما) غير أن التسوية التي اقترها لم تحقق شيئا من مطامع البابا الذي اضطر للاعتراف بسيادة البيزنطيين على تيراسينا والى التنازل عن دوقية سبوليت

لشارلمان الذي نصب ابنه بيبين ملكا لاطاليا وكان رد فعل البابا على ذلك أن اخذ بالتقرب الى البلاط البيزنطي .

قدم شارلمان الى ايطاليا مرة ثالثة عام ٧٨٧ لكي يخمد المؤامرات التي كان يحيكها دوق بينفيان فتم له ما أراد . ووعد شارلمان البابا بالتخلي له عن جنوب مقاطعة توسكانا ، واجبر دوق بينفيان على الاعتراف بسيادة رئيس الكنيسة وذلك لكي يبعده عن التحالف مع الامبراطورية البيزنطية ولكنه فيما بعد تنصل من تنفيذ ما وعد به . وعلى هذا فقد كانت سياسة شارلمان في ايطاليا تقوم دائما على اساس تسويات موقفة مع البابا واجتناب الدخول في صراع صريح معه ، فاكتمى الكرسي المقدس بما حظي به في عهد بيبين القصير من املاك كما فرض شارلمان سيادته على قسم كبير من ايطاليا الشمالية ، وكان شارلمان يناصر الباباويؤيده في ادارة الكنيسة برغم أنه ، بصفته حامي الرومانيين ، وكان يتلقى شكاوى رعايا الدولة البحرية ، ورغم أن شارلمان كان يتدخل في الأمور الدينية والكنسية في مملكته فإنه لم يتدخل في الانتخابات الحبرية التي جرت على اثر وفاة البابا هادريان الاول عام ٧٩٥ وانتخب فيها البابا الجديد الذي حمل اسم ليون الثالث .

أعمال شارلمان التوسعية:

امضى شارلمان ثلاثين سنة في حروب دائمة . فكان في كل سنة يقود حملة الى احدى جبهات الحدود للدفاع عنها أو للتوسع باحتلال اراضي جديدة ، فاضطر الى خوض حروب ضد السكسون والعرب في اسبانيا والبافاريتين والافار

الحروب مع السكسون:

كانت اشد حروبه عنفا وضرارة هي تلك التي خاض غمارها ضد

السكسون الذين عادوا ، بعد أن شغلوا خلال القرن السابع باحتلال بريطانيا ، إلى غزو حدود المملكة الفرنجية في مقاطعتي هس و ترنج في الشمال الشرقي وقد كانت الحملة الأولى التي وجهها شارلمان ضدهم عام ٧٧٢ م حملة تأديبية على غرار الحملات التي سبق أن وجهها ضدهم شارل مارتل وبيين القصير . ولذا اقتصر شارل على تخطي حدود هس إلى مسافة قليلة ومهاجمة إحدى قلاع السكسون وتدمير معبد الشجرة المقدسة لديهم واخضاع بعض قبائل منطقة الويزر وكان رد فعل السكسون في العام التالي أن غزوا مقاطعة هس ولم يبق شارلمان بأي تدبير ضدهم قبل عام ٧٧٥ م . بسبب انشغاله بالتدخل في إيطاليا ، ودفع شارلمان بقواته هذه المرة إلى داخل بلاد السكسون وأقام حاميات قوية في مواقع على نهر الرور غير أن السكسون استنفادوا من عودته إلى إيطاليا في نهاية عام ٧٧٦ م لكي يعودوا إلى احتلال تلك المواقع . وفي عام ٧٧٧ م هاجم شارلمان السكسون ووصل في تقدمه حتى منابع نهر ليب وأصبحت بذلك وستغاليا الجنوبية كلها تحت سيطرة الفرنجة وعلى أثر هذا النصر أخذت أفواج السكسون تقبل على شارلمان معلنة خضوعها ، واعتقد شارلمان أن الأمر قد استتب له وأنه قد حان الوقت لاستبدال الجنود بالمبشرين فشجع على إقامة الأديرة والأسقفيات .

وبينما كان شارلمان في العام التالي ٧٧٨ يقاتل العرب المسلمين في إسبانيا ، قام أحد زعماء السكسون في وستغاليا واسمه فيدو كنت فحرض السكسون على الثورة ضد الفرنجة لاستعادة استقلالهم والتهتم فهاجموا الأديرة والكنائس وأحرقوها وقتلوا رجال الدين المسيحيين الموالين للفرنجة ، واضطر شارلمان لإعادة إخضاعهم خلال عامي ٧٧٩ هـ ٧٨٠ م وهرب فيدو كنت إلى الدانمرك ، وأراد شارلمان تنظيم إدارة بلاد السكسون لكي يضمها نهائيا إلى مملكته فقسمها إلى كونتيات عهد بإدارة كل منها إلى أحد النبلاء الموالين له ، غير أن فيدو كنت رجع من الدانمرك وقاد أتباعه في ثورة جديدة وسحق جيشا فرنجيا كبيرا في معركة قتل فيها عدد كبير من كبار الفرنجة ، وقد زادت هذه الهزيمة في تصميم شارلمان

على إخضاع السكسون فقدم بنفسه على رأس جيش كبير وخاض معارك عديدة مع السكسون خلال أعوام ٧٨٣ - ٧٨٥ م وطارد زعيمهم فيدو كنت حتى سواحل بحر الشمال . واضطر فيدو كنت ، بعد أن تخلى أتباعه عنه إلى الاستسلام وقبل باعتراف المسيحية بعد أن عفا شارلمان عنه وأصدر الملك الفرنجي مرسوما يعاقب بموجبه بالموت كل من يتمرّد من السكسون أو يعتدي على رجال الدين أو يرفض التعميد .

إن فرض اعتناق المسيحية بالقوة دفع السكسون إلى الثورة من جديد منذ عام ٧٩٢ ولم يتمكن شارلمان من إخضاعهم نهائياً إلا بعد أربع حملات بين سنتي ٧٩٤ و ٧٩٧ ولا سيما بعد أن لجأ إلى نقل السكسون ، الثائرين من بلادهم وتوطينهم في مناطق أخرى داخل المملكة الفرنجية واستعاض عنهم بالفرنجة أو بجماعات موالية لهم .

الحرب مع العرب في اسبانيا:

عندما كان شارلمان في بلاد السكسون ٧٧٧م جاء والي مدينة سرقسطة العربي الذي كان مشتركاً في مؤامرة قتل كان يدعمها الخليفة العباسي في بغداد ضد الأمير عبد الرحمن ، إلى بلاط شارلمان يطلب المساعدة ، وبذلك أعطى شارلمان فرصة التدخل بين المسلمين ومن ثم الذهاب إلى اسبانيا وتوسيع حدود مملكته إلى ما وراء جبال البيرنيه، ولذا أعد في عام ٧٧٨ حملة مؤلفة من جيشين دخل أحدهما بقيادة شارلمان نفسه إلى مقاطعة نافار بعد اجتياز البيرنيه الغربية بينما اجتاز الجيش الآخر البيرنيه الشرقية وتقدم في مقاطعة كاتالونيا بعد احتلال مدينتي جيرونة وبرشلونة على الساحل الشرقي ، والتقى الجيشان أمام أسوار سرقسطة التي رفض واليها الجديد تسليمها ودافع عنها بشجاعة ملحقة بالفرنجة خسائر فادحة ، وعندما علم شارلمان بقدوم الأمير عبد الرحمن لنجدة مدينة سرقسطة خشي من التطويق فأثر التراجع والانسحاب من اسبانيا ،

وبينما كانت مؤخرة جيشه مارة في ممر رونسفو الضيق في جبال البيرنيه أثناء تراجعها فاجأها العرب والباسك (البشكنس) الجيليون بالانقضاض عليها وبادتها ، وكان بين القتلى حاكم بند بريتاني المدعو رولان والذي أصبح من أبطال الفرنجة الأسطوريين ، وخلدت نكراه في أشعار الملاحم الفرنجية التي حملت اسم «نشيد رولان»

أراد شارلمان الثار لكارثة رونسفو فوجه حملة جديدة إلى اسبانيا عام ٧٨٥ م استولت على مدينة جيرونة والمنطقة الساحلية الشرقية المكمل لمنطقة سبتيمايا . غير أن المسلمين استرجعوا منا استولى عليه الفرنجة وطردوهم خارج اسبانيا ولاحقوهم حتى ما بعد مدينة نربونة في جنوب فرنسا ومن ثم توجهوا نحو قرقشونة فالتقوا بجيش للفرنجة يقوده غليوم كونت مدينة تولوز وابن عم شارلمان وكان النصر في المعركة التي دارت بين الطرفين الى جانب العرب المسلمين وقتل فيها غليوم ، ولكن العرب لم يحتفظوا بفتوحاتهم في جنوب فرنسا بل عادوا الى اسبانيا .

وعاد الفرنجة إلى مهاجمة اسبانيا عام ٧٩٥ وتوصلوا الى احتلال برشلونة عام ٨٠١ م ودعا الفرنجة هذه المنطقة الساحلية التي احتلوها في اسبانيا غوتالاندا أو بالحري بلاد كاتالونيا اي «بلاد القوط» .

اخضاع بافاريا والآفار :

أعلن تاسيلون دوق بافاريا استقلاله عن ملك الفرنجة منذ أواخر عهد بيبن القصير في عام ٧٦٣ م ولكن شارلمان أجبره في عام ٧٨١ م على الرجوع إلى الانطواء تحت سيادته غير أن متاعب شارلمان مع السكسون والمؤامرات التي كانت تحاك ضده في ايطاليا دفعت تاسيلون الى اضطهاد الموالين لشارلمان في بافاريا ثم الى الثورة عام ٧٨٧ م ، ولما هده البابا بالحرمان رجع الى الطاعة وحلف ، هو وشعبه ، يمين الولاء لملك الفرنجة ، بيد أنه تحالف في العام

التالي مع الافار الوثنيين ومع البيزنطيين ضد شارلمان فتخلى اتباعه عنه وحكم عليه البلاط الملكي بالموت غير أن شارلمان عفا عنه وسجنه في عدة اديرة ، ولم يخرج منها قبل عام ٧٩٤ م حيث اعلن تنازله عن كل حق له في دوقية بافاريا التي ضمت الى المملكة الفرنجية .

ادى تحالف تاسيلون مع الافار بهذه القبائل المغولية الاصل الى تجديد غزواتها على الغرب ، ولذا قرر شارلمان التخلص من خطرهم باخضاعهم فوجه اليهم منذ عام ٧٩١ م عدة حملات ضارعت في ضراوتها الحملات ضد الاسكسون . وتم له في عام ٧٩٥ م قهرهم حيث لم يبق امامهم سوى الخضوع او اللجوء الى البلغار .

تتويج شارلمان امبراطورا :

في يوم ٢٥ كانون الاول من سنة ٨٠٠ م (اي يوم الميلاد)توج البابا ليون الثالث شارلمان امبراطورا على الغرب في كنيسة القديس بطرس في روما ، ولكن قبل أن نبحت في حادثة التتويج هذه لنستعرض ما تقدمها من الحوادث التي تتعلق بالكرسي المقدس في روما ، والتي ترتبط بها ارتباطا مباشرا .

في عام ٧٩٥ توفي البابا هادريان الاول فانتخب خلفا له البابا ليون الثالث الذي كان يمثل البيروقراطية الرومانية ، ويبدو أنه شعر منذ الأيام الاولى لتوليّه منصب البابوية بمعارضة انصار البابا الراحل ، وهذا ما يفسر وقوفه منذ البداية موقف التابع نحو شارلمان حامي الرومانيين ، فقد سارع الى ارسال مندوبين الى الملك الفرنجي يحملون اليه إعلاما بانتخاب البابا ليون الثالث ومفاتيح كنيسة القديس بطرس وعلم مدينة روما ، وقد يكون ارسال مفاتيح الكنيسة نوعا من المجاملة ، أما ارسال العلم فهو دليل على الاعتراف بشارلمان قائدا للكنيسة وأنه القاضي الأعلى في روما ، كما ان إرسال العلم إليه ، وهو الذي كان يوجه عادة الى الأباطرة

البيزنطيين ، يعني أن البابا بات يعد شارلمان ندا لأولئك الأباطرة ،
يضاف الى ذلك أن ليون الثالث طلب من شارلمان أن يرسل أحد
أعيان بلاطه الى روما ليتلقى عن الرومانيين يمين الولاء والأخلاص
له .

وقد أوفد شارلمان أحد المقربين اليه وهو انغلبيرت إلى البابا مع
رسالة تحدد بدقة واجبات وسلطات كل من البابا وحامي
الرومانيين : يقوم الأول بالصلاة والدفاع ويمارس الثاني السلطة
الفعلية ، وقد قبل البابا ليون الثالث بهذا التحديد والفصل بين
السلطات حتى أنه عبر عنها في قطعة فسيفساء في قصر اللاتران
تمثل القديس بطرس وهو يقدم الوشاح (رمز السلطة الدينية
والكهنوتية) الى ليون الثالث والعلم (رمز السلطة العسكرية
والقضائية) الى شارلمان .

والواقع أن البابا الجديد ترك شارلمان يهيمن على جميع الشؤون
الإدارية في الكنيسة .

ويبدو أن مبانل ليون الثالث كانت ذات أثر في دفعه الى ذلك
الخضوع لشارلمان الذي كتم عدة شكاوي وردته عام ٧٩٨ م عن
سوء سلوك البابا خشية إثارة فضيحة . وفي ٢٥ نيسان عام
٧٩٩ اتهم اثنان من أقرباء البابا المتوفى وكبار موظفي الكنيسة
ليون الثالث بالتجديف والزنا وهجما عليه أثناء احتفال ديني
محاولين قلع عينيّه ، ولم ينقذه من ذلك سوى تدخل المقيم الفرنجي ،
وسارع ليون الثالث بعد نجاته ، إلى الذهاب الى بلاط شارلمان الذي
أعاده إلى روما بصحبة عدد من كبار رجال الدين الفرنجة والكونتات
وطلب اليهم إجراء تحقيق في الأمر ، وفي أواخر عام ٨٠٠ م قدم
شارلمان بنفسه الى روما وبعد اسبوع من وصوله اليها ، أي في أول
كانون الأول ، عقد محاكمة علنية ونظرا لصعوبة إصدار حكم في
القضية تقرر الاستماع الى الاتهامات الموجهة الى البابا في جلسة
علنية وبعد ذلك يحلف البابا يمينا بأن برىء من تلك الاتهامات، وهذا
ما جرى في كنيسة القديس بطرس يوم ٢٣ كانون الأول

عام ٨٠٠ م وعلى الأثرى قبض على المتهمين وسموا إلى الجلاء ، ولكن البابا توسط للعفو عنهما والاكتفاء بنفيهما الى فرنسا .

لا يمكن فصل ما جرى في كنيسة القديس بطرس يوم ٢٣ كانون الأول عن حادثة التتويج في الكنيسة نفسها بعد يومين برغم ما بينهما من خلاف في طبيعة كل منهما ، ولدينا خمس روايات حول ما حدث يوم عيد الميلاد ، انها تتفق جميعا على القول بأن شارلمان كان أثناء قداس يوم عيد الميلاد عام ٨٠٠ م يصلي راکعاً امام ضريح القديس بطرس ، وبينما كان الملك ينهض وضع البابا على رأسه تاجاً وهتف الشعب الروماني منادياً : «الحياة والنصر لشارل المجيد ، الذي توجه الرب على الرومانيين امبراطورا عظيما ومحبا للسلام» . وقدم له البابا آيات التعظيم والاحترام كما كانت العادة في عصر الأباطرة الماضين ومنذ ذلك الوقت حمل شارلمان لقب امبراطور وأغسطس بدلا من لقب حامي الرومانيين .

ولكن هذه الروايات تختلف حول من كان صاحب الدور الأول في حادثة التتويج وموقف شارلمان منها ، فبعضها يعزو الدور الأول والمبادرة في التتويج إلى البابا الذي وضع التاج بيديه على رأس شارلمان ، وللشعب الروماني دون أن يبدو على شارلمان أثراً للدهشة أو الاستياء أما بعضها الآخر «فيقول بأن البابا توج شارلمان دون أن يكون له أي (شارلمان) علم مسبق بما سيجري » ، بينما ذهب ايكنهارد صاحب كتاب «حياة شارلمان» الى القول بأن الملك الفرنجي كان مستاء الى حد أنه لو كان يعلم بما سيجري ذلك اليوم لما دخل الى كنيسة القديس بطرس .

وأدى الخلاف بين الروايات التي روت حادثة التتويج الى انقسام اراء المؤرخين المحدثين وعدم اتفاقهم ، ومع هذا يرجح أن شارلمان كان على اتفاق مع البابا ومختلف الجماعات التي حضرت بشأن التتويج وأن الاحتفال اتفق عليه مسبقا ليتضمن : هتاف الشعب ومناداته بشارلمان امبراطورا ثم التتويج مع تقديم آيات التعظيم والاحترام ، غير أن البابا قلب هذا الترتيب بأن جعل التتويج يسبق

الهتاف الشعبي لكي يجعل لنفسه دورا رئيسيا في التتويج ، وهذا ما أدى الى استياء شارلمان الذي كان ينوي ، على ما يبدو ، أن يضع التاج على رأسه بنفسه بعد أن يتناوله من البابا لكي لا يدع لهذا الأخير أي حجة للادعاء بسلطة تعلو سلطة الامبراطور ، ويؤيد هذا الرأي أن شارلمان عندما توج ابنه لويس فيما بعد في عام ٨١٣ م لم يدع البابا أو أحد ممثليه لحضور حفل التتويج ووضع بيديه التاج الامبراطوري على رأس ابنه .

اختلف المؤرخون المحدثون ايضا حول ما هية هذه الامبراطورية التي انشأها شارلمان ، ويبدو أن شارلمان نفسه كان مترددا حول هذا الموضوع إذ أنه ظل يحكم سنتين بعد تتويجه دون أن يستخدم لقبه الجديد ولعله كان يتساءل عن حقيقة هذا اللقب وعما يعمل به .

لقد عرفت اوربا الغربية حتى ذلك الوقت نوعين من الامبراطورية وهما الامبراطورية الرومانية القديمة الكبرى وامبراطورية الغرب ، فهل كان المسؤولون عن تتويج شارلمان يهدفون الى اعادة الامبراطورية الرومانية الكبرى أم اعادة امبراطورية الغرب ؟ ترجح بعض الروايات أن الهدف كان احياء الامبراطورية الكبرى لأنه لم يعد يوجد امبراطور في بلاد الاغريق واصبح هؤلاء تحت سيادة امرأة وشغل عرش الامبراطورية في الغرب وفي الشرق حيث كانت ايرين تحكم بعد اغتصابها لعرش ابنها قسطنطين السادس ، ولكن مثل هذا الادعاء كان سيؤدي بلا ريب الى حرب مع البيزنطيين ، وهذا ما لم يكن يرغب شارلمان فيه بل على العكس كان يسعى الى انشاء علاقات ودية مع بيزنطة منذ عام ٧٩٣ م في عهد قسطنطين السادس الذي كان يحكم تحت وصاية أمه ايرين ، ففي عام ٧٩٧ م استقبل شارلمان سفراء بيزنطة استقبالا رائعا ، وعندما عزلت ايرين ابنها قسطنطين عن العرش عام ٧٩٨ م وتولت الحكم بنفسها لم يظهر شارلمان أي استنكار لهذا العمل ، وفي السنة التالية استقبل سفراء مغتصبه العرش بمظاهر الحفاوة والتكريم ، وهذا كله لا يدل على نوايا عدوانية بل سعى شارلمان إلى إعادة الوحدة بين قسمي

الامبراطورية الرومانية القديمة بطريقة سامية وهي الزواج بين صاحبي السلطة فيهما ، ولذا ارسل شارلمان عام ٨٠٢ م بموافقة البابا ليون الثالث سفراء عنه إلى القسطنطينية للمفاوضة بشأن زواجه من ايرين ، ولكن هذا الحلم الجميل لم يتحقق لأن ثورة نشبت في القسطنطينية بعد وصول سفراء شارلمان إليها بقليل وأطاحت بالامبراطورة ايرين ، ورفض الامبراطور البيزنطي الجديد ، نقفور الأول ، الاعتراف باللقب الامبراطوري لشارلمان ولم يعد شارلمان يطمح الى أكثر من اجبار نقفور على الاعتراف له بذلك ، واستفاد شارلمان من متاعب نقفور في حروبه مع العباسيين في الشرق لكي يحتل منطقة البندقية ود الماسيا ويستخدمها وسيلة للضغط على بيزنطة ، وقد تم له ما أراد في المعاهدة التي بدأ التفاوض عليها بينه وبين نقفور عام ٨١١ م - ليعترف له نقفور بلقب امبراطور مقابل اعادة البندقية ود الماسيا وتم عقد هذه المعاهدة في عهد خلفاء نقفور حيث تقرر وجود امبراطورين يعد احدهما الآخر بمثابة اخ له فهي أعادت وضعا شديدا بوضع الامبراطورية بعد موت تيودور عام ٣٩٥ م ، على هذا إن الامبراطورية التي أعاد شارلمان انشاؤها هي امبراطورية الغرب ، ويؤكد ذلك أن شارلمان كتب يقول : «تبارك الله الذي أحل السلام المذشود بين امبراطورية الشرق وامبراطورية الغرب» ولكن امبراطورية الغرب هذه ليست مجرد اعادة لامبراطورية الغرب الرومانية بل هي تكوين أصيل لامبراطورية الغرب الفرنجية . والواقع أن شارلمان :

١ - لم يفكر قط في جعل روما عاصمة لحكمة ، ولم يحاول أن تكون ايطاليا مركز الثقل في امبراطوريته ، بل اتخذ عاصمة له مدينة ايكس لا شابل (أخن) وهي مدينة جرمانية محصنة ، كما كان مركز الثقل في امبراطوريته أملاكه الفرنسية - الجرمانية ولم تعد ايطاليا أكثر من مقاطعة ملحق بها .

٢ - لم يحاول شارلمان ، كغيره من زعماء البرابرة الماضين ،

الظهور بمظهر الأباطرة الرومان ، فقد حافظ على لباسه الفرنجي ونادرا ما كان يرتدي الشارات الامبراطورية ، ومع انه كان يتقن اللاتينية ، كان يتكلم باللهجة الجرمانية الفرنسية وكان فخورا بها .
٣ - كان اللقب الرسمي الذي استخدمه شارلمان بعد تتويجه هو «شارلمان المجيد أوغسطس ، توجه الله امبراطورا عظيما ومسالما وحاكما للامبراطورية الرومانية ، وملكا على الفرنجة وعلى اللومباردين برعاية الرب» ، فهو امبراطور يحكم الامبراطورية الرومانية وهو يعتز بذلك ، ولكنه ليس امبراطورا رومانيا بل فرنجيا .

انصرف شارلمان بعد تتويجه امبراطورا الى الاهتمام بالفن والادب التشريعية والادارية في امبراطوريته ، واقتصرت أعماله الحربية على اتمام ما بدا به قبل التتويج ومتابعته كاخضاع السكسون والحملات على اسبانيا المسلمة

ويظهر مفهوم شارلمان عن السلطة من القابه التي ذكرها في القرارات والمراسيم الملكية ، فهو رأى انه كان يتمتع بكل السلطات بحكم كونه ملكا بموجب الحق الالهي ، ورأى ان السلطة واجب و / لتزام تتمثل في الخارج بواجب الدفاع عن الكنيسة وعن رئيسها الروحي البابا ، ونشر المسيحية بين الوثنيين وتتمثل في الداخل بواجب احلال السلم وقرار النظام وقد عمل شارلمان خلال حكمه على تحقيق هذا الواجب ، فكان نشر المسيحية والدفاع عنها شغله الشاغل ، لم يدع وسيلة الا واستخدمها لهذه الغاية سواء بالحرب والارغام او التبشير ، وكان يحترم رئيس الكنيسة الرومانية ويجله ، ولكن هذا لم يكن يمنعه من القبض على زمام الكنيسة والتدخل في قضاياها ومشاكلها ، ودعوة المجامع الدينية لمعالجة تلك المشاكل وفرض رايه الخاص احيانا .

ويبدو ان مفهوم شارلمان عن فكرة الامبراطورية بقي فهما متأثرا بالتقاليد الجرمانية الفرنسية . ولذا نرى شارلمان يلجأ عام ٨٠٦ م الى تقسيم امبراطوريته بين اولاده الثلاثة : شارل ولويس وببين .

ولم ينقذ الامبراطورية من التجزئة سوى موت ابنيه شارل وبيبن خلال حياته فلم يبق سوى واحد هو لويس توجه شارلمان امبراطوريا عام ٨١٣ .

وفي حزيران من عام ٨١٤ م توفي شارلمان عن إحدى وسبعين سنة من العمر بعد حكم حافل بالاعمال الجليلة .

٥ - انحلال الامبراطورية الكارولنجية : لويس الثاني (٨١٤ - ٨٤٠)

كان للامبراطورية التي انشأها شارلمان بجهوده الخاصة ان تستمر بعده اذا كان خليفته يضارعه في قوة شخصيته وفي دأبه ونشاطه ، ويبدو ان مفهوم شارلمان نفسه عن فكرة الامبراطورية بقي بعيدا عن المفهوم الروماني الذي يعد الامبراطورية وحدة أرضية ذات كيان مستقل عن الشخص الذي يمارس السلطة ، فقد ظل شارلمان متأثرا بالمفهوم الجرمانى الذي كان يرى في المملكة ملكا شخصيا للملك ، فهو نفسه لم يكن يفكر بالمحافظة على الوحدة الأرضية للامبراطورية التي انشأها إذ انه قام عام ٨٠٦ م بتنظيم خلافته وذلك بتقسيم امبراطوريته بين ابنائه الثلاثة على الوجه التالي :

- ١ - شارل : يأخذ شمال فرنسا وشمال المانيا
- ٢ - لويس : فرنسا الجنوبية مع تخوم الجبهة الاسبانية .
- ٣ - بيبين : جنوب المانيا وايطاليا .

ولم تحتفظ الامبراطورية بوحدةها قبل موت شارلمان في ٢٨ شباط ٨١٤ م إلا لأن ابنيه شارل وبيبن ماتا قبله وبقي لويس وحده وريثا لابيه ، ولذا فقد اشرك شارلمان ابنه لويس معه في الحكم منذ عام ٨١٣م حيث توجه امبراطورا بنفسه في ايكس شابل (اخن) وكان الاحتفال بالتتويج احتفالا علمانيا لم يحضره البابا بل ولم يكن ممثلا فيه وحضره بعض الاساقفة بصفتهم من كبار رجال المملكة مثل الكونتات لا بصفتهم الدينية ، وقد يكون هدف شارلمان من ذلك تأكيد استقلال ابنه تجاه الكنيسة .

كان لويس قبل تنصيبه ملكا لأكيثانيا ، وساهم في حروب الإسكسون وقاد الحملات الأخيرة في اسبانيا ، وكان واسع الثقافة شديد التقى والورع حتى لقب بالتقي . ولكنه لم يكن بالشخص الذي يستطيع متابعة سياسة شارلمان ، لأنه كان ضعيف الشخصية تسيطر عليه الوسواس الدينية التي كانت تشل ارادته وعزيمته في أغلب الأحيان ، وقد أحاط به بعد توليه العرش إثر موت أبيه عدد من المستشارين من رجال الدين الذين كانوا يحملون فكرة سامية عن الامبراطورية فاقصر على لقب «امبراطور اوغسطس برعاية الله » دون الألقاب الأخرى التي كان يستخدمها أبوه مؤكدا بذلك افضلية الامبراطورية ، وقد حافظ على وحدة اراضي الامبراطورية بالدفاع ضد الدانمركيين وقمع الثورات في بريتاني ، وفي عام ٨٢٤ وجه حملة الى بمبلونة في اسبانيا ولكنها انتهت بكارثة نتيجة هزيمتها أمام العرب وكادت تؤدي الى فقدان بنود الجبهة الاسبانية لولا الحملة التي قادها برنارد كونت سبتيمايا .

وعمل لويس منذ توليه الحكم على اصلاح اخلاق وعادات البلاط فطرد اخواته من القصر وارغمهن على الرهبنة ، واقصى مستشاري والده السالفين ، وقرب حاشيته الاكيثانية . ودعا الى عقد مجمع ديني واصدر قرارات بتنظيم الاكليروس العصري والاكليروس النظامي . ولكن لويس لم يستطع اتباع خطة أبيه في العلاقات التي اقامها بين سلطات الامبراطور العليا وسلطات الكرسي المقدس ، فأبدى البابا ميلا الى الاستقلال عن الامبراطور بل أنصرف الى اعتبار نفسه في مقام الامبراطور .

جرى تنصيب لويس امبراطورا بدون استشارة البابا ليون الثالث كما سبق أن رأينا ، وقد تجاهل البابا ذلك ايضا ولم يطلب الى الرومانيين اداء يمين الولاء للامبراطور الجديد ، وعندما اخفق أعداء ليون الثالث في مؤامرتهم لاغتياله عام ٨١٥ م قبض عليهم وحاكمهم وأعدمهم دون الرجوع الى الامبراطور الذي اكتفى بطلب بعض الايضاحات عن القضية . وأرسل ايتين الرابع الذي خلف

ليون الثالث اعلاما الى الامبراطور بانتخابه ، ولكنه لم ينتظر «التثبيت» منه لكي يستلم منصبه رسميا وفقا لما كانت عليه العادة المتبعة قديما . واغتزم البابا الجديد فرصة لقائه بالامبراطور في مدينة رانس عام ٨١٦ لكي يتوجه من جديد . وقد كان هذا بالنسبة للويس مجرد تثبيت لتتويجه ، أما بالنسبة للكرسي المقدس فقد كان اعادة لما جرى يوم ٢٥ كانون الاول عام ٨٠٠ وتأكيدا لتفوق سلطة الكرسي المقدس او السلطة الروحية على سلطة الامبراطور او السلطة الزمنية ، وفي عام ٨١٧ تلقى البابا باسكال الاول من لويس تأكيدا بتوفير حماية الامبراطور للبابا ولدولة الكرسي المقدس وبتخلي الامبراطور عن أي تدخل في الانتخابات الحبرية أو في التشريعات الرومانية .

غير ان الفضائح التي كان يثيرها البابوات في روما سمحت للوثر ابن لويس أن يصدر عام ٨٢٤ م «الدستور الروماني» الذي يلغي امتيازات عام ٨١٧ وهو يتلخص في :

- ١ - امتناع البابا عن استعمال الشدة ضد الأشخاص الذين يتمتعون بحماية الامبراطور .
 - ٢ - حق الرومانيين في اختيار القساوسة اللومباردي أو القانون الفرنجي .
 - ٣ - اخضاع الادارة الرومانية الى رقابة مفتشين يعين الامبراطور أحدهما ويعين البابا الآخر ، ويرفع المفتشان تقريراً سنوياً إلى الامبراطور بعد انتخابه وقبل تثبيته .
 - ٤ - على البابا أن يؤدي اليمين أمام مبعوث الامبراطور بعد انتخابه وقبل تثبيته .
- وكان هذا الدستور ظفرا للسلطة الامبراطورية ، ولكن البابوات سيستفيدون من المنازعات بين أفراد العائلة الكارولنجية لكي يعلبوا الوضع وتكون لهم اليد العليا .

المنازعات العائلية وتقسيم الامبرا طورية:

اراد لويس ان يؤمن كما فعل ابوه تنظيم خلافته اثناء حياته ، ولذا فقد اشرك معه في الحكم ابنه البكر لوثر وتوجه امبراطورا وظهر اسمه الى جانب اسم ابيه في المراسيم والقرارات الامبراطورية. وفي الوقت نفسه منح لويس حصة من الامبراطورية لكل من ابنيه الآخرين بيبن ولويس مع لقب ملك . فنال بيبن مقاطعات اكيثانيا وسبتيمايا وبورغونيا ونال لويس مقاطعات بافاريا وكارتينا وبوهيميا وكرواتيا ، وحافظ ظاهريا على وحدة الامبراطورية بأن اشترط على بيبن ولويس ان يكونا تابعين لابيهمما البكر الذي يحمل وحده لقب امبراطور وواجب عليهما اطاعته .

غير ان هذا الترتيب لم يتحقق لان لويس تزوج عام ٨١٩ من اميرة بافاريا وضعت له ولدا رابعا سمي شارل (٨٢٣) فتوجب اعادة التقسيم لمنح الولد الجديد حصة من الارث ، وبعد التقسيم الجديد (٨٢٩) ابعد لوثر الى ايطاليا وحذف اسمه من المراسيم والامبراطورية تحت تأثير زوجة ابيه كما ابعد مستشارو الامبراطورية السالفون .

وعلى الاثر تشكل حول لوثر حزب معارض للامبراطور والامبراطورة واعوانهما يضم المستشارين السالفين وبعض رجال الكنيسة ، وثار لوثر ضد ابيه وايده في ثورته اخواه بيبن ولويس كما ايده البابا الذي وضع كل جهوده ضد الامبراطور لكي يؤكد تفوقه عليه وارسل كتبها الى الاساقفة الذين كانوا يؤيدون الامبراطور يدعواهم فيها الى عصيان اوامر الامبراطور واطاعة امر الكرسي المقدس ، لان سلطة الكرسي المقدس الروحية اعلى من سلطة الامبراطور الزمنية ، وقد اضطر الامبراطور العجوز عام ٨٣٣ بعد هزيمته امام ثورة ابنائه وانقلاب رجال الدين ضده الى الاعتراف العلني باخطائه ثم تخلى امام مذهب كنيسة سان - ميديار في سواسون عن شارات الامبراطورية ، ونزع سيفه وتاجه وارتنى

ثياب التوبة وانزوى بعد ذلك في أحد الأديرة ونفيت زوجته البافارية وسجن ابنها شارل في أحد الأديرة .

إن هذا الانزال الذي لقيه الامبراطور لويس اكسبته انصارا عطفوا عليه مما شجعه في العام التالي (٨٣٤) على الهرب من الدير واستعداد شارات امبراطوريته والتاج الامبراطوري وعاد الى تقسيم الامبراطورية معطيا النصيب الأكبر لابنه الصغير شارل ، فتكررت ثورة أبنائه الآخرين وتكرر التقسيم وفي كل مرة يصبح نصيب شارل الصغير أكبر من المرة السالفة . وأخيرا وفي عام ٨٤٠ م مات الامبراطور أثناء عودته من قتال ابنه لويس في جرمانيا وكان قبل موته قد أرسل شارات الامبراطورية الى ابنه البكر لوثر .

معاهدة فردان :

دب الخلاف بين الأخوة بعد موت لويس التقي . وسبب ذلك أن لوثر الذي حصل على التاج واللقب الامبراطوري أراد أن يفرض سلطته على أخويه الآخرين لويس وشارل (الأخ الرابع بيبين توفي منذ عام ٨٣٨) فاتحدا ضده واقسم كل منهما على مساعدة الآخر والا يعقد أحدهما اتفاقا مع لوثر يلحق به الضرر (قسم سترا سبورغ..). وقد أدى لويس القسم باللغة الرومانية أمام جنود أخيه شارل الاصلع والذي أدى القسم بدوره باللغة الجرمانية أمام جنود أخيه لويس . ويعتبر نص هذين القسمين أقدم الوثائق الكتابية باللغتين الفرنسية والالمانية .

وأخيرا وبعد هزيمة لويس عام ٨٤٣ اتفق الأخوة الثلاثة في معاهدة عقدت في مدينة فردان على اقتسام الامبراطورية على الوجه التالي :

١ - ينال لويس الجرمني جميع الاراضي الواقعة الى شرق نهر الراين مع بعض المزارع على الضفة اليسرى من النهر .

٢ - ينال شارل الأصلع معظم الاراضي الواقعة الى الغرب من انهار
الاييسكو والموز والصون والرون يضاف اليها الجبهة الاسبانية .
٣ - ينال لوثر الشريط المحصور بين مملكتي أخويه مع ايطاليا
ويمتد هذا الشريط من بحر الشمال حتى البحر المتوسط ويشتمل
على العاصمتين روما وايكس لاشابيل، ويحتفظ لوثر باللقب
الامبراطوري دون أن يمنحه ذلك أي سلطة على أخويه اللذين اصبحا
مساويين له .

وقد استند هذا التقسيم الى اساسين هما :

- ١ - تأمين حصص متكافئة في وارداتها لكل من الاخوة
- ٢ - اشتغال حصة كل منهم على الاراضي التي كانت تحت سيادته
من قبل . ولقد كانت معاهدة فردان حادثا هاما في تاريخ أوربا
الغربية .

فقد قضت هذه المعاهدة نهائيا على الوحدة الأرضية في الغرب،
وتكونت منذ ذلك التاريخ الاطر الجغرافية لدولتين متميزتين. عن
بعضهما من حيث اللغة، كما اتضح ذلك في قسم ستراسبورغ ،
واخذت كل منهما تعيش حياتها الخاصة وتصنع تاريخها الخاص
وهما الدولتان اللتان ستحملان فيما بعد اسم فرنسا والمانيا .

٤ - الممالك الفرنجية وأواخر الكارولنجيين

قضت معاهدة فردان على الوحدة الأرضية للامبراطورية
الكارولنجية وأدت الى ايجاد ثلاث ممالك مستقلة . وسنرى فيما
يلي تطور كل منها حتى نهاية عهد السلالة الكارولنجية :
١ - مملكة لوثر (لوثرنجيا)

حصل لوثر كما راينا على الاراضي التي كانت تؤلف شريطا يمتد
من بحر الشمال حتى البحر المتوسط وقد عرفت فيما بعد باسم
لوثرنجيا وتألقت هذه المملكة من ثلاث وحدات جغرافية متميزة

هي :

أ - اللورين (مشتقة من لوثرنجيا)

ب - شمال إيطاليا في الجنوب .

ج - حوض نهر الصيون وحوض الرون في الوسط

وتشمل بورغونيا ودوقية ليون وبروفانس

كان لوثر الذي حصل على اللقب الامبراطوري ايضا شديد التعلق بفكرة وحدة الامبراطورية ، ولذا حاول أن يقلب التعاون الأخوي الذي كان قائما بينه وبين أخويه الآخرين ويستبد له بفرض سيادة لوثرنجيا على المملكتين المجاورتين .

ولكنه لم ينجح في مسعاه ، كما لم ينجح في المحافظة على وحدة مملكته ذاتها فقد عهد الى ابنه البكر لويس بحكومة شبه الجزيرة الايطالية ومنحه لقب ملك ايطاليا (وفي عام ٨٥٠ م)منحه اللقب الامبراطوري ، وفي عام ٨٥٥ قسم لوثر ، قبل موته بوقت قصير مملكته بين اولاده الثلاثة : لويس الثاني الذي احتفظ بإيطاليا ، ولقب امبراطور ولوثر الثاني الذي حصل على اللورين وبورغونيا وشارل الذي نال دوقية ليون وبروفانس . ولكن شارل مات شابا عام ٨٦٣ ، واقتسم أخواه الباقيان حصته فأخذ الامبراطور لويس الثاني بروفانس وأخذ لوثر الثاني دوقية ليون .

وبعد قليل طرحت قضية خلافة لوثر الثاني وذلك أن زوجته كانت عقيما لم تنجب له وريثه فأراد طلاقها للتزوج من خليلته التي وضعت منه ولدا ، ولكن عمه شارل الأصغر عارض هذا الطلاق طمعا في وراثة مملكته ، وانضم اليه في ذلك العمم الآخر لويس الجرمانى ، وتدخل البابا في هذه القضية مؤيدا موقف شارل الأصغر ولويس الجرمانى ، وأخيرا مات لوثر الثاني عام ٨٦٩ م بعد صراع دام عدة سنوات انهكت قواه دون أن يتحقق مسعاه ، وكان من المفروض أن تنتقل مملكته الى أخيه الامبراطور لويس الثاني فتعود بذلك وحده مملكة لوثرنجيا ولكن هذا الأخير كان مشغولا في الحروب ضد المسلمين في جنوب إيطاليا مما ترك المجال فسيحا امام شارل

الأصلع ولويس الجرمانى للاتفاق عام ٨٧٠ على اقتسام اللورين
فحصل شارل الأصلع على اللورين الواقعة قرب نهر الموز والموزيل
وعلى دوقية ليون وحصل لويس الجرمانى على اللورين الشرقية
وأصبحت بذلك مملكتا فرنسا والمانيا متجاورتين . ثم اضطر احفاد
شارل الأصلع للتخلي عن القسم الغربى من اللورين الى لويس
الشاب ابن لويس الجرمانى فأصبحت اللورين كلها ملحقة بمملكة
المانيا . وبقيت اللورين فيما بعد محورا للتنازع بين مملكتي فرنسا
والمانيا خلال عصور طويلة .

وفي عام ٨٧٥ م مات الامبراطور لويس الثانى فسارع عمه
شارل الأصلع الى احتلال مقاطعة بروفانس وعهد بحكمها مع دوقية
ليون الى ابن حميه بوزو الذى مال بآثاره الى استقلال في حكمها وانتخب
ملكاً على بورغونيا و بروفانس عام ٨٧٩ م بعد موت شارل
الأصلع . وخلفه ابنه لويس الأعمى (٨٨٧ - ٩٢٨) الذى اعترف
بسيادة ملوك جرمانيا ، ثم قام بحملة الى ايطاليا واتخذ لنفسه لقب
ملك ايطاليا وحصل على لقب امبراطور بين عامي ٩٠١ - ٩٠٥
وظلت بورغونيا و بروفانس تؤلفان مملكتين مستقلتين ، تتوحدان
حيناً وتنفصلان حيناً آخر ، حتى أواسط القرن الحادى عشر .

٢- مملكة لويس الجرمانى (جرمانيا) :

حصل لويس الجرمانى بموجب معاهدة فردان عام ٨٤٣ على
الاجزاء الواقعة الى شرق نهر الراين وبعض المزارع الواقعة على
الضفة الغربية منه ، وقد عمل لويس الجرمانى على توطيد سلطته في
مملكته ، فقام بعدة حملات لاختضاع الاقوام القاطنة في الشمال كما
خاض حرباً ضد البلغار الذين هاجموا مملكته عام ٨٥٣ م ، وعمل
ايضاً على توسيع رقعة مملكته فاقدم مع اخيه شارل
الأصلع ، كما مر من قبل اللورين بعد موت ملكها لوثر الثانى دون
وريث وفي عام ٨٥٨ م انتهز فرصة انشغال اخيه شارل الأصلع في
الصراع ضد الغزاة النورمان لكي يهاجم مملكة فرنسا دون ان يلقى
اى مقاومة وكاد ان يتم له الامر فيها بعد هرب شارل الأصلع لولا ان

الأساقفة رفضوا الموافقة على تتويجه ومباركته ملكا على فرنسا مما اضطره الى التراجع والمصالحة مع أخيه شارل عام ٨٦٠ م ، وكانت هذه الحرب أول حرب بين فرنسا والمانيا . وساءت العلاقات بين لويس الجرمانى وشارل الأصغر من جديد بعد أن حصل شارل على التاج واللقب الامبراطوريين عام ٨٧٥ م وقام لويس بمهاجمة فرنسا مرة ثانية ولكنه مات في عام ٨٧٦ م ، واقتسم كارلومان ولويس الشاب وشارل البسمين أبناء لويس الجرمانى مملكة أبيهم بعد وفاته ودخلوا في مرحلة من النزاعات استمرت الى أن استعادت مملكة جرمانيا وحدتها تحت سيادة شارل البسمين عام ٨٨٢ م بعد موت أخويه كارلومان ولويس الشاب عامي ٨٨٠ و ٨٨٢ م وكان شارل البسمين قد حصل قبل ذلك على لقب ملك ايطاليا عندما استنجد به البابا عام ٨٧٩ لصد هجمات المسلمين على ايطاليا ، وفي عام ٨٨١ م توجه البابا امبراطورا للغرب خلفا لشارل الأصغر ، كما أن كبار مملكة فرنسا انتخبوه ملكا بعد موت كارلومان حفيد شارل الأصغر وعادت بذلك الوحدة نظريا الى امبراطورية شارلمان ، ولكن ضعف شارل البسمين وتخاذله أمام كبار رجالات المملكة وانحطاطه الأخلاقي وإصابته بنوبات الصرع جعلته عاجزا عن القيام بالدور الذي كان يتطلبه منه منصبه ، وعندما قدم الى فرنسا على رأس جيش كبير لصد النورمان وتحرير باريس من حصارهم أثار شراء رحيلهم بالذهب على خوض غمار معركة معهم . وقد دفع هذا الموقف المتخاذل مجلس كبار مملكة المانيا عام ٨٨٧ الى عزل شارل البسمين الذي توفي بعد ذلك بقليل .

تولى عرش المانيا بعد شارل البسمين ارنولف وهو ابن طبيعي لكارلومان بن لويس الجرمانى ، وقد شغل ارنولف في بداية حكمه بالدفاع عن مملكته ضد غزوات النورمان في الشمال والغرب وضد توسع وتعظيم قوة الامبراطورية المورافية التي تشكلت في الشرق ، ولذلك لم يستطع أن يحول دون حصول غي دوق سبولىيت على لقب ملك ايطاليا ثم على التاج الامبراطوري عام ٨٩١ م وبعد

أن استقرت الأحوال في مملكة جرمانيا ، وجه عام ٨٩٤ م حملة الى إيطاليا بقيادة ابنه ، ثم قاد بنفسه حملة أخرى في العام نفسه دون أن يتوصل الى تحقيق نصر حاسم على سبوليت ، ثم قام بحملة جديدة في عام ٨٩٥ بعد موت غي ، ورغم المقاومة العذيفة التي أبدتها ارملة غي دفاعا عن حقوق ابنها لامبيز فقد دخل أرنولف الى روما حيث توج امبراطورا عام ٨٩٦ ، ومن ثم اتجه نحو سبوليت مقتفيا اثار منافسية وبينما كان في طريقه اليها اصيب بالشلل فأعيد الى ألمانيا حيث مالبث أن توفي عام ٨٩٩ . لم يخلف أرنولف وريثا سوى ولد في السادسة من العمر هو لويس الثالث وذلك في الوقت الذي كانت فيه ألمانيا بحاجة الى ملك قوي اذ انها كانت مهددة بخطر رهيب هو خطر الغزو الهنغاري ، فقد ظهر الهنغار ، وهم من اصل مغولي ، في وادي الدانوب قادمين من الشرق فاقتحموا هنغاريا واكتسحوا منطقة البندقية ولومبارديا في شمال إيطاليا (٨٩٩) واقتحموا مورافيا (٩٠٥ - ٩٠٦) ومن ثم اندفعوا نحو الساكس (٩٠٦) وبافاريا (٩٠٧) ولم يستطع مجلس الوصاية تنظيم الدفاع عن المملكة ومنع الغزوات السنوية التي كان الهنغار يقومون بها على هاتين المنطقتين والقيام بأعمال السلب والنهب والتخريب . وفي عام ٩١١ مات لويس الثالث وله من العمر ١٨ عاما .

أدى عجز حكومة لويس الثالث الى التفاف سكان المقاطعات المتاخمة للحدود حول زعماء محليين ، وظهرت نتيجة ذلك خمس « دوقيات وطنية » هي :

الساكس ، وبافاريا ، وسواب ، وفرانكونيا ، واللورين . وقد انتخب في عام ٩١١ دوق فرانكونيا ، ملكا خلفا للويس الثالث وهو يعد من السلالة الكارولنجية من طرف امه ، وكان عهده عهد اخفاق سواء في الدفاع عن المملكة ضد غزوات الهنغار أو في الحفاظ على وحدتها اذ انتزع ملك فرنسا مقاطعة اللورين ، أو في فرض احترامه وطاعته على دوقات بافاريا والساكس وسواب الذين كانوا يعارضونه بالقوة أحيانا ، وقد اضطر ، قبل موته الى تعيين خلف

أقوى أعدائه وهو هنري دوق الساكس الذي انتخب ملكا وحكم باسم هنري الأول وبتولية العرش ينتهي حكم السلالة الكارولنجية في جرمانيا .

كان شارل الأصلع يتمتع بمواهب تجعله جديرا بمنصبه ، فقد كان واسع الثقافة محبا للاطلاع والمعرفة وجمع في بلاطه ، نخبة من المثقفين والمفكرين في عهده . وكان أيضا مقداما وكريما وبليغا في أن واحد ، وهذه هي صفات الملك المثالي كما كان يراها رجال العصر الوسيط ، وكان ذا عزيمة لاتعرف الوهن ولا يدع اليأس يتسرب الى نفسه ، ويعرف كيف يكتسب ولاء رجاله واخلصهم باللاجوء الى اللين في معاملتهم حينما والى الشدة والقسوة حينما اُخرو .

وكانت هذه الصفات ضرورية لكي يتغلب على الصعوبات التي واجهته في حكمه الذي كثرت خلاله الثورات الداخلية ، في بريتاني واكيتانيا خاصة ، وغزوات النورمان التي بدأت منذ عام ٨٤١ م واضطر شارل الأصلع في الاجتماع المعقود في كولين عام ٨٤٣ خلال حملته على بريتاني لاختاد ثورة فيها ، أن يمنح رجال الكنيسة وكبار المملكة امتيازات واسعة لكي يكسب تأييدهم ومناصرتهم له ، فوعد الكنيسة بعدم مصادرة املاكها وبعدم التدخل في شؤونها الادارية ، كما تعهد باحترام حقوق كبار المملكة واحترام وظائفهم واملاكهم والقابهم ، ويمكن القول بأن هذا التعهد كان نوعا من وثيقة دستورية تقيد سلطة الملك وتسبق (الما غناكارتا) الوثيقة الكبرى الانكليزية (١٢١٥ م) بأربع قرون .

وبعد ذلك سار الى اkitانيا لاختاد الثورة التي قامت فيها عام ٨٤١ م بزعامه ابن اخيه بيبين الثاني وبينما كان يحاصر تولوز اتته انباء ثورة بريتاني واكتساح الثوار القسم الغربي من المملكة مما اضطره الى رفع الحصار عن تولوز تاركا اkitانيا لبيبين الثاني الذي اعترف بسيادته . وفي عام ٨٤٦ م قبل باستقلال بريتاني كامر واقع . وفي عام ٨٤٨ اقام احتفالا دينيا كبيرا في مدينة اورليان حيث توجه رئيس اساقفة سانس ومسحه بالزيت وازدادت متاعب

شارل الأصلع بسبب توسع الغارات النورمانية عبر انهر الايسكو والسين واللوار ، وفي منطقة بروفانز وبلغت هذه الغارات اوج شدتها بين عامي ٨٥٦ و ٨٦١ م وفي هذه الاثناء ثار كبار اكيثانديا ونوستريا ضد شارل عام ٨٥٨ م ، ووجهوا نداء الى اخيه لويس الجرمانى للتدخل فسارع هذا الاخير الى مهاجمة فرنسة ولكن رجال الدين رفضوا تأييد لويس الجرمانى مما اضطره الى العودة الى مملكته . وعهد شارل عام ٨٦١ م بقيادة البلاد الواقعة بين نهري السين واللوار الى روبرت الملقب بالقوي وكلفه بالدفاع عنها ضد غارات النورمان فاستطاع روبرت ان يحقق عليهم انتصارا باهرا عام ٨٦٦ م .

وضم شارل الاصلع الى مملكته في عام ٨٦٩ النصف المغربي من اللوريين ودوقية ليون وذلك على اثر موت ملكها لوثر الثاني . كما انه ضم عام ٨٧٥ م مقاطعة بروفانز بعد موت الامبراطور لويس الثاني ، وفي اخر عام ٨٧٥ (في كانون الاول) توجه البابا يوحنا الثامن في كنيسة القديس بطرس امبراطورا .

وقام شارل الاصلع بمهاجمة مملكة جرمانية بعد وفاة اخيه لويس الجرمانى والخلاف الذي دب بين أبناء اخيه حول الارث ، ولكن ابن اخيه لويس الشاب استطاع صدده ، وفي هذه الاثناء شن النورمان غارة جديدة على فرنسا في مجرى نهر السين . كما ان البابا وجه اليه نداء لمساعدة ايطاليا ضد غارات المسلمين عليها لذا عمل على ترحيل النورمان عن فرنسا بأن دفع لهم مبلغا كبيرا من المال وضمن اخلاص كبار المملكة بمنحهم امتيازات جديدة جعلتهم شبه مستقلين في مقاطعاتهم ، ومن ثم توجه الى ايطاليا ، ولكن لما ان وصل الى ايطاليا الشمالية حتى قام بعض كبار المملكة بثورة ضده بحجة انه ترك فرنسا فريسة لغزوات النورمان بسعيا وراء الحكم الامبراطوري فسارع بالعودة الى فرنسا ، ولكن صحته كانت معتلة وبلغ منه التعب والاجهاد اقصاه فوافته منيته بينما كان يجتاز ممرا في جبال الالب في طريق العودة .

خلفاء شارل الاصلع (٨٧٧ - ٩٨٧) :

كان شارل الاصلع آخر ملك كارولنجي حكم فعلا في فرنسا مع ان السلالة الكارولنجية بقيت فيها مائة وعشر سنوات آخر ، واتصفت بانقسام كبار المملكة الى فريقين احدهما السلالة الكارولنجية الشرعية بينما ايد الفريق الآخر سلالة الروبرتين (نسبة الى روبرت القوي) ، واستمر الصراع بين الفريقين حتى نهاية عصر السلالة الكارولنجية .

كان حكم خلفاء شارل الاصلع الثلاث الاوائل قصيرا جدا توفي الواحد بعد الآخر خلال خمس سنوات وهم ابنه لويس الا لكن (٨٧٩ م) وحفيده لويس الثالث (٨٨٢) وكارلومان (٨٨٤) وهنا لم يفكر كبار المملكة بتقديم العرش لوريثه الشرعي وهو اخوه شارل البساذج الذي كان لا يزال قاصرا بل انتخبوا ملك جرمانيا شارل السمين ملكا على فرنسا ايضا . ولكن الآمال التي عقدوها عليه منيت بالخذلان كما مر من قبل ، وبعد موت شارل السمين ٨٨٨ ، انتخب كبار مملكة فرنسا ملكا جديدا هو اود كونت باريس وابن روبرت القوي . وكان اود قد اكتسب شهرة على اثر دفاعه عن مدينة باريس ضد هجمات النورمان .

استمر حكم اود عشر سنوات ٨٨٨ - ٨٩٨ قضاه في محاولات غير ناجحة لصد غارات النورمان على فرنسا وفي الحرب ضد انصار الحزب الشرعي الذي لم يقر بشرعية تولي اود الحكم وظل صاحب الحق الشرعي شارل البساذج الذي توجه رئيس اساقفة رانس ملكا عند بلوغه سن الرابعة عشرة ، وفي مطلع عام ٨٩٨ مات اود بعد ان اوصى اخاه روبرت وانصاره بالاعتراف بالملك الكارولنجي ، وقد اخذ روبرت بوصية اخيه فاكتفى بان يكون كونتا على باريس وانجو وتور وبلوا والمستشار الاول الذي يتمتع بالسلطة الحقيقية الى جانب الملك الكارولنجي شارل البساذج .

وتميز عهد شارل الساذج بحادثتين هامتين وهما :

- ١ - توطين النورمان في المنطقة الساحلية التي ستحمل اسمهم اي نورماندي .
- ٢ - استعادة مقاطعة اللورين .

وحاول شارل الساذج التخلص من وصاية مستشاره روبرت وحاول ابعاده عن القصر ، ونجم عن ذلك قيام انصار روبرت بالثورة وبتتويج روبرت ملكا عام ٩٢٢ م ، ولكن هذا الأخير قتل في العام التالي في موقعة بينه وبين انصار الملك الكارولنجي . وانتخب اتباع روبرت بعد موته صهره راؤول دوق بورغونيا الذي توج وتخلص من الملك الشرعي شارل الساذج فاعتقله وبقي اسيرا حتى موته عام ٩٢٩ . ولكن حكم راؤول لم يكن اسعد حالا من حكم الملوك السالفين إذ انه اضطر الى التخلي عن بايو للنورمان كما تنازل عن مقاطعة اللورين الى ملك جرمانيا الأول .

عاد الكارولنجيون الى تولي عرش فرنسا بعد موت راؤول عام ٩٣٦ م ، فقد فضل كونت باريس هيو بن روبرت الملقب بالكبير ، ان يحكم بشكل غير مباشر وراء اسم لويس الرابع ابن شارل الساذج . ولكن سرعان ما نشب النزاع بين هيو الكبير ولويس الرابع الذي لم يقبل أن يكون ملكا اسميا فقط ، وطلب كل منهما تأييد ملك جرمانيا القوى اوتو الأول ومناصرته ، لأنه كانت تربطهما به رابطة المصاهرة ثم تصالح الاثنان عام ٩٥٠ م . وقد بذل لويس الرابع جهودا كبيرة لاختضاع النورمان ، ثم اجبرهم على الاعتراف بسيادته عام ٩٤٥ م ، كما اضطر دوق اكيثانيا الى الاعتراف بسيادته ايضا .

بعد موت لويس الرابع عام ٩٥٤ تولى العرش ابنه البكر لوثر ، الذي كان له من العمر ثلاث عشرة سنة ، تحت وصاية هيو الكبير الذي مات بعد سنتين عام ٩٥٦ . وكان لوثر نشيطا مثل ابيه ، وحاول استعادة اللورين من خاله ملك جرمانيا اوتو الثاني

الذي صد المحاولة واكتسح فرنسا حتى وصل الى باريس التي دافع عنها هيو كابيه ابن هيو الكبير (٩٧٨) .

وقد مات لوثر عام ٩٨٦ م خلال حملة جديدة لاستعادة اللورين وخلفه على العرش ابنه لويس الخامس دون أي صعوبة ، ولكنه مات في حادث في السنة التالية ٩٨٧ م .

وعلى الاثر عقد كبار المملكة العلمانيون والدينيون ، اجتماعا في مدينة نوايون لانتخاب ملك جديد ووقع اختيارهم على هيوكابيه كونت باريس الذي توجه رئيس اساقفة رانس ملكا .وبدا بذلك حكم سلالة جديدة في فرنسا هي أسرة كابيه التي سستعرف الى شي من تاريخها .

الحضارة الكارولنجية

كان وصول الاسرة الكارولنجية الى الحكم وتوحيد قسم كبير من اوربا الغربية في عصرها وتوطيد النظام والامن فيها خلال أكثر من نصف قرن ، عاملا ساعد على خلق جو موائم للنشاط الثقافي فازدهر النشاط الفكري في البلاد الانكلوسكسونية ، والنشاط الفني في غاليا الشمالية ، أما العناصر المادية والاتجاهات الاقتصادية والبنيان الاجتماعي في حضارة أوربا في هذا العصر فقد تابعت تطورها الذي بداته في العهود السالفة وكان عاملا رئيسا في انحطاط الحضارة الغربية .

الحياة الاقتصادية:

كان البنيان الاقتصادي في القرن الثامن بدائيا جدا ، فالادوات الزراعية البسيطة والاساليب البدائية كانت لا تسمح باستثمار غير الأراضي الخفيفة السهلة الحراثة ، التي سرعان ما تنفذ خصوبتها . أما الأراضي الثقيلة الرطبة فكانت تغطيتها الغابات أو المستنقعات ، ويبدو ان توطيد الامن والسلام بين عامي ٧٥٠ و ٨٥٠ أدى الى زيادة هامة في عدد السكان ، ولكن هذه الزيادة في عدد السكان لم تدفع رجال ذلك العصر إلى توسع رقعة الأراضي المزروعة .

وكان النشاط التجاري في هذه الشروط محدودا جدا ، فقد قضت الحروب المستمرة بين الفرنجة والعرب المسلمين في الجنوب على بقايا الاقتصاد القديم المرتبط بالبحر المتوسط ، ولم يعد يوجد في مدن الجنوب ، كما كان في العصر الميروفنجي ، جماعات من التجار الشرقيين ، وكان بعض سكان المدن يتعاطون التجارة أحيانا دون

أن يجعلوا من التجارة مهنة لهم ، وأدى تدعيم النظام السياسي في غالبا الشمالية الى تشجيع التجارة بعض الشيء حيث بدأت حركة المبادلات التجارية تنشط تدريجيا .

هذا واستمر استيراد السلع الشرقية الخفيفة الوزن ، الغالية الثمن التي احتاجت اليها الارستقراطية العلمانية والدينية مثل التوابل ، والعطور والأقمشة الفاخرة، ولكن طرا تغيير على طرق التجارة . فقد أصبحت هذه البضائع تصل الى الغرب عن طريق الموانئ البيزنطية في ايطاليا الجنوبية وعلى البحر الادرياتيكي أو بسلوك الطريق البرية التي تمر عبر بلاد السلاف ، أو بواسطة الطرق البحرية في بحر البلطيق التي تكملها الطرق النهرية في الأنهر الكبرى في أوروبا الشمالية وكانت جزيرة جوتلاند عقدة تلك المواصلات البحرية في الشمال .

كما ونشأت تيارات جديدة للمبادلات التجارية ، فقد أدى تطور صناعة الأقمشة الصوفية ونموها في البلاد المتاخمة لسواحل بحر الشمال الى حركة تصدير لهذه المصنوعات الى البلاد المجاورة ، وأخذ التجار الفرنجة منذ نهاية القرن الثامن ينقلون المنسوجات المصنوعة في شمال غاليا ، والعبيد المأسورين في بلاد وثنية ، وبيعهم في البلاد الاسلامية وأدت هذه التجارة مع البلاد الاسلامية الى نتيجة هامة في الاقتصاد الغربي ، وهي إعادة ادخال المعادن الثمينة في النظام الاقتصادي مما جعل النشاط يدب في تداول النقود والمبادلات المحلية وسمح بدفع قيمة البضائع المستوردة من بيزنطة ، تلك البضائع التي كاد فقر أوروبا بالمعادن الثمينة أن يؤدي الى انقطاع استيرادها .

ونجم عن عودة النشاط الى حركة المبادلات التجارية ، على الرغم من بساطتها وعن الاتجاهات الجديدة في التجارة : اصلاح نظام النقد الفرنجي تدريجيا حيث توصل الملوك الكارولنجيون ، أمام تداول النقود العربية والصقيلة ، إلى اصلاح قيمة الدانق الفضي وتثبيتها بربطه على ما يبدو بالنظام النقدي

الإسلامي ، وقاموا بصك النقود الذهبية أحيانا وبشكل متقطع وغير منتظم وشهدت المدن وخاصة في المنطقة الواقعة بين نهري السنين والراين بعض النهضة ، وعادت الحياة إلى مدن قديمة مثل أراس ومترز وفردان ، كما ونشأت تجمعات سكنية جديدة حول مراكز المبادلات التجارية النشيطة على طول مجاري الأنهار الكبرى وعلى ساحل بحر المانش وبحر الشمال .

غير أن مظاهر النشاط الاقتصادي هذه ظلت محدودة النطاق جدا ، ويشير الباحث إليها فقط لأنها كانت ممهدة للتوسع الاقتصادي الكبير في القرن الحادي عشر ، ويجب ألا يغرب عن البال أن الاقتصاد الكارولنجي كان اقتصادا زراعيا قبل كل شيء شغلت فيه المدن دورا ضئيل الأهمية .

وبناء عليه كان قوام العمل الاقتصادي في هذا العصر هو الملكية الزراعية الكبرى المسماة « الدومين أو الفيلا » وترجع أصول نظام الدومين إلى أواخر أيام الإمبراطورية الرومانية وبدايات العصر الميروفنجي ، ولكنه لم يظهر كنظام متكامل الاطر ، واضح الحدود والمعالم إلا في السنوات الأولى من القرن التاسع ، فهذا ما نراه من خلال الوثائق وكان عدد « الفيلات » كما يظهر من الوثائق ، كبير في نوسستريا وأوسسترازيا ، ولكنها لم تشمل جميع الأراضي المزروعة ، فقد كان يوجد إلى جانب هذه المزارع الكبرى مزارع مستقلة أصغر مساحة . وكانت مساحة الفيلات عرضة للتبدل المستمر بسبب الوراثة أو البيع والشراء أو الهبة ولكن برغم التنوع الخارجي في شكل الفيلات كانت بنية استثمارها واحدة . فالفيلا تقسم إلى قسمين :

١- الاحتياطي أي القسم الذي يحتفظ به المالك لنفسه ويستثمره مباشرة ، وتعادل مساحته ثلث أو ربع مساحة الفيلا ويشتمل على أراضي زراعية ومراعي وغابات وكروم - إذا كان المناخ مواتما لذلك - وأراضي بور ، وقام في مركز الاحتياطي سكن المالك أو وكيله وأحاطت به قطعة من الأرض قامت عليها مساكن الخدم والعبيد

وابنية الاستثمار (اسطبلات ، اهراء ، فرن ، معصرة مطحنة)
وفي اغلب الاحيان كنيسة .

٢- شمل القسم الثاني من الفيلا الاراضي الزراعية
المتبقية ، وكانت تنقسم الى عدة قطع صغيرة تسمى كل منها
« مانس » تناثرت في انحاء الفيلا ، واعتاد المالك أن يعهد باستثمار
المانسات الى فلاحين او الى عبيد واستدعت هذا التقسيم لأراضي
الفيلا أو الدومين وسببته ضرورات الاستثمار ، فالمالك كان
لايستطيع وحده تنظيم استثمار جميع الاراضي التي يمكن زراعتها
في دومينه ، ويتطلب استثمارها عددا كبيرا من الأيدي العاملة لأن
الأدوات والأساليب التي كانت مستخدمة في الزراعة بسيطة
وبدائية ، وحالت قلة النقد وسيولة تداوله دون استخدام عمال
مأجورين ، كما أن استخدام العبيد أصبح قليل الجدوى بسبب
صعوبة الحصول على العبيد بعد تحريم الكنيسة لاسترقاق
المسيحيين ، وبسبب ارتفاع كلفة اعالتهم وضعف مردود
عملهم ، لذا لجأ الملاكون الكبار الى تقسيم جزء من اراضيهم الى
مانسات وعهدوا باستثمارها الى عبيدهم او الى فلاحين
احرار ، وكان كل من هؤلاء يتمتع بموارد المانس التي يستثمرها
والتي تكفي لاعالة أسرته مقابل بعض الالتزامات نحو المالك وكانت
هذه الالتزامات على نوعين :

١- المساهمة في تأمين الموارد اللازمة لاعالة بيت المالك وذلك
بتقديم بضع قطع نقدية كل عام ، وكمية محدودة من المحصولات
الزراعية ، وبعض المصنوعات (أدوات خشبية ، مذسوجات) . .
٢- أو المساهمة في استثمار الاحتياطي وذلك بزراعة قسم صغير
منه لفائدة المالك في أن يضع نفسه تحت تصرف المالك عددا من الأيام
في السنة، للمساهمة في الأعمال الزراعية التي تحتاج الى ايدي عاملة
كثيرة، مثل الحصاد والقطاف ونقل المحصولات وصيانة مباني
المزرعة ، وكانت هذه الأعمال المجانية أهم من الالتزامات العينية
التي يؤديها الفلاح الى المالك لأنها أوجدت الحبل لمشكلة تأمين
العمال الضروريين لاستثمار ارضهم بدون دفع اجور .

وأمن هذا النظام في استثمار الدومين ، او الفيلا للمالكين العقاريين الكبار المواد الاستهلاكية الضرورية لحياتهم وحياة عائلاتهم وخدمتهم ، كما أن حفنة النقود التي كان الفلاحون يدفعونها له كفت لدفع ثمن الحاجيات من الكماليات الضرورية للمحافظة على المظاهر الخارجية التي تطلبها مركز كل مالك ومكانته الاجتماعية .

ب - المجتمع:

كان المجتمع الفرنسي في العصر الكارولنجي مجتمعا زراعيا ينظم تبعا لنظام الدومين ، فهو مجتمع كان يقر الرق كمؤسسة اجتماعية كما كان الحال في أيام الامبراطورية الرومانية والدولة الميروفنجية ، وظل التقسيم الرئيسي في المجتمع من الوجهة الحقوقية والشرعية هو التقسيم الى احرار وعبيد . فالأحرار هم وحدهم الذين كانوا يعدون اعضاء في الجماعة يحق لهم الاشتراك في نشاطاتها المختلفة من حربية وقضائية .

وقد أخذ الرق بالتقلص في الواقع منذ العصر الميروفنجي ، وساهمت التعاليم الاخلاقية المسيحية التي كانت تحرم استرقاق من يعتنق المسيحية وتعد تحرير العبيد عملا يكافأ فاعله بالخلاص ، في تناقص طبقة العبيد ، ولكن في الحقيقة كانت الاسباب الرئيسية لهذه الظاهرة اسبابا اقتصادية ، فقد ارتفع ثمن العبيد الذين كان تجار النخاسة يجلبوهم من البلاد الوثنية ارتفاعا كبيرا بسبب الطلب المتزايد على العبيد في اسواق البلاد الاسلامية كما ان تطبيق نظام الدومين ادى الى ابطال استخدام عدد كبير من العبيد في استثمار الارض ، وعلى هذا كان عدد العبيد في بداية القرن التاسع لايزيد عن عشر مجموع السكان الريفيين ، وبقي وضع العبيد الشرعي وراثيا حيث يتمتع المالك بحق معاقبة عبده حسب هواه ، وبسلطة عليا عليه وعلى ابنائه ومايملك . فالعبد كان لا يستطيع الانتقال او الزواج دون موافقة سيده وتوجب عليه ان يلبي طلبات السيد .

وقد لجأ كبار الملاكين منذ تطبيق نظام الدومين الى اعطاء بعض عبيدهم بعض المانسات مما أدى ايضا الى اضعاف ارتباط العبد بسيده لأن التزاماته نحو السيد اخذت تميل الى الاقتصاد على الالتزامات التي يحددها استثمار المانسان وصار باستطاعة العبد ان يعمل بحرية في الأرض التي أوكلت اليه وبيع جزء من محصولاته ومن ثم ان يحقق شيئا من الادخار وان يشترى ، اذا كان نشيطا ، قطعة من الأرض الحرة ، واكتسب العبيد نوعا من الشخصية الأخلاقية ولو معنويا اثر اعتناقهم للديانة المسيحية التي كانت تتابع انتشارها في الريف .

شهدت احوال العبيد ان شيئا من التحسن ضمن اطار نظام الدومين أما الفلاحون الأحرار الذين كان المالك يعهد اليهم باستثمار المانسات وتسميهم الوثائق المعاصرة «معمرين» فقد ساءت احوالهم ، وتضاءلت حريتهم ، وكان هؤلاء نظريا جزءا من الشعب الفرنجي ويتمتعون بالحقوق العامة للفرنجة ، غير انهم عمليا باتوا يخضعون لسلطة مالك الأرض الذي عدهم خدما له واستثمرهم وفرض عليهم مشيئته دون رقيب ، وقد اعفى هؤلاء المعسرون من الخدمة العسكرية ، ولكن اصبح لزاما عليهم ، مقابل ذلك ، ان يسهموا في تجهيز مالك الأرض واداء ضريبة البذل ، والقيام بأعمال سخرة مهنية ، ومع هذا ظل التمييز بين المعمرين الأحرار والعبيد قائما مع انهم ألفوا جميعا طبقة واسعة مستضعفة وفي الواقع أخذ التمييز الاجتماعي المبني على أساس اقتصادي بين المعمرين العاملين في الدومين وبين المزارعين الأحرار الذين يملكون أرضا مستقلة حرة ، يزداد أهمية يوما بعد يوم .

وكان المزارعون الأحرار يشتركون فعلا في كل نشاطات الجماعات الفرنجية الحربية والقضائية . ولكن عدد هؤلاء أخذ بالتناقص ، وذلك لأن اعباء الواجبات في حضور المحاكمات والاشتراك في الحملات الحربية كل عام كانت ثقيلة عليهم ولاسيما اذا كانت مساحة أرضهم بسيطة ولا يستطيعون ان يعهدوا الى

سواهم باستثمارها ولذا كان الكثير منهم يسعى الى التهرب من تلك الواجبات بان يضع نفسه تحت حماية احد المتنفذين أو بان يحول ارضه الى « مائس » ويصبح معمرًا في خدمة احد الملاكين الكبار ، وعلى هذا الشكل كانت هذه الطبقة الوسطى من الأحرار تتضاؤل .

وجعل انحطاط الطبقة الوسطى تفوق طبقة الملاكين الكبار أكثر بروزًا ولاسيما الذين كانوا يملكون عدة فيلات ، وأصبح هؤلاء يحملون القابا شرفية مثل : المقدمون أو الأعيان أو النبلاء وكانوا يزدادون غنى وثروة بضم أراضى المزارعين الأحرار الذين يدخلون في خدمتهم وحمايتهم ، وبالهبات التي كان يفسدونها عليهم الملوک ، يضاف الى ذلك انهم كانوا يتقلدون الوظائف العليا المدنية والدينية ، وهم الوحيدون الذين يتمتعون حقا بالحرية ويقتربون من الملك سواء عند التحاقهم بالجيش أو في المجالس التشريعية ، فهم الذين يملكون الثروة والسلطة .

نظام الحكم والادارة:

ظل مفهوم الدولة كفكرة مجردة ومفهوم الواجب المدني مفقودين في العصر الكارولنجي وبقيت التقاليد الجرمانية ، التي تعد المملكة ملكا شخصيا للملك يتقاسمه ورثته بعد موته ، سائدة .

كانت السلطة الملكية مطلقة لاتخضع لأي قيد أو تحديد ، ولم يكن لمجالس كبار رجالات المملكة سوى صفة استشارية ، ومع ذلك فقد كانت تعترض ملوك الكارولنجهين بعض الصعوبات في فرض سلطتهم على كل انحاء المملكة وعلى جميع رعاياهم وهذه الصعوبات هي :

١ - ضعف الجهاز الاداري في المقاطعات واقتصار هذا الجهاز على كبار الموظفين ، فليس للملك من يمثله في المقاطعات سوى الكونتات يساعدون بعض موظفي القضاء ولم يكن الكونتات

يحكمون مقاطعاتهم ويديرون شؤونها فعلا بسبب عدم وجود العدد الكافي من الموظفين المساعدين .

٢ - صعوبة المواصلات بين اطراف المملكة بسبب تردي حالة الطرق القديمة ، وعدم انشاء طرق جديدة ، وزاد في هذه الصعوبات اتساع رقعة المملكة بعد اعمال شارلمان التوسعية الكبيرة .

٣ - قلة استعمال الكتابة في الشؤون الادارية والسياسية والاكتفاء بالكلام الشفوي والاتصالات الشخصية والاعتماد على الذاكرة .

٤ - عدم وجود موارد مالية منتظمة ووفرة لتزويد خزانة الملك فقد اقتصرت هذه الموارد على الضرائب الموروثة من العصر الكارولنجي . وهذا ما جعل من العسير على الملك ان يقوم بتوزيع اعطيات مالية دورية على اتباعه للمحافظة على ولائهم واخلاصهم له .

وقد توصل الكارولنجيون على الرغم من هذه الصعوبات الى فرض سلطتهم ، لأن بنيان المجتمع وتركيبه كان يمثل عاملا مساعدا في تسهيل الحكم ، فقد كان يكفي ان يحقق الملك خضوع بعض من كبار رجالات المملكة : وملاكين عقاريين واساقفة ، وكان هؤلاء بدورهم يخضعون جماهير الفلاحين المرتبطين بهم والعاملين في اراضيهم ، وقد لجأ الملوك الكارولنجيون في اواخر القرن الثامن الى تحقيق هذه الغاية بوسائل عديدة ، نجلها فيما يلي :

الحرب :

كان الملك وخاصة في عهد شارلمان ، يقود كل سنة حملة خارج حدود مملكته فالمملكة الفرنجية كانت حسب التقاليد البربرية ، ملكية عسكرية قبل كل شيء ، والشعب هو الجيش والملك هو القائد الحربي ، وعندما يقوم باداء هذا الدور فله ان ييسط سلطانه ويدعم سيادته ، ولذا كان على جميع الرجال ان يلبوا نداء التعبئة ويسارعوا ، ولاسيما الاغنياء منهم ، الى اللقاء في الموعد المحدد من

شهر أيار حتى شهر تشرين أول تحست راية الملك بكل من يتأخر
يعرض نفسه لغرامة باهظة ، وكل من تبدر عنه بؤادر التضائل أو
الجبن اثناء القتال يتعرض لاشد انواع العقوبات .

وهكذا كان رجال الطبقة الارستقراطية يجتمعون كل عام في
مجموعة متماسكة تحت قيادة الملك المباشرة .

اضف إلى ذلك ان الحرب وماتدره من غنائم واسلاب في حالة
النصر كانت تزود الملك بوسيلة لمكافحة الذين يخلصون له
الخدمة ، ولاكتساب مودة وصداقة الآخرين . ولذا كانت محاولات
العصيان والتحرر تعقب في اغلب الاحيان ، الحروب التي لاتكفل
بالنصر .

ولكي يؤمن الملك بسيادته وسلطته على الارستقراطيين خلال فترة
السلم في فصل الشتاء ، وبعد ان يتفرق الجيش ويذهب كل فرد الى
بلده ، عمد الى اختيار عدد من حكام المقاطعات (الكونتات) من
بين اصدقائه الحميمين الذين يرتبطون به اما بصلة القرى وهي
أمتن صلة ، وإما برابطة أخرى شخصية تشبه في متانتها صلة
القرى ، وكان الملك يلجأ الى تربية ابناء بعض الارستقراطيين في
قصره بحيث يكونون من جانب رهائن بمثابة ضمان لاخلاص اباؤهم
ووفائهم ، وينشؤون من جهة أخرى على احترام الملك
وطاعته ، وعندما يبلغون سن الرشد ويعودون الى املاكهم
يصبحون من اشد المخلصين له .

نظام التبعية:

أخذ الكثير من الزجال الاحرار منذ اوائل القرن الثامن يضعون
انفسهم تحت رعاية احد « السادة » دون أن يفقدوا
حريتهم ، ويصبحون « تابعين » له ويتم ذلك وفق مراسم معينة :
يركع « التابع » على ركبتيه أمام السيد ويضم يديه ويضعهما بين
يدي السيد ويصبح بذلك « رجله » ثم يقسم يمينا يعد فيه (سيده)

بالاخلاص الكامل ، ويتلقى منه مقابل ذلك الحماية وقطعة من الأرض تسمى « الانتفاع » يتمتع بمواردها ما دام مخلصا للسيد ، وقد استغل أوائل الكارولنجهين هذا النظام لكي يجعلوا من كبار رجالات المملكة : الكونتات ورجال الدين والملاكين العقاريين « أتباعا » للملك وذلك بمنحهم (انتفاعات) من املاك الخزانة الملكية أو من املاك الكنيسة المصادرة ، وتوجب على هؤلاء الاتباع مراعاة القيام بواجباتهم مثل : الالتحاق بالجيش باتم وأحسن تجهيز ، وحضور جلسات المحكمة الملكية ، ومساعدة الملك في اقرار النظام والسلام في انحاء المملكة ، ووضع الملاكون العقاريون الأقل غنى وثروة أنفسهم تحت « رعاية » اتباع الملك وغدوا « أتباعا » له كما أنهم أصبحوا بدورهم « أسيادا » لمن هم دونهم في الثروة والغنى ، وهكذا أصبح جميع الناس الأحرار مرتبطين ببعضهم برباط « التبعية » مؤلفين تسلسلا هرميا ينتهي بشخص الملك .

وقد وضعت قواعد لهذا النظام أصبحت محددة وثابتة مع الزمن ، فصارت رابطة « التبعية » التي تربط بين السيد و« التابع » تدوم مدى حياة الطرفين . وغدا « الانتفاع » يمثل اجر التابع على اخلاصه للسيد الذي يحق له استرجاع الانتفاع اذا ما خانته التابع أو لم يقم نحوه بالواجبات المفروضة عليه ، وقد ظلت هذه الواجبات غامضة مبهمة دون تحديد كاف وتتضمن مساعدة التابع لسيد ، باستمرار وفي جميع الظروف في السلم أو في الحرب .

التنظيم الاداري

سعى الكارولنجهيون الى تقوية سلطتهم أيضا عن طريق تحسين المؤسسات والنظم الادارية التي ورثوها عن الميروفنجهين ، فطلبوا الى الكونتات تنظيم سجلات ودواوين لحفظ المراسلات والتعليمات والأوامر الملكية ولكن دون أن يحققوا نجاحا كبيرا في هذا المجال . وعملوا ، هم أنفسهم ، على تدوين المراسيم والقرارات

الملكية التي تتضمن الاوامر والتعليمات الشفهية التي كانوا يلقونها في بداية كل حملة امام افراد الجيش ، وسعى الملوك الى تأمين مراقبة اعمال حكام المقاطعات (الكونتات) عن كثب . فأنشأ شارلمان ، لهذه الغاية ، نظام المفتشين الجوالين ، وكان هؤلاء المفتشون يتألفون من جماعات صغيرة تضم كل منها كونتا واسقفاً وتطوف في عدد من الكونتيات دون أن يكون لأي واحد من أعضائها أي رابطة تربطه بأحدى تلك الكونتيات وأصبحت جولات المفتشين على المقاطعات منتظمة تتكرر اربع مرات في السنة . ويحمل المفتشون اوامر الملك الجديدة ويتأكدون من تنفيذ الاوامر الملكية السالفة ويتحققون من أن الأمن والعدل مستتبان . ويتلقون شكاوى الرجال الاحرار ، ويدخلون الاصلاحات اللازمة على ادارة المقاطعات .

ولجأ الملوك الكارولنجيون أيضاً إلى تقليص سلطات الكونتات وخاصة في الشؤون القضائية إذ أنهم وسعوا وزادوا في صلاحيات محكمة القصر ، وأحدثوا في كل كونتية جهازاً من القضاة المحترفين يختارهم المفتشون ، وهم مجبرون على حضور الجلسات العلنية في جميع المحاكم العامة ويتوجب على الكونت أن يحترم قراراتهم وأن ينفذها .

وبعد أن توسعت المملكة الكارولنجية وخاصة في عهد شارلمان ، أنشأ الكارولنجيون في بعض المقاطعات البعيدة عن مركز المملكة ، كإيطاليا ، وبافاريا واكتيانيا ، ممالك ذات استقلال داخلي ، وأنشأوا بالقرب من الحدود التي كانت تتهددها أخطار غزو خارجي مناطق عسكرية واسعة تضم عدداً من الكونتات وأطلقوا عليهم اسم « التخوم » وعهدوا بإدارتها الى حاكم عسكري « دوق » يهيمن على جميع الكونتات المرتبطتين به .

وأخيراً زاد الكارولنجيون في منح امتيازات « الحصانة » للمؤسسات الدينية الكبرى حتى أصبحت جميع املاك الاسقفيات والاديرة في القرن التاسع تتمتع بالحماية ولا يحق للكونت وأعوانه

التدخل في شؤونها . وبذلك أصبح الأسقف هو الممثل الوحيد للسلطة الملكية بين الرجال الأحرار المقيمين في الأراضي المتمتعة بالحصانة ، فهو الذي كان يقودهم للالتحاق بالجيش ، وهو الذي يجمع المخالفات ويقيم القضاء ويقدم كبار المجرمين إلى المحكمة الملكية ، وبهذا الشكل أخذ رجال الدين يساهمون في إدارة قسم كبير من المملكة ، وهذا ما يميز المؤسسات السياسية والإدارية الكارولنجية أي الارتباط الوثيق بين السلطة الملكية والكنيسة .

— اضعفاء الصبغة الدينية على المملكة :

اكتسبت الملكية الفرنجية في القرن الثامن صفة دينية كما هو الحال في بيزنطة وفي العالم الإسلامي ، واستمد الملوك هذه الصفة الدينية من الاحتفال الديني بالمرسح بالزيت المقدس والتتويج وأصبح الملك يمارس نوعاً من وظيفة كهنوتية وغداً ممثلاً لله على الأرض ، وتغيرت طبيعة السلطة الملكية بنتيجة ذلك ، فلم يعد الملك مستتبداً بل أصبح على عاتقه واجبات نحو شعبه وهي رعاية الكنيسة وحماية الضعفاء ، وتسويد الأمن والعدل ، ويجب على جميع الرعايا أن يعاونوه في هذه المهمة ، وهكذا نرى عودة فكرة الدولة المجردة إلى الظهور ولكن على شكل جديد هو « الدولة المسيحية » التي تضم الناس المعمدين . وأصبح هذه المفهوم الدعامة الأيديولوجية لكل ملكيات العصر الوسيط .

ولجأ ملوك الكارولنجيين منذ عهد شارلمان إلى تدعيم سلطتهم على أتباعهم بأن طلبوا اليهم تأدية يمين على أشياء مقدسة (الكتاب المقدس ، مخلفات القديسين الخ...) بأن يخلصوا لهم ولا يقدموا على فعل شيء يضر بالملك . وهكذا أصبحت التزامات الرعايا تتضمن عدم مخالفة القوانين الدينية والمدنية وخدمة الله والعدالة والسلام .

الكنيسة الكارولنجية:

سمح الاستقرار وتوطيد السلم الداخلي نحو نصف قرن في المملكة الكارولنجية بفتح الحياة الدينية والحياة الفكرية فيها .

وكان أول العاملين على يقظة الحياة الدينية المبشرين الانكلو - سكسون الذين نصرّوا جرمانيا بمساعدة حجاب قصر اوسترازا الذين اعتقدوا أن التعاون مع الكنيسة سيكون عاملا في تدعيم سلطتهم . وكان أول مظاهر هذا التعاون الاصلاح الكامل للكنيسة الفرنجية التي قام بها القديس بونيفيس بطلب من بيبن القصير واخيه كارلومان . ووضعت اسس هذا الاصلاح في المجمع الدينية الثلاث التي عقدت في اوسترازا ونوستريا بين عامي ٧٤٢ - ٧٤٤ م وتابع ملك الفرنجة الذي غدا حليفا للبابا ذلك الاصلاح ، وفي بداية القرن التاسع اصبحت كنيسة العصر الوسيط راسخة البنيان .

ولنبدأ الكلام عن الكنيسة النظامية . كانت غالبا الشمالية في نهاية العصر الميروفنجي ممثلة بالأديرة . وكانت هذه الأديرة تمثل الجزء السليم من الكنيسة الفرنجية مع أنها كانت تعاني من الفوضى وتدخل العلمانيين في شؤونها ، وعلى الرغم من أن انظمتها كانت متنوعة ومختلفة ولا تراعى بدقة ، كما أن شارل مارتل صادر قسما كبيرا من ممتلكاتها ووزعه على اتباعه المخلصين . كان اهتمام القديس بونيفيس بالأديرة ضعيفا ، فلم يتوصل الى تعميم القاعدة البندكتية في جميع الأديرة ، واقتصرت هذه القواعد في زمنه على الأديرة والابويات التي أسست حديثا في جرمانيا ومنها انتقلت الى أديرة وأبويات اوسترازا ، وقد سادت في تلك المؤسسات الرهبانية الاتجاهات الانكلو - سكسونية في الرهبنة ، فلم يكن الرعاية كما أراد القديس بندكت ، رؤساء جماعات منعزلة بل كانوا رسلا

للتبشير بالديانة المسيحية ونشرها وارتبطوا بالكروسي المقدس مباشرة ، واهتم الرهبان فيها بالاعمال الفكرية أكثر من اهتمامهم بالاعمال اليدوية .

سعى بيبين القصير ومن بعده شارلمان الى المحافظة على نظام الأديرة والى استخدامها لأغراضها السياسية ، واستمرا على اقتطاع بعض الأراضي من أملاك الأديرة ومنحها الى اتباعهما ، وعلا على تعيين بعض انصارهما من العلمانيين رعاة لبعض الأديرة ، وسهرا على حسن ادارة الأراضي التي بقيت في ملكية الأديرة ، وقد تمتع الرهبان في عهدي بيبين وشارلمان بالراحة والسعة ، وادى تطبيق نظام الدومين في الاملاك الديرية ، الى تحرير الرهبان من العمل بأنفسهم لاستثمار الأرض ، وبالتالي سمح لهم بالانصراف الى حياة الدراسة والعمل الفكري .

وكان الملوك الكارولنجيون يعدون رعاة الأديرة بمثابة موظفين لديهم • فكانوا يختارونهم من الطبقة الاجتماعية نفسها التي كانوا يختارون منها الكونتات أي من ابناء الأعيان الذين كانوا يدبون في القصر ، وكان الملوك يعهدون الى هؤلاء الرجال النشيطين وهم شباب بوجه عام ، بمهام ادارية وسياسية عليا ، وقد تكيفت الكنيسة النظامية بين عامي ٧٥٠ - ٨١٤ م مع النظام الاقتصادي السائد في ذلك الوقت وأصبحت مركزا رئيسيا للنشاط الفكري والفني وعنصرا هاما من عناصر الحضارة الفرنجية •

وطرا تبدل هام في عهد لويس التقي بتأثير الراهب بنوا راعي دير اميان في اكيثانيا الذي كان يرغب في تطبيق القاعدة البندكتية تطبيقا أكثر دقة ، فأصدر الامبراطور لويس التقي عام ٨١٧ م مرسوما يفرض بموجبه القاعدة البندكتية على جميع الأديرة في كل أنحاء الامبراطورية ، واستبدل المفهوم الانكلو - سكسوني عن الحياة الديرية الرهبانية ، أي المفهوم المنفتح الذي يميل الى العمل الفكري

والتبشير بالمفهوم الذي كان سائدا في بلاد البحر المتوسط. أي بالهيل الى حياة الزهد والعزلة واقامة الطقوس الدينية ، وأقلع الامبراطور من جهة أخرى ، عن مصادرة املاك الدير ومنح بعضها منها الحق في اختيار راعيها اختيارا حرا ، ومنذ ذلك الحين فقدت الدير اشعاعها ، وعادت الكنيسة العصرية والاساقفة الى احتلال المكان الاول في العالم المسيحي . وكانت وظيفة الاسقف ، وهي الوظيفة الرئيسية في النظام الكنسي ، في حالة انحطاط شديد في بداية القرن الثامن . ولذا ركز القديس بونيفيس اهتمامه على اصلاحها فعمل على تعيين أشخاص اكفاء في المناصب الشاغرة وعلى طرد رجال الدين الفاسدين واعادة تنظيم المجامع الدينية . غير ان هذا العمل كان طويلا وشاقا لم ينته الا في عهد شارلمان ، واصبح الملك ، في هذا العهد هو الذي يعين الاسقف ويختاره من رجال الدين المقيمين في القصر الملكي او من ابناء الدير المتقدمين في السن ، وهو في كل الاحوال ، من الرجال ذوي الكفاءة والمقدرة للاطلاع بمهامه الدينية كراع للجماعة المسيحية في مقاطعة مركزها احدي المدن الرومانية القديمة ، وكان الاسقف يختار بنفسه رجال الاكليروس التابعين له ، ويعلمهم في المدرسة الملحقه بدار الاسقفية ويراقب سلوكهم الديني ، ويساعد الكونت والملك في مهمتهما لاقرار السلم وتحقيق العدل بين الرعية ، لأن الواجبات الروحية لم تكن منفصلة عن الواجبات المدنية .

وكان رجال الدين الكبار انفسهم خاضعين لمراقبة مفتشي الملك ويمكن عزلهم من مناصبهم بموجب قرار من المجتمع الديني الذي كان يرأسه ويدير أعماله الملك . وكان الملك يصدر مراسيم تتضمن قرارات المجامع الدينية العامة والتعليمات التي توجه الى كبار رجال الدين ، وفي بداية القرن التاسع عهد شارلمان الى المطارنة بمراقبة الاساقفة التابعين لهم وصاروا يحملون لقب « رئيس اساقفة » أسوة بالكنيسة الانكلو - سكسونية ، واصبحت الكنيسة الكارولنجية بعد الاصلاح تحتل مكانة هامة في العالم الكارولنجي بعد عام ٨١٤ م .

وسمح اصلاح النظام الاسقفي بتدعيم الاجهزة الدنيا في الكنيسة العصرية وتقويتها فألف كهنة المدن روابط تجمع بينهم حسب القاعدة التي وصفها اسقف مدينة مس في اواسط القرن الثامن ، وتم في الريف تنظيم الأبرشيات الذي بدأ في العصر الميروفنجي ، ولكن بقي الكهنة الريفيون مرتبطون بالملك وكانت ثقافة أكثرهم سطحية وسرعان ما انحط مستواهم الفكري لاتصالهم الدائم بالفلاحين غير المثقفين . ومع ذلك حصل تقدم رئيسي في القرن التاسع وهو ان المسيحية عمت في كل الأرياف وقضت على بقايا الوثنية فيها .

وأخيرا تم توحيد النظم والعادات الكهنوتية نتيجة لتضايف جهود البابا وملك الفرنجة ، فقد تلقى شارلمان عام ٧٧٤ م من روما مجموعة القوانين الكنسية المسماة « هديانا » وجعل منها قانونا للكنيسة الفرنسية ، كما توحدت طرق اقامة الطقوس الدينية في الكنيسة الفرنسية حسب الطرق الرومانية .

وقد كان اصلاح الكنيسة اساسا لاصلاح اخلاقي وثقافي وتجلى هذا في اصلاح الاخلاقي في سلوك العلمانيين الذين اصبحوا اقل خشونة وادنى قساوة وذلك تحت تأثير رجال الدين ، ومع هذا ، لا ينبغي ان يذهب بنا الرأي الى القول ان رجال ذلك العصر كانوا يراعون تعاليم الانجيل بدقة ويطيعونها ، فقد كان الدين خارج اسوار المدن او جدران الكنيسة بدائيا بسيطا ، ولكن حصل شي من التقدم في مراعاة الاصول والقواعد الدينية وخاصة في العائلة الملكية فلم يعد القتل والاغتيال وسيلة من وسائل الوصول الى الحكم وذلك منذ عهد بيبين القصير كما ان لويس الثاني طهر القصر الملكي من الخليلات والمحظيات منذ وصوله الى العرش ، واخذ الشعب الفرنجي ، على وجه الاجمال ، بالتخلص تدريجيا من عاداته البدائية .

الحياة الفكرية والفنية:

شهد العصر الكارولنجي نهضة وتجديدا في الثقافة والفن . ولكن اشباع هذه النهضة الفكرية ظل محدودا جدا ولم يستفد منه سوى فئة مختارة قليلة العدد من رجال الدين والواقع ان زعماء اصلاح الكنيسة الفرنجية ، اي القديس بونيفيس ومساعديه . لم يكونوا يتصورون امكانية فصل الحياة الدينية عن الدراسة والتعليم ، واذنسا الرهبان المبشرون مدرسة في كل دير من الدير الجديدة التي اسسوها ، فكان اصلاح الكنيسة الفرنجية مرتبطا منذ البداية بالتجديد الثقافي ، ولكن الثقافة الجديدة اتصفت بانها ثقافة دينية ولائقية ، فهي ثقافة دينية الغاية منها خدمة الرب ، وشرح وايضاح العقائد الدينية ، ومثلت مراكزها القليلة ، من اديرة او كنائس جزرا منعزلة وسط العالم العلماني الجاهل ، وهي ثقافة لاتينية كانت ترمي الى احياء اللغة اللاتينية بدراسة قواعدها ودراسة المؤلفات الكلاسيكية ، وذلك لكي يسهل على رجال الدين مطالعة الكتابات المقدسة الموضوعة باللغة اللاتينية وفهمها ، مثل ترجمة القديس جيروم للكتاب المقدس ، وكتابات آباء الكنيسة الغربية .

بدأت النهضة بتأثير الرهبان الانكلو - سكسون وخطت خطوات واسعة في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عندما افضت اعمال التوسع الكارولنجية الى احتكاك المقاطعات الفرنجية بإيطاليا و (اطراف اسبانيا) حيث كان التراث الفكري والأدبي الروماني لا يزال محافظا على بقاءه بشكل أقل تحويرا وتشويها ، وعندما اهتم شارلمان شخصا برفع المستوى الثقافي لرجال الدين في غالبا الشمالية ، ولذا جذب شارلمان الى بلاطه ابرز رجال الفكر الأوربيين في عصره وساعد هؤلاء الامبراطور على تشغيل اطر للتعليم المنهجي في مدارس الأديرة ومدارس الكاتدرانيات ، ومدرسة القصر التي كانت خاصة بابناء الطبقة الارستقراطية الذين كان الملك يختار

الاساقفة منهم ، وكانت نتائج هذه الاصلاحات في البداية متواضعة فلم يكن الكتاب المعاصرون لشارلمان ، يهتمون بان يضعوا مؤلفات اصلية بل بتقليد الكتاب القدماء ، ولعل هذا كان ضروريا في هذه المرحلة ، فالمهم هو ايجاد الأدوات الأساسية الضرورية للمعرفة ، وكتابة النصوص المسيحية بلغة لاتينية سليمة ، وتعليم الناس قراءتها وفهمها . وهكذا عادت اللغة اللاتينية السليمة لتصبح لغة العلم والثقافة متميزة بذلك عن اللغات الشعبية ، وادى صبر ومثابرة النساخين في الأديرة الى انقاذ القسم الاعظم من التراث الادبي الروماني ، وثمة حدث هام ورئيسي في هذا العصر كان النتيجة المباشرة لهذه النهضة الفكرية الكارولنجية هو ان اللغات المحلية اكتسبت شخصية مستقلة ، ووافقت المجامع الدينية في غالبا في مطلع القرن التاسع على ان يكون الوعظ والارشاد باللغة العامية ، ومنذ ذلك الوقت أصبح الغرب مسيحي ثنائي اللغة (اللغة اللاتينية بالاضافة الى اللغة المحلية) .

وقد دفع الجيل الذي نشأ في تلك المرحلة بالتقدم الى الامام وبدأ بالانتاج الفكري والادبي غداة موت شارلمان ، ومما يدل على قوة واتساع البقعة الفكرية رد الفعل الذي قام به الراهب بنوا راعي دير اميان الذي خشي من شغف الرهبان بمطالعة المؤلفات العلمانية فأراد تقليص الوقت المخصص للدراسة والأعمال الفكرية في الحياة الديرية ، وقد ساهم في هذه النهضة ايضا بعض الأجانب وخاصة الأيرلنديين الذين هربوا امام الغزو السكانيوني ، ولكن في القرن التاسع كان جميع الكتاب تقريبا من الفرنجة الذين اتسعت افاق افكارهم ، وازداد غنى ثقافتهم وسعى اكثرهم الى انتاج اثار فكرية وادبية شخصية ، واتخذ نشاطهم اربع اتجاهات رئيسية هي :

اللاهوت والتاريخ والسياسة الدينية الاجتماعية ، وشعر التراتيل الدينية،وينبغي ألا نغالي في تقدير النتاج الادبي والفكري في هذه

الفترة لأنه كان مليئا بالنقل والاقتباس عن الأقدمين وتنقصه الأصالة العفوية ، وعلى هذا تنحصر قيمته في أنه مثل الخطوة الأولى في يقظة الفكر الغربي .

وكانت نهضة الفن في العصر الكارولنجي وثيقة الارتباط ايضا بتوطيد النظام السياسي وباصلاح الحياة الدينية ، ولكنها بدأت قبل النهضة الفكرية الثقافية وكانت أكثر أصالة منها وأقل تأثيرا بالفرن الأجنبي أو الفن القديم . فقد كان الفنانون أقل اهتماما بتقليد مخلفات الماضي الروماني - اليوناني وتجلت في أعمالهم الميول والاتجاهات التي ظهرت منذ أواخر القرن السابع في البلاد الواقعة بين نهري اللوار والراين حيث تم الانصهار بين التقاليد الفنية القديمة وبين التقاليد الفنية البربرية .

وظهرت براعة المهندسين المعماريين الغاليين في المنجزات المعمارية التي تمت في عهد شارلمان مثل كنيسة جرميني التي بنيت على الطراز التقليدي المحلي ، وإذا كان شارلمان قد أمر ببناء كنيسة القصر في عاصمته أكس لاشبل على طراز كنيسة سان فيتال البيزنطية في رافين فقد فعل ذلك لكي يثبت أن سلطته لا تقل عن سلطة الأباطرة البيزنطيين ، وكان المهندس المعماري الذي بناها أوسترازيا من مدينة مس .

وقد ازدهرت الحركة الفنية ، مثل الحركة الفكرية ، وكانت التجديدات التي أدخلت على بناء الكنائس في عهد لويس الثاني ولوثر ، مثل كاتدرائية رانس وكنيسة سان جرمان في أوكسير تلبى الحاجات الجديدة للطقوس الدينية ، وتمثل المرحلة التمهيدية للثورة المعمارية التي جاء بها فن العمارة الروماني فقد أدى توسع انتشار عبادة بقايا القديسين إلى إضافة أجنحة جديدة على الكاتدرائيات القديمة ، كإضافة قبو في المقدمة يضم ضريح القديس الذي يحيط بممرات جانبية ، وكنيسة صغيرة ثانوية يقوم على جانبيها برجان

ويعلوها ناقوس ، وهناك تغيير هام وحاسم في فن البناء في هذا العصر وهو استبدال اعمدة الرخام بأعمدة مبنية من الحجارة واستبدال السقوف الخشبية بالقباب والعقود .

وقد بلغ الفن الكارولنجي أعلى درجات الكمال في تزيين الكتب والمنمنمات والتجليد بصنفاًح العاج ، وقد ساعد على ازدهار هذا الفن ونموه التجديد الذي أدخل على الطقوس والتسراويل الدينية ، فنشأت عدة مدارس لتعليمه في بعض المدن تخرج منها الفنانون الذين كانوا يستلهمون موضوعاتهم من الرسوم الجدارية ومن المنسوجات المستوردة من الشرق ، وأبدعوا في هذا المجال كثيراً .

الفايكنغ

نقصد بالفايكنغ العناصر الشمالية التي سكنت شبه جزيرة سكندنافية وشبه جزيرة الدانمارك ، والتي شكلت غاراتها على أوروبا شكلا خطيرا في القرن التاسع ، وقد أطلقت هذه العناصر على نفسها - وكذلك فعل المعاصرون لها - اسم الفايكنغ بمعنى سكان الفيوردات ، أي الخلجان ، وهي الظاهرة الطبيعية التي تمتاز بكثرتها شواطئ الجهات الشمالية الغربية من أوروبا .

وإذا كان الفايكنغ يرجعون في الناحية العرقية إلى الأصل التيتوني أو الجرمانى ، إلا أننا يجب أن نفرق بينهم وبين العناصر الجرمانية الأولى التي اغارت على أوروبا في أواخر العصور الوسطى ، ذلك أن الفايكنغ ظلوا برابرة خلص محافظين على أوضاعهم التيتونية البدائية فيما يختص بنظم الحكم والبناء الاجتماعي والديانة ، واستمروا حتى القرن التاسع يعيشون في هذه العزلة بعيدين عن العالم الرومانى والبحر المتوسط ، بخلاف غيرهم من العناصر الجرمانية السالفة التي اتصلت بالحضارة الرومانية واحتكت بالمسيحية قبل اقتحامها حدود الامبراطورية ولم تحاول مملكة الفرنجة مد سيطرتها على تلك العناصر الشمالية حتى كان القرن التاسع ، وعندئذ بدأت هذه العناصر تغير على العالم الأوربي الجنوبي مما جعل بعض الكتاب يقول بأن الفايكنغ هم الذين اكتشفوا أوروبا وليست أوروبا هي التي اكتشفت الفايكنغ .

ولم يختلف الفايكنغ عن غيرهم من العناصر البربرية الجرمانية في نظمهم وعاداتهم واسلوب حياتهم إلا أن طبيعة بلادهم الجبلية ذات الغابات والأحراش والمستنقعات ، لم تترك لهم مجالا يعيشون فيه سوى السهول الساحلية ، وهي لا تعدو في كثير من الأحيان اشرطة ضيقة من الأرض الصعبة وهكذا دفعت الطبيعة الفايكنغ نحو

البحر ، فبرعوا في بناء السفن الصغيرة المكشوفة التي اتصفت بطولها وقلة عرضها وسارت بالمجذاف أو الشراع ، وجابوا بها شواطئ أوربا من البحر البلطى حتى البحر المتوسط ، بل قاموا أيضا برحلات بعيدة في المحيط الاطلسي حتى اصبحوا اعظم الشعوب البحرية التي عرفت أوربا في العصور الوسطى . لذلك اتخذت اغارات الفايكنغ شكلا بحريا اقرب الى القرصنة منه إلى الزحف البرى الذي اتصفت به هجمات بقية الشعوب التيتونية الجرمانية قبل ذلك بأربعة قرون اوخمسة ، كذلك عرف عن الفايكنغ مهارتهم في القتال ، وقوة تسليحهم فكان كل محارب منهم مزودا ببلمة وحربة طويلة ، زيادة على درع واق وخوذة من الحديد .

اما الاسباب التي دفعت الفايكنغ الى الخروج من بلادهم والقيام بهذه الحركة التوسعية الهائلة ، فيمكن تفسيرها على أسس اقتصادية واجتماعية وسياسية، فمن الناحية النفسية اثبت البحث التاريخي دائما أن الشعوب المتأخرة يغلب عليها شعور الحسد والطمع للبلاد المتحضرة القريبة منها ، والرغبة في الاغارة عليها لنهب ثرواتها أو على الأقل مشاركتها حضارتها وعيشها الهني . وهذا الشعور كان أحد العوامل التي حركت الجرمان نحو أراضي الامبراطورية الرومانية المتوسطة من قبل ، كما يمكن القول بأنه أحد البواعث الهامة الكامنة خلف حركة الفايكنغ في القرن التاسع ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن الفايكنغ كانوا عملاء تجاريين قدامى للفريزيين قبل أن يقوم الفرنجة بغزو فريزيا .

لذلك اهتز الفايكنغ عندما غزا الفرنجة فريزيا وسكسونيا نظرا لما ترتب على هذا الغزو من شل نشاطهم التجارى ، وبالتالي مضايقتهم اقتصاديا ، ومن الناحية الاجتماعية الاقتصادية يقال أن أعداد الفايكنغ تزايدت في القرن التاسع حتى ضاقت عليهم بلادهم الفقيرة ولم تعد تتسع لهم الأشرطة الساحلية الضيقة الممتدة على شواطئ سكندنافية والدانمرك، مما دفعهم الى الهجرة الى ارض الله الواسعة والاغارة على البلاد القريبة ، بغية الحصول على ما

يمسك رمقهم وبسد حاجتهم ، هذا وأن كانت لا توجد في الواقع أدلة تاريخية حاسمة تثبت أن ازدياد السكان وتضخمهم كان سببا أساسيا لهجرة الفايكنغ في القرن التاسع فان ذلك مقبول كتعليل على سبيل الفرضية، وأخيرا يأتي العامل السياسي مثلا في نشأة الملكية بين الفايكنغ وبخاصة في النرويج حيث تركزت السلطة قرب منتصف القرن التاسع في يدي هارولد الأشقر ، الأمر الذي جعل كثيرا من الزعماء يفضلون الهجرة الى اوطان جديدة على الخضوع لنظام لم يألوه ، وهناك من الدلائل ما يشير الى أن السويد والدانمرك . شهدتا أيضا تطورات سياسة داخلية أدت بكثير من جموع الفايكنغ الى الهجرة ، وهنا نلاحظ أن الفريزيين ظلوا منذ القرن السادس حتى منتصف القرن الثامن يمثلون أعظم قوة بحرية وتجارية في شمال غرب أوربا ، حتى أن قوتهم كانت عقبة كأداء في سبيل توسع الفايكنغ جنوبا . ولكن حدث عندما اصطدم الفرنجة بالفريزيين وحطموا قواتهم على أيدي شارل مارتل سنة ٧٣٤ م ، ثم شارلمان سنة ٧٨٥ م أن زالت هذه العقبة من طريق الفايكنغ وأصبح طريق التوسع جنوبا مفتوحا أمامهم .

وإذا كنا في حديثنا عن الفايكنغ نقسمهم الى نرويجيين وسويديين ودانيين (نسبة الى الدانمرك) فإننا يجب أن نشير الى أن هذا التقسيم لا يعني وجود فوارق بين هذه الفئات الثلاث ، وإنما كل ما يقصد هو الإشارة الى جماعات الفايكنغ التي سكنت الأجزاء الغربية أو الشرقية من سكندنافية أو شبه جزيرة الدانمرك ، وبعبارة أخرى فان العصر الكارولنجي لم يعرف وحدات سياسية تحمل اسم النرويج أو السويد أو الدانمرك .

وهنا نلاحظ أثر التوجيه الجغرافي في توزيع غزوات الفايكنغ ، فالسويديون الذين يواجهون شرقي أوربا عبروا البلطيق وسلكوا الطرق الطبيعية التي هيأتها وديان الأنهار للوصول الى سهول شرقي أوربا والبحر الأسود ، أما النرويجيون فقد اتجهوا غربا فوصلوا انكلترا وإيرلندا والجزر القريبة ، فضلا عن الجزر

الشمالية في المحيط الأطلسي . هذا في حين اتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب فهددوا شواطئ الامبراطورية الكارولنجية في المانيا وفرنسا ، فضلا عن ايرلندا والجزر القريبة .

ويمكن تقسيم الأدوار التي مرت بها علاقة الفايكنغ بغرب أوروبا الى ثلاثة ادوار : الاول دور الهجوم ، والثاني دور الاستقرار ، والثالث دور الدفاع ، أما دور الهجوم فقد بدأ في أواخر القرن الثامن - أي منذ سنة ٧٨٩ - عندما أخذ الفايكنغ يهددون شواطئ انكلترا واسكوتلندا وايرلندا وفي ذلك الوقت لم تحل قبضة شارلمان القوية دون تعرض امبراطوريته لهجمات الفايكنغ ، ولكن هذه الهجمات لم تأخذ شكلا خطيرا الا بعد وفاة شارلمان ، ثم بوجه خاص وفاة لويس الثاني ، وقد اتخذ نشاط الفايكنغ في ذلك الدور شكل غزوات صيفية حيث كانوا يخرجون من بلادهم صيفا عندما يعتدل الجو ويعودون اليها في الخريف ، وقد اكتظت سفنهم بالغنائم والاسلاب ، على أن حركة توسع الفايكنغ لم تلبث أن دخلت دورا جديدا عند منتصف القرن التاسع عندما أخذوا يقضون فصل الشتاء خارج بلادهم في معسكرات حصينة أو في الجزر المنيعه الواقعة قرب شواطئ البلاد التي كانوا يغيرون عليها أو عند مصبات أنهارها ، وبعد أن كانوا في الدور الاول يأتون على هيئة جماعات صغيرة أصبحوا في هذا الدور الثاني يغيرون على بلاد غرب أوروبا في هيئة جموع ضخمة ومعهم نساؤهم وأولادهم بغية الاستقرار في البلاد التي يغزونها ، وهكذا أقام الفايكنغ مستعمرة قصيرة العمر في ايرلندا سنة ٨٤٣ م كما قضوا الشتاء لأول مرة في انكلترا سنة ٨٥١ م وكذلك أخذوا يستقرون حوالي ذلك الوقت في الجزء الغربي من فرنسا الذي عرف فيما بعد باسم نورماندي ولكنهم أخذوا يتوغلون تدريجيا داخل البلاد ، وصار كلما هجر الأهالي الأجزاء القريبة الى الداخل تبعهم الفايكنغ في حين التزم هؤلاء الاخرون جانب الدفاع ، وقد بدأت هذه المقاومة من جانب الكونت أود حاكم باريس مما أدى إلى اخفاق حصار الفايكنغ لباريس (٨٨٠ - ٨٨٧ م) وقبل ذلك بقليل كان الفرد ملك وسكس بانكلترا

قد أنزل بالدانين هزيمة كبرى في ادنجتون سنة ٨٧٨ وفي سنة ٨٩١ استطاع ارنولف - أحد ملوك البيت الكارولنجي في المملكة الوسطى - أن ينزل هزيمة بنالفايكنغ في موقعة ديل في برابانت .

اغارات الفايكنغ على الامبراطورية الكارولنجية

بدأت اغارات الفايكنغ على الامبراطورية الكارولنجية في حياة شارلمان الذي أدى توسعه شمالا الى ايجاد حدود مشتركة بينه وبين الدانين ، ولم يلبث أن ساد سوء التفاهم العلاقات بين الطرفين عندما دخل بعض السكسون الهاربين من وجه شارلمان تحت حماية الدانين ، هذا في الوقت الذي أخذت بعض سفنهم تغير على اكوئين . ومنذ ذلك الوقت لم تنقطع اغارات الفايكنغ على شواطئ الامبراطورية الغربية بحيث لم تمر سنة واحدة دون أن يدهمو إحدى القرى أو المراكز الساحلية ، ويبدو أن هذه الاغارات أفرغت شارلمان فاعد أسطولاً قوياً في موانئ ناستريا لحماية شواطئ امبراطوريته من هجمات الفايكنغ ، ومع ذلك قد استمر غود فري ملك الدانين يسبب متاعب خطيرة لشارلمان في جنوب البحر البلطيك وشواطئ فريزيا حتى حاول شارلمان مفاوضتهم والاتفاق معهم فيما بين ٨٠٤ - ٨٠٩ م كوسيلة لدفع شرهم ثم حدث في عهد لويس الثاني خليفة شارلمان - أن استغل الدانيون فرصة الخلافات والحروب الداخلية التي قامت حول تقسيم الامبراطورية ، وانزلوا قواتاً ضخمة على شواطئ فريزيا سنة ٨٣٥ ونهبوا وترخت مركز رئيس اساقفة فريزيا ودورشتد أكبر موانئ الاقليم ، وفي العام التالي اغار الدانيون على فلاندرز وأحرقوا مدينة أنتورب ثم عادوا سنة ٨٣٧ إلى مهاجمة جزيرة والشرن عند مصب الراين وأوغلوا حتى وصلوا إلى نموجن ، ولكنهم لم يلبثوا أن لانوا بالفرار عندما حضر اليهم لويس الثاني على رأس جيشه ، ويبدو أن لويس حاول شراء مسالة الدانين بالهدايا والمال كما منحهم المنطقة في دورشتد سنة ٨٣٩ ليقيموا فيها ويحلوا دون وقوع اعتداءات جديدة من جانب

الفايكنغ ، وإن كانت هذه الاجراءات واشباهها لم تؤد في الواقع إلا إلى زيادة مظالمهم في اراضي الامبراطورية .

ويلاحظ ان انهار فرنسا الغربية مثل السنين واللوار والجارن كانت بمثابة طرق عظيمة سهلة مهدت للفايكنغ السبيل الى جوف البلاد ، فأوغلوا في نهر اللوار حتى تور حيث نهبوا كتدراثيتها ، ودخلوا في الجارن حتى تولوز ، في حين أوصلهم السوم إلى اميان والسين إلى باريس . وقد ساعد الفايكنغ على التسوغل في الامبراطورية الكارولنجية الحالة السيئة التي أصبحت فيها هذه الامبراطورية في القرن التاسع من نزاع وحروب اهلية بين الامراء والحكام ، ومهما يكن من امر فان اغارات الفايكنغ أخذت تشتد على فرنسا بشكل خطير بعد وفاة لويس الثاني سنة ٨٤٠ اذ أوغلوا في نهر السين لأول مرة سنة ٨٤١ واستولوا على روان ، وربما شجع الفايكنغ في سياستهم الهجومية عندما لجأ اليهم لوثر بالذات وحضهم على مهاجمة اراضي منافسيه ، وذلك اثناء النزاع الذي قام حول تقسيم الامبراطورية عقب وفاة لويس الثاني ، وهكذا أوغل الفايكنغ في اللوار قبيل عقد اتفاقية فردان مباشرة وأحرقوا ميناء نانت . ولم تلبث أن ازدادت اغارات الفايكنغ حدة وعنفاً عقب تقسيم الامبراطورية الكارولنجية سنة ٨٤٣ حتى أصبح هذا الخطر بمثابة الشغل الشاغل للاخوة الثلاثة الذين اقتسموا الامبراطورية ، وكان لويس الألماني أوفر اخوته حظاً لان قبائل السكسون القادمة على حدود دولته هيأت درعا قويا يحمي هذه الدولة من خطر الفايكنغ ، ومع ذلك فقد شهدت بلاد لويس الألماني حرق مدينة هامبرغ سنة ٨٤٠ ففر أسقفها الى يرمن ، كما أن قوة كبيرة من الفايكنغ أوغلت في نهر الالب سنة ٨٥١ م وهزمت امراء السكسون ثم عادت ظافرة الى الدانمارك بعد أن نهبت شطرا كبيرا من سكسونيا .

أما الأخ الثاني لوثر فكانت خسارته فاحشة ، اذ أخذ الفايكنغ يغيرون على شواطئ فريزيا سنويا ، وعندئذ حاول لوثر أن يمنح جزيرة والشون عند مصب الراين لزعيم الدانيين المسمى رودريك ليسترزمية ويتفادى شره ، ولكن هذا الحل لم يجد اذ سرعان ما

اصبحت شواطئ فريزيا (الاراضي المنخفضة) قلاعا للفايكنغ ،
استغلوها في التوغل داخل البلاد حتى غدا لوثر في قصره بمدينة
أخن لايامن على نفسه من خطرهم .

واما الاخ الثالث - وهو شارل الاصلي فكان اسوأ الثلاثة حظا
لان مملكته امتازت بشواطئ طويلة مكشوف ، وعدد كبير من الانهار
التي ساعدت الفايكنغ على التوغل داخل البلاد وقد استغل الفايكنغ
فرصة اندغال شارل في حرب اهلية مع ابن اخيه بيبسن امير اكرتين
وجندوا هجمهم على الاجزاء الشمالية من مملكته وكان ان
تجاسروا سنة ٨٤٣ على قضاء الشتاء لأول مرة في نستريا ، بعد ان
استولوا على دير نوار موتبية ، واتخذوه قاعدة لمهاجمة الاجزاء
الجنوبية من فرنسا ، ولم يلبث ان ساعد النزاع بين بيبس وعمه
شارل على ازدياد نفوذ الفايكنغ ، اذ استعان بهم الاول وساعدهم
على التوغل في حوض الجارون حتى وصلوا الى مدينة تولوز ، وفي
ذلك الوقت كان الفايكنغ قد عادوا الى تهديد حوض السين من جديد
فاغاروا على مدينة روان ونهبوها للمرة الثانية سنة ٨٤٥ ، وظلوا
يتقدمون حتى وصلوا الى اسوار مدينة باريس . وهنا لم يجرؤ
شارل الاصلي على صدهم او الوقوف في وجههم فحصد نفسه في
مرتفعات مونتمارتر ، وفي دبرسانت دنيس ، وترك باريس ليدخلها
الفايكنغ وينهبوها ، ولم تقف اغارات الفايكنغ على فرنسا عند هذا
الحد ، بل انهم اغاروا على بورجو - كبرى مدن الجنوب - ونهبوها
سنة ٨٤٧ ، ثم استولوا عليها تماما بعد قليل فظلت بأيديهم عدة
سنوات ، ومن الواضح ان استيلاء الفايكنغ على مثل هذه المدن
الضخمة كان يعود عليهم بارباح طائلة وغنائم وفيرة ، اغرتهم على
مواصلة نشاطهم التدميري بأعداد اكبر حتى وصلت مملكة شارل
الاصلي الى درجة يرثى لها من الخراب والانحلال ، وقد حدث عندما
تجددت هجمات الفايكنغ على حوض السين سنة ٨٥٢ ان اتى لوثر
على رأس جنده لمساعدة أخيه شارل الاصلي ، ولكن الاخير لم يلبث
أن عقد صلحا مع زعيم الدانيين ومنحه مبلغا طيبا من المال ، واجاز
له الاستقرار في منطقة قرب اللوار ، ومن ثم انسحب لوثر عائدا الى

بلاده ، ولم تلبث أن تجددت الحروب الاهلية بين لويسر الالماني واخيه شارل الاصلع سنة ٨٥٤ فأتاحت فرصة جيدة للدانيين ، فأوغلو في مملكة شارل وحرقوا نانت وتور ونهبوا المناطق المحيطة بسانجرزوبلوا ، وكذلك لم تقاومهم سوى مدينة أورليان (٨٥٣ - ٨٥٤) .

وخير ما يوضح لنا عجز ملوك البيت الكارولنجي عند منتصف القرن التاسع عن دفع خطر الفايكنغ انهم لجأوا الى شراء مسالمتهم بالمال من نلك ما فعله شارل الاصلع سنة ٨٦٠ من عقد معاهدة مع ولاند احد زعماء الفايكنغ تعهد فيها الملك بدفع مبلغ ضخم من المال ليقوم الاخير باخلاء نستريا من الغزاة ، ولكي يحصل الملك الكارولنجي على هذا المبلغ الذي تعهد بدفعه للفايكنغ فرض على رعاياه ضريبة ثقيلة ، بحيث لم تعف منها الكنائس والاديرة والنبلاء والتجار بل فقراء الفلاحين ، وهكذا جاءت الضريبة لتضيف حملا جديدا الى الانقال التي كان يتحملها اهالي دولة الفرنجة ، في الوقت الذي اتضح فيه عجز ملوكهم عن الدفاع عنهم وعن حريتهم .

والواقع ان الفترة الواقعة بين سنتي ٨٥٥ - ٨٨٧ تعد احلك عصور التاريخ الغربي ، ففي سنة ٨٥٥ توفي لوثر ، فكان ذلك نذيرا لحرب اهلية جديدة بين ابنائه واخوته حول اقتسام مملكته ، وفي هذه الظروف لم يتوقف خطر الفايكنغ ، بل ازداد عنفا مما دفع شارل الاصلع الى اصدار مرسوم ببيستر سنة ٨٦٤ لتعديل نظام الدفاع وجعله يعتمد على جيوش خفيفة سهلة الحركة بدلا من الخيالة الثقيلة من جهة ، ولعمل جسور وعقبات في مجاري الانهار لتعوق تقدم سفن الفايكنغ من جهة اخرى . على ان وفاة لويسر الالماني سنة ٨٧٦ ، ثم شارل الاصلع سنة ٨٧٧ م زادت من انقسام الامبراطورية الكارولنجية ، ومن ضعفها وعجزها عن مقاومة اخطار الفايكنغ ، وفقد السوم باكملة بما فيه من مدن واديرة مهمة ، كذلك تعرضت فريزيا وفلاندرز للمصير نفسه ، اذ هيات انهيار الراين والميز والشلد وغيرها طرقا صالحة لتوغل الفايكنغ حتى

وصلوا أخن وهددوا كولونيا ، وصحیح أن لويس الثالث ملك فرنسا استطاع أن یحرز نصرا على الفایکنغ فی موقعة سوکورت سنة ٨٨١ م حتى أنه ذبح منهم ثمانية آلاف وطردهم خارج حدود مملكته ، لكن هذا النصر لم یکن كافیا للقضاء على خطرهم وهكذا لجأ فی سنة ٨٨٢ شارل السمین الى مصالحة غودفري أحد زعماء الفایکنغ ف عقد معه معاهدة السلو حيث وافق شارل على منح الفایکنغ مبلغا من العملة الفضية فضلا عن اقليم فريزيا لیكون بوقية لغودفري الذي تزوج ابنة أخ الملك شارل ، وفي مقابل كل ذلك انسحب غودفري من مملكة شارل السمین وتعهد باعتناق المسيحية وبأن یظل تابعا للملك شارل .

ولكن هؤلاء الفایکنغ الذین غادروا المانيا وفقا لمعاهدة السلو إتجهوا نحو نستریا وهو أمر لم یهتم له شارل السمین فی قليل أو كثير ما داموا سیجلون عن مملكته لذلك كان شتاء ٨٨٢ - ٨٨٣ قاسيا بالنسبة للجهات الشمالية من فرنسا ، اذ دهمت المنطقة جموع ضخمة من الفایکنغ . وهنا لم یحاول الملك کارلومان (٨٧٩ - ٨٨٤) أن یحذو حذو سلفه لويس الثالث ، وانما فضل أن یقتفي سياسة شارل السمین فدفع مبلغا طائلا من المال للغزاة مقابل أن یتركوا بلاده وینقلوا میدان نشاطهم الى بلدان أخرى ، وقد اتیحت لشارل السمین بعد موت کارلومان ملك فرنسا فرصة توحيد معظم اجزاء امبراطورية شارلمان تحت سيادته ، ولكن الفارق كان عظیما بین شخصیتی شارل السمین وشارل العظیم ، وهكذا امتازت السنوات الثلاث التي وجد فیها شارل السمین الامبراطورية (٨٨٤ - ٨٨٧) بضعف السلطة المركزية ، وتحلل الرعايا من آخر الروابط التي كانت تربطهم بالملكية الكارولنجية . وسرعان ما اثبتت الحوادث أن الاتفاقات التي عقدها ملوك الغرب مع الفایکنغ لاقیمة لها ما دام هؤلاء الملوك لا یملكون القوة التي یجبون بها أعداءهم على احترام كلمتهم ، لذلك لم یلبث أن عاد الفایکنغ إلى تهديد المانيا وفرنسا ، حتى اشتدت غاراتهم بصفة خاصة فی السنوات العشر الاخيرة من القرن التاسع ، فدمروا

فلاندرز كما تعرض وادي الجارون والركن الجنوبي الغربي من فرنسا لغارات اخرى خطيرة ، فاستولى الفايكنغ على بورديو مرتين ، ونهبوا بواتيه وتولوز ، بل ان اساطيلهم دارت حول شبه جزيرة ايبيريا واغارت على الموانئ الاسلامية في الاندلس وهددت قواتهم بعض مدن الداخل ، وحرضت هذه الغارات المدمرة السلطة الاموية على تحصين المدن وتقوية دفاعاتها وايلاء الاسطول المزيد من الاهتمام ، وفي فترة تاليه تبادل السفارات مع الفايكنغ .

كما وهدد الفايكنغ الجزء الغربي من حوض المتوسط وتسللوا في الرون حتى نهبوا افينون ، واذا كانت بعض المدن المستورة والحصون قد استطاعت الثبات والدفاع عن نفسها ضد هجمات الفايكنغ ، فان الدير والكنائس لم تكن لها درع يحميها سوى حرمتها الدينية ، وهذا سلاح لم يعترف به اولئك المغيرون الوثنيون ، لذلك شدد الفايكنغ هجماتهم على الدير والكنائس بعد ان خبروها فوجدوها مخبأ للثروات والكنوز الامر الذي نشأ عنه اندثار كثير من هذه المؤسسات الدينية في ذلك العصر ، ولما كانت الدير حينذاك هي المراكز الاساسية للنشاط التعليمي والحضاري في اوربا للعصور الوسطى فان الخسارة التي لحقت الحضارة الاوربية بتدمير الدير وفرار اهلها او قتلهم كانت اعظم من ان تقدر .

على ان حوض السين ظل الهدف الاساسي لهجوم الفايكنغ في اواخر القرن التاسع ، وقد تعرضت باريس في اواخر سنة ٨٨٥ م لهجوم كبير قام به اربعون الفا منهم جاؤوا في سبع مائة سفينة ، وتولى قيادتهم عدد كبير من زعمائهم المدربين على شؤون الغزو ، واستطاعت باريس الصمود عدة اشهر ومقاومة الهجوم والحصار ، بفضل مهارة كونت اود حاكمها ، حتى وصل اخيرا (تشرين ثاني ٨٨٦) الامبراطور شارل السمين ليكرر تمثيلية السلو مرة اخرى ويعقد صلحا مشينا مع الفايكنغ تعهد لهم فيه بدفع مبلغ ضخم من المال ثمنا لانصرافهم عن باريس كما سمح لهم بالاقامة في برغنديا .

على أن الأهمية التاريخية لهذا الحصار لا ترجع إلى ظهور شخصية كونت أود على مسرح الحوادث فحسب ، بل ترجع أيضا إلى ظهور أهميته بباريس نفسها وانتشار شهرتها لتصبح عاصمة فرنسا فيما بعد .

وكان أن تم اختيار أود ملكا على فرنسا في شباط سنة ٨٨٨ بعد عزل شارل السمين في العام السالف . ولم يلبث أن أحرز أود انتصارا جديدا على الفايكنغ بعد تنويعه بعدة أشهر ليثبت مرة أخرى صلاحيته للحكم ، ولكن الفايكنغ لم يتركوه يهنا بالاستقرار ، إذ عادوا بعد قليل إلى محاصرة باريس للمرة الرابعة ، إلا أنه يبدو أن أودو الملك كان أقل مقدرة على الدفاع عن باريس من أود الكونت ، إذ اقتفى هو الآخر سنة شارل السمين واشتري مسالة الفايكنغ بالمال وعندئذ انسحبوا إلى بريتاني ، إنما لم يلبث أن عاد الفايكنغ - كما هي عادتهم - إلى تهديد أواسط فرنسا ، وعندئذ أنزل أود بهم هزيمة ساحقة عند مونتبليه وأسر زعيمهم وأعدمه سنة ٨٩٢ م .

وآثر هذا اخذ نبلاء فرنسا يشعرون بضعف خطر الفايكنغ ، مما دفعهم إلى التآمر ضد ملكهم أود ، فنظروا إليه على أنه أحدهم وأرسلوا يستدعون شارل البسيط - وريث البيت الكارولنجي - من انكلترا ، ومن ثم بدأت فترة من الحروب الأهلية استمرت ست سنوات بين أود وشارل البسيط ، ولم تنته إلا سنة ٨٩٨ م ، بوفاة أود ، وقد استمر شارل البسيط يحكم الجزء الغربي من دولة الفرنجة منذ سنة ٨٩٩ حتى مقتله سنة ٩٢٩ وظهر في هذه المدة براعة في محاربة الفايكنغ على الرغم من صغر سنه . ولم تكن أغارات الفايكنغ قد انقطعت حينئذ بل على العكس انتهزوا فرصة الحروب الأهلية بين أود وشارل البسيط وعادوا إلى ناستريا ليجتاحوها من جديد ، وهنا نلاحظ أن أغارات الفايكنغ امتازت - في هذه المرحلة - بمقاومة الأهالي لها من جهة ، وبقلة الغنائم التي أصبح الفايكنغ يحصلون عليها من جهة أخرى ، بعد أن أحاطت المدن والاديرة أنفسهم بأسوار منيعة .

وعندما أخفق الفايكنغ في تثبيت أقدامهم في برغنديا نتيجة لمقاومة البرغنديين أخذوا يوجهون جهودهم نحو الجزء الذي نسب اليهم فيما بعد - نورماندي - وتشير الوثائق المعاصرة الى ان الفايكنغ اتخذوا روان عند مصب السين مركزا لهم ومنها أخذوا ينتشرون على امتداد شاطئ هذا الجزء الغربي من فرنسا بين السوم وبريتاني ، وعلى الرغم من أنهم أخفقوا في الاستيلاء على شارتر الا أن شارل البسيط اختار أن يسلك معهم الأسلوب نفسه الذي اتبعه الفرد ملك وسكس قبل ذلك بثلاثين سنة ، فعرض على زعيمهم رولو إقليما واسعا يستقر فيه مع أتباعه . وكان أن تمت مقابلة بين شارل البسيط ورولو عند سانت كلير سنة ٩١١ م حيث عقدت اتفاقية شهيرة بين الطرفين تسلم بمقتضاها الفايكنغ الإقليم الساحلي الممتد من السوم حتى بريتاني ، وهي المنطقة التي نسبت الى الشماليين (أوالنورمان) فعرفت منذ ذلك الوقت باسم نورماندي .

والواقع ان اتفاقية سانت كلير لم تكن أكثر من اعتراف بالامر الواقع ، لان هذه المنطقة كان معظمها بأيدي الفايكنغ فعلا ، فهم الذين بدأوا يغيرون عليها منذ سنة ٨٤١ م ولم تنقطع اغاراتهم عنها الا حوالي سنة ٩٦٦ م اي بعد اتفاقية سانت كلير بأكثر من نصف قرن ، ومهما كان الامر فان الفايكنغ أصبحوا بحكم هذه الاتفاقية يحكمون نورماندي حكما مستقلا معترفا به من الملكية الفرنسية ، مع اقرارهم بتبعية اسمية لملك فرنسا ، ومن الواضح أن الدافع الاساسي الذي شجع شارل البسيط على اتخاذ هذه الخطوة والقضاء على نورماندي للفايكنغ لقمة سائغة هو رغبته في ايجاد خصم قوي يقف في وجه كونت باريس ، ومهما كان الامر فان رولو دوق نورماندي سرعان ما اعتنق المسيحية وتبعه معظم رجاله ، واثبتت الحوادث نجاح هذه التجربة التي أجراها شارل البسيط ، إذ نزحت معظم جماعات الفايكنغ المتناثرة في فرنسا لتعيش تحت حكم رولو في نورماندي ، وبذلك يكون شارل قد ضحى بجزء من بلاده لينقذ بقية البلاد . والمعروف عن الفايكنغ انهم كانوا - اينما حلوا - يظهرون

مزونة سريعة في تقبل حضارة وعادات واوضاع اهالي البلاد الاصليين ، لذلك لم يكد يمر قرن من الزمن على غزو الفايكنغ لاقليم نورماندي حتى خالقلم النورمان واصبحوا فرنسيين في لغتهم ونظمهم وثقافتهم وان ظلوا محتفظين بكثير من مظاهر الحيوية والحماسية والعنف التي اتصف بها اسلافهم الاوائل ، مما جعلهم يقومون بدور مهم في حكومات فرنسا وانكلترا وايطاليا وصقلية ، وهي الجهات التي غزاها النورمان فيما بعد .

غارات الفايكنغ على انكلترا:

كانت انكلترا بين اول بلدان اوربا التي تعرضت لاغارات الفايكنغ اذ شهدت هذه البلاد غارات قامت بها بعض سفنهم في سنوات ٧٨٧ م و ٧٩٣ و ٧٩٤ م وبعد هذا التاريخ لم نسمع اغارات اخرى على انكلترا حتى سنة ٨٢٥ ، ويبدو انهم في الفترة الواقعة بين سنتي ٧٩٤ و ٨٢٥ وجهوا الجزء الاكبر من نشاطهم نحو ايرلندا .

وقد اطلق اهل انكلترا من السكسون اسـ الدانيين « على جماعات الفايكنغ التي كانت تهاجم بلادهم من خـر القرن الثامن ، وعندئذ بدأ هؤلاء السكسون يشربون الجرّة نفسها التي سبق ان سقوها لاهالي بريطانيا - في القرن الخامس والسادس ، ومهما يكن من امر فانه على الرغم من قسوة اغارات الفايكنغ على انكلترا وما لقيته البلاد على ايديهم من تخريب وفوضى إلا انه من الثابت ان الفائدة التي حصلت عليها انكلترا من وراء هذه الاغارات فاقت الخسارة التي منيت بها ، وكفي انها ادت الى تكتل انكلترا السكسونية على هيئة مملكة واحدة .

اما اغارات الفايكنغ على انكلترا منذ سنة ٨٢٥ فقد بدأت في الجنوب والغرب ثم لم تلبث ان أخذت تمتد شرقا ، ويبدو ان وسكس تلقت الجزء الاكبر من ضربات الفايكنغ في هذا الدور .

وليس معنى ذلك أن بقية اجزاء البلاد نجت من خطرهم ، فقد اجتاحت عدة مناطق حتى انه في سنة ٨٤٤ لقسي ادولف ملك نورثمبريا مصرعه على ايديهم .

ودخلت نهر التيمز سنة ٨٥١ ثلاثمائة وخمسون سفينة من سفن الدانيين فاستولوا على بوري ولندن ، ثم عبروا التيمز حيث انزل بهم اثلوف ملك السكسون الغربيين هزيمة ساحقة عند اوكلى ونجح منهم عددا كبيرا . ومهما تكن قيمة هذا النصر ، فقد قلل من اثره ان الدانيين قضوا الشتاء لأول مرة سنة ٨٥١ م في انكلترا ، وبذلك اخذوا ينتقلون من دور الهجوم الخاطف والعودة السريعة إلى دور الاستقرار .

وبعدما لجأ شارل الاصلع الى تخليص اراضي نهر السين من جموع الدانيين عن طريق شراء جلانهم بالمال سنة ٨٦٦ لجأت هذه الجموع الى انكلترا حيث اغارت في العام التالي (٨٦٧) على يورك ، واستولوا عليها دون أن يلقوا مقاومة كبيرة بسبب ما كان هناك من نزاع حول عرش نورثمبريا ، ولم يؤد انتهاء هذا النزاع الى اضعاف الدانيين او طردهم ، بل إن مرسيا دانت لهم بالطاعة سنة ٨٦٩ كما عبروا مرسيا الى انجوليا الشرقية سنة ٨٧٠ حيث انزلوا هزيمة بملكها ادموند وقتلوه ، ومن ثم عد هذا الملك قديسا وشهدا في نظر العصور التالية .

والواقع انه لم ينقذ بقية انكلترا من خطر الدانيين وتسوسهم سوى جهود الفرد العظيم ملك وسكس (٨٧١ - ٨٩٩) ، حتى انه سنة ارتقائه العرش صارت ذات اهمية بالغة في تاريخ انكلترا . ذلك لان الفرد العظيم ابلى بلاء حسنا في الدفاع عن بلاده ضد الدانيين حتى انه اشتبك معهم في تسعة مواقع حربية اثناء السنة الاولى من حكمه ، الامر الذي جعل الدانيين يفلحون بعقد الهدنة ويولون ابصارهم شطر مرسيا ، على أن الصراع سرعان ما تجدد بين الفرد والدانيين سنة ٨٧٥ م . وعندئذ واجه الفرد كثيرا من الصعاب في

هذا الدور ، ولكنه استطاع ان يتغلب عليها جميعا وانزل بالدانين هزيمة ساحقة عند ادنجتون سنة ٨٧٨ م وكان ان طلب الدانيون الصلح فتم عقد صلح ودمور سنة ٨٧٨ على اساس جلائهم عن وسكس وتقديم الضمانات والرهائن ، فضلا عما وعد به ملكهم من اعتناق المسيحية ، ولكن ملك الدانين في انكلترا لم يلبث ان خرق شروط الصلح سنة ٨٨٤ ، الامر الذي جعل ألفرد يحاربهم مرة اخرى حتى انتهى الامر بعقد صلح جديد سنة ٨٨٥ ، حددت بمقتضاه الحدود الفاصلة بين المملكتين بالخط الممتد من مصب نهر التميز حتى شير ، بمعنى أن لندن والجزء الأكبر من مرسيا كانت من نصيب ألفرد ، في حين التزم الدانيون الاراضي الواقعة شمالي هذا الخط.

وقد تمتعت انكلترا بعد ذلك بالسلام عدة سنوات ، قضاهما ألفرد في اعادة تنظيم جيشه وتقوية مملكته بوجه عام ، في حين وجه الفايكنغ جهودهم الى القارة . وفي ذلك الوقت استاء الفرنجة شرقي الراين من مسلك شارل السمين تجاه الفايكنغ ، وهو المسلك المتصف بالضعف وشراء مسالماتهم بالمال ، فاختاروا ارنولف ملكا عليهم سنة ٨٨٧ م ولم يلبث ارنولف هذا ان احرز نصرا على الفايكنغ قرب مدينة لوفان الحديثة سنة ٨٩١ ، الامر الذي جعلهم ينقلون ميدان نشاطهم مرة اخرى الى انكلترا . وهكذا تعرضت انكلترا في خريف سنة ٨٩٢ م لهجوم اسطولين من اساطيل الدانين رسا احدهما جنوبي دوفر ورسا الاسطول الثاني عند ملتون في الجزء الشمالي من كنت . وسرعان ما ابدى الدانيون نشاطا كبيرا في مهاجمة الجهات القريبة ، ولكن ألفرد واجههم واجبرهم على الانسحاب وبعد ذلك لم نعد نسمع عن اغارات اخرى خارجية قام بها الدانيون على انكلترا طيلة بقية عهد ألفرد ، وإن ظل الدانيون المقيمون في انجلترا الشرقية ونور ثمبريا يقومون بكثير من اعمال القرصنة ، الامر الذي دفع ألفرد الى توجيه نشاطه نحو بناء اسطول قوي استغله في دفع خطر الدانين وانزال عدة ضربات بهم .

وعندما توفي ألفرد سنة ٨٩٩ م أخذ حلفاؤه يغزون اراضي الدانين تدريجيا حتى انتهى الامر سنة ٩٥٤ بتوحيد انكلترا كلها تحت حكم ملك وسكس الذي اصبحت يستحق لقب ملك انكلترا في التاريخ ، على أن ملوك انكلترا في الخمسين سنة التالية لم يكونوا على شيء من المقدرة والكفاية ، مما عرض البلاد مرة اخرى لخطر موجة جديدة من موجات الفايكنغ ، وفي هذه المرة لم يأت الدانيون الى انكلترا على هيئة جماعات متفرقة ، وانما جازوا في صورة امة مترابطة ، حتى اصبحت كانت ابن ملك الدانمرك والنروج ملكا على انكلترا (١٠١٦ - ١٠٣٠) ولم يستطع اصحاب الحق الشرعي في عرش انكلترا من البيت السكسوني استرداد عرشهم الا سنة ١٠٤٢ عندما تولى الحكم ادوارد الثالث (١٠٤٢ - ١٠٦٦) الذي عرف بنزعته الدينية القوية حتى اكتسب لقب « المعترف » في التاريخ ، وقد قضى ادوارد المعترف هذا شبابه منفيا في بلاط قريبه دوق نورماندي مما جعله يتأثر الى حد كبير بالاراء والاتجاهات النورماندية ، ومهما يكن من امر فان وليم دوق نورماندي ادعى انه صاحب الحق الشرعي في بلاط انكلترا ، وكان ذلك بعد وفاة ادوارد المعترف سنة ١٠٦٦ م

وهنا نلاحظ ان البابوية سمّنت وليم النورماندي في اطماعه، بسبب غضب البابا من السكسون الذين طردوا رئيس اساقفة كانتبري النورماندي على الرغم من انه كان يحمل تفويضا من البابوية ، وبذلك استطاع وليم النورماندي ان ينزل قواته على الشاطئ الجنوبي الشرقي لانكلترا وهزم السكسون في موقعة هينك سنة ١٠٦٦ م وبذلك نجح وليم في فتح انكلترا مما اكسبه لقب الفاتح في التاريخ الاوربي كما استطاع توحيد نورماندي وانكلترا تحت حكمه .

غزوات الفايكنغ لايرلندا:

اما ايرلندا فقد تأثرت اكثر من غيرها في المرحلة الاولى من

مراحل اغارات الفايكنغ ، اذ عجز ملوكها عن حماية رعاياهم ، في وقت كانت فيه مدن الجزيرة واديرتها مكشوفة دون اسوار حجرية تحميها. وتدفع عنها شر المغيرين ، وهكذا أخذ الفايكنغ يواصلون اغارتهم على ايرلندا في اواخر القرن الثامن ، حتى تحولت هذه الاغارات الى نوع من الاستقرار في الجزيرة في اوائل القرن التاسع.

واذا كانت ايرلندا قد تعرضت لاغارات الفايكنغ في الوقت نفسه الذي واجهت فيه انكلترا غزواتهم ، الا ان مصير كل من البلدين اختلف عن الآخر ، ذلك ان الفايكنغ داروا حول الشاطيء الغربي لاسكتلندا وغزوا جزيرة سكاي قرب الشاطيء سنة ٧٩٥ م كما هاجموا جزيرة مان - بين ايرلندا وانكلترا - سنة ٧٩٣ م أما جزيرة ايونا قرب شاطيء اسكتلندا الغربي فقد نهبوها سنة ٨٠٢ ثم سنة ٨٠٦ ظهر الفايكنغ قرب شاطيء ايرلندا الشمالية الغربية عند سيليجو ثم شقوا طريقهم داخل البلاد حتى وصلوا وسكنوا في اواسط البلاد . وفي سنة ٨١١ هاجموا مذستر في جنوب غرب الجزيرة ، كما نهبوا شبه جزيرة هوث - بجوار دبلن - وغيرها من الجزر الصغيرة القريبة سنة ٨٢١.

وهكذا يبدو لنا من هذا العرض السريع ان اساطيل الفايكنغ احاطت بايرلندا احاطة تامة في الربع الاول من القرن التاسع ، بل لم تكد تحل سنة ٨٣٤ إلا وكان الفايكنغ قد اوغلوا داخل الجزيرة بحيث لم تنج ناحية من هجماتهم . وعندئذ لم يعد الفايكنغ يقومون بالغارات الفردية وانما اخذوا يهاجمون الجزيرة باساطيل كبرى ، متخذين من خلجانها وموانئها العديدة مراكز ينفذون منها الى الداخل .

ويبدو ان المقاومة العنيفة التي ابدتها القبائل الايرلندية حالت دون استلاء الفايكنغ على الجزيرة كلها ، فقفنوا باقامة مراكز لهم حول خلجان الجزيرة ومصبات أنهارها . وقد حصن الفايكنغ هذه المراكز واقاموا فيها القلاع ، وعن هذا الطريق ظهرت اهمية دبلن ، اما المناطق الداخلية فقد اكتفى الفايكنغ بنهبها ولاسيما الاديرة التي

تعرضت لكثير من مظاهر التدمير ، مما جعل كثيرا من رهبانها يوثرون الفرار الى اديرة فرنسا وفلاندرز والمانيا ، ويلاحظ ان الغارات الاولى التي تعرضت لها انكلترا وايرلندا ، حتى منتصف القرن التاسع ، قامت بها عناصر من الشماليين النرويجيين ، لامن الدانيين . الذين منذ ذلك الوقت اخذت غاراتهم تتخذ طابعا عنيفا حتى دخلوا في صراع عنيف مع الشماليين النرويجيين الذين سبقوهم الى الجزيرة ، واشتد النزاع في ايرلندا بين الدانيين والنرويجيين الشماليين ، وحاول اذاك الايرلنديون حماية انفسهم من خطر الفريقين ، مما اوقع الجزيرة في حالة شاملة من الفوضى ، ومع هذا ظل الايرلنديون يقاومون حتى حافظوا على شخصيتهم ، ثم تمكنوا من اذابة عناصر الفايكنغ التي استقرت في جزيرتهم .

الفايكنغ في الجزر الشمالية:

على ان توسع الفايكنغ في الاتجاه الغربي لم يقتصر على انكلترا وايرلندا وشواطئ اسكتلندا والامبراطورية الفرنجية ، وانما شمل ايضا الجزر الصغيرة القريبة من تلك البلاد .

فضلا عن ان النرويجيين اتجهوا - بحكم موقعهم الجغرافي - اتجاها شماليا غربيا ، اي نحو ايسلاند ، ومع الايام هاجر العديد من النرويجيين ومعهم اتباعهم الى ايسلاند ليعيشوا فيها ، ثم لم يلبثوا ان اتجهوا غربا حتى وصلوا غرينلاند ثم الى الشواطئ الشمالية الغربية لامريكا وهكذا اصبحت غرينلاند مستعمرة غنية تعج بالشماليين الذين نزحوا اليها من النرويج وايسلندا فعمروها وشيدوا بها الكنائس .

توسع السويديين شرقا:

إذا كان هناك جدل حول نصيب كل من النرويجيين والدانيين في نشاط الفايكنغ ، فاننا لانصادف خلافا في الرأي عند دراسة حركة

توسع السويديين الذين اتجه معظمهم شرقا ، حقيقة انه يفهم من بعض المصادر أن السويديين ترددوا - هم بدورهم - على انكلترا وغيرها من بلاد الغرب ولكن هذه الاغارات كانت من النوع الفردي ، ولا تعبر بأي حال عن النشاط الاجتماعي للسويديين ، وثمة مظهر آخر امتازت به حركة توسع السويديين شرقا ، وهو أن هذه الحركة قامت على اساس التغلغل السلمي الذي اعتمد على النشاط التجاري ، لاعلى اساس الغزو الحربي والنهب والتدمير ، وهي الصفات التي امتازت بها غزوات النرويجيين والدانين في الغرب .

وكان الميدان الرئيسي لتوسع السويديين ونشاطهم في سهول اوربا الجنوبية الشرقية . وفي هذه السهول عرف السويديون باسم « الروس » وهو لفظ يعني « النوتية او البحارة » أطلقه الافار والسلاف على هذه العناصر الشمالية التي تغلغت في بلادهم .

وكان الافار والسلاف يحتكرون الطرق التجارية في شرق اوربا ، لجلب الرقيق والفراء وبيعها الى تجار المسلمين في القوقاز او التجار المسيحيين في القسطنطينية ، ولكن قوة الافار كانت قد انهارت في القرن التاسع ، الامر الذي مهد الطريق أمام العناصر الشمالية من السويديين ليحلوا محلهم ويثبتوا اقدامهم في حوض نهرالدينيبيرحتى وصلوا الى البحر الأسود ، وهكذا سيطر هؤلاء السويديون أو الروس على طرق التجارة بين البحرين البلطيكى والاسود مما ساعدهم على تأسيس دولة لأنفسهم في هذا الجزء الشرقي من اوربا ، ذلك ان الروس اسسوا عدة مدن ، لتحكم كل مدينة منها في المنطقة القريبة التي احاطت بها والتي سكنتها قبائل مختلفة من السلاف ، وكان لكل مدينة حكومتها الذاتية ومجالسها وموظفوها . وقد فكرت كل منها في حماية نفسها وحماية تجارتها ، فلجأت الى تاليف جيوش صغيرة ، على رأس كل جيش أمير يقوم ايضا بجمع الضرائب فضلا عن تمتعه ببعض الاختصاصات الادارية والقضائية ، وكان أن حدث أن استولى احد الزعماء الروس - ويدعى روريك - على مدينة كييف ، وبذلك نشأت دوقية

كريف العظيمة لتكون مركزا كبيرا للفايكنغ في شرق اوربا ، كما كانت نورماندي مركزا لهم في غربها ، على انه اذا كانت دوقية نورماندي قد صادفت مقاومة عنيفة حالت دون توسعها في فرنسا ، فان دوقية كريف استطاعت على العكس من ذلك أن تتسع بسرعة فائقة ، وأن تفرض سيطرتها المباشرة - وغير المباشرة - على كثير من القبائل والشعوب القاطنة في سهول شرق اوربا . ويقال انه بلغ من سرعة توسع كريف أن اصبحت بها في الربع الاول من القرن الحادي عشر ثمانية اسواق ، كما كانت لها علاقات تجارية مع البولنديين والهنغاريين والالمان ، فضلا عن علاقتها مع القسطنطينية وبغداد ومازالت لدينا بعض نصوص المعاهدات التجارية التي ترجع الى النصف الاول من القرن العاشر بين الروس من جهة والدولة البيزنطية من جهة أخرى ، وهي تثبت أن هؤلاء الروس كانوا يحضرون الفراء والعبيد الى القسطنطينية ليستبدلوا بها الحرير والمصنوعات وغيرها من لوازم الترف. وربما كان اوضح ما في هذه المعاهدات ان الموقعين عليها من الروس حملوا اسماء سويدية . على أن علاقة الروس بالدولة البيزنطية لم تظل علاقة تجارية سلمية على مـل الخط ، فقد كانت تغلب عليهم بين حين وآخر نزعتهم نحو رب والقتال مما دفعهم الى الاغارة على الدولة البيزنطية وعاصمتها .كثير من مرة .

مما دفع الامبراطورية الى السعي للتفاهم مع الروس واقامة العلاقة بين الطرفين على اساس سليمة ، وكان ان تم التفاهم فعلا ، حوالي منتصف القرن العاشر ومن ثم اخذت الدولة البيزنطية تستخدم هؤلاء الروس السويديين في البحر لحسابها حيث عرفوا بخبرتهم ومهارتهم . وهكذا اترك الروس مرة أخرى أن التجارة اربح لهم من الحرب ، فآخذوا يرسلون سفنهم كل ربيع محملة بالفراء والقنب والشمع والقار والعنبر والرقيق لتعود هذه السفن من القسطنطينية محملة بحاصلات الشرق كالحرير والتوابل والبخور والمجوهرات . اما عن علاقة الروس مع بغداد والمسلمين فتشهد على نشاطها كثرة المسكوكات العربية التي عثر عليها في

السويد وفي روسيا ، ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الروس السويديين لم يلبثوا أن ذابوا وسط المحيط السلافي الكبير الذي عاشوا وسطه ، بحيث لم يكد ينتصف القرن الحادي عشر إلا كان الروس قد انطبعوا بالطابع السلافي العام .

ولم يقتصر نشاط الفايكنغ على دائرة البلاد السالف ذكرها ، إنما امتد هذا النشاط الى كثير من البلاد المجاورة فأغاروا كما سلفت الإشارة على شواطئ الاندلس الاسلامية وتعرضت لشبونة وقادس واشبيلية بوجه خاص لعيثهم فضلا عن بعض بلاد المغرب الساحلية . وعلى الرغم من المقاومة الحازمة التي اظهرها الاهالي في صد الغزاة - الذين اسماهم المسلمون باسم المجوس - الا أنه يبدو أن اغاراتهم استمرت بشكل خطير مما دفع عبد الرحمن الثاني الى ارسال سفارة الى ملك الفايكنغ ، ومع هذا لم يتوقف هؤلاء عن غاراتهم حيث عبروا مضيق جبل طارق وأغاروا على بعض بلاد المغرب وقرائها ، كما أغاروا على شواطئ الاندلس الشرقية حتى وصلوا جزر البليار ، ثم أغاروا على مدن اقليم بروفانس ، وبعد هذا على شواطئ الجزر الواقعة عند مصب نهر الرون ، وإيطاليا ، وهكذا استطاع الفايكنغ في النصف الثاني من القرن التاسع الاحاطة بأوربا احاطة شبه تامة بعد أن وصل السويديون الروس الى القسطنطينية شرقا ووصل الفايكنغ الغربيون الى شواطئ إيطاليا من الجهة المقابلة .

حضارة الفايكنغ:

لم يكن الفايكنغ برارة بكل معاني الكلمة ، لأنهم اظهروا مزيجا عجيبا من البدائية والنزعة الحضارية فهم وإن ظلوا محتفظين ببعض تقاليدهم البدائية تفوقوا على كثير من شعوب أوربا المجاورة في بعض نواحي النشاط البشري ، وبخاصة الحرب والتجارة والتنظيم الاجتماعي . على أن الخشونة البدائية التي عرف بها الفايكنغ في أول الأمر لم تلبث أن اخذت تتعدل نتيجة لانتشار

المسيحية تدريجيا بينهم ، مما ترتب على ذلك تهذيب طباعهم بعض الشيء .

ويرجع ان اول معرفة الفايكنغ بالمسيحية جاءت عن طريق علاقتهم التجارية مع الفريزيين حتى اخذت البعثات التبشيرية تتردد على سكندنافية . والدانمرك منذ اوائل القرن الثامن وبعد ذلك بقليل عمل لويس التقي على نشر المسيحية بين الفايكنغ بالطرق السلمية وذهبت بعض البعثات التبشيرية الى البلاد الشمالية . واخذت المسيحية تنتشر تدريجيا على حساب الوثنية وليس هناك من شك في ان ازهار المسيحية بين هذه الشعوب ترك اثرا واضحا على مستقبل اوربا وتاريخها ، اذ يمكن الوقوف على اهمية هذا الاثر لو تصورنا ان السويديين الروس الذين استقروا في شرق اوربا فضلوا ديانة جيرانهم المسلمين في القوقاز على ديانة جيرانهم المسيحيين في الدولة البيزنطية ، وفي الحقيقة كانت اوربا بأكملها مهتأة لتلقي الاسلام ، ولاشك ان ذلك لو حدث لتغير وجه التاريخ الانساني من كل جانب نحو الافضل .

وقد امتازت حضارة الفايكنغ في الجانب المادي بالثروة والفخامة ، فقد جمعوا الحلي وادوات الزينة والسيوف ذات المقابض الثمينة ، وغيرها من الاشياء التي فاضت بها مقابرهم ، وليس هناك من شك في ان مصدر هذه الثروة كان النهب والسلب في اغاراتهم من جهة ، كما كان النشاط التجاري من جهة اخرى ، ومن الواضح ان الفايكنغ تركوا اثرا واضحا في كل بلد استقروا فيه وبخاصة في ايرلندا وانكلترا وملحقاتها الطبيعية ، واذا كانت العناصر الاولى لحضارة الفايكنغ قد اخذت تتلاشى تدريجيا من البلاد التي نزحوا اليها واستقروا فيها ، فان هذه العناصر قدر لها البقاء في اقصى الغرب - اي في ايرلندا وجرينلاند - حيث ازدهرت حضارة الفايكنغ واصبح تراثهم مصدرا لتطور مبتكر يختلف عن اي تطور حضاري اخر في القارة الاوربية ، حقيقة ان حضارة الفايكنغ في تلك الجهات لم تكن خالصة ، اذ امتزجت بحضارة ايرلندا الكلتية

نتيجة لهجرة كثيرة من الكلت الايرلنديين اليها ، ولكننا مع ذلك يمكننا تمييز عناصر الحضارة الشمالية جلية واضحة وقد بلغ التقدم الحضاري في غرينلاند ، بعد استقرار الشماليين فيها ان اديرتها في القرن الثاني عشر كانت تستخدم انابيب المياه الدافئة في تدفئة داخل الاديرة ، وقد استمدت هذه الانابيب مياهها من ينبوع دافئ طبيعي . هذا فضلا عن النشاط التجاري الواسع الذي قام به اهالي غرينلاند في الميدان الاقتصادي اذ اخذوا يصدرون الاسماك والفراء والزيت الى البلاد القريبة .

اما ميدان الادب فان المجموعة الضخمة من اساطير الساعات واشعار « الاداة » تعد خير مايدل على التقدم الادبي وبخاصة في ايرلندا .

والساعات هي اساطير نثرية تمتاز بطابعها الواقعي واتزانها واستقامة نظرتها الى الحياة والطبيعة الانسانية ، واما الاداة فهي مقطوعات منظومة تمثل نوعا بدائيا من الشعر ، ولكنها تمتاز ايضا ببروز الجانب الخلفي والنظرة الواقعية الى الحياة ، واذا كانت هذه الاشعار تنطوي على شيء من الخشونة والبربرية ، الا انها تعبر تعبيراً سامياً عن روح البطولة ، كما تحرص على ابراز الغرض الاسمي الذي يسعى اليه البطل ، وهكذا يرجع الفضل الى الفايكنغ عندما انتجت جزر اوربا الشمالية المقفرة حضارة وادبا عد من اعظم ما انتجته اوربا في العصور الوسطى .

اسرة كابية في فرنسا

من الواضح ان الغزوات التي تعرضت لها اوربا في القرنين التاسع والعاشر وما ترتب عليها من انهيار السلطة الملكية ، وما جرى من المنازعات بين الامراء والحكام ، تمخضت كلها في النهاية عن فوضى شديدة عمت بلاد غرب اوربا .

وقد دفعت هذه الفوضى صغار الملاك الى البحث عن قوة تحميهم وتنوّد عنهم ، فلم يجدوا اثرا لقوة الملك او لنفوذ السلطة المركزية ، مما اضطرهم الى الارتباط بالكونت او الامير المحلي لحمايتهم ، وهكذا اخذ عامة الناس وصغار الملاك يرتبطون بمن هم اقوى من الامراء وكبار الملاك في ظل نظام من الحقوق والواجبات المتبادلة كوسيلة وحيدة لحماية ارواحهم من الاخطار والقلال التي عذبت المجتمع الغربي ، وبعبارة اخرى فان هؤلاء الضعفاء او المستضعفين قبلوا ان يعيشوا في حال من الهوان والمغارم مقابل قيام الاقطاعيين بحمايتهم والنود عنهم ، في حين لم تتعد سلطة الملوك الفعلية دائرة املاكهم وضياعهم الخاصة ، شأنهم شأن اي امير آخر من الامراء الاقطاعيين .

وهذا الوضع من التنظيم السياسي والاجتماعي هو الذي ظلت عليه فرنسا في القرن العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، ففرنسا ذاتها هي الدولة التي بلغت فيها الفوضى ذروتها منذ القرن التاسع ، حتى اصبح من الضروري الاستعانة بنظام جديد يضمن للناس ارواحهم ، وهكذا لم يكّد ينتهي القرن العاشر ، الا وكان النظام الاقطاعي قد وطد اقدمه فيها وتناقصت سلطة الدولة المركزية تناقصا واضحا ، ومن الثابت ان فرنسا - وهي الجزء الغربي من الامبراطورية الكارولنجية - اختلفت عن المانيا - الجزء الشرقي من هذه الامبراطورية - لان الاولى كانت في سالف الزمن جزءا من العالم الروماني حتى دخلت تحت حكم الجرمان وقد ظلت فرنسا تحت حكم الفرنجة مقسمة الى اقسام ادارية - اوكونتيات - تتبع حدود الاسقفيات ويحكم كلا منها نائبا عن الملك الميروفنجي او الكارولنجي ، وهكذا ظل الوضع حتى تحطمت السلطة الملكية في فرنسا ، وعندئذ لم يبق قوة تحل محلها سوى قوى الحكام المحليين من الكونتات وكبار الملاك .

ولاشك في ان الحقيقة التاريخية الكبرى التي امتاز بها تاريخ فرنسا في القرن العاشر هي سقوط البيت الكارولنجي وقيام اسرة

كأية وتسلمها للحكم ، ذلك انه حدث - كما سـلفت
الإشارة - عندما عزل شارل سنة ٨٨٧ م ان اختاروا اودو كونت
باريس ، بعدما ابداه من شجاعة في الدفاع عن باريس اثناء حصار
الفايكنغ لها . على انه يبدو ان ذكرى شارلمان وعظمته كانت تدفع
المعاصرين الى الاخلاص للبيت الكارولنجي والتمسك بحكمه ، الامر
الذي اثار نزاعا طويلا - استمر قرنا من الزمان - بين البيت
الكارولنجي والبيت الباريسي حول الاستئثار بحكم فرنسا ، وهنا
نشير الى عدم صحة مايردده كثير من المؤرخين من ان الكارولنجيين
الواخر امتازوا بالضعف وعدم الكفاية ، الامر الذي ادى الى
ضياع الملك من ايديهم فالواقع انهم كانوا على قدر كاف من
القدرة ، وبذلوا قصارى جهدهم للاحتفاظ بملكهم ، ولكن كان
ينقصهم المال اللازم . ذلك ان مصدر قوة شارلمان وثروته الشخصية
كان بلاد حوض الراين ، ولم تكن له ضياع في الجزء الغربي من
امبراطوريته سوى القليل ، وهو الذي اصبح من نصيب سلالة ملوك
فرنسا ، وهذا هو السبب في ان ملوك الجزء الغربي من
الامبراطورية - اي فرنسا - ظلوا دائما في فقر وحاجة الى المال
حتى زوال البيت الكارولنجي .

وقد حدث اثناء حوادث التنافس والنزاع بين البيت الكارولنجي
والبيت الباريسي ان اختير احد ابناء البيت الكارولنجي ملكا - وهو
شارل البسيط ٨٩٣ - ٩٢٣ ولم يرخص ذلك روبرت اخو اود
ووريثه ، فثار ضد شارل ثورة لم تنجح وكان شارل البسيط اكتسب
حليفا قويا عندما منح الفايكنغ اقليم نورماندي ، ومع ذلك ، فان
السنوات الاخيرة من حكم شارل كانت مليئة بالمتاعب الشديدة التي
سببها له روبرت كونت باريس ، وقد توج روبرت ملكا سنة ٩٢٢ م
ولكنه قتل في العام التالي تاركاً ابنه الصغير هيو العظيم ليحل
محلّه ، اما شارل البسيط فقد خلفه ابنه لويس الرابع
(٩٣٦ - ٩٥٤) الذي كان محاربا قويا وسياسيا بارعا ، فتزوج
من اخت اوتو العظيم ليضمن مساعدة المانيا انما سرعان ما اكتشف
لويس الرابع انه اضعف من ان يقف امام هيو العظيم ، فاضطر الى

مسالمته ، وهكذا نجح هيو العظيم ، ومن بعده هيو الملقب كابيه في السيطرة على معظم انحاء فرنسا قبل مجيء سنة ٩٨٦ م وهي السنة التي توفي فيها لوثر بن لويس الرابع ، ولم تلبث ان جاءت وفاة لويس الخامس (٩٨٦ - ٩٨٧) ابن لوثر - دون ان يترك ابنا خلفه ، وبذلك طويت صفحة تاريخ البيت الكارلونجي ، وتم تتويج هيو كابية ملكا على فرنسا في عام ٩٨٧ وهو العام الذي شهد وفاة لويس الخامس ، ولم يعن قيام حكم اسرة كابيه اكثر من حلول اسرة حاكمية محل اسرة اخـــــرى ، وحين ورث ال كابية الكارولونجيين ورثوا حقوقهم ايضا ، انما ظلوا بالوقت نفسه السادة الاول بين بيوت السادات من الاقطاعيين ، وفي الحقيقة يعد انتصار ال كابية انتصارا للامراء الاقطاعيين على الكارولونجيين ، وهكذا كانت مملكة فرنسا عبارة عن تجمع لعدد كبير من الاقطاعيات لكل منها نظامها وقواها ومطامحها .

لقد نالت اسرة كابية اسمها من هيو الكبير (٩٨٧ - ٩٩٦) وقام هذا الاقطاعي الاول بتتويج ابنه روبرت الثاني قبل وفاته ، وسهل هذا انتقال الملك الى روبرت (٩٩٦ - ١٠٣١) ثم من بعده الى ابنه هنري الاول (١٠٣١ - ١٠٦٠) ثم الى حفيده فيليب الاول (١٠٦٠ - ١١٠٨) ، وكان هؤلاء الاربعة ملوكا اسميين لفرنسا ، وجاء بعد فيليب الاول ابنه لويس السادس (١١٠٨ - ١١٣٧) ، وكانت الحروب الصليبية قد قامت بحيث باتت مسؤولية فرنسا الاولى ، واستطاع لويس ان يقوي سلطانه على الاقطاعيين ، وبعد لويس السادس جاء لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠) ، وشارك هذا الملك فيما يعرف باسم الحملة الصليبية الثانية ومع زوجته اليانور ، وستمر بنا انباء هذه الحملة بتفاصيل مفيدة .

وبعد لويس السابع جاء فيليب اوغسطس ، وهذا الملك ايضا شارك في الحملة الصليبية الثالثة التي قامت اثر معركة حطين وتحرير صلاح الدين للقدس سنة ١١٨٧ م ، وسنقرأ اخبار هذه الحملة مفصلة في نصوص كتابنا .

وخلف لويس السابع ابنه لويس الثامن (١٢٢٣ - ١٢٢٦ م) ،
وهذا الملك لم يعمر بالحكم طويلا كما انه لم يترك اثارا واسعة ،
وابعد منه شهرة ابنه لويس التاسع (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) .

لانه خاض اخر الحملات الصليبية واسر اولا في مصر ، ثم عاصر
قيام دولة المماليك وعاش بعض الوقت في فلسطين ، وبعد عودته الى
بلادته بفترة قاد حملة جديدة رست على شواطئ تونس وهناك صدت
قواته ولاقى حتفه .

الفصل الثالث

بيزنطة منذ قيام الامبراطورية الكارولنجية

بيزنطة وشارلمان :

كان لضياح مركز بيزنطة في القسم الغربي من الامبراطورية اثارا سيئة تفوق الاثار التي ترتبت على اخفاقها العسكري في منطقتي البلقان واسية الصغرى ، وصانف في الفترة نفسها التي كان يتحكم فيها بمقدرات بيزنطة ومصيرها امرأة وخصيان وعبيد قصر ، انه كان على رأس المملكة الفرنجية حاكم من اكبر الحكام وشخصية من اقوى الشخصيات انه شارلمان ملك المملكة الفرنجية الغربي الذي كان في هذه الفترة يقوم بأعمال بارزة ويعد مملكته لتشغل دورا اساسيا في تقرير مصير اوربا الغربية فهو الذي ضم الى مملكته منطقة بافاريا ، واخضع السكسون ونشر بينهم النصرانية ، وهو ايضا الذي وسع حدود مملكته على حساب السلاف وقضى على مملكة الافار ، انه هو الذي قضى على مملكة اللومبارد وضمها الى مملكته وضمها اليه وهذا امر له اهمية خاصة وذلك لان نجاح شارلمان في هذا المشروع جاء في اعقاب اخفاق البيزنطيين في تحقيق الامر نفسه وبالتالي تناقص سلطتهم وانحطاط مكانتهم في روما ، وفي الوقت نفسه قوت الكنيسة الكاثوليكية في روما تحالفها مع المملكة الفرنجية وادارت ظهرها لبيزنطة ، ومع ان بيزنطة عادت الى جادة الاورثوذكسية واعادت تقديس الايقونات وعبادتها وبهذا ازالته الخلافات الدينية بينها وبين روما ، فان الجفاء بين القسطنطينية وروما لم يزل وظل الخلاف بين البلدين واستمر الصراع لان روما رفضت الاعتراف بمساواة القسطنطينية وتابع البابوات جهودهم لاثبات اولوية روما كمركز ديني والقديس بطرس كزعيم اكبر

للنصرانية وهكذا زال نفوذ الامبراطورية البيزنطية من روما وطبعاً لم يكن للبابا نفوذه على القسطنطينية ، ويبدو ان عدم اهتمام البابوات بالقسطنطينية يعود الى شعورهم بعدم جدوى ذلك ، لهذا ركزوا اهتمامهم على تحسين علاقاتهم وتمتين صلاتهم مع الملك الفرنجي الذي قهر اللومبارد على الرغم من ان شارلمان لم يكن على رأي البابا تماماً في قضية الايقونات ، ولم يوافق على ماورد من آراء في المجمع المقدس الذي اعاد الاعتبار للايقونات ايام قسطنطين السادس وايرين ، ويبدو ان السبب في هذا الموقف من القضية الدينية ارادة الملك الفرنجي ان يظهر استقلاله الديني عن بيزنطة حتى يؤكد بالتالي عدم تبعيته السياسية لها ، ولم تنجح محاولات البابا هارديان لجعله ينضم الى رايه الديني مما جعل البابا مضطراً للتنازل عن محاولاته مع الامبراطورية ، وهكذا فان الايقونات التي اعاد لها مجمع نيقية المقدس اعتبارها واحترامها سنة ٧٨٧ م عادت لتصبح موضع الهجوم وعدم الاعتبار بنتيجة المؤتمر الديني الذي عقد سنة ٧٩٤ م في مدينة فرانكفورت تحت اشراف شارلمان ، والجدير بالذكر ان كلا المجمعين الدينين :الذي رد فيه اعتبار الايقونات والذي هوجمت فيه الايقونات ولم تعط فيه اي قيمة دينية حضره ممثلون عن البابا هادريان،ويفسر موقف البابا الضعيف تجاه شارلمان وقبوله بايفاد ممثلين عنه لحضور مؤتمر ديني تشتمل الايقونات فيه بأن البابا كان يريد التحالف مع الملك الفرنجي مهما كان الثمن ، واصبحت سياسة التحالف مع ملوك الفرنجة حجر الزاوية في سياسة من خلف هادريان من بابوات ، وكان الذي بدأ هذه السياسة البابا ستيفن الثاني وتبعه فيها هادريان الاول واستمرت في زمن خلفه ليون الثالث الذي توج الملك شارلمان امبراطوراً في كنيسة القدس بطرس في روما يوم عيد الميلاد سنة ٨٠٠ م .

وكان لتأسيس امبراطورية شارلمان اثارا هامة في المحيطين السياسي والديني ، وكان العرف إذ ذاك ان تكون هناك امبراطورية واحدة كما هناك كنسية واحدة ، لذا عد تتويج شارلمان امبراطوراً

خرقا لكل التقاليد وضربة للنموذج البيزنطي ، وذلك لان بيزنطة كانت ترى نفسها الامبراطورية الوحيدة التي ورثت الامبراطورية الرومانية القديمة لذلك عدت تتويج شارلمان امبراطورا خرقا للتقاليد واغتصابا لحق من حقوقها ، اما روما فكانت هي الاخرى تعترف بفكرة الامبراطورية الواحدة ولكنها استهدفت استبدال الامبراطورية البيزنطية بامبراطورية فرنجية ، وهكذا رأت روما ان عرش القسطنطينية بعد خلع قسطنطين السادس قد اصبح خاليا ولم تعترف بحكم ايرين ، وكانت روما تؤمن ان حكم العالم المسيحي يجب ان يكون لشخص واحد وان يكون للعالم المسيحي امبراطورية واحدة بيد ان هذا كان رايًا نظريًا ، وعمليا اصبح منذ العام ٨٠٠ في العالم المسيحي امبراطوريتان : امبراطورية شرقية (بيزنطية) اغريقية وامبراطورية غربية فرنجية لاتينية تقفان وجها لوجه ، وهكذا تم انقسام العالم المسيحي الى دولتين متباعدين لارابط بينهما وان دان كلاهما بدين بالانصرانية فكل كان له كنيسة وايمانه وطقوسه ، يضاف الى ذلك الفروق الهائلة في الحضارة واللغة والثقافة .

ومع ان تتويج شارلمان امبراطورا في كنيسة القديس بطرس كان عملية بابوية قصد منها من بعض الوجوه انتقام البابا من اباطرة القسطنطينية وان شارلمان نفسه لم يشترك كما قيل في اعدادها ، فإنه كان مضطرا لان يواجه ماترتب عليها من نتائج ، فقد كان عليه اولا ان يحصل من بيزنطة على اعتراف بلقبه الامبراطوري ، لانه بدون هذا الاعتراف يصبح لقبه كامبراطور لقبًا غير ذي شرعية ، ولم يكن يكفي ان يحتج هو ومن معه بشغور عرش القسطنطينية لوجود امرأة عليه (ايرين) حتى يصبح هو الامبراطور الشرعي ، كما انه لم يكن بإمكانه ان يسم بيزنطة وامبراطورتها بالهرطقة حتى يجعل من ذلك مسوغا من اجل نيله الامبراطورية ، لذا ارسل في سنة ٨٠٢ م وفدا يمثل البابا ليو الثالث الى القسطنطينية ويروي ان هؤلاء حملوا عرضا من شارلمان بالزواج من ايرين وذلك في سبيل توحيد شقي الامبراطورية الشرقي والغربي ولكن ماكاد هذا

الوفد يقر قراره في القسطنطينية حتى نشبت ثورة فيها وذلك في ٣١ تشرين الاول سنة ٨٠٢ ، مما عطل المفاوضات ، وكان الذين قادوا الثورة كبار رجالات الدولة وكبار الضباط ، وخلع الثوار ايرين ونفوها الى احدى الجزر حيث توفيت بعد قليل ، واختاروا نقفور وكان احد كبار الموظفين الماليين امبراطورا جديدا .

فترة حكم نقفور والمشاكل السياسية في عهده

حكم نقفور الاول بين سنتي ٨٠٢ - ٨١١ وكان حاكما قويا ساس الامبراطورية بحزم وقوة ، ومع انه لم يكن من المتعصبين دينيا فانه كان اورثوذكسيا مخلصا ومن المؤيدين لعبادة الايقونات ومع هذا لم يظهر اي خضوع لرجال الكنيسة بل على العكس كان يطلب منهم الخضوع للسلطة الامبراطورية . وظهر تقديسه للايقونات وتبجيله لها بتزويج ابنه وولي عهده ستوراكيوس من فتاة اثينية اسمها ثيوفانو وكانت احدى قريبات الامبراطورة المخلوعة ايرين ، وفي عهده تازمت العلاقات مجددا بين الدولة والسلطات الكنسية ولاسيما حين عين الامبراطور مؤرخا جليلا وعالما دينيا مرموقا اسمه نقفور ايضا بطريركا على القسطنطينية بعد وفاة البطريرق تارازيوس في ٢٥ شباط سنة ٨٠٦ ، وكان البطريرك نقفور مثله مثل سلفه الراحل واسع المعرفة في الشؤون الدينية ، كتب بحوثا في الدفاع عن عبادة الايقونات ، وكان ايضا قبل توليه منصبه الديني من كبار موظفي الدولة وعرف باعتداله وعدم تعنته وفي الحقيقة كان لتعيين رجل دنيوي في منصب ديني اثاره الخطيرة ، فقد خلق هذا التعيين نوعا من شعور العداء للامبراطور في صفوف رجال الدين الذين كانوا ياملون ان يكون منصب البطريركية من نصيب زعيمهم ثيودور الاستودي ، وزاد ايضا في النقمة على الامبراطور نقفور الذي اراد ان يظهر تفوق سلطانه على سلطان الكنيسة انه امر بعقد مجمع ديني يحضره بعض رجال الكنسية والدولة ، واتخذ هذا المجمع عدة قرارات جاءت تحديا لرجال اللاهوت والكنيسة ،

ولاسيما الرهبان الستوديين المتعصبين ، وهكذا اصبح العداء سافرا بين الامبراطور نقفور وبين هؤلاء الرهبان الذين اصبحوا من الآن فصاعدا عرضة لانواع مختلفة من إرهاب الدولة وضغطها . وكان اول ما اهتم به الامبراطور بعد تسلمه العرش هو تحسين الوضع الاقتصادي للبلاد وتدارك الخزينة من الافلاس بسبب ما رهبها به الاباطرة السالفون من مصروفات . وقد كان لخبرته المالية اثرها في جعله يهتم بهذه الناحية بوجه خاص ، وبدأ اعماله في هذا المجال بالغاء الاعفاءات والتخفيضات الضرائبية التي كانت الامبراطورة ايرين قد منحتها للشعب ، وامر بعد ذلك باجراء تقدير عام للاوضاع المالية لشعبه ، وعلى اساس هذا التقدير الجديد رفع الضرائب بعض الشيء ، كما فرض ضرائب على اراضي الكنائس والاديرة واملاك المؤسسات الدينية الخيرية ، بالاضافة الى هذا فرض جزية على الرؤوس تجبى من كل أسرة كمجموع بحسب عدد افرادها ، واصبحت جزية الرؤوس هذه مع ضريبة الارض اهم موارد الدولة البيزنطية المالية ، وجزية الرؤوس هذه كانت موجودة قبل نقفور وكل ما فعله نقفور انه فرضها على الفلاحين الذين كانوا يعملون في اراضي الكنيسة والاديرة ، وكانت هذه الفئة معفية من هذه الضريبة زمن ايرين ، وحتى يضمن جباية جميع الضرائب وعدم نقصانها ، جعل نقفور امر جمع هذه الضرائب مسؤولية جماعية ، بمعنى ان ضرائب منطقة من المناطق كانت مسؤولية الجماعة الساكنة في هذه المنطقة لا مسؤولية الفرد فقط ، فإذا تخلف الفرد عن دفع حصته من الضريبة لسبب من الاسباب فان جيرانه هم المسؤولون عن دفعها عنه .

وقد وضع نقفور بعض ممتلكات الكنيسة تحت اشراف الدولة وذلك كي يسترجع بعض اراضي الدولة التي كانت الامبراطورة ايرين قد وهبتها للكنيسة ، كما اعاد العمل بضريبة التركات والضريبة على الكنوز المكتشفة ، وفرض ضريبة على الذين يصبحون اغنياء فجأة وتكون ظروف حصولهم على الثروة ظروفًا مريبة ، وجعل تجار العبيد يدفعون ضرائب على سلعهم ، واصدر قرارا بمنع الاشخاص

العاديين من تقاضي الربا على ما يقرضونه لغيرهم من اموال وارباح
والدولة ان تقرض رعاياها بفائدة معينة، واجبر الامبراطور بقراره
هذا اصحاب احواض بناء السفن في القسطنطينية وهم عادة فئة
غنية على الاقتراض من الدولة حين يحتاجون للاموال بفائدة قدرها
١٥ر٦ بالمئة وهكذا امن موردا جديدا لخزانة الدولة المنهكة .

واهتم نقفور ايضا بتقوية النظام الدفاعي للامبراطورية وتطويره
بأن فرض الخدمة العسكرية على الفلاحين وامن للفقراء منهم
التجهيزات العسكرية عز طريق فرض ضريبة على القرية الواحدة
يدفعها سكان القرية وتحفظ لتجهيز من تقع عليهم الخدمة العسكرية
من ابنائها الذين لا يملكون ثمن تجهيزاتهم ، وقد كان من نتائج هذا
القانون الجديد ان اصبح لدى بيزنطة معين لا ينضب من الجنود
تستعمله متى دعت الحاجة ، كما انه امر ان يسرى مفعول قانون
الاقطاعات العسكرية على البحارة ، اي انه خلق طبقة من البحارة
الذين هم في الاساس اشخاص منحسوا اراضي زراعية على
الشواطئ يستغلونها في وقت السلم زراعي وفي وقت الحرب يكونون
مسؤولين عن تجهيز انفسهم عسكريا ويعملون في الاساطيل البحرية
المحاربة .

واهتم نقفور ايضا باانشاء مستعمرات سكنية جديدة في المناطق
التي تشكل خطرا يهدد مستقبل الدولة ، فقد اجبر مثلا بعض سكان
منطقة اسيا الصغرى على بيع ممتلكاتهم هناك وامرهم بالذهاب
للسكن في المنطقة السلافية من شبه جزيرة البلقان حيث اقطعوا
اراضي زراعية جديدة واصبحوا من طبقة الفلاحين الجنود الذين
ينضمون للجيش في وقت الحرب ويزرعون الارض في وقت السلم ،
ونظام الاقطاعات الزراعية العسكرية هذا نظام قديم يعود الى قرنين
مضيا ، وهكذا فان نقفور لم يبتدع شيئا جديدا بل كان ماعمله اعادة
فرض قوانين واعراف قديمة كان من تقدمه من الباطرة قد اهملوا
العمل بها .

وكان لسياسة نقفور في انشاء مستعمرات سكنية جديدة ولاسيما

في البلقان اثارها وبصورة خاصة في مناطق تراقية والقسم الشرقي من مكدونية المجاور لبلغارية وحتى في اليونان التي كان العنصر السلافي قد بدأ يتسرب اليها ، منذ تاريخ الغزوات السلافية لاراضي الامبراطورية البيزنطية في القرنين السادس والسابع فانذاك اضطرت الامبراطورية الى الانسحاب من معظم اراضي شبه جزيرة البلقان، ورافق هذا الانسحاب ازدياد التدفق السلافي، وقد ظلت الاراضي البلقانية مستعمرة سلافية وبربرية بشكل عام حتى منتصف القرن الثامن ، ولكن منذ اواخر القرن الثامن واول القرن التاسع عاد البيزنطيون ليقبضوا مركزهم مجددا هناك، ففي خلال حكم الامبراطورة ايرين بدأت بيزنطة تقوم بهجمات ضد العناصر السلافية الموجودة في اليونان . وفي سنة ٧٨٣ قاد القائد ستوراكيوس جيشا كبيرا وهاجم منطقة سالونيك ومن هناك توجه الى منطقة اليونان الوسطى والبيلوبونيز واجبر القبائل السلافية الساكنة هناك على الاعتراف بسيادة بيزنطة عليها ودفع الجزية السنوية للخزينة البيزنطية .

وقد عد نصر ستوراكيوس على القبائل السلافية عملا هاما جدا لدرجة انه لما عاد من حملته المظفرة اقيمت له احتفالات ضخمة، وفي السنوات الاخيرة من القرن الثامن تأمرت القبائل السلافية النازلة في اليونان ضد الامبراطورة ايرين لاعادة الحكم لواحد من اولاد الامبراطور قسطنطين الخامس الذين كانوا منفيين في اليونان ، ولكن لم يكتب لهذه المؤامرة النجاح ، وفي مطلع القرن التاسع اعلن سلاف منطقة البيلوبونيز الثورة على الامبراطورية فهاجموا ممتلكات جيرانهم اليونانيين ونهبوها وتوجهوا لمهاجمة مدينة باتراس في سنة ٨٠٥ ، ولكن لم يكتسب لهجومهم هذا النجاح فكسروا امام جيوش الدولة البيزنطية وفقدوا ممتلكاتهم وحررتهم الشخصية .

ولكن هذا الانكسار لم يثن عزم القبائل السلافية في البيلوبونيز وعادت الى الثورات على البيزنطيين بين الحين والآخر على ان

ثوراتهم جميعا اخفقت وتمكنت بيزنطة من تثبيت اقدامها في منطقة البيلوبونيز بعدما كان السلاف قد سيطروا لمدة قرنين .

وتجلت اثار عودة السيطرة البيزنطية على بعض مناطق البلقان في تنظيم مناطق هذه المقاطعة تنظيما جديا يتفق واساليب الادارة البيزنطية ، وقد اعقب هذه التنظيمات قيام النزاع بين بيزنطة وبلغاريا ، ومع ان نقفور لم يكن جنديا محترفا فقد كان له من الصفات ما جعله قائدا ناجحا لا يتورع عن قيادة الجيوش بنفسه ، وقد ظهر اعتداده بنفسه كجندي منذ اليوم الاول الذي اعقب جلوسه على العرش اذ انه قطع الجزية التي كانت تدفعها ايرين للدولة العباسية ، فكان رد الخليفة هارون الرشيد على هذا ان قاد جيوشه باتجاه الاراضي البيزنطية وذلك سنة ٨٠٦ واستولى الجيش الاسلامي على بعض القلاع والحصون في بلاد الثغور وتقدم ليفتح الطوانة ، ومنها سارت فرقة لفتح انقرة فذهل الامبراطور ووجد نفسه مضطرا لان يعود لدفع الجزية ، وزاد الخليفة العباسي في تحقير نقفور ، ففرض عليه شحشيا ان يدفع سنويا مقدار ثلاثة دنانير ذهبية وذلك مقابلا لما يستحق عليه وعلى ابنه من جزية سنوية . ولكن موت هارون الرشيد سنة ٨٠٩ ، وفتره الاضطراب التي اعقبت وفاته بسبب ما قام من حرب اهلية بين الامين والمأمون جعلت نقفور يستريح مؤقتا من الخطر العربي ، ويوجه اهتمامه نحو مشاكل البلقان .

ولقد كان لتحطيم قوة الافار على يد شارلمان اثره في تخفيف الضغط الافاري على العناصر البلغارية التي كانت تسكن منطقة بانونيا ونتيجة لهذا استطاع البلغار ان يمدوا مملكتهم حتى وصلت حدودها الى حدود مملكة شارلمان، واعتلى عرش المملكة البلغارية في هذه الفترة زعيم من زعماء بلغار منطقة بانونيا اسمه كروم ، وكان معروفا بعباسه وقوته وتحديه ، وكانت بيزنطة قد اقامت على طول حدودها مع المملكة البلغارية سلسلة من القلاع والحصون لتوقف اي هجوم او تسرب بلغاري الى بلادها ، وكان من اشهر هذه الحصون

حصن ديفيلتوس وحصن ادرنه وحصن فيلبه وحصن سارديكان وفي ربيع سنة ٨٠٩ هاجم كروم حصن سارديكا فهدمه واباد حاميته عن بكرة ابيها مما دعا الامبراطور الى التوجه فوراً ليسترد الحصن من البلغار وينتقم منهم ، ولكنه قبل ان يخوض معركة حاسمة مع كروم امضى مدة عامين في التهيؤ وتقوية جيشه ، ونقل عناصر من اسيا الصغرى للسكن في المناطق السلافية من البلقان .

وفي ربيع سنة ٨١١ عبر نقفور الحدود على رأس جيش قوي فهاجم عاصمة البلغار وخربها واحرق قصر كروم ورفض كل عروض الصلح التي عرضها البلغار وقرر ان ينتهي من البلغار نهائياً فتبع كروم الذي فر الى الجبال ، ولكن الحظ لم يحالف نقفور حتى النهاية اذ ان كروم باغت جيش الامبراطور واحاط به وقتل الكثيرين منه وذلك في ٢٦ تموز في سنة ٨١١ ولقي نقفور مصير الكثيرين من جنده ، فقتل وقطع راسه وعمل كروم من جمجمته وعاء احتسى فيه الخمر وتناول منه الانخاب مع قواده في حفل اقامه احتفاء بانتصاره .

وترتب على هذه الكارثة التي لحقت ببيزنطية نتائج كثيرة لم تكن في الحسبان ، ولاسيما من حيث فقدانها مكانتها واعتبارها بين الامم ، اذ انه لم يسبق حتى الان ان ذبح امبراطور بيزنطي من قبل البرابرة اللهم الا الامبراطور فالانوس الذي ذبح على يد القوط الغربيين سنة ٣٧٨ في موقعة قرب ادرنه . وهكذا انقلب هرب كروم وتوسله من اجل الصلح الى نصر ساحق جعله يحلم بانتصارات جديدة على بيزنطة مما سيسبب الكثير من المتاعب لها .

وكلفت هذه الموقعة الامبراطور نقفور حياته ، وجرح ابنه وولي عهده ستوراكيوس ولكن هذا الابن تمكن من الفرار مع عدد من اتباعه الى ادرنه حيث اعلن من قبل اتباعه امبراطوراً وخلفاً لابيه ، غير ان هذا الاعلان لم يكن الا من قبيل الاحتياط لان جراح ستوراكيوس كانت مميتة وكان الامل بشفاؤه ضعيفاً ، ولذلك نقل ستوراكيوس الى القسطنطينية حيث كان مقرراً ان يشترك في

انتخاب خليفته قبل وفاته ، وكان اقرب المرشحين للفوز بالعرش اخو زوجة الامبراطور المحتضر لانه لم يكن له ولد ، وكان اسمه ميخائيل انغاب وقد ايد ترشيح ميخائيل الجيش والبطريك نقفور وعارض هذا الترشيح زوجة ستوراكيوس ثيوفانو الاثينية التي كانت تأمل ان يكون العرش من نصيبها كما حدث بالنسبة للامبراطورة ايرين. وعندما بدا ان الصراع حول العرش سيطول قام الجيش في ٢ تشرين اول لعام ٨١١ بحركة اعلن اثرها عن اختيار ميخائيل امبراطورا ووافق على هذا الاعلان مجلس الشيوخ والبطريك نقفور ، اما ستوراكيوس فقد انسحب الى احد الاديرة حيث بقي مدة ثلاثة اشهر مات بعدها .

كان ميخائيل الاول الذي حكم بين سنتي ٨١١ - ٨١٣ حاكما ضعيفا يسهل التأثير عليه وتنقصه الشجاعة ، وقد تميز عهده بالتبذير والاسراف ، وقد الغى هذا الامبراطور التدابير التي اتخذها سلفه نقفور والتي كانت تهدف الى تقوية الوضع الاقتصادي للامبراطورية ، وبدأ منذ مطلع عهده يتقرب بالهبات المالية الى رجال الجيش والبلاط والكنيسة ، وكان من اشد المؤمنين حماسا بعبادة الايقونات كما كان متعلقا بالكنيسة بشكل عام ومستعدا للوقوع تحت سلطانها ، وفي زمنه ازدهر المذهب الاورثوذكسي واعيد الرهبان الاستوديين من المنفى بعدما قبلت كل طلباتهم ولقد عادوا اقوياء ، وكان من مظاهر ازدياد نفوذهم ان اصبح زعيمهم - الأب تيودور - صاحب الكلمة الاولى في البلاد لافي المسائل الدينية فحسب بل في مسائل السياسة الداخلية والخارجية ايضا .

وفي زمن ميخائيل الاول أعيد النظر في امر علاقة الامبراطورية البيزنطية بامبراطورية شارلمان وكان الامبراطور نقفور يتبع سياسة تجاهل تجاه شارلمان ومطالبه باللقب الامبراطوري لانه كان يعرف ماقد ينطوي عليه التعامل مع شارلمان من مضاعفات ، حتى انه منع البطريك نقفور من ان يرسل لبابا روما الرسائل الدينية المعتادة لان هذا البابا هو الذي توج شارلمان امبراطورا وكان نقفور

يظهر نحو خصمه الكارولنجي والبابوية التي أيدته كل عدااء وتشدد.

وفي الوقت نفسه كانت قوة شارلمان في ازدياد ، ومنطقة نفوذه تتوسع باستمرار ، وأخذ يضم إلى أراضي مملكته بلادا هي في الأساس من ممتلكات بيزنطة ، ولما تسلم ميخائيل الأول العرش أراد أن يستعيد هذه الأراضي التي فقدتها بيزنطة ، ولكنه ما كان يستطيع أن يستردها حربا ، لذلك اختار أن يعترف بلقب شارلمان كامبراطور مقابل أن تعاد له الأراضي التي سلخت من بلاده وبناء عليه أعلن الممثل البيزنطي في آخر سنة ٨١٢ م اعتراف دولته بشارلمان كامبراطور .

وهكذا أصبح كما سلف بنا القول : امبراطوريتان مسيحتيتان في أوروبا واحدة غربية وأخرى شرقية ، ويرى بعض الباحثين أن اعتراف ميخائيل الأول بشارلمان امبراطورا لم يكن إلا من قبيل ماكان يحدث في القرنين الرابع والخامس الميلاديين حين كان هناك امبراطوران واحد في الشرق وواحد في الغرب يحكمان حكما مشتركا في امبراطورية واحدة ، وهكذا لم يكن اعتراف سنة ٨١٢ اعترافا بامبراطور جديد ولكن اعترافا من ميخائيل الأول بزميل له (شارلمان) يشاركه في الحكم وذلك حفاظا منه على فكرة وحدة الامبراطورية ، وهذا الرأي - بلاشك - خاطيء لان اعتراف ميخائيل الأول بشارلمان لم يكن يتضمن في الواقع أكثر من اعترافه به امبراطورا لا امبراطورا على الرومان، وشارلمان نفسه كان انذاك يتجنب أن يذكر إلى جانب اسمه كلمة امبراطور الرومان . ولهذا ظل البيزنطيون يرون أنهم وحدهم أصحاب الحق في لقب امبراطور الرومان .

وجاء اعتراف ميخائيل الأول بشارلمان نتيحة لضعف شخصيته وللظروف الدولية السيئة التي كانت تمر بها بيزنطة بعد كارثة سنة ٨١١ .

أما التهديد والخطر اللذان كانا يتربصان ببيزنطة من جهة

البلقان فقد جعلها تشعر بالعجز عن القيام بأي عمل عسكري ضد دولة الفرنجة في الغرب ، وفي ربيع سنة ٨١٢ احتل كروم خان البلغار مدينة ديفلتوس على البحر الاسود وخرب حصونها ونقل سكانها الى داخل مملكته ، وقد أدى احتلال ديفلتوس الى انتشار الذعر بين سكان المنطقة والتجأ الكثيرون منهم الى الهرب ، وبعد هذه المعركة وجه كروم الى بيزنطة انذارا يعرض عليها فيه الصلح ، ولما تمهلت بيزنطة في الرد على هذا العرض هاجم ميناء ميزيريا على البحر الاسود واحتله في تشرين ثاني من سنة ٨١٢ م وقد استولى باحتلاله لهذا الميناء على كميات كبيرة من الذهب والفضة ، كما استولى على كمية وافرة من المتفجرات التي كانت تعرف باسم النار اليونانية وقد نصح ميخائيل بعض مستشاريه ومنهم البطريك نقفور ، بقبول شروط الصلح التي عرضها كروم ولكن كان هناك آخرون على رأسهم الاب الاستودي تيودور رأوا ان تستمر الحرب ضد البلغار بشدة وقد رجح رأى جماعة الاب تيودور ، وفي حزيران ٨١٣ سار جيش بيزنطي كبير للقاء القبائل البلغارية المهاجمة والتقى بهم في معركة قرب مدينة أدرنه ، وبدأت المعركة في الثاني والعشرين من الشهر نفسه واشتد القتال فيها القوات البيزنطية لمقاطعتي تراقية ومكدونيا ، أما القوات التي جاءت من اسية الصغرى وكان على رأسها القائد ليون الأرمني حاكم مقاطعة الاناضول فقد رفضت الاشتراك في القتال ، وتركت ساحة المعركة وولت الانبار هاربة ، وقد كان لهرب هذه القوات أثره في اضعاف الروح المعنوية في الجيش البيزنطي مما أدى الى نصر ساحق لكروم وجيشه .

كان لهذا النصر البلغاري الجديد أثره في زعزعة سلطة الامبراطور ميخائيل الاول ، وفي احياء سياسة العداء للايقونات ، وفي الشهر التالي تموز بعد انكسار الجيش البيزنطي امام البلغار بقليل خلع الامبراطور ميخائيل الاول وتوج عوضا عنه ليون الارمني الذي رفض ان يشترك في القتال ضد البلغار وكان ليون الارمني الذي عرف بالخامس (٨١٣ - ٨٢١) عسكريا من اصل شرقي ،

يكره بالوراثة عبادة الايقونات وقد حاول أن يحيي مجد دولته العسكري وأن يعيد سياسة العداء للايقونات وذلك لأنه آمن واتباعه بأن مالحق الامبراطورية من اخفاق عسكري كان نتيجة لاستلام حزب اصدقاء الايقونات الحكم .

وما كاد ليون الخامس يستلم العرش حتى واجهته مشاكل عسكرية ملحة فقد استفاد كروم من انتصاره على ميخائيل الاول ليقوم بهجوم جديد فحاصر مدينة ادرنة ، وسار بجيوشه ليحاصر القسطنطينية ولم تكن قد مضت الا ايام قلائل على اعتلاء الامبراطور الجديد العرش ووجد كروم نفسه بعد حصار طويل عاجزا عن أن يقتحم اسوار القسطنطينية ، هذه الاسوار التي كانت دوما سدا منيعا في وجه كل اعداء بيزنطة ، فاضطر لان يطلب من الامبراطور عقد اجتماع بينهما للتفاوض من اجل الصلح ، وجاء كروم الى مكان الاجتماع ، كما نص الاتفاق بدون سلاح ، ولكن الامبراطور البيزنطي حاول الغدر به وقتله ولم ينقذه الا نكاؤه وسرعة خاطرة فهرب قبل ان تنفذ المؤامرة ضده ووصل الى حيث كان يعسكر جنده ، فعاد بهم الى ادرنه مصمما على الانتقام من محاولة غدر البيزنطيين به فكان يحرق ويدمر كل ما يمر به من مدن وقرى ، ولما وصل الى ادرنه هدمها تهديما كاملا ونقل سكانها وسكان القرى المجاورة لها الى ماوراء الدانوب ، وفي الربيع زحف كروم على رأس جيش جديد لحصار القسطنطينية ، ولكن الاقدار انقذت بيزنطة هذه المرة ان كروم توفي فجأة في ١٣ نيسان ٨١٤ م نتيجة انفجار دماغي .

وخلف كروم في زعامة البلغار زعيم قوي اخر اسمه اومورتاغ ، وكانت اهداف هذا الزعيم الجديد تتلخص في امرين اولهما تقوية مواقفه في المنطقة الشمالية الغربية وثانيهما تقوية الوضع الداخلي وتثبيت حكمه في الداخل .

لذا عقد هدنة مع بيزنطة مدتها ثلاثين عاما ونصت هذه الهدنة على أن تقسم مقاطعة تراقيا بين بيزنطة وبلغاريا ، وهكذا وبعد فترة طويلة من الاحداث العاصفة في منطقة البلقان ساد السلام في هذه

المنطقة ، وأخذت الآمال بالاستقرار تداعب مخيلة سكانها ، كذلك في الشرق كانت بيزنطة تنعم بفترة هدوء نسبية سببها وفاة الخليفة هارون الرشيد وقيام الصراع بين ولديه الأمين والمأمون مما شغلهم عن كل عمل خارجي ، وهكذا نعمت بيزنطة في هذه الفترة بشيء من الهدوء على طول حدودها .

وحاول ليون الخامس خلال فترة السلم هذه أن ينفذ خطته المعادية للآيقونات ، فلم تكد الأوضاع تهدأ قليلا بعد وفاة كروم المفاجيء حتى أمر العالم الديني يوحنا فراما تيكوس بأن يعد عدة لعقد مجمع ديني تبحث فيه قضية الآيقونات وتصدر عنه قرارات معادية لها ، وكان يوحنا فراماتيكيوس من الشخصيات الدينية المعروفة بعدائها للآيقونات ، وقد حاول الامبراطور أن يستغل سياسته الدينية ليجمع حوله جميع العناصر الناقمة على الأوضاع السالفة ولاسيما ضمن المحيط الديني ، وكان ليون الخامس قبل أن يعتلي العرش قد أعطى البطريرك نقفور تعهدا مكتوبا بأنه لن يقوم بأي تغيير في المناصب الدينية غير أن هذا البطريرك وجد نفسه بعد اعتلاء الامبراطور الجديد العرش وسط دوامه من المشاكل الدينية اثارها سياسة الامبراطور المعادية للآيقونات ، وقد قربت هذه المشاكل بينه وبين عدوه القديم تيودور الستودي لانهما عارضا سياسة الامبراطور الدينية ، وقد تزعم البطريرك نقفور والراهب تيودور الستودي حملة المعارضة ضد الامبراطور وكتبوا البحوث والمقالات في الرد على فكرة تدخل الدولة في الشؤون الكنسية غير أن هذه الكتابات لم تجد نفعا بل على العكس أدت الى أن امر ليون الخامس بنفي تيودور وعزل نقفور من كرسي البطريركية .

وفي اليوم الاول من نيسان ٨١٥ انتخب تيودور ميليسينيوس وهو أحد رجال البلاط النبلاء وقريب إحدى زوجات الامبراطور السالف قسطنطين الخامس بطريركا للقسطنطينية .

وبعد تعيين هذا البطريرك بقليل دعا إلى عقد مجمع ديني تحت رئاسته في كنيسة ايا صوفيا ، وكان من جملة قرارات هذا المجمع

رفض ماجاء في قرارات مجمع نيقية المسكوني الذي عقد سنة ٧٨٧ وتثبيت مقررات المجمع الديني المقدس المعادي للايقونات والذي عقد سنة ٧٥٤ م ومع ان أعضاء المؤتمر الديني هذا اعترفوا بانهم لا يعدون الايقونات اصناما تعبد ولكنهم مع هذا رفضوا تقديسها وراوا ضرورة تهديمها ، والواقع ان قرارات هذا المؤتمر كانت ترديدا واضحا لما جاء في مقررات المجمع الديني المعادي للايقونات الذي عقد سنة ٧٥٤ م وصيغ في جمل غامضة ليس لها معنى واضحا ، واذا صح هذا عن قرارات المجمع الديني الذي نحن بصددده فهو يصح على جميع ماتم من اعمال الاحياء للحركة المعادية للايقونات في هذا القرن وذلك لان الحركة المعادية للايقونات زمن الاباطرة ليون الثالث وقسطنطين الخامس كانت حركة تتصف بالقوة والتصميم في حين ان الحركة الحالية كانت حركة ضعيفة تعتمد على تقليد الاراء السالفة ، ولكن رغم كل شيء سار الامبراطور ليون الخامس قدما في سياسة اضطهاد العناصر المعادية لآرائه الدينية ، ويلاحظ المؤرخون ان اعمال ليون الخامس كانت تتصف دوما بخوفه من فقدان عرشه ، وهذا الخوف هو الذي املى عليه الكثير من التصرفات القاسية ولاسيما في السنين الاخيرة من حكمه ، وبالرغم من كل ما اتخذته من احتياطات لحماية شخصه فان مخاوفه قد تحققت اذ انه في يوم عيد الميلاد لعام ٨٢٠ وبينما كان يحضر قداس هذا العيد في كنيسة ايا صوفيا اغتيل وهو واقف امام المذبح من قبل اتباع زميله القديم في السلاح ميخائيل العموري الذي حل محله على عرش بيزنطة تحت اسم ميخائيل الثاني .

الاسرة العمورية- (٨٢١ - ٨٦٧)

كان ميخائيل الثاني الذي حكم بين سنتي ٨٢٠ - ٨٢٩ وهو مؤسس حكم الاسرة العمورية جنديا خشن الطباع تنقصه اللياقة والثقافة ، ولكنه الى جانب ذلك كان حسن الفهم قوي العزيمة يتصف بالاعتدال عامة ، وقد خدمت خلال حكمه الخلافات الدينية

وتوقفت سياسة اضطهاد العناصر الموالية لعبادة الايقونات ، واعيد من المنفى البطريرك نقفور وتيودور السنودي - وغيرهما من الذين نفوا ايام الامبراطور ليون الخامس ، ولكن الامبراطور ميخائيل الثاني لم يسر في سياسته الدينية شوطا يرضي الاورثوذكس المتعصبين رضاء تاما اذ انه لم يعد للايقونات ما كان يريده لها اتباعها من اجلال ، واتبع هذا الامبراطور سياسة دينية وسط ، فهو لم يمنح تأييده لا لمقررات مجمع نيقية المقدس الثاني ولا لمقررات المجمع الديني الذي عقده سلفه الامبراطور ليون الخامس ، وكان ميخائيل الثاني في الاصل من فريجيا ، المنطقة المشهورة بعدائها للايقونات ، وهو نفسه كان يضمم العداء لها ، ولكنه لم يصرح بهذا العداء ، ويظهر عداء الامبراطور للايقونات من رسالة كتبها الى لويس التقي يشكو له فيها ، ويعلن سخطه على عبادة الايقونات ، كما يظهر سخط الامبراطور عليها من حقيقة كونه عهد بتربية ابنه وولي عهده تيوفيلوس الى يوحنا غراما تيكوس احد اعداء الايقونات اللدودين ، والى جانب هذا فانه حين شغل كرسي البطريركية لم يعين لهذا الكرسي شخصا من انصار الايقونات بل عين انتوني الذي كان على وفاق مع يوحنا غراما تيكوس ، ومع هذا كان ميخائيل يدرك أن حركة العداء للايقونات لم تعد حركة يؤمل لها النجاح ، فتعامل معها بحذر كبير .

وكانت اهم الحوادث الداخلية التي وقعت زمن ميخائيل الثاني هي الحرب الاهلية الضارية التي اثارها شخص سلافي من اسيا الصغرى اسمه توماس ، كان في وقت من الاوقات زميلا في السلاح للامبراطور ويرجح أن ثورة توماس كانت بتحريض الخليفة المأمون الذي كان يريد اثارة الاضطراب داخل الامبراطورية لصالحه ، وقد تجمع لتوماس هذا جيش كبير من المقاطعات الشرقية منذ ايام الامبراطور ليون الخامس . وكان قوام جيش توماس اعداد كبيرة من الارمن وسكان اسيا الصغرى وبعض العرب والفرس . ذلك أن هذه المنطقة بأخلاق السكان التي كانت تقطنها وبالعنصر السلافي الذي شكل نسبة كبيرة من سكانها كانت أرضا صالحة لمثل هذه

الثورة ، وقد قويت شوكة توماس كثيرا لادعائه بأنه هو الامبراطور قسطنطين السادس الذي انتزع منه عرشه بشكل غير شرعي وأنه نصير الايقونات الذي يريد أن يعيد لها قداستها •

واهم ما يجلب الانتباه في هذه الثورة هو الجانب الاجتماعي فيها اذ ان توماس أعلن أنه الانسان الذي سيحقق للفقراء المساواة مع الاغنياء وأنه سيعمل على تخفيف اعبائهم ، وقد ساعده هذا على جلب اعداد ضخمة من جماهير الشعب إلى جانبه ، هذه الجماهير التي كانت تنوء باعباء العوز الاقتصادي ، وهكذا رفع انذاك العبيد ايديهم في وجوه ساداتهم كما رفع الجند ايديهم في وجوه قوادهم ، اذن قامت هذه الثورة على اساس عرقية ودينية واجتماعية وعمت معظم اراضي آسيا الصغرى ، وقد توج بطريك انطاكية الثائر توماس امبراطورا وتتويج بطريك انطاكية لتوماس امبراطورا يؤخذ كدليل على تأييد الخليفة الاسلامي لتوماس لان انطاكية كانت تابعة للخلافة الاسلامية ولا يستطيع بطريكها أن يقوم بالتتويج دون موافقة الخليفة ، وقد أعلنت قبرص ولاءها لتوماس مما ساعده على السيطرة على بعض القوى البحرية وبالتالي سهل له مهمة العبور الى الجزء الاوروبي من الامبراطورية حيث أمكنه أن يجمع تحت لوائه العناصر المحبة للايقونات هناك ، وسار توماس بقواه لحصار القسطنطينية في كانون الاول من عام ٨٢١ ودام حصاره لها اكثر من عام ، ولكن لم يؤت هذا الحصار الثمار التي كان يرجوها توماس بل على العكس أدى إلى اضعاف قوة الجيش الثائر ، وساعد ميخائيل الثاني كثيرا كون جيشه منظما وجيش خصمه تعمه الفوضى ، الى جانب هذا فقد جاء خان البلغار لنجدة الامبراطور ميخائيل الثاني ، وكما حدث من قبل زمن ليون الثالث حين حاصره العرب وجاء البلغار لنجدة ، فان اومورتاغ خان البلغار الحالي وابن كروم عدو بيزنطة اللدود جاء الآن لنجدة ميخائيل الثاني و ساعده على التغلب على خصومه وهكذا تمكن الامبراطور في ربيع سنة ٨٢٣ أن يجبر توماس على رفع الحصار

عن القسطنطينية ومطاردته حتى تمكن ميخائيل من القبض عليه وقتله بعد أن عذبه عذاباً فظيعاً .

أمن هذا النصر لميخائيل الثاني السيادة على البلاد ، ولكن الحرب الداخلية الطويلة أضعفت بيزنطة الى حد بعيد وأظهرت أن الناس لا يشكون فقط من المشاكل الدينية بل من الظلم الاجتماعي أيضاً ، يضاف الى هذا أنه بالرغم من أن الخلافة الإسلامية التي ساعدت توماس في ثورته لم تتمكن من استغلال هذه الثورة لتوجه ضربة من جانبها ضد بيزنطة لأسباب عديدة فإن حملات عربية أخرى تمكنت كما رأينا من أن تستخلص جزيرة كريت من بيزنطة وتخضعها لسيادتها وهكذا فقدت بيزنطة أهم قاعدة بحرية لها في الجزء الشرقي من البحر المتوسط ، ولم تنجح محاولات ميخائيل الثاني ومن خلفه من الإباطرة لاسترداد كريت وظلت هذه الجزيرة لمدة قرن ونصف القرن بأيدي المسلمين يقومون منها بغاراتهم البحرية على ممتلكات الامبراطورية البيزنطية في المنطقة المجاورة .

ولم يكتف العرب في هذه الفترة باحتلال كريت بل وجهوا - كما أوضحنا - جيوشهم ضد صقلية بقصد فتحها ، وهكذا أخذت سيادة بيزنطة في البحر المتوسط والبحر الادرياتيكي تتناقص وتزول بالتدريج ، ويرجح أن سبب هذه الانكسارات هو أن بيزنطة منذ زوال سلطان الخلفاء الأمويين الذين أولوا أمر الاسطول والمعارك البحرية قسماً هاماً من عنايتهم لم تعد تهتم بتقوية اسطولها مما أدى الى هذه الخسائر التي ألت بها .

وبعد وفاة ميخائيل الثاني خلفه ابنه ثيوفيلوس على عرش القسطنطينية ليحكم فترة من الزمن امتدت بين سنتي ٨٢٩ - ٨٤٢ ، وعلى عكس أبيه الذي كان لا يعرف من الكتابة والقراءة الا النذر اليسير ، كان ثيوفيلوس ذا ثقافة عالية وحب شديد للعلم والفن ، ولم تكن ثقافة الامبراطور الجديد محدودة الجوانب ومقصورة على معطيات الفكر البيزنطي بل تعدتها الى

الاتفاق الفكرية العالمية اذ اننا نرى ان الامبراطور كان متأثرا الى ابعد الحدود بالنهضة الفكرية والفلسفية التي كانت مزدهرة في بلاط بغداد تحت ظل الخلفاء العباسيين ، وكان تيوفيلوس معجبا اشد الاعجاب بالفن الاسلامي كما كان من الد اعداء الايقونات ، ويعزوا المؤرخون هذا الاعجاب وهذا العداء الى تأثير مؤدبه يوحنا غراما تيكوس ، وقد شهد حكمه اخر موجة من موجات العداء للايقونات ، كما يعرف عصره بأنه العصر الذي كان فيه للثقافة الاسلامية اقوى الاثر في العالم البيزنطي .

لم يكن تيوفيلوس حاكما فذا ولكنه ذا شخصية متمعة ، وكان الجانب العاطفي يطغى على شخصيته ، وكمثال على هذه العاطفة يمكننا ان نذكر تعلقه بالافكار المعادية للايقونات مع ان هذه الافكار كانت تحتضر ولا امل في نجاحها ، كما يمكننا ان نذكر تعلقه وحماسه للثقافة والفن العربيين مع انهما من نتاج اعدائه ، وصحيح انه كان قاسيا في معاملته لبعض الذين خالفوا آراءه الدينية ، ولكن هذه القسوة لم تشر عداء الناس له لانه كان ذا شخصية محببة احيطت في اذهان الناس بالاساطير والخرافات ، لقد اراد تيوفيلوس ان يكون حاكما مثاليا وكان يحركه حس عميق ورغبة صادقة في نشر العدالة بين اوساط شعبه ، وكان هارون الرشيد مثله الاعلى من بين الحكام المعاصرين ، فكان يسعى جاهدا لأن يقلده في اعماله ، فكان يجوب احياء العاصمة ويتصل بالفقراء والضعفاء ويستمع الى مطالبهم ويقتصر لهم من خصومهم مهما علت مرتبتهم او وظيفتهم .

وفي زمن تيوفيلوس جرت اصلاحات ادارية هامة ولاسيما تقسيم الامبراطورية الى مقاطعات جديدة وسارت الحركة الاصلاحية شوطا ابعد من الشوط الذي سارته في عهد اسلافه ففسى حين ان اسلافه اهتموا بالتقسيمات الجديدة في منطقة البلقان ، فقد اهتم هو بامر المقاطعات الشرقية والشمالية واعاد النظر في تقسيماتها الادارية فأوجد مقاطعتين جديدتين هما بساغلاغونيا وكالديا ليقوى مركز

بيزنطة على البحر الاسود كما أوجد ثلاث وحدات ادارية وعسكرية جديدة في المنطقة الجبلية المتاخمة للحدود العربية

واهتم ثيوفيلوس كما قلنا بتنظيم الممتلكات البيزنطية الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الاسود فأوجد في هذه المنطقة مقاطعة مركزها مدينة مرسون يحكمها حاكم عسكري برتبة ستراتيغوس . وعلى الرغم مما أبداه الامبراطور ثيوفيلوس من حُب واحترام للثقافة والفن العربيين كما ذكرنا فان عهده بكامله كان عهد كفاح وحرب ضد العرب المسلمين فقد كان الخليفة المأمون (٨١٣ - ٨٣٣) مشغولا اول الامر - كما نعلم - بالفتن والثورات والمشاكل الداخلية التي شغلت الفترة الاولى من حكمه بكاملها ، ولكن منذ عام ٨٣٠ فما بعد شعر هذا الخليفة بعد ان سيطر على الاوضاع في بلاده انه لابد ان يعود لمقارعة البيزنطيين بعد ان توقف الجهاد ضدهم لفترة طويلة عقب وفاة ابيه الرشيد ، وقد استغل المأمون المتاعب التي كانت تتخبط فيها الامبراطورية البيزنطية وعدم استطاعتها توجيه كافة قواتها الى اسية الصغرى بسبب هجمات عرب تونس على صقلية وفتحهم لعاصمتها بلرم ، واستغل المأمون هذا فوجه قواته الى اسية الصغرى ليناوشن ثيوفيلوس ويشتبك معه في قتال ، وكان النصر في هذه المعارك بين ثيوفيلوس والعباسيين سجالاتا يلوح مسرة لثيوفيلوس فيقيم الاحتفالات الضخمة في القسطنطينية ابتهاجا بذلك ، ويلوح مرار كثيرة اخرى لخصومه المسلمين فيترافع عن الحرب ويرسل الوفود الى بغداد مثقلة بالهدايا طالبة الصلح من الخليفة ، وقد ازداد شعور ثيوفيلوس بالخطر العربي زمن الخليفة المعتصم الذي بعد ان سوى المشاكل الداخلية في مطلع حكمه قاد حملة ضخمة ضد بيزنطة وذلك سنة ٨٣٨ م وكانت حملة المعتصم هذه بخلاف ما تقدمها موجهة الى الممتلكات البيزنطية في قلب اسية الصغرى لا إلى الحصون التي كانت على الحدود بين الدولتين فقط ، فقد توجه قسم من جيش المعتصم الجرار باتجاه الشمال الغربي وكسر الجيش البيزنطي الذي كان يقوده الامبراطور ثيوفيلوس نفسه في موقعه رهيبه عند

موقع دزيمول او دزمانا * وذلك في ٢٢ تموز سنة ٨٢٨ م في حين هاجم بقية الجيش العربي وعلى رأسه المعتصم نفسه عمورية في ١٢ - اب من السنة نفسها وخربها تخريبا تاما ، وكان لاحتلال عمورية وتهديمها وقع الصاعقة على بيزنطة وذلك لان هذه المدينة كانت اكبر القلاع واهمها في منطقة الاناضول ، ولانها كانت مسقط رأس البيت الحاكم انذاك في بيزنطة والذي انحدر منه ثيوفيلوس نفسه * وحين شدد عرب تونس في الوقت نفسه قبضتهم عليه في الجزء الغربي من امبراطوريته ، وجد ثيوفيلوس نفسه مضطرا للاستنجاد بالفرنجة والبندقية *

وفي زمن هذا الامبراطور حاول اعداء الايقونات محاولتهم الأخيرة للقضاء عليها ولكن دونما نجاح يذكر، ففي سنة ٧٣٧ عين ثيوفيلوس العالم الديني المعادي للايقونات يوحنا غراما تيكوس بطريركا على القسطنطينية ، فبدأ هذا حملة جديدة ضد مؤيدي الايقونات ، وكما حدث من قبل كان الهجوم موجها ضد جماعة الرهبان الذين كانوا من اشد انصار الايقونات حماسا ، وقد اتخذ هذا الهجوم اشكالا مختلفة من الوان التعذيب والجور ، ومع ان الامبراطور وصديقه البطريرك استعملوا ماكان في وسعهما من اساليب لانهاء عبادة الايقونات فانه كان واضحا ان جهدهما لن يكتب له النجاح في اسيا الصغرى التي كانت في يوم من الايام من اشد اعداء الايقونات حماسا *

واقصر تأييد الامبراطور في سياسته الدينية هذه على العاصمة وحدها اما المقاطعات فقد كانت كلها من انصار الايقونات .

وفي العشرين من الشهر الاول سنة ٨٤٢ توفي الامبراطور ثيوفيلوس وبموته ماتت الحركة المعادية للايقونات ، مما انقذ بيزنطة من أزمة دينية كانت تعصف بها ، وهيا لها انتهاء هذه الأزمة عهدا جديدا من الازدهار .

وكانت فترة الصراع من أجل الايقونات فترة حاسمة بالنسبة للتطور الروحي للامبراطورية تعادل في أهميتها ونتائجها الصراع مع

العرب الذي قرر مستقبل بيزنطة من الناحية السياسية ، وكما رأينا فان الامبراطورية لم تكذب تنعم بشيء من الهدوء والسلم في ميادين القتال مع العرب حتى قامت في داخلها معركة دينية ضارية تركزت حول عبادة الصور ، وكان معنى انهزام الدولة أيام ثيوفيلوس في المعركة الدينية ضد الايقونات أن أثار هذا الانهزام ستظهر واضحة جلية في الميدان الثقافي أكثر من أي ميدان آخر . إذ أن انتصار عبادة الصور كان يعني انتصار المفاهيم الدينية والثقافية الاغريقية وانخزال المفاهيم الاسيوية الشرقية التي تبنت العداء للصور ، لقد أصبحت بيزنطة بنتيجة انتصار مؤيدي الصور والايقونات امبراطورية اغريقية تحتل مكانه ثقافية فريدة هي وسط بين الشرق والغرب .

وشرعت بيزنطة بعد أزمة الايقونات تستقبل عصرا جديدا تميز بالعظمة في الميدانين الثقافي والسياسي . وكانت بداية هذا العصر الجديد لافي زمن الاسرة المكدونية بل في أواخر أيام حكم الاسرة العمورية ، أيام الاباطرة ميخائيل الثالث ، وبارداس ، وفوقاس ، وقسطنطين الذين كانوا من أعظم الحكام الذين شهدتهم القسطنطينية .

وكان من نتيجة أزمة الايقونات قلة اهتمام الدولة بأمور السياسة الخارجية وانصرافها عن التفكير في انشاء امبراطورية عالمية تكون عاصمتها القسطنطينية كما كان الحال فيما مضى وانهايار مركزها الذي كانت تحتله في الجزء الغربي من العالم الاوروبي ، وقد زاد التباعد بين بيزنطة والغرب السياسة الدينية للاباطرة الذين عادوا الايقونات وقلة اهتمام هؤلاء الاباطرة بالغرب بشكل عام الأمر الذي أدى في النهاية إلى تتويج شارلمان امبراطورا من قبل البابا . والملاحظة الهامة في هذا المجال هي أنه إذا كان صحيحا أن الامبراطورية البيزنطية في هذه الفترة قد اضاعت الكثير من هيبتها في الغرب فانه صحيح أيضا أن الكنيسة الرومانية (البابوية) قد تعرضت للكثير من المتاعب في الشرق لاسيما زمن الامبراطور ليون

الثالث الذي الحق ببطيريك القسطنطينية الجزء الأكبر من البلقان وجنوبي ايطالية وجعل سكان هذه المناطق يتبعونه دينيا بعد ان كانوا من رعايا البابوية في روما ٠ ولكن مركز القسطنطينية الديني ومكانتها كمنافسة حقيقية لروما لم يثبت الا بعد ان انتهت ازمة الايقونات، وكما كان قيام الامبراطورية الفرنجية في الغرب نكسه لآمال بيزنطة في ان تكون لها السيادة السياسية على أوروبا فان اتساع النفوذ الديني لبطيركية القسطنطينية كان أيضا نكسة لآمال البابوية التي كانت لا تؤمن بوجود منافس لها في ميدان الزعامة الدينية، وكان المجال الهام لاضطهاد نفوذ بيزنطة الديني بعد ازمة الايقونات ان بطيركية القسطنطينية اخذت على عاتقها امر تنصير العناصر السلافية الجنوبية والشرقية .

وهكذا نرى ان التوسع السياسي والعسكري قد تبعها التقدم والاستقرار في مجال الثقافة والعقيدة، فالامبراطورية التي كانت زمن ازمة الايقونات تقف موقفا دفاعيا ضعيفا أمام العرب المسلمين والبلغار استطاعت بعد انتهاء هذه الازمة ان تمد حدودها في الشرق بعد قتال عنيف، وأن تعيد سلطانها من جديد على عموم شبه الجزيرة البلقانية، كما استطاعت ان تستعيد هيبتها في منطقة البحر المتوسط بعد ان نقصت هذه الهيبة كثيرا ابان الازمة الدينية. وساعدها على هذا ماحل بالدولة العباسية بعد المتوكل، واهمال هذه الدولة القارية العاصمة شؤون البحر والاساطيل .

لقد تم اعادة الاعتبار للايقونات بعد موت ثيوفيلوس على يد امرأة كما حدث تماما في نهاية القرن الثامن زمن الامبراطوره ايرين، فقد صادف حين وافقت المنية الامبراطور ثيوفيلوس ان كان ابنه ووريثه ميخائيل الثالث (حكم بين سنتي ٨٤٢ - ٨٦٤) لا يتجاوز السادسة من عمره فاصبحت أمه ثيودورا وصية عليه ونائبة عنه في حكم الامبراطورية وقد شاركت اخته تقلا أمها في حكم الامبراطورية نيابة عن أخيها الامبراطور الصغير فظهرت صورة الأخت مع أمها.

وأخيهما على العملة ، وحملت القرارات التي صدرت اسمها جنباً إلى جنب كل من اسم الامبراطور وأمه ، وقد شكل مجلس ليساعد ثيودورا في حكم الامبراطورية نيابة عن الامبراطور الصغير كان أهم أعضائه اخوتها (أي أخوة ثيودورا) بارداس وبيتروناس وعمها القاضي سرجيوس نيسيتاتس وغيرهم ، وكان أول القضايا التي أوكلت إلى هذا المجلس حلها بالتعاون مع بطريك القسطنطينية هي قضية إعادة الاعتبار لعبادة الايقونات . والطريف في الأمر أن أعضاء هذا المجلس الذين كانت أولى واجباتهم وأهمها إعادة تقديس الصور كانوا جميعاً من المقاطعات الشرقية التي رفعت راية الحرب ضد الايقونات في الماضي ، فثيودورا كما هو معلوم من مقاطعة بافلاغونيا ومن أصل أرمني شرقي . وحتى يعيد مجلس الوصاية على العرش الاعتبار للايقونات كان لابد له أول الأمر من عزل يوحنا غراماتيكيوس من منصب بطريك القسطنطينية وتنصيب مينوديوس بطريكاً ، وبعد هذا أصدر المجلس قراراً في شهر آذار سنة ٨٤٣ أعاد بموجبه العمل بعبادة الايقونات كما كان الحال في الماضي .

وفي ذكرى هذا القرار تحتفل كنيسة الارثوذكس كل عام وفي أول احد من احدى فترة الصوم بعيد تسميه (عيد الارثوذكسية) وهو في الحقيقة تخليد لذكرى الانتصار على الحركة المعادية للايقونات وغيرها من الهرطقات القديمة ، وقد أنهى قرار إعادة الاعتبار للايقونات فترة طويلة من الصراع الديني دفعت بيزنطة ثمنها الشيء الكثير من أمنها واستقرارها وقوتها ، ويرى بعض المؤرخين أن الهزيمة التي لحقت بأعداء الصور والايقونات كانت ذات اثر بالغ على العلاقة بين الدولة والكنيسة إذ أنها كانت في نظرهم أخفاقاً تاماً لمحاولة الدولة إخضاع الكنيسة لسيطرتها وجعلها تبدو أنها تابعة لها كغيرها من المؤسسات ، ونخلص من كل ماحدث أن أزمة الايقونات والنتيجة التي أتت اليها كانت لصالح الكنيسة إذ أنها ثبتت شخصيتها وأبرزت نفسها كمؤسسة قوية ذات سيطرة وسلطان ، وسواء وافقنا على هذا الرأي أم لم نوافق ان الشيء الأكيد

هو أن الكنيسة البيزنطية لم تستطع في أي وقت من الأوقات أن تحصل على حرية التصرف بعيدا عن إرادة الدولة وظلت علاقتها خلال تاريخها علاقة تعاون لا يخلو من الخضوع لأن الكنيسة كانت دوما بحاجة للحماية التي يوفرها لها الدولة.

وبعد أن حلت مشكلة الأيقونات واستقرت الأمور في الداخل بدأ ثيوكتيستوس - وهو أحد أعضاء مجلس الوصاية على العرش وكانت تيودورا تمنحه ثقتها وتفضله على أخوتها الأعضاء في المجلس نفسه - يقوي نفوذه ضمن المجلس ويبعد خصمه باردياس (أخا الامبراطورة تيودورا) ولم تمض إلا برهة وجيزة حتى أصبح المستشار الوحيد للامبراطورة . وكان ثيوكتيستوس هذا من المع رجال عصره وأوسعهم ثقافة ، فأهتم بأمر الأحياء الثقافيين في الامبراطورية واعتنى بالتعليم عناية لم تشهد لها بيزنطة من قبل مثيلا ، وكان لخبرته الواسعة في الشؤون المالية (كان ثيوكتيستوس في الأساس من كبار الموظفين الماليين) الفضل في توفير احتياطي كبير من الذهب لبيزنطة ، ولابد من التنويه هنا إلى أن إعادة الاعتبار للأيقونات في هذه الفترة لم يكن له من النتائج ما يشابه ما حدث زمن الامبراطورة إيرين ، وذلك لأنه ، على عكس ما كان عليه الحال آنذاك ، لم يكن في بيزنطة في هذه الفترة حزب أو فئة تناصر الأيقونات أو تتحمس لها كما مضى ، يضاف إلى هذا أن تيودورا و ثيوكتيستوس ومعهم البطريرك ميثوديوس كانوا حذرين في الخطوات التي اتخذوها للقضاء على أعداء الأيقونات ولم يستعملوا العنف معهم ، وعلى الرغم من كل الحذر والاعتدال اللذين استعملتهما الامبراطورة ومساعدوها في معاملة أعداء الأيقونات فإن بعض الغلاة ، ولاسيما الرهبان الاستوحيين ظلوا مصدر فتنة بالنسبة للدولة مما اضطر الكنيسة لطردهم من الجماعة المسيحية . وفي الرابع عشر من شهر حزيران من سنة ٨٤٧ م توفي البطريرك ميثوديوس فخلفه بطريرك جديد اسمه اغناطوس ، وهو ابن للامبراطور الراحل ميخائيل رانغاب ، وكان قد خشي بعد عزل

أبيه عن العرش ودخل في سلك الرهبنة ، وكان أغناطيوس هذا راهبا شديداً التمسك برهبنته ، وقد أدى هذا إلى وقوفه موقفاً متخافاً أمام الرهبان المستوديين وبالتالي إلى اشتداد أمر معارضتهم للدولة وانتهى الأمر بأن أصبح أغناطيوس طرفاً في نزاع ديني جديد ، في حين أن مهمته كانت تقضي بإنهاء كل الخلافات والخصومات الدينية .

وعقب انتهاء أزمة الأيقونات التفتت بيزنطة إلى متابعة حروبها مع العرب المسلمين فقد قاد ثيوكتيستوس حملة كبيرة ضد كريت في عام ٨٤٤ م ، ولكن لم يكتب لهذه الحملة أي انتصار ويبدو أن السبب في ذلك يعود إلى حد بعيد لجهل ثيوكتيستوس كقائد عسكري ، وتبع انكساره في كريت انكسار آخر أمام العرب عند نهر موروبوتاموس الذي يصب في البوسفور ، وحدث هذه المعركة قرب هذا النهر دليل واضح على مدى توغل العرب ضمن الحدود البيزنطية زمن الخليفة المعتصم ، ولكن اضطراب الأحوال زمن الخليفة الواثق بالله (ابن المعتصم حكم بين سنتي ٨٤٢ - ٨٤٧ م) اضطرب هذا الخليفة لأن يعقد صلحاً مع البيزنطيين ، وأن يتبادل معهم الأسرى في موقع قرب نهر لاموس على الحدود بين الأراضي العربية والبيزنطية وذلك في سنة ٣٤٦ هـ - ٨٤٥ م وساعد اضطراب الأحوال الداخلية في بلاد الخلافة الإسلامية في هذه الفترة وانفصال عدد من الدويلات عن جسد الدولة الأم في بغداد على إتاحة الفرصة لبيزنطة للاهتمام بحل مشاكلها الأخرى التي كان أهمها مشكلة طائفة دينية عرفت بطائفة البوليبيين ، وكانت فيما مضى تحظى بعطف الأباطرة المعادين للأيقونات لاتفاقها في الرأي معهم .

ومن ثم تمتعت بحماية الامبراطور نقفور الأول ، وقد انتشرت آراء هذه الطائفة في آسيا الصغرى وكثر اتباعها لدرجة أن الأباطرة منذ ميخائيل الأول (٨١١ - ٨١٣ م) وجدوا ضرورة ليقافهم عند حدهم لانهم أخذوا يشكلون خطراً على الدولة ، وقد اشترك في النعمة

عليهم والبطش بهم الأباطرة الأورثوذكس واعداء الايقونات على حد سواء وبنتيجة الضغط عليهم والتنكيل بهم هرب قسم كبير منهم من الاراضي البيزنطية والتجأوا الى امير ملطية العربي ، وانضموا تحت لواء جيشه وحاربوا في صفوف العرب ضد بيزنطة . وقد عانى البوليصيون اقسى أنواع الاضطهاد زمن الامبراطورة ثيودورا أم الامبراطور ميخائيل الثالث والوصية عليه - وتعرض الكثيرون منهم للقتل أو الافناء بطرق وحشية مختلفة .

هذا ولم تقف في هذه الاثناء العمليات العسكرية بين العرب وبيزنطة ، وكان أبرز عملية قامت بينهم بعد عملية تبادل الاسرى عند نهر لاموس التي اسلفنا ذكرها الحملة البحرية التي قام بها اسطول بيزنطي ضد الشاطيء المصري في عام ٨٥٣ م ففي هذا العام ظهر اسطول بيزنطي امام شاطئ دمياط فجأة والقى على هذه المدينة الحصار وكانت هذه هي المرة الاولى منذ القرن السابع التي يجرؤ فيها اسطول بيزنطي على التوغل في المياه العربية الى هذا الحد ، وكان الخليفة الواثق قد توفي في هذه الاثناء بعد اصابته بمرض الاستسقاء وخلفه على العرش اخوه الخليفة المتوكل على الله . وكانت الحملة البحرية لبيزنطة على دمياط ردا على الصوائف الثلاث التي قادها والى الثغور على بن يحيى في السنوات ٨٥١ - ٨٥٣ فلما كانت سنة ٨٥٣ نزل الاسطول البيزنطي في دمياط وحاصرها واحرقها بعد ان هجرها سكانها وهربوا مخلفين ورائهم اموالهم وامتعتهم التي نهبها الجنود البيزنطيون.وقد نبهت هذه الحملة المفاجئة حكام مصر المسلمين الى ضرورة الاهتمام بانشاء اسطول قوي لحماية الشواطئ المصرية من هجمات مفاجئة كهذه ، ويذكر المقرئ ان امر البحر اصبح منذ هذه الحملة من اكبر الامور اهمية ، وقد بنيت السفن وجعل لرجال البحر عطاء الجند ، وكان هذا الاسطول الجديد النواة التي اعتمد عليها الفاطميون فيما بعد .

على ان فترة النشاط السياسي والفكري بالمعنى الواسع للكلمة لم

تبدأ في سيزنطة الا بعد انقلاب عام ٨٥٦ ، وهو الانقلاب الذي جاء بالامبراطور الشاب ميخائيل الثالث الى سدة الحكم ومعه خاله بارداس الذي اصبح المشرف الحقيقي على تسيير شؤون الدولة .

وبحكم ان كلا من ميخائيل وبارداس كانا من ضحايا حكم ثيودورا وثيوكتيستوس فقد اصبحا حليفين طبيعيين يجمع بينهما ضغط ثيودورا ومحاولتها الاستئثار بالسلطة مع شريكها ثيوكتيستوس . وقد بلغ تسلط ثيودورا على ابنها حدا جعلها تتدخل في ادق خصوصياته حتى انها فرضت عليه البعد عن خليلته والزواج من سيدة اختارتها هي له كانت لا تربطه بها اية رابطة من ود او تفاهم ، وفي غفلة من الامبراطورة استطاع بارداس باتفاق سري بينه وبين الامبراطور الشاب ان يتسلل الى البلاط وان يقوم بتدبير مؤامرة انتهت بمقتل ثيوكتيستوس بحضور ميخائيل الثالث ، وتبع هذه المؤامرة اعلان مجلس الوصاية ميخائيل حاكما مستقلا لايحتاج لاية وصاية، واجبرت ثيودورا بنتيجة كل هذا على التخلي عن سلطانها واشرافها على شؤون الدولة وارسلت بناتها الى دير للراهبات ، وهكذا لم تضر سنتان على هجوم ثيودورا الفتاك على اخيها بارداس حتى كانت هي تقاسي من المصير نفسه .

ولم يكن ميخائيل مثالا اخلاقيا اعلى في كل تصرفاته ، بيد انه لم يكن ايضا احمقا لا يصلح للادارة او تنقصه الشجاعة بل كان انسانا عاديا فيه من الصفات ما يحمد وما يذم ، دافع عن الامبراطورية بحماس واخلاص وقاد الجيوش بنفسه ، زيادة في الحرص على النصر ومع هذا كانت تعوزه الارادة القوية والشخصية الفذة التي تستطيع ان تثبت بالامور او تقطع بها دون معونة الاخرين ، لذلك كثيرا ما كانت تتغير مواقفه من القضية الواحدة حسب تغير مستشاريه وتبدل الاتجاهات في بلاطه ، ولذا لم تكن المنجزات التي تمت اثناء حكمه من ابداعه او وحيه ، مما جعل الناس يقولون عنه انه لم يكن عظيما بذاته ولكنه عاش في فترة تمت فيها منجزات عظيمة الفضل فيها لبارداس وفوتيسوس .

اصبح بارداس زمن ميخائيل الثالث الحاكم الحقيقي لبيزنطة ، كما كان حال ثيوكتيستوس زمن ثيودورا ، وحتى تعطى هذه السلطات الواسعة التي كان يتمتع بها بارداس صفة رسمية اضفى عليه الامبراطور القاب شرف عديدة كما سماه بالنهاية قيصر ، والحق ان بارداس كان رجلا من طراز فريد تمتع بذكاء ودهاء عظيمين فاق بهما جميع الذين تقدموه . ولم يكن عهده عهد منجزات هامة في حقول السياسة فحسب ، بل كان كذلك في حقل الثقافة ايضا ، ولعل خير شاهد على هذه المكانة الرفيعة التي وصلت اليها الجامعة التي نظمها في مانيورا والتي اصبحت من اهم مراكز العلم والتربية في بيزنطة بما افتتح فيها من فروع واختصاصات تتناول العلوم المختلفة التي كانت معروفة في ذلك العصر ولم يكتف بارداس بتنظيم هذه الجامعة ، بل استدعى للعمل فيها جيشا من علماء العصر على رأسهم العالم الرياضي ليون الذي كان موسوعي الفكر والثقافة بالرغم من كونه ابن اخ الايقوني الشهير يوحنا غراما تيكوس ، كما كان من بين اعضاء هيئة التدريس في هذه الجامعة فوتيوس الذي كان يعد اشتهر اساتذة القرن التاسع .

وكما حدث تغيير في الجهاز الحاكم عقب تسلم ميخائيل الثالث سلطاته الدستورية فقد حدث تغيير ايضا في الجهاز الذي كان يدير الكنيسة آنذاك وذلك لانه لم يكن من الممكن ان يقوم اي نوع من انواع التعاون بين بارداس صاحب الكلمة العليا الان وبين اغناطيوس بطريرك القسطنطينية الذي كان من اتباع الحكام الماضين الذين خلعهم بارداس واستولى على السلطة منهم .

وهكذا اجبر اغناطيوس على الاستقالة من منصب البطريركية . وفي كانون الاول لعام ٨٥٨ م رفع العالم فوتيوس الى السدة البطريركية وقد كان هذا التبديل بالنسبة للكنيسة بداية عهد من الازمات والمشاكل الدينية لم تعرف لها الكنيسة مثيلا في تاريخها المتقدم . لقد كان فوتيوس ابرز مفكر واقدر دبلوماسي واشهر سياسي يتولى منصب البطريركية في القسطنطينية .

وكما قام المتزمتون وحملوا الوية المعارضة ضد هؤلاء البطارقة كذلك قامت ضد فوتيوس عناصر الرهبان الستوديين وعلى رأسهم الاب نيقولا وادعو ان تعيينه لم يكن شرعيا وان البطريكية الشرعية ما تزال من حق اغناطيوس ، وهكذا نشأ في بيزنطة حزبان دينيان حزب يدين بالولاء لفوتيوس ، وحزب يعتقد ان البطريك الشرعي هو اغناطيوس .

والى جانب هذا الصراع الداخلي كان على البطريك الجديد ان يواجه صراعا اكثر خطورة مع روما ، ففي اعقاب ازمة الايقونات وبشكل ادق نتيجة قيام امبراطورية مسيحية غربية ، دخلت العلاقات بين الكنيستين اللاتينية والاغريقية مرحلة جديدة مشحونة بالاضطرابات فقد استمر المتزمتون من رجال الدين يتطلعون نحو روما ويعتبرونها المركز الديني الاول برغم ما جد في مجال الكنيسة البيزنطية من اشياء جعلتها تحتل مركزا رفيعا في عالم الامة الدينية ، ومع ان العرف جرى منذ زمن الامبراطور نقفور الذي جدت في زمنه القطيعة بين كنيسة روما والقسطنطينية اثر التقارب بين روما والمملكة الفرنجية بالا يرسل بطريك القسطنطينية اعلاما بتعيينه لهذا المنصب الى بابا روما ، فان فوتيوس رغبة منه بتجنب المشاكل قام حين تسلم كرسي البطريكية بارسال هذا الاعلام الى البابا املا منه ان يساعد اعتراف البابا به على مواجهة خصومه داخل بيزنطة ، وصادف انه كان يجلس على العرش البابوي في هذه الاثناء البابا الطموح نيقولا الاول الذي كان قد صمم منذ اللحظة الاولى لتسلمه هذا المنصب على تعميم سيادة كنيسة روما على جميع كنائس العالم المسيحي ، لذلك استفاد من الصراع فتخلى عن صفة الحياذ وانضم الى انصار اغناطيوس في عدم الاعتراف بشرعية فوتيوس ، وتجدر الملاحظة هنا انه صحيح ان رسم فوتيوس بطريكيا لم يتم حسب القواعد الدينية السليمة ولكن مثل هذا كان قد حدث بالنسبة للبطريك تارازيوس الذي اعترفت به روما اعترافا كاملا ومحضته التأييد والثقة ، ولعل السبب في موقف البابا نيقولا الاول الان هو رغبته في ان يثبت دعائم السيادة البابوية واطهار

الذي يشغل هذا المنصب بمظهر السيد الاعلى الذي لا تنازع كلمته في القضايا الدينية في الشرق وفي الغرب ولهذا الغرض عقد مجمعا دينيا في اللاتيران واعلن خلع فوتيوس من البطريركية وذلك سنة ٨٦٣ م وكان رد فوتيوس عنيفا وقاسيا واثبت بتحديه لقرارات البابا والمجمع الذي عقده عدم اهتمام بطريركية القسطنطينية بقرارات روما ، واعلن ان شؤون الكنيسة البيزنطية من اختصاص بطريرك القسطنطينية فقط وليس لأحد اي سلطان عليها .

وتابع ميخائيل الثالث الحروب ضد العرب بعزيمة وقوة وساعده في هذه الحروب عدد من القادة الاقوياء الذين كانوا في خدمة الامبراطورية في زمنه .

ولكن النجاح لم يكن حليف بيزنطة في هذه الحروب ولا سيما في جبهة صقلية حيث اضاعت الامبراطورية مراكز دفاعها واحدا تلو الآخر . ولم تمض مدة طويلة حتى خضعت جزيرة صقلية بكاملها للعرب واخذ العرب يشقون طريقهم في جنوب ايطاليا ولم يكد حكم ميخائيل الثالث يشارف على الانتهاء حتى كانت كل صقلية بيد العرب اما في جبهة اسيا الصغرى فقد كان موقف بيزنطة موقف الهجوم لا الدفاع .

وقامت جيوش الامبراطورية بعدة عمليات عسكرية حصلت فيها على بعض الانتصارات واخذت عددا من الاسرى ففي سنة ٨٥٦ م اغار البيزنطيون على عين زربه في الثغور الشامية واسروا من كان بها من الزط مع نسانهم وذراريهم وجواميسهم وبقرهم ، وفيها ايضا كان الفداء بين المسلمين والروم ، وقد قامت حروب اخرى مثيرة بين العرب وبيزنطة زمن ميخائيل الثالث في منطقة اسيا الصغرى كان الفوز في بعضها حليف بيزنطة وحليف العرب في بعضها الآخر ، كما قامت بين الطرفين معارك ولا سيما في سميساط على ان هذه الحروب لم تكن حاسمة بالنسبة لاي من الطرفين وكان يتخللها فترات سلم ومهادنة وعمليات تبادل اسرى ، وظل الحال كذلك حتى سنة ٨٦٣ م حين غزا عمر بن عبد الله الاقطع امير ملطية

منطقة ارمينيا واحتل ميناء اماسية (اميسوس) على شواطئ البحر الاسود وقابله من الجانب البيزنطي القائد الشهير بتروناس وجرت بين الطرفين معركة حامية انتهت بفوز بيزنطة ومقتل عمر نفسه والقضاء على الجيش الاسلامي ، وعد المؤرخون البيزنطيون فور بتروناس هذا على عمر ثارا لموقعة عمورية التي جرت قبل خمس وعشرين سنة. ومنذ هذا الحين انتقلت بيزنطة من جانب الدفاع الى جانب الهجوم في اسية الصغرى . ولم يقتصر سجل العلاقات بين العرب والروم في هذه الفترة على الحرب ، بل قامت بين الطرفين عمليات تبادل للسفارات والوفود ، وينقل لنا الطبري حديثا على لسان نصرين الازهر رسول المتوكل الى الامبراطور ميخائيل الثالث سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م - ٨٦١ م يقول فيه : « لما صرت الى القسطنطينية حضرت دار ميخائيل الملك بسوادي وسيفي وخنجري وقلنسوتي ، فجرت بيني وبين خال الملك بطروكاس (لعله يقصد برداس) المناظرة وهو القيم بشأن الملك ، وابو ان يدخلوني بسيفي وسوادي فقلت : انصرف فانصرف ، فرددت من الطريق ومعني الهدايا نحو الف نافجة مسك وثياب وحرير وزعفران كثير وطرائف وحملت الهدايا التي معني ، فدخلت عليه فاذا هو على سرير فوق سرير واذا البطارقة حوله قيام ، فسلمت عليه ثم جلست على طرف السرير الكبير وقد هيء لي مجلس ووضعت الهدايا بين يديه ، وبين يديه ثلاثة تراجمة فاقبلوا يترجمون ما اقول ، فقبل الهدايا ولم يأمر لاحد منها بشيء وقربني واكرمني وهيا لي منزلا بقربه » ... وتباحث نصر فيما يهمه من قضايا مع برداس خال ميخائيل واخذ منه الوعود فيما جاء من اجله ... الى ان يقول : « فاستحلفت خاله فحلف عن ميخائيل ، فقلت : ايها الملك قد حلف لي خالك فهذه اليمين لازمة لك ؟ فقال براسه : نعم ولم اسمعه يتكلم بكلمة منذ دخلت بلاد الروم الى ان خرجت منها انما يقول الترجمان وهو يسمع فيقول براسه : نعم او لا ، » وليس يتكلم وخاله المدير امره « وحاول بعضهم ان يتخذ من هذه الرواية دليلا على شخصية ميخائيل الضعيفة وخضوعه المطلق لسلطان خاله ، ناسين مكانة الامبراطور وسمو مكانته وتقديسه .

ولابد هنا من التنويه بأن النصر الذي أحرزته البيزنطيون سنة ٨٦٣ على العرب كان له اثر في تقوية موقفهم وتوجيه الاحداث وجهة جديدة في العالم السلافي الذي كان يحيط بهم وينتشر على اراضي روسيا ومورافيا وبسلاد السلاف الجنوبيين ، ففي سنة ٨٦٠ هاجم الروس لأول مرة القسطنطينية واحاطوا بالمدينة وخربوا المناطق المحيطة بها ، وكان الامبراطور آنذاك قد خرج في حملة ضد العرب ووصلته الاخبار فعاد مسرعا ليتولى بنفسه امر الدفاع عن عاصمته ، وليتساعده مع البطريك في رفع معنويات سكان المدينة الذين ذعروا لهذا الحصار المفاجيء ويبدو ان الذعر الذي ساد بين الناس كان قويا لدرجة انهم عزوا نجاتهم من هذه المصيبة للعاراء التي انقذتهم من دمار محقق ، وبهذا الحادث يربط المؤرخون تاريخ العلاقات بين بيزنطة وبين المملكة الروسية الناشئة كما ان العمل للتبشير بالمسيحية بين الروس يعود لهذه الفترة ، وقد اعتقد بطريك القسطنطينية ان التبشير سياسة هامة لان شعبا يدين بالنصرانية على المذهب البيزنطي سيكون حليفا لبيزنطة لاعدوا لها .

ونتج عن الهجوم الروسي على القسطنطينية ان اضطرت بيزنطة لتجديد تحالفها مع الخزر وارسلت سفارة اليهم لتقوم بالاتصالات اللازمة ، ومن الجدير بالذكر ان العمل السياسي في هذه المنطقة اقترن بالعمل التبشيري وكانت السفارة برئاسة رجال الدين الانكلياء الذين يستطيعون ان يرفعوا من شأن النصرانية في وجه التيار الاسلامي الكاسح الذي كان يمتد على المنطقة ، واتسع عمل هذه السفارة السياسية الدينية بعد ذلك وامتد الى مورافيا التي كان يحكمها الامير راستيسلاف والتي كانت تقصدها بعثات تبشيرية فرنجية لايرضى عنها الامير ، وهكذا اتسع نطاق العمل التبشيري البيزنطي وانضم المورافيون والبلغار من بعدهم الى التبعية الدينية المسيحية ، على ان ما جمعه الدين فرقه السياسية اذ اصبح المورافيون حلفاء لبيزنطة في حين اصبح البلغار من انصار الفرنجة ، وقد ازعج الحلف البلغاري الفرنجي بيزنطة ، فارسلت

جيشها واساطيلها الى الحدود والمياه البلغارية المجاورة لها واستطاعت الامبراطورية بهذا الشكل ان تجبر الملك بورييس على اعلان ولائه للامبراطورية دينيا وسياسيا معا ، وبهذا ابعدت نفوذ الامبراطورية الفرنجية السياسي عن حدودها ، كما ابعدت نفوذ روما الديني عن رعاياها .

وهنا نستطيع القول ان النزاع بين روما والقسطنطينية قد وصل الى ذروته وذلك على يد فوتيوس الذي لم يكن بطلا من ابطال الاستقلال الديني للكنيسة البيزنطية فحسب بل كان ايضا دماغا سياسيا جبارا محضته الدولة ممثلة بشخص الامبراطور وكبار رجالات الحكم خالص الثقة والدعم وسارت وراءه في كل رأي فيه خير الامبراطورية ، وفي سبيل اظهار هذا الدعم ارسل الامبراطور خطابا الى بابا روما يشرح فيه وجهة النظر الامبراطورية في قضية استقلال الكنيسة البيزنطية وسيادتها على غيرها من الكنائس القائمة وطلب الكتاب من البابا ان يسحب قراره ضد فوتيوس ، وقد صيغ الكتاب على شكل انذار شديد اللهجة فيه رفض لكل سيادة لروما على القسطنطينية .

ولم يكتف فوتيوس بهذا بل سار خطوة اوسع واخذ يكيل هو الاتهامات للكنيسة البابوية ويظهرها بمظهر المخطيء الذي ينقصه الانضباط ووصل به الامر الى حد اتهام روما بالهرطقة الدينية . وفعلا عقد في عام ٨٦٧ م مجمعا دينيا في القسطنطينية ترأسه الامبراطور ، وقرر هذا المجمع طرد البابا نيقولا من الجماعة المسيحية ورأى في تدخل كنيسة روما في شؤون الكنيسة البيزنطية عملا غير مشروع .

وتشاء الصدق في هذه الفترة الحرجة من تاريخ بيزنطة ان تحدث ثورة في القصر سيكون من نتائجها ان يتغير خط سير الاحداث بالنسبة للامبراطورية والامبراطور على حد سواء ، فقد اتخذ ميخائيل الثالث صديقا له وقربه منه وادخله القصر ، وكان هذا الصديق هو باسيل الذي سيتسلل الى حياة القصر بشكل سريع مكنه

في النهاية من قتل بارداس ونجح الامبراطور نفسه وهو سكران في غرفة نومه وهكذا نصل الى فترة جديدة من فترات التاريخ البيزنطي وهي فترة حكم الاسرة المكدونية التي سنتناول بعض تاريخها فيما يلي :

فترة حكم الاسرة المكدونية (٧٦٧ - ١٠٨١)

يمكن تقسيم فترة حكم الاسرة المكدونية الى مرحلتين غير متكافئتين من حيث الهمية والمدة : اذ تمتد الفترة الاولى من سنة ٨٦٧ حتى سنة ١٠٢٥ م وهي السنة التي توفي فيها الامبراطور باسيل الثاني في حين ان الفترة الثانية لاتمتد اكثر من احدى وثلاثين سنة (١٠٢٥ - ١٠٥٦ م) وتنتهي بموت الامبراطورة ثيودورا ، وهي اخر افراد هذه الاسرة الذين تولوا سدة الامبراطورية .

وتعد المرحلة الاولى من ازهى عصور الامبراطورية واكثرها اهمية من حيث الوجود السياسي فالصراع في الشرق والشمال ، مع العرب والبلغار والروس توج بنصر كبير لبيزنطة وذلك شروعا من النصف الثاني للقرن العاشر ثم مطلع القرن الحادي عشر الميلادي ، وكان الصراع مع هذه الاقوام قد لاقى بعض المصاعب اول الامر ولاسيما في الفترة الواقعة بين نهاية القرن التاسع ومطلع القرن العاشر ولكن ما كادت فترة حكم نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس تطل على العالم البيزنطي حتى ابتسم الحظ مجددا للامبراطورية فاخذت تحقق الانتصارات التي بلغت ذروتها في عهد الامبراطور باسيل الثاني ، ففي اثناء حكم هذا الاخير سحقت الحركات الانفصالية في اسيا الصغرى وقوي النفوذ البيزنطي في سورية والحق جزء من ارمينية بالامبراطورية مباشرة ، كما اصبح جزء منها ملحقا بالتبعية اما بلغاريا فقد غدت مقاطعة بيزنطية وأدى دخول الروس في النصرانية الى قيام علاقات دينية وثقافية واقتصادية وسياسية وثيقة بينهم وبين الامبراطورية .

وشكلت هذه المرحلة من حياة الامبراطورية نروة المجد والعظمة التي وصلتها بيزنطة في اية مرحلة من مراحل حياتها السياسية ولم يقتصر الامر على ميدان السياسة فحسب بل حققت الامبراطورية امجادا كبيرة في ميادين اخرى من بينها ميدان التشريع الذي تحقق فيه نشر المدونة الباسيليكية وعدد من الاعمال الثانوية الصغرى ولا سيما ما يتعلق بقضية ملكية الارض واتساع الاقطاع وغير ذلك من القضايا الزراعية ، هذا فضلا عن الانجازات الرائعة في الحقل الثقافي وما تم على ايدي مثقفين كبار كان من بينهم البطريق فوتيوس وقسطنطين بورفير وغيرهما من المشاهير .

ولكن ما كادت شخصية باسيل الثاني القوية تغيب من مسرح الاحداث وذلك سنة ١٠٢٥ م حتى دخلت الامبراطورية في فترة من الفوضى حيث كثرت فيها المشاحنات والمنازعات والثورات من داخل القصر وخارجه ، وقد ادت هذه المشاكل الى مرور فترة من الازمات الحادة هي الفترة الواقعة بين سنتي ١٠٥٦ - ١٠٨١ ففسى هذه السنة ١٠٨١ م صعد العرش البيزنطي امبراطور من اسرة كومنين فوضع بذلك حدا لعصر من الفوضى طال وثقل على الناس واخذت الامبراطورية تستعيد انفاسها في الداخل ، كما انتعشت العلوم والفنون وعادت الحياة الثقافية الى الازدهار ، بعد ركود وتوقف طويلين ، وفي مطلع عصر ال كومنين وصلت جحافل الفرنجة الى الاراضي البيزنطية ومن هناك زحفت نحو بلاد الشام حيث تفجرت وقائع صراع استمر قرابة قرنين عرف باسم الحروب الصليبية .

وهناك اكثر من رأي بشأن اصل مؤسس السلالة المقدونية بعضها ذهب الى القول انه كان من اصل مقدوني واصر بعضها الاخر على القول انه كان من اصل ارمني وتذهب المصادر العربية الى القول انه كان من اصل سلافي .

وتعد حياة باسيل قبل استيلائه على العرش الامبراطوري حياة غير عادية فقد كان شابا مغمورا قدم في صباه الى القسطنطينية ليجتاز عن فرصة في الحياة فجلب انتباه رجال القصر بطوله الفسارغ

وقوته المتناهية ، واستطاعته لمنازلة وغلبة اشد الحيوانات ضراوة ، وقد وصلت اخبار هذا الشاب الى مسامع الامبراطور ميخائيل الثالث فاعجب به وضمه الى حاشيته ولم تمض مدة حتى استطاع التابع الشاب ان يوقع سيده الامبراطور تحت سيطرته التامة لدرجة انه عينه امبراطورا مساعدا وتوجه في كنيسة ايا صوفيا ولكنه لم يكن وفيا لليد التي رفعتة ، وعوضا عن ان يقبلها بترها الى غير ما رجعة اذ يحدثنا المؤرخون انه حينما شعر بان الامبراطور ميخائيل يشك بنواياه اتجأه امر رجاله بتدبير مؤامرة لقتله ، وتسلم العرش عوضا عنه وحكم بين ٨٦٧ - ٨٨٧ وقد خلفه في حكم بيزنطة ابناه : ليون السادس الذي لقب بالفيلسوف او الحكيم وحكم بين سنتي ٨٨٧ - ٩١٢ والكسيسندر الذي حكم بين سنتي ٨٨٧ - ٩١٣ اما ابن ليون السادس قسطنطين السابع بورفيروجينيوس (٩١٣ - ٩٥٩) فقد كان غير مهتم بامور الدولة ومنصرفا الى التأليف والكتابة والدرس والتعايش مع علماء عصره وادبائه ، وقد سيطر على شؤون الدولة في زمنه حموه رومانوس ليكابينوس الذي كان في الاساس من قادة البحرية العظام المشهود لهم بالكفاءة والمقدرة ، وظل ليكابينوس يصرف شؤون البلاد بوجود الامبراطور قسطنطين السابع مدة خمس وعشرين سنة (٩١٩ - ٩٤٤) اجبره بعدها اولاده (اولاد رومانوس ليكابينوس) على التخلي عن السلطة والانسحاب من الحياة العامة والانقطاع في احد الاديرة ، وتسلموا السلطة في البلاد عوضا من ابيهم المعزول ولم تستمر سلطة اولاد ليكابينوس الا بضعة شهور استطاع بعدها الامبراطور قسطنطين السابع ان يستعيد سيطرته الفعلية وان يبعدهم وان يحكم منفردا من سنة ٩٤٥ حتى ٩٥٩ .

اما رومانوس الثاني ابن قسطنطين السابع فقد حكم مدة اربع سنوات فقط (٩٥٩ - ٩٦٣ م) وتوفي تاركا زوجته ثيوفانو مع ولديهما الصغيرين باسيل وقسطنطين .

وقد تزوجت ثيوفانو بعد وفاة زوجها من القائد الشهير نقفور

فوكاس الذي عين امبراطورا باسم نقفور الثاني فوكاس وحكم بين سنتي ٩٦٣ - ٩٦٩ م . وقد انتهت حياة فوكاس بالقتل وانتقل العرش الى يوحنا تزيكمس الذي اصفى الشرعية على اغتصابه السلطة بزواجه من ثيودورا اخت رومانوس الثاني وابنه قسطنطين السابع بورفيروجينيتوس . وقد استمر حكم تزيكمس من ٩٦٩ حتى سنة ٩٧٦ م حين توفي .

وانتقل العرش بعد هذا الى ابني رومانوس الثاني : باسيل الثاني المقلب بذابح البلغار (٩٧٦ - ١٠٢٥) وقسطنطين الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٨ م) وخلال هذه الفترة من حياة الامبراطورية التي كان الحكم فيها مزدوجا كان باسيل الثاني يتمتع بالنفوذ الاوسع في شؤون الادارة الامبراطورية وقد استطاع ان يصل ببيزنطة الى مرتبة رفيعة من المجد والقوة ، وقد ابتدأت بوفاته مرحلة الضعف والانحطاط بالنسبة للأسرة المقدونية التي لن يطول الزمن بها والتي ستواجه نهايتها سنة ١٠٨١ م ولم يمهل الموت قسطنطين الثامن اخو باسيل الثاني طويلا ، ففي سنة ١٠٢٨ م توفي هذا الامبراطور ايضا ودخلت مجددا قضية العرش البيزنطي في محنة جديدة لم تحل الا حين تزوج رومانوس ارغيروس عضو مجلس الشيوخ البيزنطي « زويه » ابنة قسطنطين الثامن واعتلي سدة العرش من ١٠٢٨ حتى ١٠٣٤ م .

وبعد ان توفي ارغيروس تزوجت زويه للمرة الثانية عشيقها ميخائيل البافلاغوني على الرغم من انها كانت في السادسة والخمسين من عمرها ، وقد توج ميخائيل البافلاغوني امبراطورا باسم ميخائيل الرابع واستمر حكمه من سنة ١٠٣٤ - ١٠٤١ وفي خلال حكمه وحكم ابن اخيه ميخائيل الخامس الذي لم يدوم طويلا ١٠٤١ - ١٠٤٢ حدثت اضطرابات كثيرة في الداخل والخارج انتهت بخلع ميخائيل الخامس وسمل عينيه ودخل الحكم في بيزنطة بعد هذا في مرحلة من الفوضى تقلب على الحكم فيها عدة اشخاص : فقد ال العرش اول الامر ولادة شهرين الى زويه الارملة للمرة الثانية

واختها الصغرى ثيودورا وفي السنة نفسها ١٠٤٤ تزوجت زوية للمرة الثالثة وأعلن زوجها الثالث امبراطورا باسم قسطنطين التاسع مونوماكوس وحكم بين سنتي ١٠٤٢ - ١٠٥٥ م ولم يتح لزوية ان تتزوج زواجا رابعا لانها توفيت قبل زوجها الثالث اما اختها ثيودورا فقد عاشت بعد قسطنطين مونوماكوس واصبحت بعد وفاته الحاكمة الوحيدة للامبراطورية بين سنتي ١٠٥٥ - ١٠٥٦ م. ويعد حكم زوية واختها ثيودورا المناسبة الثانية والاخيرة التي مرت على بيزنطة وكان الحكم فيها لا مراً فقد كانت المناسبة الاولى التي حكمت فيها امرأة زمن الامبراطورة ايرين بطلة الحركة المؤيدة للصور والتي توسدت العرش في نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع كما راينا من قبل. وقد حكمت كل من زوية وثيودورا باسم : امبراطورة الرومان .

وقبل ان تتوفى بقليل ، اذعنت ثيودورا لضغط جماعة القصر وانتخبت احد الاشراف المسمى ميخائيل ستراتيكوتيكوس كخلف لها . وقد اعتلى ستراتيكوتيكوس هذا العرش بعد ثيودورا التي كانت آخر من حكم من الأسرة المكدونية هذه الأسرة التي تربع افراد منها على العرش البيزنطي طيلة ١٨٩ سنة متوالية .

علاقات بيزنطة أيام حكم الأسرة المكدونية

١- العلاقات البيزنطية العربية :

كانت اهم مسائل السياسة الخارجية زمن الامبراطور باسيل الاول ، مؤسس حكم الأسرة المقدونية مسألة الصراع مع العرب المسلمين ، وقد كانت الظروف مواتية زمن هذا الامبراطور لتحقيق نصر في هذا الميدان لان علاقات الامبراطور كانت حسنة مع : أرمينيا في الشرق ، ومع الروس والبلغار في الشمال ، ومع البندقية والامبراطورية الفرنجية في الغرب ، واذا أضفنا الى هذا الجو من الصداقة والود مع هذه الاقوام ، ظروف الخلافة العباسية

الداخلية وماكانت تعيشه من أزمات أبان تسلط ضباط القصر الأتراك على الخلفاء وانفصال مصر عن جسد الخلافة زمن الطولونيين ، واضطراب الأوضاع في الغرب الإسلامي ، لوجدنا أن باسيل كان يتمتع بفرصة ذهبية لتحقيق نصر على المشرق والمغرب ، ولكن على الرغم من كل هذه الظروف المواتية ، وبرغم أن الحرب بين الطرفين العربي والبيزنطي لم تتوقف لم تستطع الامبراطورية تحقيق نصر في هذه الجبهة .

ومع هذا قاد هذا الامبراطور حملة ناجحة ضد اتباع المذهب البوليصي في الجزء الشرقي من آسيا الصغرى حوالي سنة ٨٧٠ م واستطاع أن يتغلب عليهم ، ولم يكن من نتائج هذا النصر توسيع رقعة الامبراطورية فحسب ، بل وضع باسيل وجهها لوجه مع عرب المشرق ، وفتح باب الصراع مع العرب بشكل مباشر ، وغدت المعارك بين الطرفين سنوية ، ولكن دونما نتيجة حاسمة ، فقد كان النصر تارة الى جانب العرب وتارة الى جانب الروم .

أما حروبه مع عرب المغرب - كما رأينا من قبل - فقد كانت أكثر جدية لأن المغاربة في ذلك الوقت كانوا يحكمون الجزء الأكبر من صقلية ويحتلون بعض المراكز الهامة في جنوب إيطاليا ، وقد أدت الأوضاع السيئة في إيطاليا الى تدخل الامبراطور الفرنجي لويس الثاني واحتلاله مدينة باري الهامة ، وقد عقد باسيل الأول اتفاقا مع لويس الثاني ينص على أن يتعاون الاثنان على طرد عرب المغرب من إيطاليا وصقلية ، ولكن لم يكتب لهذا الاتفاق النجاح ومالبت أن انحل الحلف البيزنطي الفرنجي ، وحين توفي لويس الثاني قام سكان باري وسلموا مدينتهم الى ممثلين للامبراطور البيزنطي .

وفي الوقت نفسه استطاع العرب أن يفتحوا جزيرة مالطة ذات الموقع الاستراتيجي الهام ، كما أكملوا فتح جزيرة صقلية ، كما بينا من قبل ، ولم يكتف باسيل الأول بالتعاون مع الامبراطور الفرنجي ضد العرب بل حاول أن يقيم تحالفا مع الملك الأرمني ساغراتيد موجها ضد عرب المشرق ، ولكن لم يتح لهذا التحالف أن يظهر لحيز

الوجود لأن باسيل توفي في هذه الفترة ، ويمكن القول انه على الرغم من الاسكاسات التي الحقت بالبيزنطيين في صقلية فان الامبراطور باسيل الأول استطاع ان يوسع حدود امبراطوريته بعض الشيء في اسية الصغرى .

لقد اقام باسيل علاقات ود مع جيرانه المختلفين ماعدا العرب ، ولكن لم يتح لهذه العلاقات ان تستمر زمن خليفته ليون السادس الملقب بالحكيم ، فقد قامت زمن حكم هذا الامبراطور (٨٨٦ - ٩١٢) حروب بين بيزنطة والبلغار انتهت باخفاق بيزنطة ، واثناء هذه الحروب ظهر المجر (الهنغاريون) لأول مرة في التاريخ البيزنطي ، وقبل انتهاء حكم ليون الحكيم ظهر الروس قرب القسطنطينية ، اما ارمينيا حليفة بيزنطة ، فقد كانت تتلقى الضربات المتوالية من العرب دون ان تحصل على المعونة المتوقعة من بيزنطة ، يضاف الى هذا أن قضية الزواج الرابع للامبراطور وما سببته من مشاكل داخلية ، زادت في ضعف الامبراطورية وأضعفت بالتالي المقاومة البيزنطية للهجمات العربية المتكررة ، وايا كان ، فقد كانت الحملات ضد العرب بلا جدوى زمن ليون السادس ، ولم يحقق أي من الطرفين نصرا حاسما ، ففي الغرب استطاع المسلمون ان يكملوا فتحهم لمنطقة مضيق مسينا ، وفي سنة ٩٠٢ م سقطت آخر معاقل البيزنطيين في صقلية ، في يدهم ، واصبحت صقلية بكاملها تحت الحكم العربي وقد أدى هذا الى جعل ليون السادس يسقط من حاسبه اي امل في استرداد هذه الجزيرة .

هذا وقد تميزت بداية القرن العاشر بقيام الاسطول الاسلامي بعمليات حربية ناشطة ، ومنذ نهاية القرن التاسع كانت السفن العربية تقوم بهجمات موفقة على شواطى البيلوبونيز وجزر بحر ايجة ، وقد ازدادت حدة هذه العمليات البحرية حين توحدت الاساطيل العربية في سورية وكريت وأخذت تقوم بهجمات مشتركة ، وقد كان الهجوم على سالونيك من قبل سفن مسلمة

يقودها ليون الطرابلسي سنة ٩٠٤ م أشهر ماحقق العرب من نصر بحري خلال هذه الفترة ، فقد سقطت هذه المدينة بعد حصار طويل وشاق ، ولكن القوات المهاجمة لم تبقى فيها بعد استسلامها طويلا اذ انها عادت الى قواعدها في سورية بعد ان اخذت غنائم كثيرة وعددا كبيرا من الأسرى ، وقد تنبّهت بيزنطة بعد هذه الهزيمة والخسائر الى ضرورة تحصين هذه المدينة فأخذت تشيد الحصون والقلاع حولها لحمايتها وتجنبها كارثة حلت بها .

وقد شعر البيزنطيون اثر الهزيمة التي لحقت بهم في صقلية ان الواجب يدعوهم الى الاهتمام بأسطولهم ، فأخذوا ببناء سفن جديدة وضم جنود جدد الى سلاحهم البحري مما ساعدهم على كسب النصر في الموقعة البحرية التي جرت بينهم وبين العرب في بحر ايجة سنة ٩٠٦م على ان هذا النصر لم يكن سوى مناسبة وحيدة في سلسلة من الانكسارات ، اذا ان الاسطول البيزنطي ما برح ان لاقى هزيمة نكراء سنة ٩١١ على يد اسطول اسلامي مشترك مؤلف من سفن خرجت من كريت وأخرى من سورية وتلاقت مع الاسطول البيزنطي في معركة بحرية كبيرة .

وهكذا يمكننا ان نقول ان الصراع مع العرب برا وبحرا كان مخفقا زمن ليون السادس ، فقد خرجت صقلية في الغرب نهائيا من يد البيزنطيين ، وفي جنوب ايطاليا كانت الخسائر تتوالى ، كما كان العرب يحققون انتصارات متوالية في جهة الحدود الشرقية ، هذا فضلا عما ذكرناه من خسائر بيزنطة في البحر .

وحين انتقل العرش الى الامبراطور قسطنطين السابع بورفير وجينيتيوس (٩١٣ - ٩١٩) ثم رومانوس الأول ليكابينوس (٩١٩ - ٩٤٤) الذي حكم لفترة طويلة لم تستطع بيزنطة ان تقوم بعمل عسكري فعال ضد العرب لأن جيوشها كانت مشغولة في الحروب مع البلغار ، ولم يستطيع العرب المسلمون بالمقابل ان يستغلوا فرصة انشغال الجيوش البيزنطية في الجبهة البلغارية ليقوموا بعمل عسكري يحقق لهم نصرا على بيزنطة لأن الدولة

العباسية كانت في هذه الفترة من تاريخها تمر بفترة ضعف شديد وتنفصل عنها اقاليم تقوم فيها دويلات مستقلة . وكل ما استطاع البيزنطيون تحقيقه في اول حكم قسطنطين السابع هو التغلب على اسطول عربي كان يقوده ليون الطرابلسي في معركة بحرية جرت بين الطرفين قرب ليمنوس سنة ٩١٧ م .

وبدأت في هذه الفترة من تاريخ الصراع بين بيزنطة والعرب اسماء قواد جدد بالظهور والشهرة في كلا الجانبين ، ففي الجانب البيزنطي لمع اسم يوحنا كوركواس كقائد عسكري وكان اهل عصره يقارنونه بتراجان او بليزاريوس او غيرهما من عظماء القواد ويقولون ان وجوده : احل روحا جديدة من الثقة والمقدرة في الحدود الشرقية ، اما في الجانب العربي فقد طار صيت سيف الدولة الحمداني امير حلب حتى طرق الافاق ، واصبح اسمه على كل شفة ولسان كقائد وامير وراع للعلم والادب والفكر ، وكان بلاطه في حلب منارة قصدها مشاهير عصره في كل الميادين ، وفي حوالي منتصف القرن العاشر استطاع القائد كوركواس ان يحقق عدة انتصارات في الاجزاء الخاضعة للحكم العربي من ارمينيا وان يحتل بعض المدن في اعالي بلاد مابين النهرين وقد احتل كوركواس سنة ٨٣٣ ملطية ، كما احتل سنة ٩٢٤ مدينة الرها واخذ منها بعض الآثار المقدسة (منها صورة للسيد المسيح) ونقلها الى العاصمة باحتفال مهيب ، وكان هذا اكبر نصر له ، مما دعا الناس الى تسميته بطل الساعة ولكن الامبراطور الذي خاف من تزايد شعبية كوركواس وما قد يراوده من احلام امر بعزله وابعده عن قيادة الجيش.

وفي هذه الفترة سقط رومانوس ليكابينوس وعزل ابناؤه من مناصبهم الامبراطورية فخلا الجولقسطنطين السابع واصبح الحاكم الوحيد للامبراطورية ويمكننا القول ان فترة حكم رومانوس ليكابينوس كانت من اهم الفترات في تاريخ العلاقات بين الامبراطورية والشرق . اذ انه بعد ثلاثة قرون من الصراع بين

الامبراطورية والعرب كانت بيزنطة خلالها دوما تقف موقف المدافع
للمهاجم انتقلت بيزنطة ولأول مرة زمن ليكابينوس وكور كواس الى
جانب الهجوم واستطاعت تحقيق بعض الانتصارات في عمليات
عسكرية جرت على الحدود المشتركة بين الدولتين .

وفي هذه الفترة التي كان فيها قسطنطين السابع حاكما وحيدا
للامبراطورية كان الصراع في الجبهة الشرقية هو سلسلة من معارك
ضارية تخوضها بيزنطة مع سيف الدولة امير حلب ، وقد طال امد
الصراع واستطاع الجانب العربي اثناءه ان يحقق انتصارات
كبيرة ، ولكن النهاية كانت رجحان الكفة البيزنطية وانكسار
الجيش العربي في المعارك التي جرت في شمال بلاد ما بين النهرين
مما ادى الى عبور بعض فرق الجيش البيزنطي لنهر الفرات وفي
خلال هذه المعارك استطاع القائد يوحنا تزيكمس ، الذي سيصبح
امبراطورا فيما بعد ان يبرز نفسه كقائد محنك طويل الباع في ميدان
قيادة الجيوش ، على ان هذه الانتصارات البرية قد فقدت كل
اهميتها اذ انه رافقها انكسار شنيع في الميدان البحري ، فقد جهزت
بيزنطة اسطولا ضخما سنة ٩٤٩ وارسلته الى شواطئ كريت
لضرب الحكم العربي هناك ، ولكن هذه الحملة منيت بالافراق
وخسرت بيزنطة عددا كبيرا من سفن اسطولها كما خسرت عددا
اكبر من امهر بحارتها ، ومع ان العمليات العسكرية البرية لم
تتوقف مع عرب ايطاليا وصقلية وغيرها من المناطق الغربية التي
كانت تحتلها جيوش عربية ، فان هذه العمليات لم تكن ذات أهمية
كبيرة ولم تؤد الى نتيجة حاسمة .

وفي خلال حكم رومانوس الثاني الذي لم يدم طويلا
(٩٥٩ - ٩٦٣ م) استطاع القائد نففور فوكاس (الذي سيتولى
العرش فيما بعد) ان يستولي على جزيرة كريت ، مقر الاساطيل
العربية ومنطلقها في عملياتها العسكرية ضد الشواطئ البيزنطية ،
فأزاح بذلك كابوسا ثقيلا جثم طويلا على صدر الامبراطورية ، كما
مكنها ايضا من استعادة موقع استراتيجي هام ومحطة تجارية

شغلت دورا فعالا في تجارة البحر المتوسط . كذلك استطاع نقفور فوكاس في معاركه البرية مع سيف الدولة ان يحقق انتصارا ضخما اذ انه حاصر حلب وتمكن بعد صعوبات ومعارك طاحنة ان يستولي عليها ، مع انها كانت معقل الحمدانيين وحاضرتهم ، ومرد ذلك أنه لم يكن بإمكان حلب بامكاناتها المحدودة أن تتحمل طويلا نفقات المواجهة مع الامبراطورية ذات الموارد الهائلة ، فضلا عما عانى منه سيف الدولة من مشاكل داخلية مع القبائل ومع بعض غلمانه الذين تمردوا عليه ، ولموقف بعض رجالات الثغور منه .

وفي المرحلة التالية التي تغطي حكم اباطرة ثلاثة هم : نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس وباسميل الثاني الملقب بذابح البلغار حققت الامبراطورية اكبر انتصاراتها العسكرية ضد العرب المسلمين في المشرق فقد اوقف نقفور فوكاس سنوات حكمه الست (٩٦٣ - ٩٦٩ م) لتصفية العمليات العسكرية في الجبهة العربية ولتحقيق نصر حاسم عليهم ، على الرغم مما كان يقوم في وجهه من ازمات في جبهات أخرى (كالجبهة البلغارية والجرمانية) تضطره لصرف بعض طاقاته في اخمادها ، وقد بدأت حروبه في الجبهة العربية باحتلال طرسوس ، ثم سار منها الى كيليكيا واحتلها ، وارسل اسطولا الى قبرص وتمكن من استردادها من العرب وقد مهد فتح كيليكيا وقبرص لنقفور طريق سورية فأخذ يعمل في سبيل الاستيلاء على انطاكية المدينة السورية الشهيرة ، وموطن الكثير من المقدسات النصرانية الشرقية ، وفعلا شق طريقه باتجاهها والقى عليها الحصار ، وعندما شعر ان حصارها سيطول ترك جيشه بعهدة احد قواده وعاد هو الى القسطنطينية ، وفي اخر سنة من سنوات حكمه (٩٦٩) استطاع الجيش البيزنطي ان يدخل انطاكية ويغنم مغانم وافرة ، وعقب سقوط انطاكية سار الجيش البيزنطي باتجاه حلب وحاصرها ثانية فسقطت بعد حصار طويل ، وقد عقد قرعوية الذي تمرد على سعد الدولة بن سيف الدولة الحمداني مع القائد البيزنطي معاهدة صلح حفظ لنا نصها ابن العديم في كتابه زبدة الحلب تعهد فيها بالاعتراف

بالسيادة البيزنطية وبأن يدفع سكان المدينة المسلمين الجزية لبيزنطية وأن يعفى من دفع هذه الجزية سكان المنطقة من النصارى . كما تعهد قرعوية بأن يقوم بمساعدة بيزنطة في حالة قيامها بحرب ضد دولة غير مسلمة تقع في جهاته وبأنه سيقوم بحماية القوافل التجارية البيزنطية التي تمر عبر اماراته ، والمهم أن هذه المعاهدة قد وقعت بعد موت نقفور فوكاس مقتولا وعدت شروطها أقصى شروط اضطر أمير حلب أن يقبل بها ، وهكذا أصبحت كيليكيا والجزء الشامي من الثغور الذي يضم انطاكية مع شريط طويل من الساحل امتد حتى اللانقية تابعين لبيزنطة ، كما أصبحت المناطق السورية الأخرى حتى دمشق وطرايس مضطرة لدفع الجزية وللخضوع لبعض الشروط المهيمنة التي فرضت عليها . وإذا صح أن نقفور كان بطلا بالنسبة لبيزنطة في منجزاته بالشرق فإنه لم يكن كذلك في الغرب ففي زمنه استطاع العرب أن يستخلصوا من الامبراطورية آخر مواقعهم في صقلية ، بحيث أصبحت هذه الجزيرة بكاملها في يد العرب ، وكانت أعقد مشاكل يوحنا تزيكمس الذي خلف فوكاس (٩٦٩ - ٩٧٦ م) هي مشكلة الحفاظ على الممتلكات البيزنطية الجديدة في كيليكيا والثغور الشامية ، ففي مطلع حكمه لم يستطع أن يساهم بنفسه في الحروب في الجبهة الشرقية لأنه كان مشغولا بالحروب في الجبهات الروسية والبلغارية وبثورة بارداس فوكاس التي استهلكت كل جهوده ، وبعد أن حقق انتصارات في هاتين الجبهتين وقضى على ثورة بارداس فوكاس ورتب بعض الشؤون والقضايا الداخلية الأخرى ، التفت الى الجبهة الشرقية وأولاهها عنايته .

ويحفظ لنا مصدر أرمني نص رسالة جديدة بالدراسة تبادلها يوحنا تزيكمس مع الملك أشوت الثالث ملك أرمينيا وحكت هذه الرسالة أن هذا الامبراطور هدف الى انتزاع القدس من أيدي العرب المسلمين وأنه في سبيل الوصول الى ذلك قام بقيادة أول حملة صليبية توجه على رأسها ملك مسيحي الى المشرق ، وأدعى يوحنا في هذه الرسالة أنه غادر انطاكية برفقة جيشه واتجه جنوبا عبر

دمشق حتى دخل الأرض الفلسطينية واحتل الناصرة وقيساريه واصبحت القدس تحت رحمته ، وقال : لو لم يختبئ الوثنيون الذين كانوا يعيشون هنالك في القلاع التي على الساحل خوفا منا ، لكنا استطعنا أن ندخل بمعونة الرب مدينة القدس المقدسة وأن نصلي للرب في الأماكن المقدسة ، والحقيقة غير هذا ، فهو وصل الى اطراف دمشق حيث جبي منها بعض المال ، ثم قصدت قواته بعض مناطق الساحل حتى طرابلس ، ثم عاد فهذا ما حكاه ابن القلانسي وغيره ، ومع هذا قال يوحنا في الرسالة نفسها : اليوم تحررت كل فينيقية وفلسطين وسورية من النير الحمدي واصبحت تعترف بالسلطة البيزنطية . ومع أن هذه الرسالة حوت الكثير من المبالغات والمغالطات التي لا تمت الى الحقيقة بصلة ، إنها خطيرة جدا ، فيها مؤشر على مدى الضعف الذي ألم بعرب المشرق ، مع ما عانته بلاد الشام من اهمال في العصر العباسي ، ثم فيها الدليل على طابع الصراع الذي خاضه العرب مع اوربا ، وأن الحروب الصليبية بدأت في القرن العاشر للميلاد ، وحين أقول الحروب الصليبية لا أنفي الطابع الديني عن الصراعات التي قامت قبل القرن العاشر ، لكن الآن استخدمت كلمة « الصليبية » لأن الحروب الصليبية استهدفت إزالة الاسلام وتحويل الوطن العربي الى دار للصليبيين فيما وراء البحار ، ولنتذكر هنا أن اوربا غدت مسيحية صليبية تعبد الايقونات وتمتلك كل كنيسة طقوسها ومفاهيمها المتفق عليها منذ القرن العاشر وليس تماما قبل ذلك ، وكان العرب قد امتلكوا فرصهم لهداية اوربا الى الاسلام ، لكنهم أضاعوها بسبب صراعاتهم الداخلية ، فهذه الأمة يتسلط عليها الاعداء بعدما تفقد وحدتها وتسلط قواها على بعضها بعضا ، فهذا التسليط انتحار والمنتحر ليس له من الله غير السخط .

المهم أنه بعدما عاد الجيش البيزنطي الى انطاكية ، غادرها الامبراطور الى القسطنطينية حيث توفي في أوائل عام ٩٧٦ لكن غدت انطاكية قاعدة للجيش البيزنطي في المنطقة لأن ما عداها من مناطق مرت بها جيوش تزيكمس ولم تخضع للنفوذ البيزنطي .

و حين اعتلى العرش باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥) الذي خلف تزيكمس لم تكن ظروف الامبراطورية موافية لاتباع سياسة الهجوم في الجبهة الشرقية حيث قامت في اول عهد هذا الامبراطور ثورات في اسيا الصغرى نظمها بارداس سكليووس ، و بارداس فوكاس ، كما استمرت المعارك في الجبهة البلغارية ، مما جعل الامبراطور الجديد يتفرغ لحل هذه المشكلة اولا ، ولما قضى على الثورات التفت الى الجبهة العربية في المشرق على الرغم من ان الحروب ضد البلغار لم تكن قد انتهت .

لقد ترك باسيل القتال على الجبهة مع البلغار وخف مسرعا نحو الشام ليحول دون سقوط حلب للفاطميين ، وفي ايام باسيل ثارت القبائل العربية في الشام ضد الفاطميين ، واسس - كما راينا - صالح بن مرداس دولته في حلب ، وتمنت الخلافة الفاطمية دوما السلم مع بيزنطة ، وهكذا عقدت مع بيزنطة معاهدات تهدان جددت مرارا .

إنما على الرغم من علاقات السلم الرسمية التي سادت بين بيزنطة ودولة الفاطميين في مصر فان سياسة الخليفة الحاكم بامر الله المتشددة مع النصارى أزججت باسيل كمسيحي إلى حد بعيد ، وكان أن أمر الحاكم سنة ١٠٠٩ م بتخريب كنيسة القبر المقدس وكنائس أخرى في القدس ، كما صادر بعض كنوز الكنيستين ولاحق الرهبان واشاع الذعر في صفوف المسيحيين عامة حتى أن بعضهم أعلن اسلامه ، ومع هذا لم يقم الامبراطور البيزنطي بأي عمل لنصرة ابناء دينه مما يستدل منه على أنه لم يكن يملك من القوة ما يساعده على اتمام هذا الواجب الديني ، وتوجب على النصارى أن ينتظروا وفاة الحاكم سنة ١٠٢١ م حتى يعود جو التسامح الذي كان سائدا بينهم وبين المسلمين من قبل ، ففي سنة ١٠٢٣ م سافر بطريرك القدس نقفور الى القسطنطينية وأعلن للاسلطات الكنسية هناك أن الكنائس المصادرة اعيدت الى المسيحيين مع ما كان فيها من كنوز واشياء دينية .

كما أعلن أن كنيسة القبر المقدس وغيرها من الكنائس المخربة في مصر وسورية قد أعيد بناؤها وأن الرعايا المسيحيين في دار الخلافة يتمتعون بحريتهم الدينية كما كانت حالهم من قبل .

وفي الغرب استمر عرب صقلية يغيرون على جنوب إيطاليا ، ولم تستطع الامبراطورية عمل شيء لانقاذ هذه البقعة من الأرض البيزنطية لانشغالها في جبهات أخرى ، وقد حاول باسيل الثاني في أخريات أيامه أن يقوم بعمل ما من أجل استعادة صقلية من العرب ، ولكنه توفي قبل أن يتمكن من تحقيق مشروعه .

وقد شجعت الفوضى التي سادت الامبراطورية عقب وفاة باسيل العرب على البدء بسلسلة من الهجمات لاسترداد أراضي الثغور التي احتلها البيزنطيون من قبل ، واستطاعت هذه الهجمات أن تحرر جزءا من هذه المنطقة من النير البيزنطي ، كما وهزم المرداسيون حملة كبيرة قادها الامبراطور رومانوس نفسه ، ومع هذا لاقى العرب بعض الانتكاسات في الثغور الجزرية ، ففقدوا الرها سنة ١٠٣٠ م وقد عرض الامبراطور رومانوس الثالث ، بعد سقوط الرها ، على العرب عقد معاهدة ، بين شروطها شرطان يستحقان الاهتمام ويتعلقان بمدينة القدس : إذ نص الشرط الأول على أن تتولى الخزينة البيزنطية نفقات ترميم كنيسة القبر المقدس ، ونص الشرط الثاني على أن يكون للامبراطور البيزنطي حق تعيين بطريرك القدس ، وقد طال أمد المفاوضات بين الامبراطور رومانوس الثالث ، والخليفة العباسي القائم لأن الخليفة عارض أولا هذين الشرطين ، وأخيرا قبل بهما وسمح بترميم كنيسة القبر المقدس على حساب البيزنطيين ، وكان البيزنطيون قد حصلوا على مثل هذه الموافقة من الخلافة الفاطمية التي كانت تحكم فلسطين مع جنوب بلاد الشام ، وقد زار هذه الكنيسة الرحالة الفارسي المشهور ناصري خسرو ١٠٤٦ ووصفها بأنها ذات بناء ضخم فسيح يتسع لثمانية آلاف شخص وأنها تحتوى على زخارف غاية في الروعة والابهة والغنى .

وحاولت بيزنطة من جهة أخرى في هذه الفترة أن تستعيد صقلية ، ولكن محاولاتها لم تصل الى أية نتيجة كما رأينا من قبل ، وفي الحقيقة إن الانتصارات والأمجاد التي حققتها بيزنطة في أيام حكم الأسرة المقدونية - باستثناء كريت - كانت عابرة ، سببها لا تفوق بيزنطة إنما تمزق العرب ، والخلافة العباسية عاشت أسوأ أيامها في ظل بني بويه ، وبعدما انتقل الفاطميون الى مصر ، أخفقوا في الاستقرار في بلاد الشام ، لأسباب ووقائع بينهاها في الجزء الأول من كتابنا هذا ، وحدثها بشكل مفصل في كتابي « إمارة حلب » ثم في كتابي الجامع في أخبار القرامطة.

العلاقات مع البلغار والمجر

كانت العلاقات بين الامبراطورية والبلغار زمن السلالة المقدونية علاقات على جانب كبير من الأهمية ، فبالرغم من أن بلغاريا زمن ملكها سيمون كانت من الد أعداء بيزنطة وتهدد عاصمتها وسلطة امبراطورها ، فإن بيزنطة في ظل الأسرة المقدونية استطاعت أن تقلب ميزان القوى وأن تخضع بلغاريا اخضاعا تاما لسلطتها ، وأن تجعل منها مقاطعة بيزنطية ففي خلال حكم باسيل الأول كانت حالة من السلم تسود بين الامبراطورية وبلغاريا ، وبعد وفاة الامبراطور ميخائيل الثالث مباشرة تكللت المفاوضات بين الكنديستين البلغارية واليونانية من أجل إعادة الوحدة بينهما بالنجاح ، واستمرت هذه العلاقات الطيبة زمن الملك البلغاري بوريس الذي أرسل ابنه سيمون ليتثقف في بلاط القسطنطينية ، وكان لهذه الصلات الودية آثار حسنة انعكست على كلا الجانبين . فقد استطاع الامبراطور باسيل في هذا الجو الودي بينه وبين البلغار أن يوجه جميع قواه لحرب العرب المشاركة في آسيا الصغرى وعرب المغرب في ايطاليا ، كما أن هذا السلم ساعد الملك البلغاري بوريس على التفرغ لشؤون مملكته الداخلية التي كانت قد تبنت النصرانية دينا منذ أمد قصير .

وبعد أن اعتلى الامبراطور ليون السادس العرش سنة ٨٨٦ فسدت هذه العلاقات السلمية بين الطرفين بسبب قضايا الجمارك التي فرضت على التجارة مع بلغاريا ، فقد كان يحكم بلغاريا في هذه الفترة الملك البلغاري الشهير سيمون بن الملك بوريس وكان مشهورا بشغفه بالعلم والثقافة وتمت في زمنه منجزات عظيمة في حقل الثقافة والتربية ، وكانت له مطامع سياسية واسعة أراد أن يحققها على حساب الامبراطورية البيزنطية ، وقد شعر ليون السادس أنه لن يستطيع الوقوف في وجه مطامع سيمون لأن قواته كانت مشغولة في حروبها مع العرب فطلب النجدة من القبائل المجرية التي كانت ما تزال على الهمجية ، ووافقت هذه القبائل أن تقوم بهجوم مفاجئ على بلغاريا من جهة الشمال حتى تصرف انظار سيمون عن الحدود البيزنطية .

ويعد هذا الحادث من أهم الحوادث في تاريخ أوربا في هذه الفترة ، إذ أنه للمرة الأولى ظهر على مسرح الأحداث في أوربا شعب جديد هو الشعب المجري ، الذي حالف بيزنطة في أول ظهوره . وقد هزم سيمون أمام المجر في عدة معارك أول الأمر ، ولكنه استطاع من ناحية ثانية أثناء المفاوضات أن يضمن تحالفا مع اقوام أخرى وأن يقلب هزيمته الى نصر ، وأن يطرد المجر الى الشمال حيث سيستقرون ويسيرون في المستقبل دولتهم في أواسط الدانوب ، وبعد هذا النصر على المجر ، وجه سيمون اهتمامه نحو بيزنطة وسار على رأس قواته مخترقا أراضيها حتى وصل الى أسوار القسطنطينية ، فاضطر الامبراطور البيزنطي المغلوب أن يعقد معه معاهدة صلح تعهد بموجبها الا يقوم بالمستقبل بأي عمل عدائي ضد البلغار وأن يقدم للملك سيمون هدايا سنوية قيمة .

وفي زمن ليون السادس حاول الملك البلغاري سيمون أن يضم سالونيك الى ملكه وذلك لأن العرب سنة ٩٠٤ م كانوا قد حاصروها ونهبوها وتركوها بحالة من الضعف شجعت الملك على محاولة تنفيذ هذا الحلم ، ولكن ليون السادس وقف في وجه هذا المشروع

واستطاع أن يقنع البلغار أن يقبلوا عوضا عن سالونيك أرضا أخرى فقبلوا بذلك ولم تقم في زمنه حروب مع البلغار ، غير أن هذه الحروب ما لبثت أن تجددت بعد وفاته ، وحاول الملك سيمون أن يستولي على القسطنطينية مما أثار الذعر في نفوس سكان العاصمة ، وأرسل بطريركها رسالة الى الملك البلغاري (مكتوبة بالدموع لا بالدم) ولكن البلغار لم يردوا على التوسلات وغيرها من التهديدات البيزنطية ، وتقدمت جيوشهم في الأراضي البيزنطية وخاضوا معارك عدة كان النصر فيها حليفهم ، وكان أشدها المعارك التي جرت سنة ٩١٧ م على أرض تراقية والتي أبيد فيها الجيش البيزنطي المحارب عن بكرة أبيه ، وقد فتحت هذه المعارك أمام سيمون طريق القسطنطينية ولكنه لم يستطع السير إليها لأنه كان عليه أن يوجه جيوشه الى جبهة جديدة في منطقة الصرب ، وحين تولى القائد رومانوس ليكابينوس عرش الامبراطورية سنة ٩١٩ كانت القوات البلغارية قد وصلت الى حدود الدردنيل ، كما أن جيوشهم الأخرى كانت تخترق بلاد اليونان الوسطى . وفي الوقت نفسه حاول سيمون أن يعقد اتفاقا مع عرب إفريقيا على أساس توجيه جيوش مشتركة لحصار القسطنطينية وكانت كل مقاطعات تراقية ومقدونيا ما عدا القسطنطينية في يد البلغار ، وكان الملك البلغاري واثقا من نصره القريب على الامبراطور البيزنطي لكن الذي حدث قيام مفاوضات بين الطرفين نتجت بعقد اجتماع سنة ٩٢٤ م بين سيمون ورومانوس ، فحين التقى العاهلان تبادلوا التحيات الودية والاحاديث ، وقد أدى هذا اللقاء وهذه الاحاديث الى عقد معاهدة بين الطرفين نصت على أن يتوقف القتال بينهما ، وأن يتعهد الامبراطور البيزنطي بدفع جزية سنوية للبلغار ، وقد سر سيمون لهذه النتيجة ولعدم قيام معركة بينه وبين الامبراطورية لأنه كان يتوقع بعض المصاعب مع المملكة الصربية الجديدة التي كانت تتفاوض مع بيزنطة ، ولأن مفاوضاته مع عرب إفريقيا لم تصل الى نتيجة حاسمة ، وحاول بعد هذا أن يعيد إحياء مشروعه ضد القسطنطينية ولكن المنية عاجلته سنة ٩٢٧ قبل أن يستطیع تحقيقه .

وفي عهد خليفة سيمون المسمى بطرس والذي كان مشهورا بحبه للسلام عقدت معاهدة صلح مع بيزنطة دامت أربعين عاما ، واعترفت فيها الامبراطورية باللقب الملكي لبطرس وبالكنيسته البلغارية التي اذشنت زمن سلفه سيمون ، واخذت المملكة البلغارية التي اوصلها سيمون الى الأوج تنحدر زمن بطرس وتتمزقها الخلافات الداخلية ، ولم يؤد خلو الساحة من البلغار الى دوام السلم الذي كانت تنعم به القسطنطينية فقد قسام المجريون سنة ٩٣٤ بمهاجمة مقاطعة تراقية ، وتقدموا حتى وصلوا الى القسطنطينية ثم اعادوا ما احتلوا من اراضي ليعادوا الكرة سنة ٩٤٣ وهاجموا تراقية من جديد ، وقد اضطر الامبراطور رومانوس ليكابينوس ازاء هذه الاعتداءات أن يعقد معهم معاهدة صلح مدتها خمس سنوات .

وقد جددت هذه المعاهدة زمن الامبراطور قسطنطين بوفيرو جينتوس ، ومع ذلك ظهرت قوات مجرية في النصف الثاني من القرن العاشر في الاراضي البلقانية أكثر من مرة وقامت بعمليات عسكرية ، وفي زمن الاباطرة نقفور فوكاس ويوحنا تزيكمس تجددت المعارك بين الامبراطورية والبلغار ، وتدخل الروس في هذه المعارك ووقفوا الى جانب الامبراطورية بناء على طلب المساعدة الذي قدمه اليهم الامبراطور نقفور فوكاس ، وقد أدى تدخل الروس في هذه المعارك الى ظهور خطر جديد على الارض البيزنطية ، وهو الخطر الروسي إذ اظهر الروسي سفياتوسلاف مطامع اقلقت الامبراطور البيزنطي ، ولم يكن قلق الامبراطور دونما مسوغ إذ اخذت القوات الروسية تزحف على بيزنطة حتى وصلت طلائعها الى القسطنطينية ، واستطاع يوحنا تزيكمس أن يرد الزحف الروسي عن عاصمته وأن يقهر سفياتوسلاف وأن يحتل كل المقاطعات الواقعة في شرقي بلغاريا وأن يخضع المملكة البلغارية لحكمه ، واستفاد البلغار من الاضطرابات الداخلية التي حدثت بعد وفاة تزيكمس فأعلنوا الثورة على بيزنطة بزعامة صموئيل حاكم الجزء الغربي من بلغاريا الذي كان مستقلا وكان الصراع في هذه الفترة بقيادة

الامبراطور الجديد باسيل الثاني الذي عانى من بعض الهزائم امام صموئيل الذي اغتزم الفرصة واعلن نفسه ملكا على البلغار ، ولكن ما لبث ان ابتسم الحظ من جديد لباسيل وذلك في بداية القرن الحادي عشر فاستطاع ان يقلب هزيمته الى نصر ساحق وان يعمل يد القتل والذبح في البلغار حتى أصبح لقبه الرسمي (ذابح البلغار) وقد وصلت فظائعه الى حد نقرا معه مثالا انه في احدى المعارك بعد ان قتل ما قتل سمل عيون اربعة عشر الف جندي بلغاري دفعة واحدة واعادهم عمي الى بلادهم ، ويقال ان صمويل حين رأى هذه الاعداد من الجنود العميان أصيب بصدمة أدت الى موته فورا وذلك سنة ١٠١٤ م ، وكانت بلغاريا بعد وفاته في حال من الضعف جعلت من السهل على الامبراطورية البيزنطية ضمها اليها وهكذا أصبحت بلغاريا سنة ١٠١٨ م مقاطعة من مقاطعات الامبراطورية البيزنطية يتولى الحكم فيها حاكم من قبل الامبراطور ، مع أنها احتفظت ببعض مظاهر الاستقلال الداخلي.

وقامت ثورة في بلغاريا ضد الامبراطورية في حوالي منتصف القرن الحادي عشر ولكنها أخمدت بقسوة وحُرمت بلغاريا من الاستقلال الداخلي الذي كانت تنعم به من قبل ، وظل الحال هكذا حتى قيام المملكة البلغارية الثانية وذلك في القرن الثاني عشر .

العلاقات بين بيزنطة والروس

كانت العلاقات بين بيزنطة والروس زمن الاسرة المقدونية دائبة وذشيطة على عكس ماكانت عليه في عهد الاسرة السالفة ، وقد بدأت زمن الامبراطور ليون السادس الملقب بالحكيم ، وذلك حين اقتحم الأمير الروسي أوليخ المياه البيزنطية وظهرت سفنه امام اسوار القسطنطينية وذلك في سنة ٩٠٧ م . وقد استطاع أوليخ ان يحاصر بعض المواقع القريبة من العاصمة وان يقتل عددا من الاشخاص مما اضطر الامبراطور ان يفاوضه وأن يعقد معه اتفاقا ، وقد جدد هذا

الاتفاق سنة ٩١١ م ونصت بنوده على تسهيلات وامتيازات تجارية للروس في البلاد البيزنطية .

وفي زمن الامبراطور رومانوس ليكابينوس هوجمت القسطنطينية مرتين من قبل الامير الروسي ايغور ، وقد قام ايغور بأول حملاته على العاصمة البيزنطية سنة ٩٤١ م وذلك حين ابحرت سفنه الى شاطيء بينينيا على البحر الاسود ، ومنه الى البوسفور حيث حاصرت الشواطيء البيزنطية في هذه المنطقة وتقدمت على طول الشاطيء الاسيوي قبالة القسطنطينية . على انه لم يكتب لهذه الحملة النجاح ، اذ استطاع البيزنطيون القضاء على السفن الروسية بواسطة النار الاغريقية ، وهرب ما تبقى منها باتجاه الشمال اما من وقع من الروس في الاسر فقد قتله البيزنطيون ، وقد استعد ايغور استعدادا اقوى لحملته الثانية على العاصمة البيزنطية التي بداها سنة ٩٤٤ م فقد جند الامير الروسي جنودا كثيرين من قوميات مختلفة وحشدتهم استعدادا لما نواه من غزو وحين سمع الامبراطور بانباء هذه الاستعدادات ذعر ذعرا شديدا وسير وفدا من اراف الامبراطورية محملين بالهدايا الى روسيا والى زعماء توام الاخرى المتحالفين معها .

وعرض الوفد على الروس ان يعقدوا معهم معاهدة مماثلة للمعاهدة التي عقدت من قبل مع اوليخ وأن تدفع بيزنطة لهم جزية سنوية كبيرة ، ولكن الامير الروسي رفض اول الامر هذا العرض وسار بجيشه حتى وصل شواطيء نهر الدانوب . وهناك تشاور مع رجاله وقر رايهم على قبول العرض البيزنطي والعودة الى كييف ، وفي العام الذي تلاه عقدت معاهدة بين الطرفين كانت شروطها اقل امتهانا للسيادة البيزنطية من المعاهدة المتقدمة التي عقدت مع اوليخ ، وقرر المفاوضون ان تكون هذه المعاهدة ابدية .

وفعلا ساد عهد من السلم بين الروس والبيزنطيين وتمتنت اواصر الصداقة بينهم. وفي سنة ٩٠٧ م زارت الاميرة الروسية اولغا القسطنطينية فاستقبلها الامبراطور قسطنطين السابع بورفير

جينيتوس وزوجته استقبالا رائعا ، أما العلاقات مع الروس زمن
الباطرة نقفور ويوحنا تزيكمس فقد ألحنا اليها من قبل ولا حاجة
هنا للتكرار .

وفي فترة حكم باسيل الثاني كانت علاقات الامبراطورية مع
الامير الروسي فلاديمير الذي يرتبط اسمه ارتباطا وثيقا بانتشار
المسيحية في روسيا ، علاقات وطيدة ، ففي العقد التاسع من القرن
العاشر كان الامبراطور في وضع حرج وذلك بسبب زحف فوكاس
بجيوشه نحو العاصمة في الوقت الذي كانت فيه مقاطعات
الامبراطورية الشمالية تواجه خطر الاجتياح البلغاري ، وكانت
فرصة باسيل الوحيدة هي طلب المساعدة من الامير الروسي فلاديمير
الذي وافق على نجدة الامبراطور بجيش بلغ تعدادة الستة الاف
مقابل أن يتعهد الامبراطور بتزويجه أخته أنا ، وقد نص الاتفاق
ايضا على أن فلاديمير سيدخل في النصرانية وسيجبر شعبه على
اعتناقها ، وفعلا أرسل فلاديمير الجيش المتفق عليه لمساعدة باسيل
في حروبه ضد فوكاس واستطاع بفضله أن يقهر هذا الثائر وأن
يرديه قتيلا في ساحة المعركة ، ويبدو أن باسيل لم يكن جادا في
تحقيق وعده لفلاديمير بتزويجه من أخته ، ولذلك ماكان من هذا
الاخير حين تلكأ باسيل في إتمام مراسيم الزواج إلا أن سار بجيشه
واحتل إحدى المدن البيزنطية الهامة في شبه جزيرة القرم وأجبر
باسيل على تحقيق وعده .

وهكذا عمد فلاديمير نصرانيا وتزوج من أنا ، وبخلت روسيا في
النصرانية اعتبارا من نهاية القرن العاشر وساد السلم نتيجة هذا
بين الطرفين الروسي والبيزنطي لأمم طويل ونشطت العلاقات
التجارية بينهما .

لقد استمر السلم حتى اعتلى العرش البيزنطي الامبراطور
قسطنطين مونوماكوس سنة ١٠٤٣ إذ يقال أنه حدث في هذه السنة
خصام بين بعض التجار الروس والبيزنطيين في القسطنطينية قتل في
اثنايه أحد الأشراف الروس ، فاستغل الروس هذا الحادث لتوجيه

حملة ضد بيزنطة ، فجهزوا أسطولاً يتألف من عدد كبير من السفن وأبحروا به نحو الشواطئ البيزنطية ، ولكن البيزنطيون استطاعوا تدمير هذا الأسطول بواسطة النار الإغريقية ، وكانت هذه آخر حملة توجهها روسيا ضد بيزنطة في العصور الوسطى .

العلاقات مع إيطاليا وأوروبا الغربية

إلى جانب الهجمات العربية على إيطاليا فإن أهم الأحداث التي شهدت هذه البلاد في منتصف القرن التاسع كانت انفصال جمهورية سان مارك (البندقية) عن الامبراطورية البيزنطية وصيرورتها جمهورية مستقلة ، وقد تعاملت بيزنطة مع هذه الجمهورية الجديدة على أساس من المساواة وبالأسلوب نفسه الذي تتعامل به دولتان مستقلتان ، ولاشك أن السبب في ذلك توفر مصلحة مشتركة بينهما نشأت عن الهجمات العربية على أراضي الطرفين وبسبب اعتداءات سلاف منطقة الأدرياتيك على حدود كل منهما . وقد زاد في النفوذ البيزنطي في إيطاليا انتزاع جيوش الامبراطورية لباري وتارنتوم من العرب وأعمال نفقور فوكاس الناجحة ضد العرب في كريت وجنوب إيطاليا .

وكان الخطر العربي على روما حافزاً للبابا يوحنا الثامن لأن يقوم بمفاوضات مع الامبراطور باسيل الأول ، وأن يقبل ببعض التنازلات للكنيسة الشرقية مقابل ضمان حماية بيزنطة لروما في حال هجوم عربي عليها، وبناء عليه استمر النفوذ البيزنطي في إيطاليا بتزايد خلال القرن العاشر وأدى ذلك إلى ازدياد نفوذها الثقافي والديني في جنوب إيطاليا .

وقد شهدت بيزنطة وإيطاليا في هذا القرن العاشر قيام منافس قوي في شخص أوتو الأول الحاكم الجرمانى الذي وضع البابا يوحنا الثاني عشر التاج الامبراطوري على رأسه في روما سنة ٩٦٢ ، ويعرف أوتو الأول تاريخياً بأنه مؤسس الامبراطورية الرومانية

المقدسة للامة الجرمانية ، وقد كان هم اوتو بعد ان تسلم التاج ان يصبح سيدا على جميع إيطاليا ، وهذا لاشك جعله يبدو كعدو بالنسبة لبيزنطة التي كان لها ايضا مصالح موروثه في إيطاليا ، والتي كان امبراطورها نففور فوكاس يحلم بأن يقيم تحالفا مع الجرمان ضد المسلمين ، ولكن هذا الحلم لم يتحقق ، بل قام اوتو بهجمات على الممتلكات البيزنطية في جنوب إيطاليا ، وتجددت هذه الهجمات زمن الامبراطور يوحنا تزيكمس مما اجبر بيزنطة على تغيير سياستها الإيطالية ، ولهذا عقد هذا الامبراطور معاهدة سلم مع اوتو الجرمانى وزوج الاميرة البيزنطية تيوفانو من اوتو الثاني ابن اوتو الاول ، وبذلك تمتعت عرى الصداقة بين الامبراطوريتين ، وقام بينهما تحالف ، وتسلم اوتو الثاني (٩٧٣ - ٩٨٣) مهمة الوقوف في وجه الهجمات العربية على إيطاليا نيابة عن الامبراطور البيزنطي .

وقد كسر اوتو الثاني في إحدى المعارك مع العرب ولم يلبث بعد هذا الانكسار ان توفي وبموته توقف التوغل الجرمانى في الممتلكات البيزنطية في إيطاليا لفترة طويلة من الزمن ، وجاء من الزواج الذي تم بين تيوفانو واوتو الثاني امير تولى العرش في الامبراطورية الرومانية المقدسة في الفترة بين سنتي (٩٨٣ - ١٠٠٢) وعرف باسم اوتو الثالث ، وكان اوتو الثالث هذا معاصرا للامبراطور البيزنطي باسيل الثاني وقريبا له ويكن حبا شديدا لبيزنطة ومؤسساتها الثقافية حيث عاشت أمه واشبعت خياله بذكريات نشأتها فيها ، وكانت أحلام كثيرة تراود خيال هذا الأمير بسبب ثقافته الكلاسيكية وإعجابه بروما من جهة وببلاط القسطنطينية من جهة أخرى ، فقد كان من جملة أحلامه مثلاً ان يعيد مجد روما القديمة وان يعيد إلى الوجود الامبراطورية الرومانية القديمة وعاصمتها روما ، ولكن لم يتح لهذه الأحلام ان تتحقق لأنه توفي فجأة وهو في الثانية والعشرين من عمره وذلك في مطلع القرن الحادي عشر (١٠٠٢) .

وعلى الرغم من أن الخطر العربي على إيطاليا قد خفت حدته في

مطلع القرن الحادي عشر بسبب نشاط أسطول البندقية ومساهمته في حراسة الشواطئ الإيطالية من الهجمات العربية فإن خطرا جديدا اشد وأدهى بدأ يتهدد الأرض الإيطالية ، ألا وهو خطر النورمان الذين تسربوا إلى إيطاليا في مطلع القرن الحادي عشر ، وما لبثوا أن هاجموا بيزنطة نفسها فيما بعد ، وقد استطاعت بيزنطة في أولى معاركها مع النورمان على الأرض الإيطالية أن تدحرهم وذلك زمن الإمبراطور باسيل الثاني ، وخلال فترة الصراع الديني بين روما والقسطنطينية التي انتهت بالانشقاق بين الكنيستين ١٠٥٤ م انحاز النورمان إلى جانب روما وأخذوا يتقدمون داخل الممتلكات البيزنطية في إيطاليا ، وستزداد قوة النورمان حتى تصل أوجها في منتصف القرن الحادي عشر ، وذلك بعد انتهاء فترة حكم الأسرة المقدونية ، وسلف بنا أن تحدثنا عن احتلالهم لجنوب إيطاليا وانتزاعهم صقلية من العرب .

شؤون الكنيسة

وكانت أهم الأحداث الكنسية التي تمت خلال فترة حكم الأسرة المقدونية هو الانفصال التام بين الكنيستين الشرقية الأرثوذكسية والغربية الكاثوليكية الذي تم في منتصف القرن الحادي عشر بعد خصومات طويلة مدة قرنين تقريبا .

والى جانب هذا الحدث الهام تمت أحداث أخرى أقل أهمية في الحقل الكنسي ، منها أن الإمبراطور باسيل عزل البطريرك فوتيوس من منصبه وأعاد إلى الكرسي البطريركي أغناطيوس الذي كان قد عزل زمن سلفه الإمبراطور ميخائيل الثالث ، وقد قصد باسيل من هذا العمل دعم مركزه السياسي عن طريق تنصيب بطريرك يؤيده ، وله أيضا شعبية عند عامة الشعب البيزنطي ، وأراد باسيل أن يذهب إلى مدى أبعد في دعم مركزه السياسي عن طريق كسب التأييد الديني ، فأرسل هو والبطريرك الجديد أغناطيوس رسائل إلى البابا في روما يعلنان له فيها اعترافهما بسلطته العليا على الكنيسة

الشرقية ويشرحان له رغبتهما في كنيسة موحدة لانقسام فيها ويرعاها راع واحد هو البابا ، وكان هذا ولاشك نصر البابوية والبابا يقول الأول خاصة ، ولكن القدر لم يمهل هذا البابا ليشهد نتائج نصره العظيم إذ أنه قبيل وصول هذه الرسائل إلى روما توفي وتسلمها خلفه البابا هادريان الثاني .

وهكذا دخلت الشؤون الدينية لبيزنطة في عهد جديد أصبح للبابوية فيه القول الفصل في جميع الأمور الكنسية . وكان البطريرك المعزول قد نفى أول الأمر وتعرض لأشد أنواع الحرمان والضنك ، ولكن بإسبيل شعر أن البطريرك المعزول مازال يتمتع بشعبية كبيرة وله عدد كبير من الاتباع ذوي النفوذ ، لذلك أعلن عفو عنه واستدعاه إلى القصر الإمبراطوري وأوكل إليه أمر تثقيف أولاده ، وحين توفي أغناطيوس أعيد فوتيوس للكرسي البطريركي ، وكانت عودته لهذا المنصب بداية عهد جديد من العلاقات مع البابوية ، حيث أنه عقد في القسطنطينية مجمعا دينيا حضره جمع غفير من رجال الدين وممثلون عن البابا ، وكان المجمع من العظمة والأهمية بحيث شبه بالمجمع المسكونية وكان نصرا كبيرا لفوتيوس إذ أنه افتتح بحمد فوتيوس وانتهى بتمجيده . وقد ناقش هذا المجمع قضية رئاسة البابا للكنيسة وقرر أن البابا بطريرك كبقية البطارقة وأنه لا سلطة له على الكنيسة عموما ولذلك فلا لزوم لموافقتة على تعيين بطريرك القسطنطينية ، وقد أغضب هذا القرار البابا كثيرا ، فأرسل وفدا إلى القسطنطينية وطلب إلغاء جميع القرارات الماسة بالمنصب البابوي من بين مقررات المجمع ورفض فوتيوس وباسيل الانصياع لطلب الوفد وذهبوا إلى حد إصدار الأوامر باعتقال أعضائه ، وقد أدى هذا الموقف إلى سوء العلاقات بين البابوية والقسطنطينية وإلى قيام نوع من القطيعة بين روما والإمبراطورية ، ولم يطل الزمن بفوتيوس إذ أنه بعد وفاة باسيل الثاني ومجيء ليون السادس للعرش البيزنطي عزل من منصبه ، ومالبت بعد عزله بخمس سنوات أن توفي وتكاد الكلمة تجمع على أن فوتيوس كان من أشخاص

عصره الذين شغلوا دورا بارزا لافي المجال الديني فحسب بل في المجال الثقافي وحتى السياسي ايضا .

ورايانا انه إلى جهود باسيل الأول يعود الفضل في إدخال الروس في النصرانية ، كما أن أعدادا كبيرة من القبائل السلافية الساكنة في منطقة البيلوبونيز اعتنقت النصرانية في عهده ، وإليه ينسب أمر ينص على وجوب إجبار اليهود القساطين في الامبراطورية على التخلي عن يهوديتهم والدخول في النصرانية .

وكان الامبراطور نقفور فوكاس قد أصدر سنة ٩٦٤ م قرارا عد من اخطر القرارات أثرا على الاديرة والكنيسة ، وذلك على الرغم من شدة تعلقه بالمسيحية ، ونص قراره :

على منع اقامة اديرة جديدة ومنع تقديم الهدايا والاعطيات ووقف الاوقاف للاديرة والمستشفيات الخيرية وتحرير تقديم الهبات والاموال لصالح رجال الدين وجميع الهيئات المرتبطة بالكنيسة ، ويبدو لأول وهلة وكأن هذا القرار موجه من امبراطور وثني ضد الكنيسة وجميع الهيئات التابعة لها ، ولكن الواقع انه كان لهذا القرار مایسوغه ، إذ أن الكنيسة منذ عصر الايقونات قد أصبحت على درجة من الغنى الفاحش لاتوصف ، وغناها كان في الاراضي والعقارات والنقد والتحف والنفائس وغير ذلك من أشكال الثروة مما حولها الى مؤسسة اقطاعية كبيرة تستولي على املاك واموال الرغايا المؤمنين وتسخر كل ذلك لاقامة طبقة من رجال الكهنوت والرهبان المترفين على حساب شعب يعاني اكثره من الفاقة والحرمان ، وقد أورد فوكاس ضمن الأسباب المسوغة لاصدار هذا القرار قوله : إنا نقصد أن نقتلع جذور الطمع الذي يكرهه الرب ولايرضاه .

وكان رد فعل الناس المتدينين في غالبيتهم العظمى عنيفا ضد الامبراطور وقراره الجائر ، وبدا أن الناس لن يعملوا به طويلا .
وفعلا قام باسيل الثاني بالغاء هذا القرار وعده قرارا جائرا ومعاديا

للكنائس والمستشفيات والرب ايضا ، وبسبب غضب الرب على الامبراطورية قادها الى حافة الانهيار والدمار .

وبعد وفاة الامبراطور باسميل الثاني سنة ١٠٢٥ دخلت الامبراطورية البيزنطية مرحلة جديدة من مراحل حياتها حافلة بالاضطرابات تميزت بسرعة تبدل الابطاطرة وسير الامبراطورية سميرا حثيثا في طريق التدهور ، وقد استطاعت الامبراطورة زوية أن ترفع أزواجها الثلاثة الى السدة الامبراطورية كل بدوره ، وفي سنة ١٠٥٦ حين توفيت الامبراطورة ثيودورا أخت الامبراطورة زوية انتهى حكم الاسرة المقدونية وابتدت فترة من الاضطرابات التي دامت خمسا وعشرين سنة (١٠٥٦ - ١٠٨١) وانتهت هذه الفترة الجديدة باعتلاء الامبراطور الكسيوس كومنين العرش الامبراطوري وبذلك ابتدا عصر حكم ال كومنين ، وتعد الفترة ما بين وفاة زوية واستلام الكسيوس كومنين لعرش الامبراطورية من اهم فترات التاريخ البيزنطي لانه تها خلالها الجو الذي ادى في النهاية الى قيام الحركة الصليبية في الغرب ، كما مارس خلالها اعداء الامبراطورية في الخارج شتى انواع الضغوط عليها من جميع الجهات : فالنورمان نشطوا في الغرب ، والاقوام السلافية كانت تلقي بثقلها على المناطق الشمالية ، وقام السلاجقة التركمان باثارة المتاعب في وجه الامبراطورية في المناطق الشرقية ، وادى كل هذا الى تناقص رقعة الامبراطورية وخروج بعض المناطق من يدها ، ثم إلى اذلالها وتدمير جيوشها واسر امبراطورها في معركة مناز كرد .

وكان من جملة الخصائص المميزة لفترة الاضطرابات هذه ثورة العناصر العسكرية وطبقة النبلاء ضد الحكومة المركزية ، وقيام صراع شديد بين الطرفين انتهى بنصر الاقاليم على العاصمة ، وقد توج هذا النصر باعتلاء الكسيوس كومنين عرش الامبراطورية وبداية مرحلة جديدة من مراحل الحكم في الامبراطورية البيزنطية.

كان جميع اباطرة فترة الاضطرابات من اصل يوناني ففسي سنة ١٠٥٦ اجبر رجال البلاط الامبراطورة العجوز ثيودورا أن

تسمى ميخائيل ستراتيوتيكوس ، وهو احد رجالات البلاط خلفا لها ، وقد توفيت ثيودورا عقب تسمية خلفها مباشرة واعتلى العرش بعدها ستراتيوتيكوس باسم ميخائيل السادس ، وقد حكم ميخائيل السادس هذا لمدة عام تقريبا (١٠٥٦ - ١٠٥٧) ، وقامت في وجهه حركة معارضة تزعمها جيش مقاطعة اسيا الصغرى الذي سمي قائده اسحاق كومنين امبراطورا ، واسحاق هذا سليل اسرة من ملاكي الارض الكبار ، وقد اشتهر بشجاعته وبسالته في المعارك ضد التركمان ، وكان تعيين اسحاق كومنين اول نصر للحزب العسكري على الحكومة المركزية في فترة الاضطرابات هذه ، واستقال ميخائيل السادس اثر هذه الحركة من منصبه وامضى بقية حياته كفرد عادي .

ولم يتح لهذا النصر الذي حققه الحزب العسكري ان يعمر طويلا . اذ ان اسحاق كومنين مالبث بعد حكم لم يدم سنتين (١٠٥٧ - ١٠٥٩) ان استقال من منصبه وانصرف الى العبادة والتدين ، وقد خلفه قسطنطين العاشر دوكاس فحكم بين سنتي (١٠٥٩ - ١٠٦٧) وكان ماليا من الطراز الاول وتمتع بحس سليم وعدالة واضحة ، وصرف همه بشكل خاص لقضايا الدولة ، ولم يعر قضايا الجيش والشؤون العسكرية بشكل عام اهتماما كبيرا ، ويمكننا ان نعد فترة حكمه بمثابة ردة فعل مدنية على التدخل العسكري الذي استشرى فيما مضى واوصل اسحاق كومنين الى العرش ، او محاولة لاطهار انتصار العاصمة على المقاطعات ، على انه كانت هناك ظروفنا لاتسوغ الموقف المتعنت الذي وقفه قسطنطين العاشر من الجيش ، واهم هذه الظروف وجود اخطار خارجية استدعت وجود جيش قوي يستطيع رد الاعتداءات التي هددت حدود الدولة ، وبدا واضحا ان الامبراطورية بحاجة لشخص يستطيع ان ينظم مقاومة عسكرية مسلحة تستطيع الوقوف في وجه خصوم بيزنطة ، وهكذا قيام حزب معارض للامبراطور . استطاع ان يفرض ارادته على ارملة قسطنطين بعد وفاته وان يجبرها على الزواج من القائد الشهير رومانوس ديوجانيس واعتلى العرش باسم رومانوس الرابع وحكم بين

سنتي (١٠٦٧ - ١٠٧١ م) وبعد وصول رومانوس الى العرش النصر الثاني الذي استطاع الحزب العسكري تحقيقه ، وقد دام حكم هذا القائد الذي وصل الى السدة الامبراطورية مدة اربع سنوات ، وانتهى كما راينا بكارثة كبيرة ، اذ انه وقع في اسر السلطان السلجوقي الب ارسلان ، وقد ادى اسر الامبراطور الى حدوث بلبلة داخلية كبيرة ، وانتهى الراي برجال الدولة الى ضرورة تنصيب امبراطور جديد ، وهكذا انتخب ميخائيل السابع واعتلى العرش الامبراطوري سنة ١٠٧١ م واستمر حكمه حتى سنة ١٠٧٨ م. اما رومانوس الرابع ، فقد عاد من الاسر ليجد ان العرش قد شغل من قبل امبراطور جديد ، وحاول استرداد عرشه واخفق وتعرض لسمل العيون والعذاب الشديد ومالبث ان توفي .

كان ميخائيل السابع مشغولاً بالعلم والمناظرات الفكرية وكتابة الشعر ، ولم يكن له اي ميل للقضايا العسكرية او الحروب ، وباعتباره ابن قسطنطين العاشر دوكاس ، فإنه ورث عن ابيه ميلا واضحا نحو الادارة وكرها شديدا للعسكريين والامور العسكرية ، مما جعل عرشه مهددا بأخطار خارجية لا يستطيع لها ردا ، وبدا واضحا للمرة الثانية ان الامبراطورية بحاجة لامبراطور عسكري يساعده جيش قوي يمنعان عنها المخاطر التي تتهددها ، وتزايد شعور الناس بهذه الحاجة وقامت ثورة في اسيا الصغرى تزعمها نقفور بوتنياتس ، أحد القادة العسكريين في تلك المنطقة ، وقد أعلن بوتنياتس امبراطورا في اسيا الصغرى وزحف على العاصمة حيث خلع الامبراطور واضطره للالتجاء الى احد الاديرة ولبس التاج الامبراطوري بعد ان سلمه اياه بطريك القسطنطينية ، وقد استمر حكم الامبراطور الجديد من ١٠٧٨ حتى ١٠٨١ ولكنه كان مسنا ومصابا بعدة امراض مما جعله غير قادر على تحقيق الامال التي عقدت عليه في دفع الاخطار الداخلية والخارجية ، يضاف الى هذا ان الارستقراطيين وملاكي الأرض في المقاطعات لم يعترفوا به كامبراطور ، وظهر عدة طامعين بالعرش في مقاطعات الامبراطورية المختلفة .

وكان من هؤلاء الطامعين في العرش الكسيوس كومنين ، وهو ابن اخ الامبراطور المستقيل اسحاق كومنين ، وقد اظهر الكسيوس مهارة فائقة في الوصول الى هدفه وهو العرش الامبراطوري ، واستطاع ان يستغل الظروف المختلفة ليبرز نفسه كأفضل المرشحين لهذا المنصب ، واخيرا وفي سنة ١٠٨١ تنازل بوتنياتس عن العرش والتجأ الى احد الدير ودخل سلك الرهبنة ، فتوج الكسيوس كومنين وتسلم العرش واضعا بذلك حدا لفترة الاضطراب هذه ، ويعد ارتقاء الامبراطور الجديد نصرا للفئة العسكرية وللمقاطعات على السياسيين والعاصمة معا .

وليس هناك شك في ان الأعوام الطوال من الصراع على العرش قد جعلت بيزنطة في حال من الضعف الشديد وقللت من مكانتها في ميدان السياسة العالمية في عالم العصور الوسطى ، وقد زاد في تدهور الامبراطورية وتدني مركزها الاوضاع الخارجية التي كانت تجابهها ولاسيما في الجبهة الشرقية حيث كان السلاجقة التركمان يصوبون سهامهم الى قلبها .

الباب الثاني

طورا وقائع الحروب الصليبية

الفصل الأول

الطور الأول من تاريخ الحروب الصليبية (الاحتلال)

اهتمت غالبية الأبحاث الحديثة حول وقائع الحروب الصليبية بأسباب هذه الحروب خاصة من الجانب الأوربي ، وتأثر كل بحث بأحوال البلد الذي صدر فيه وبالتيارات الفكرية لأيامه وبمدرسة التفسير التاريخي التي إليها انتمى صاحب البحث ، وكذلك بالانتماء السياسي والكذسي ، حيث هناك أبحاث كثيرة مثلت وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ، وهناك ما مثل وجهة نظر الكنيسة الاورثوذكسية البيزنطية ، وطبعاً لا يمكن الحديث عن أبحاث واسعة الانتشار تمثل وجهة نظر العرب والمسلمين ، وكتابنا هذا إحدى المحاولات لعرض ما أسميه وجهة نظر عربية اسلامية .

لقد حاولت جل الدراسات الاوربية التقليل من العامل الديني وفعاليته والحت على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ووقفت مطولا عند نظام الاقطاع وتأثيراته ، وفي الحقيقة تشكل محاولات التقليل من العامل الديني نوعاً من أنواع خداع الذات ، وسنرى في الجزء المقبل من موسوعتنا هذه مدى عمق وفعالية العامل الديني ، فمن غير المعقول أن تتخلى جموع من سكان أوربا تزيد على المليون مابين رجل وامرأة وشيخ وطفل عن حياتها ومواطنها وتأخذ الطريق الطويل الشاق نحو بلاد الشام لولا عمق المشاعر الدينية لدى هؤلاء الناس ، فالذي حرض هؤلاء وقادهم رجال الدين .

هذا ومواريث أوربا بشطريها الشرقي والغربي في شتى حروب صليبية راسخة وواسعة ، فلقد عرضنا من قبل للحروب الصليبية التي شنها شارلمان ضد السكسون فضلاً عن حروبه ضد مسلمي

الاندلس ، كما اتينا على الاشارة إلى صليبية القرن العاشر التي شنتها الامبراطورية البيزنطية ضد المسلمين في بلاد الشام وكريت ، يضاف إلى هذا إن الصراعات التي شهدتها ساحات اوربا الغربية مع الحروب بين البابوية والامبراطورية اخذت صبغة صليبية واضحة ، فلقد تسلحت البابوية بسلاح الدين واستخدمته ضد الابطاطرة ليس لاثارة الانصار فحسب بل بفرض عقوبات الحرمان والطرد من الكنيسة ضد الابطاطرة ، فالبابوية كان بإمكانها منح صكوك الغفران واصدار قرارات الحرمان ، والكنيسة هي التي فرضت هدنة الرب على امراء الاقطاع في اوربا ، ومن ثم وجهت طاقات هؤلاء الحربية لأعمال خارجية ، والكنيسة الكاثوليكية هي التي تبنت مابشر به اثناسيوس ثم عبادة الايقونات ومن تم وجدت عقيدة الحج في المسيحية وروجت لها وابدعت طقوسها.

ونشطت حركة الحج نحو فلسطين في القرن الحادي عشر كثيرا ، كل ذلك برغم المعوقات الشديدة على الطريق الاوربية وفي بيزنطة ، واحيانا في ديار المسلمين ، وقبل هذا القرن نادرا ما اتت المصادر الاسلامية على ذكر قدوم حجاج غربيين ، لكنها فعلت ذلك في اخبار هذا القرن ، فقد جاء عذ العسظيمي في حوادث سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م : « ومنع اهل السواحل حجاج الفرنج الروم العبور إلى بيت المقدس ، وانتشر الخبر ممن سلم منهم إلى بلادهم بذلك ، فتأهبوا للغزاة ، واتصلت الاخبار الى السواحل وبلاد المسلمين كلها (١) »

ولا شك ان هذا الخبر يقدم اساسا جيدا لحكاية بطرس الناسك ، وقدومه حاجا الى فلسطين ثم نشاطه الدعوي في اوربا للحروب الصليبية ، وكان الحج يخضع لطقوس اوجبت على من رغب بالتوجه الى فلسطين ان يحصل على أن من أسقف منطقته ، فيتناول منه عصا الحج ومزودا ، وكانت العصا طويلة ، في وسطها عقدة وكذلك في اعلاها ليربط عليها شارة الصليب ، اما المزود فكان يعلق برباط ، وكان الحاج يزود بكتب توصية إلى الاديرة المسيحية التي

سيمر بها ، وكان اهل القرية يخرجون وهم يرتلون الأناشيد الدينية لتوديع الحجاج ، وفي كثير من الاحيان ، كان الحاج يبدأ رحلته حافي القدمين ، . مستوي في ذلك الغني والفقير ، وكان بعض الحجاج ينحدر إلى روما لياخذ عصاه مع التبريكات من البابا نفسه ، ثم يركب البحر حتى القسطنطينية وبعدها يسافر برا عبر اسية الصغرى ، وفيما بعد اعتاد الحجاج على ركوب الطرق البرية حتى القسطنطينية ومن ثم نحو القدس (٢) ، وهذا ما فعله الذين شاركوا في الحملات الصليبية ، لتوفر المعرفة بالطرق وطبيعتها ولقلة النفقات .

جميع القرائن تؤكد أن نفوس شعوب أوروبا الغربية خاصة في فرنسا وإيطاليا كانت مشبعة بالتمسك بالمسيحية والخضوع للبابوية ، وعلى الرغم من طبيعة المسيحية المسالمة بالأصل ، استطاعت البابوية تسويغ استخدام العنف ، وحين القى البابا أوربان الثاني خطابه في مجمع كليرمونت يوم ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ م فجر كوامن النفوس فصرخ الجميع « إنها إرادة الرب » وحملوا شارات الصليب وأخذوا يعدون العدة للانطلاق نحو المشرق .

ولقد رويت كلمة البابا أوربان الثاني في أكثر من مصدر وفيما يلي فقرات رئيسة مما قاله حسب إحدى الروايات :

أيها الأخوة الأحباء :

إنه في ظل الظروف الملحة ، قدمت أنا أوربان ، المتوج بمشيئة الرب بتاج التثليث ، الحبر الأعظم للعالم أجمع ، إليكم يا عباد الرب ، بمثابة رسول لأنبئكم بالأوامر الربانيةعليكم وبكل سرعة أن تأخذوا المساعدات إلى اخوانكم في المشرق ، التي طالما وعدتموهم بها ، إنهم بحاجة ملحة إليها ، إن العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الأراضي الرومانية (البيزنطية) عميقا حتى البوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في أراضي هؤلاء المسيحيين ، لقد أبادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من

قتلوا ، واخذوا عددا كبيرا من الاسرى ، ودمسروا الكنادس ، واجتاحوا اراضي المملكة ، وإذا لم تتصدوا لهم الآن ، فإنهم سيمدون سلطانهم أعمق وسيذشرونه فوق العبيد المخلصين للرب . لهذا السبب أتوجه إليكم بالرجاء والتحريض - وإنه ليس أنا الذي أتوجه إليكم ويحرضكم ، بل الرب على لساني أنا نائب المسيح - أتوجه إلى الفقير منكم والغني وأسألكم أن تتسارعوا نحو طرد أبناء الشر هؤلاء من المناطق المقطونة من قبل اخواننا ، وأن تقدموا المساعدة في وقتها المناسب إلى عباد المسيح ، إنني أخاطب جميع هؤلاء الحضور ، وأعلن الشيء نفسه إلى جميع الغياب ، لكن اعلموا أن المسيح هو الذي يخاطبكم ويصدر الأوامر.

إن جميع الذين يذهبون ويفقدون حياتهم في البر أو البحر أثناء الرحلة أو خلال المعركة ضد الكفار ، سيتم غفران ذنوبهم بالحال ، وإنني أمنح هذا من خلال السلطة المضافة علي من قبل الرب .

إنه يتوجب على هؤلاء الذين اعتادوا - حتى الان - على الاقتتال ، مقترفين للآثم ، منغمسين في صراع ضد المؤمنين أن يتوجهوا للكفاح ضد الكفار ، وأن يحققوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مباشرتها منذ أمد طويل

إنهضوا وادبروا أسلحتكم التي تستعملونها ضد اخوانكم ووجهوها ضد أعدائكم ، أعداء المسيحية ، إنكم تظلمون الأيتام والأرامل ، وأنتم تتورطون في القتل والاعتصاب ، وتنهبون الشعب في الطرق العامة ، وتقبلون الرشاوى لقتل اخوانكم المسيحيين وتريقون دماءهم ، دونما خوف أو وجل أو خجل ، فأنتم كالطيور الجوارح ، أكلة الجيف التي تنجذب لرائحة الجيف الانسانية النتنة ، ضحايا جشعكم ، انهضوا انن ولا تقتاتلوا اخوانكم المسيحيين بل قاتلوا أعداءكم الذين إستولوا على مدينة القدس ، حاربوا تحت راية المسيح قائدكم الوحيد ، افتدوا انفسكم انتم المنزبين المقترفين احط انواع الآثام

يجب على هؤلاء الذين كانوا مرتزقة ، يقاتلون في سبيل الآثم

والعدوان ، ان يجندوا أنفسهم الان لفيل ثواب واجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد ماذا يمكن ان اقول اكثر من هذا ؟

اقول : سيقف الفقراء والتعساء اولا على طرف ، وسيقف الاغنياء حقا على آخر ، هناك وقف اعداء الرب ، وهنا وقف اعدوانه

اوقفوا انفسكم وانتدبوها إلى الحرب المقدسة دونما تأخير ، وليقم المقاتلون منكم بتنظيم اعمالهم ، وجمع كل ما يحتاجونه للحملة ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل الربيع عليهم أن ينطلقوا بقلوب عامرة بالايمان ، وليأخذوا الطريق تحت اشراف الرب وقيادته .

ولم يبدع البابا أوربان الثاني هذه الدعوة بل ورثها عن سبقة من بابوات خاصة رجال القرن الحادي عشر للميلاد ، ففي هذا القرن كثر الطامحون للوصول إلى عرش البابوية في اللاتيران ، وكان ممن نجح في ذلك افراد أسرة يهودية رومانية اسمها « البيرليونى » ، وقدمت هذه الأسرة أكثر من بابا كان اخرهم البابا أوربان الثانى ، وأوربان الثانى وإن لم يكن « بيرليونى » النسب ، الا أنه كان خريج مدرسة هذه الأسرة ، وأشهر بابوات هذه الأسرة البابا غريغورى السابع ، فهو بالواقع من خطط لحملة صليبية تتجه نحو المشرق ، فهو قد عاصر معركة الزلاقة ، وتراسل مع ابن علناس صاحب قلعة بني حماد، وحرضه ضد يوسف بن تاشفين ، كما رأينا في الجزء المتقدم ، وكان البابا غريغورى قد دخل في صراع شديد مع الامبراطور الجرمانى هنري الرابع ، فأصدر هذا الامبراطور في ٢٤ كانون الثانى لعام ١٠٧٦ م قرارا بعزل البابا من منصبه وعين بدلا عنه بابا مكنه بقوة السلاح من دخول اللاتيران ، وعلى الرغم من جميع ما بذله البابا غريغورى السابع من جهود فإنه مات منغيا سنة ١٠٨٥ ، فاختار الكرادلة فكتور الثالث بابا خليفة له وكان عجوزا توفي سنة ١٠٨٧ م فجرى اختيار أوربان الثانى ، ولم يستطع أوربان الثانى دخول روما لوجود بابا امبراطورى فيها محتل لها اسمه كليمنت الثالث (٣)، لذلك عاش

هذا البابا متنقلا ما بين ايطاليا وفرنسا ، ومن فرنسا أطلق الدعوة الى الحروب الصليبية ، ومن هذا الباب رأى بعضهم في دعوة اوربان الثاني في مجمع كليرمونت محاولة ذات عدة غايات :

أ- امتلاك قوة جماهيرية واقطاعية في فرنسا خاصة واستخدامها في الصراع ضد الامبراطورية ولتمكنه من العودة الى روما بابا معترفا به من قبل الجميع ومنتصرا بالوقت نفسه.

ب - في اندفاع اعداد هائلة من الاوربيين الغربيين نحو الأراضي البيزنطية فرصة لفرض هيمنة روما على جميع الكنائس ، او كما قيل إعادة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وطبعاً هذا لم يتحقق حتى بعد سيطرة الصليبيين على القسطنطينية فيما يسمى بالحملة الرابعة كما سنرى .

ج - تنفيذ غايات اعلان الحرب ضد المسلمين والقضاء على الاسلام وسكان الشام وتحويل هذه البلاد إلى وطن لاتيني فيما وراء البحار

وسلف التعرف إلى اوضاع بلاد الشام والوطن العربي في القرن الحادي عشر ولأحاجة لإعادة هنا ، كما أنني لا أجد ضرورة لعرض تفاصيل وقائع ما حدث بعد عقد مجمع كليرمونت ، فهذه التفاصيل وافية جداً في نصوصنا المذمورة على اختلاف أصولها ومشاربها ، والغاية مما نكتبه الآن تقديم بعض المفاتيح التي تساعد على فهم النصوص ، ويكفي أن نذكر الآن ، أنه بعد وفاة السلطان ملكشاه تمزقت الدولة السلجوقية ، ولم تعد دولة مركزية لسلطانها سيطرة على جميع المعترفين بشرعيته ، وأسوأ من هذا كان وضع خلفاء بغداد ، ولما كانت شعوب الغز عبارة عن عشائر وقبائل بدوية ، كره افراها الوحدة ومجوها وألفوا الفرقة واحبوها ، وارتضوا بعدم الاستقرار ، لذلك استمرت الصراعات الداخلية والحروب .

وهكذا بعدما ادساح التركمان في بلاد الشام استطاعوا خلال أكثر من ثلث قرن من الزمان تدمير بلاد الشام تدميراً مريعاً قلما

عرفت له مثيلا في تاريخها المديد ، وعندما اشرف القرن الحادي عشر على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الانهك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لانظير له ، وكانت البلاد ممزقة سياسيا :

الحكام جلهم من التركمان الغرباء بالمولد والنشأة لارتباط لهم بحضارة بلاد الشام ولغتها وتقاليدها ومعتقدات أهلها ، هم هؤلاء الحكام السلطة والمزيد من الارباح الخاصة والمال فقط دونما رادع أو اعتبار ، وكان من محصلات أعمالهم بالاضافة لما ذكر ، تحطيم قوة القبائل العربية في البلاد مع قوة أهل المدن والمنظمات الشعبية .

وفي ذروة حالة الدمار هذه والعنف والعذاب وصلت انطاكية في مشارف الشام حشود فرنجة أوربا ، قدرت أعدادها بما يفوق المليون مابين رجل وشيخ وطفل وامراة ، وقيل بأن القوة المقاتلة لهذه الحشود كانت لاتقل عن مئة ألف ما بين فارس وراجل وتابع .

وكان الهدف المعلن لهذه الحشود - كما راينا - الوصول الى القدس لقضاء واجب الحج ، وتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين والعرب ، وتحويلها الى جزء من أوربا الكاثوليكية فيما وراء البحار.

ووصلت جموع الفرنجة الى انطاكية وأخذت في حصارها ، وكان الحصار شديدا امتد فترة طويلة ، أخفق خلالها حكام الشام والجزيرة من التركمان في توحيد جهودهم ، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم ، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة ، وأخيرا سقطت انطاكية بسبب خيانة أحد كبار ضباط عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكل إليه ، وعندما دخل الصليبيون انطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م نبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين ، وفر يغي سغان حاكمها وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعا من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به ، ولم يكن سقوط مدينة انطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين ، وأخيرا جمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة

ووصلت الى أنطاكية ، وأخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار ، وكان من الممكن إيقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين، نار حامية القلعة ونار التركمان من خارج الاسوار ، لكن أنانية قادة التركمان وطفغان كربوقا واستبداده برأيه جلب الاخفاق والهزيمة ووصف صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، الحالة أثناء الحصار بقوله : « أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملوا هذه المتاعب نظرا لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ، ولا يشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس ، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمانينتنا ، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة ... أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهارا ، تاركة إياهم ما بين جريح وقتيل بسهامها ، أما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها الا ليلا أو خفءا ، وبذلك كنا نعاني من الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف» .

وفي ذروة المحنة هذه ادعى أحد الفرنجة واسمه بطرس أن القديس اندراوس قد تراءى له ، وقال له : « إنني الحواري اندراوس اسمع يا بني : عرج ... على كنيسة القديس بطرس - القسيان - وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب » ، وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة وأتباعهم ، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير « داهية من الرجال ، فقال لهم : إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان في أنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فإن وجدتموها فإنكم تظفرون ، وإن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن من قبل ذلك حربة في مكان فيه ، وعفا أثرها ، وأمرهم

بالصوم والتوبة ، ففعلوا ذلك ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع ادخلهم الى الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ، وجفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : ابشروا بالظفر ، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة وستة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي ان تقف على الباب فتقتل كل من يخرج ، فان امرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال : لا تفعلوا امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من معا جلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء اليهم بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية احد منهم ضربوا مصافا عظيما فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم ، وثانيا من منعهم قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة بهم ولم يضرب احد منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم .

في رواية ابن الاثير ان الهزيمة قد تمت على المسلمين « ولم يضرب احد منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم » مبالغة وتجاوز للحقيقة ذلك ان صاحب اعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، يذكر خلاف ذلك ، فهو يقول : « بعد ان فرغ الجميع من صيامهم الذي دام ثلاثة ايام ، ونفضوا ايديهم مما تلاه من الاحتفالات التي اقاموها في شتى الكنائس ، اخذوا في الاعتراف بخطاياهم ، فلما انتهوا من ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا الصدقات ، واقاموا القداسات .

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، اما الفرقة الاولى التي تقدمت سواها فكان بها هيچ العظيم وبصحبته الفرندسيون وكونت فلاندرز .

وفي الثانية دوق غودفري ورجاله وفي الثالثة روبرت النرمندي مع فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة اسقف بوي الذي حمل معه حربة المخلص ، وكان معه رجاله واتباع ريموند الصنجيلي الذي تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه ، ومنعا لهم من

النزول الى المدينة ، وكان في الفريق الخامس تنكريد - ابن
المركيز - بصحبة رجاله ، وفي الكتيبة السادسة بوهيموند الفطن مع
فرسانه

ولما تدثر اساقفتنا وقسيسنا وكهنتنا ورهباننا بحلهم المقدسة
خرجوا معنا حاملين الصليبان ، مجدين السيد ومبتهلين اليه ان
ينفذنا ويقيننا من كل شر ، بينما اعتلى اخرون الباب رافعين
الصليب المقدس في ايديهم ورسموا علينا علامة الصليب
وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب
المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي
خارجة واحدة إثر أخرى قال : دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا
حينذاك خيرا مما لو كانوا في ايدينا الا انه ما كاد يرى جيوش
الفرنجة اللجة تغادر الابواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان
ما امر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يعلن الارتداد اذا شاهد النار
تتأجج في مقدمة الجيش ، اذا تكون الهزيمة حينئذ قد حاسقت
بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر
الجبل ، ورجالنا في إثره بالخطى نفسها ، ثم انشطر الترك
شطرين : اتجه احدهما ناحية البحر ، بينما اقام رجال الفريق
الآخر في مكانهم مؤملين ان يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بما يببته
العدو لهم فعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قنات الدوق
غودفري وكونت نرمندي ، والقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد
الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا
كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب أخرى امتدت من النهر حتى
الجبل شاغله مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين واحدقت برجالنا
تنضحهم برماحها وترميهم بأقواسها ، ولما رأى الترك المقيمون على

جانب البحر انه لم تعد لهم قدرة على المقاومة اضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم فيلوثوا بالفرار ، فلما تبين لهؤلاء الاشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الأعظم من جيشهم وكان تقدمهم شطر معسكره ، وذرع الدوق غودفري وهيج العظيم وكونت فلاندرز الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدروا بعلامة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد وجدنا الاله الحي الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا وأياهم في القتال ، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفزع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا في آثارهم حتى خيامهم ، وأثر فرسان المسيح أن يقصوهم ، وراوا أن اقضاءهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا في أعقابهم حتى جسر العاصي ... فخلى العدو ورائه خيمه وذهبته وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير والحنطة والنبذ والطحين ، وغير ذلك مما كان يلزمنا .

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة أنطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م ، وأخذ الصليبيون يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوبا ، وكان قبل أن تسقط أنطاكية ، وحتى قبل أن يصل الصليبيون اليها ان انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين أخو غودفري - الذي سيكون أول ملك لمملكة القسطنطينية - وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية ، وأخيرا وصلت الى الرها فاحتلتها ، واتخذت منها قاعدة لاحدى امارات الصليبيين في المشرق ، وكان من اسباب نجاح هذه الفئة ومن اسباب النجاح عند انطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا أما سرياناً يشعرون بالغربة أو من أصل أرمني (٤) ، يضاف الى هذا ان

سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية ، مكروهة وليس لها قواعد متينة ، ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو وفق قاعدة الكر والفر ، ثم ان الأرض لم تكن « بعد » أرضا تركمانية ، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم ، وربما وجد شيء يسير من الشعور الديني ، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان .

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، وذلك بعد أن جعلوا انطاكية مركزا لامارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا أثناء زحفهم هذا أن ينتزعوا من دولة حلب الكثير من أراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية ، فلقد استولوا على البارة ، وأخذوا يجردون حلب من أراضيها وأملاكها حتى وصلوا الى اسوار المدينة ، ثم أتوا على معرة النعمان ، ويحدثنا صاحب اعمال الفرنجة وهو شاهد عيان عن حصار المعرة فيذكر أن جيوش الصليبيين: « تجمعت أمام أسوارها في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٠٩٨ ، وحاصرتها وحملت عليها حملة عنيفة من جميع نواحيها واستبسلوا استبسال عظيم شديدا مكنهم من تثبيت السلاطنة على الاسوار غير أن قوة « الكفار » كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأنى أذى.

لما رأى ساداتنا الاجدوى من ذلك العمل وأنهم لايجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيد حصنا خشبيا بأسسقا منيعا ، يدور على دوليب أربعة ، وجهزه بما يحتاج اليه ، فكان يوجد في الطابق الأعلى كثير من الفرسان مع افرار الصياد الذي كان أشد من يقرع الطبول ، ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن الى قرب الاسوار ليلاصق أحد الأبراج ، فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا الى آلة أخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة ، وكادوا ان يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الاغريقية عساه ان يحترق ويتهدم ، الا ان الرب

القوي لم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لأنه كان أعلى من كل أسوار المدينة .

أما فرساننا الموجودون بالطابق الأعلى - وفيهم وليم مونت بليه وكثيرون غيره - فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بالأحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على مجانيقهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان في داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة ، وبينما كان هؤلاء يتحاربون كان هناك آخرون يستعملون رماحا عقدوا بها الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشصوصهم الحديدية تصيد الأعداء ، وظل القتال مستمرا حتى المساء .

كان يوجد خلف الحصن جماعة القسس والشمامسة في مسنوحهم المقدسة ، وهم يصلون للرب ويبتهلون اليه ان يرفع المعرة عن شعبة ، وان يعطي كلمة المسيحية ويلاشي الوثنية ، وكان هناك في ناحية أخرى فرساننا ، وهم في حرب دائمة مع العدو ، ينصبون السلالم على سور المدينة ، غير أن مقاومة (الوثنيين) كانت من الشدة بالدرجة التي أعاقت رجالنا عن أي تقدم ، ومع ذلك فقد كان جوتييه دي لاستور أول من اعتلى السور بواسطة السلم الذي سرعان ما تحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، إلا انه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع جماعة منهم ، كما وجد فريق غيرهم سلما آخر ، وسرعان ما ثبتوه على السور ، وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاة وتسلقوا الحائط ، غير أن المسلمين هاجموهم هجوما عنيفا على السور وعلى الأرض ، وشرعوا نحوهم الأسنة ، وأخذوا يضربونهم عن قرب برماحهم ، فاستولى الذعر على كثير من رجالنا ، فألقوا بأنفسهم من فوق السور .

وفي الوقت الذي كان فيه أولئك الرجال الشجعان واقفين على حافة السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد ، فلما رأى المسلمون أن رجالنا قد نقبوا حائطهم استولى عليهم الرعب وفروا هاربين الى داخل المدينة ، وقد تم ذلك كله يوم السبت ١١ كانون أول وقت صلاة

الاستار عند غروب الشمس ، وإذ ذاك أمر بوهيموند على لسان مترجمه - زعماء المسلمين بالالتجاء - هم وذسائهم وأطفالهم ومتاعهم - الى قصر واقع جنوب الحصن ، واخذ على نفسه عهدا امنهم به على حياتهم .

بعدئذ دخل رجالنا جميعا الى المدينة ، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل قيم ثمين مما وجدوه في المنازل والمخابيء ، فلما طلع الصباح أخذوا يقتلون كل من يعثرون عليه من اعدائهم رجلا كان أم امرأة ، حتى لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من جثث المسلمين ، ونذر أن يجوب المرء شوارع البلده دون أن يطأ تلك الجثث ، وقبض بوهيموند على من أمرهم بالدخول الى القصر الذي عينة لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواهما من الحلبي ، وقتل بعضهم وساق الباقين الى أنطاكية ليبيعوا بها . بقي الفرنجة في هذه المدينة مدة شهر وأربعة أيام ، وفي أثناء ذلك مات (وليم) أسقف أورنج .

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك ما يحتاجه ، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين ، ولأنه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئا يستولي عليه ، وإذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود ، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعاً قطعاً ويطهونها ليقننوا بها .

وبعد احتلال المعرة نشب خلاف بين أمراء الصليبيين ، فقد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لاقامة امارة جديدة ، وعارض أصحاب أنطاكية الجدد ذلك ، حتى كانت الحرب تذشب بين صفوف الفرزة ، وهنا ثارت جماهير الفقراء (الطفور) (ه) من الصليبيين ، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة ، ثم توجهت نحو أسوار المعرة وتحصيناتها فدمرتها كلها ، وهكذا اضطر الصليبيون الى مغادرة المعرة والزحف جنوبا ، يقتلون ويحرقون ويدمرون حتى وصلوا الى القدس ، وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر ، فحاصروها حصارا شديدا ، وقاومت

المدينة ، وانتظرت ورود النجدة اليها من القاهرة ، لكن عبثا كان هذا الأمل ، وأثناء الحصار وصل الى يافا عدد من السفن الإيطالية حاملة العتاد والأخشاب والأغذية للفرنجة ، وقام الصليبيون ببناء عدة أبراج حصار تمكنوا بواسطتها من الاستيلاء على القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ ، ونترك هنا وصف ما حل بالقدس لصاحب كتاب أعمال الفرنجة ، وقد شارك بالأحداث فيها هو ذا يقول : « تقدم واحد من فرساننا واسمعه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها ، فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتضييع حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كموبهم في دماء القتلى ... ولما ولج حجاجنا جدوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمّعوا واستسلموا لرجالنا الذين أعملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكمله ، حتى فاض المعبد كله بدمائهم ... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما أخذوا في نهب البيوت المملئة بالثروات .

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ... وصدر الأمر ... بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولأن المدينة كانت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس ، وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالى أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا ، وما تأنى لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي ألمت بالشعب ، المسلم .»

وصفت القدس للغزاة الجدد فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق وأعظمها مكانة ، ثم أخذوا يوسعون رقعة أملاكهم في

فلسطين ، وبعد عدة سنوات احتلوا مدينة طرابلس وأقاموا فيها دويلتهم الرابعة في الشام .

لقد نزلت الآن بالشام ضربة مروعة ، وأصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله منذ قيام الإسلام ، لكن هذا كله لم يعد الرشد الى حكام دويلات الشام التركمان فاستمروا في صراعاتهم الداخلية ، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب ، واضطر الطرفان لمهادنة الصليبيين ليتفرغا لصراعاتهم الداخلية ، وأخذ الناس في الشام يتململون مما حصل وبدأ التملل يتحول الى أعمال نافذة ومعارضة لتصرفات الحكام ، وأول ما انفجر الوضع في مدينة حلب .

وسلفت الإشارة الى الوضع السياسي في بلاد الشام في القرن الحادي عشر ، ونذكر هنا ثانية أنه عندما دخل الفرنجة هذه البلاد كانت أبرز دولها دولتان : واحدة في حلب والأخرى في دمشق ، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين ، هما : دقاق بن تتش ورضوان بن تتش ، وقد مثلا جيلا خاصا من أجيال السلجقة ، فقد أوقفوا نفسيهما مع قواتهما للصراع الداخلي والحروب الأهلية ، واهتبل الفرنجة هذه الفرصة ، فوسعوا أملاكهم ، وجردوا حلبا من جميع أراضيها الشمالية والغربية ، ولم يبق لها بعد هذا البعض أراضيها الجنوبية والشرقية ، وقد استهدف الفرنجة التضييق على حلب واحتلالها للملء الثغرة ما بين أنطاكية والرها ، ثم الإطباق على الشام كله .

وضاق الأمر بأهل حلب ، فتحركوا ، وأرادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب عنهم مصالحة وشعورا ومسؤولية ، وابتغوا إقامة حكم « وطني شعبي » يستطيع التصدي للفرنجة ، والقيام بأعمال التحرير ، وأندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب حين قام مقدم أحداث حلب - الميليشيا المحلية - ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تتش ، حاكم المدينة التركماني ، وكان هذا الثائر يعرف بالملجن الفوعي بركات بن فارس ، وكان في الأصل فلاحا من قرية الفوعة القريبة من

حلب ، وكان شهما ذا كفاءات عالية ، وقد تمكن بسبب ذلك من تولي رئاسة مدينة حلب ، ومقدمية الأحداث فيها .

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعدوه ، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تدش في القلعة ، وكاد أن يسقطه لولا أن استطاع رضوان شراء ضمائر بعض أثرياء المدينة ، فخللوا الناس عن المجن ، وثبطوهم عن نصرته ، وحدث انشقاق بين أفراد منظمة الأحداث ، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبيا طائفيا ، وادى هذا الى اخفاق الثورة والقضاء القبض على المجن الفوحي ، وأودع رضوان المجن السجن ، وهناك كما روى شاهد عيان : « عذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فمما عذبه به أنه أحصى الطست حتى صار كالنار ، ووضع على رأسه ، ونفخ في دبره بكبير الحداد ، وثقب كعابه ولما ضرب النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال : ويلك لا تعرف ، أحضر خشبة وضعها على الكعب ، فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قيل له : كيف تجد طعم الحديد ؟ قال : قولوا للحديد : كيف يجد طعمي ، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل للملك - رضوان - من ماله إلا ما أقر به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ، ومعه ابنان له شابان ، مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر إليهما ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك .»

وأدت هذه الانتكاسة إلى رضوخ الشعب في حلب ، وسكوته على مضض حتى عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ، فاندلعت الثورة ثانية في المدينة ، وأدرك الحلبيون أنهم لن يستطيعوا إسقاط رضوان ، لذلك شكلوا وفدا من بينهم غادر المدينة سرا وذهب إلى بغداد ، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفد عنايتها ، ولم تصغ إلى مطالبه ، وأمام هذا التجاهل حرك رجال الوفد أهالي بغداد ، واستغاثوا بهم أيام الجمع ، كما منعوا الخطباء من القضاء خطبهم

يوم الجمع وكسروا بعض المنابر، وهاج الناس في بغداد ، فآخاف ذلك السلطات فيها ، فقام السلطان محمد بن ملكشاة بتجهيز جيش كبير عهد بقيادته لمودود حاكم الموصل آنئذ ، وتحركت هذه القوات نحو بلاد الشام ، وعندما وصلت إلى حلب ، أغلق رضوان بن تقيش أبواب حلب في وجهها ، واعتقل زعماء شعب المدينة وأودعهم رهائن عنده في القلعة ، لنلا يفتح الشعب الابواب ، ويسلموها للقوات القادمة من المشرق ، « وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، وأقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه ، وكثر اللصوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فأطلق العوام السنتهم بسبه وتعيبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد وترك الركوب بينهم وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر - أي عساكر مودود - وإمام هذا الحال المؤلم ، اضطر مودود إلى الرحيل نحو دمشق ، وأثناء زحفه اصطدم بقوة صليبية قرب شيزر فهزمها ، فرغ ذلك من معنوياته وشد من عزيمته ، وتابع سيره إلى دمشق حيث دخلها وتحالف مع طغتكين أتابكها ، والذي أصبح سيدها الفعلي بعد وفاة دقاق بن تقيش (٣) ، لكن عندما بدأ هذا التحالف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق في سنة ٥٠٧ هـ/١١١٣ م ، وكان مغتاله من فئة الدشيشية الاسماعيلية ، ويبدو أنه كان لرضوان يد طويلة في الاعداد لهذا الاغتيال وكذلك لطغتكين ، ومع ذلك فقد توفي رضوان بعد مودود بفترة وجيزة ، وأخذت الأحداث تتحرك في الشام الشمالي بسرعة جديدة .

فقد حل بساح حلب اضطراب سياسي شديد تحرك خلاله شعب المدينة بأكثر من ثورة اثمرت أخيراً ، وأدت إلى تجميد الحكام التركمان وقيام حكم « شعبي » يسير أمور الدفاع عن المدينة ، وبدأ يظهر إلى الوجود جيل عربي مؤمن جديد مع روح جديدة ، وفي هذا الوقت بالذات وبعد مضي حوالي ربع قرن على الغزو الصليبي ، كان تيار التوسع الصليبي في الشام قد وصل إلى أقصى مداه ، ومن ثم بدأ يتحول مده إلى جزر .

ومعلوم ان الصليبيين كانوا قد وصلوا إلى مشارف الشام جمعا واحدا لكن ما ان توغلوا فيه وفتحوا بعض اراضيه حتى حل بهم دأؤه العضال ، فسدب بين صفوفهم التمزق ، وانقسموا إلى عدة دويلات ، (الرها ، أنطاكية - القدس - طرابلس) وبما ان عددا كبيرا من رجالات الحملة الاولى كانوا قد استقروا في الشام ، فقد انجبوا هناك جيلا جديدا تمتع بصفات بلدية خاصة ، وحيث ان تدفق الفرنجة من اوربا على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفا من مجموعتين متميزتين هما : مجموعة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالإضافة إلى هذا قامت بين صفوف الصليبيين تنظيمات كهنوتية غالبا ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن ، وازدادت الفقرة عمقا ، والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الاولى وبخاصة بين صفوف الفقراء منهم .

لقد كانت الحادثة التي وصل المد الصليبي فيها الى مداه ثم اخذ يتحول الى جزر أمام أسوار مدينة حلب ، وكان ذلك سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، ففي هذه السنة حضر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت مدينة حلب في هذه الآونة تتبع رسميا لعمرتاش بن ايلغازي أحد أفراد الأسرة الأرتقية التركمانية ، وقام الصليبيون بالاتصال مع ديبس بن صدقة صاحب الحلة في العراق وأمير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه أميرا عليها شرط أن يسمح لبعض من قواتهم بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران العقيلي صاحب قلعة جعبر ، ومع ابراهيم بن رضوان بن تتش الذي كان أبوه أميرا لحلب عندما بدأ الغزو الصليبي ، فجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب ، واخذوا في حصارها ، واثناء الحصار عدل الاتفاق بين المحاصرين فاتفقوا من جديد على أن تكون حلب لابراهيم بن رضوان بن تتش « لأنها كانت لأبيه » .

ولم يكن الحاكم الرسمي لمدينة حلب مقيما بها ، بل كانت الأمور في المدينة بأيدي شعبيها ، الذي شكل آنذ نوعا من أنواع الجمهوريات للدفاع عن المدينة برئاسة قاضيها أبو الفضل بن الخشاب ، يعاونه مجلس يمثل زعماء المدينة وكبار العلماء .

وشدد المحاصرون تطويقهم لحلب ، وطال الحصار وامتد ، واخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على أسوار المدينة ، وقطعوا الشجر ، وخرّبوا مشاهد كثيرة ، وتبشّوا قبور موتى المسلمين وأخذوا توابعيتهم الى الخيم ، وجعلوها أوعية لطعامهم ، وسلبوا الأكفان ، وعمدوا الى ما كان من الموتى لم تنقطع أوصاله ، فربطوا في أرجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، وآخر يقول : هذا عليكم ، وأخذوا مصحفاً من بعض المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا : يا مسلم أبصر كتابكم ، وثقّبهُ الفرنجي ، وشده بخيطين وعمله ثفراً (الشفر : السير الذي يجعل في مؤخر السرج) لبرنونه ، وأقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين .

ولم يؤثر هذا - على شدته - على معنويات الحلبيين ، فداوموا على الدفاع ، وازدادوا إصراراً على المقاومة ، « وبلغ بهم الضر الى حالة عظيمة حتى أكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض » ، ويحدثنا مؤرخ حلب الصاحب كمال الدين عمر بن العديم عن جده وكان من شهود العيان بأن الحلبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في أزقة البلد ، فإذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى الى فراشه » .

و لما اشدت الحصار على حلب ، وقلت الأقوات بها وضاق الأمر ، ، بالحلبيين اتفق رأيهم على تسخير وفد الى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان آنذاك مقيماً في مدينة ماردين مشغولاً بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلاً من البلد ، وعلم الفرنج

بخبره ، وحاولوا اعتقاله فأخفقوا ، وبرغم هذا حاولوا أن يوهبوا أهل المدينة أنهم اعتقلوا رجالات الوفد ، لكن ذلك لم ينطّل على الحلبيين ، وعرفوا بعد وقت نبأ وصول وفدهم سالما الى ماردين .

وفي ماردين واجه الوفد مفاجأة كبرى غير متوقعة ، ويتحدث جد ابن العديم - وكان أحد رجالات الوفد - واصفا ما حدث في ماردين فيقول : « لما وصلنا الى ماردين ، وبخنا على حسام الدين تمرتاش ، وذكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر ، وأنه يتوجه اليها ، ويرحل الفرنج عنها ، وانزلنا بمكان في ماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم إلى يوم ، وكان آخر كلامه أن قال : خلوهم إذا أخذوا حلب ، عدت وأخذتها ، فقلنا في أنفسنا : ما هذه إلا فرصة ، وقلنا له : لاتفعل ، ولاتسلم المسلمين إلى عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي أبو غانم (جد ابن العديم) : « وايش هم حتى لاتقدر عليهم ونحن أهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم » .

قال القاضي أبو الفضل - عم ابن العديم وراوي الخبر له : فكتبت كتابا من حلب إلى والدي أبو غانم أخبره بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الأمر بهم إلى أكل القشاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ، وشق عليه ، وغضب وقال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة ، قد بلغ بهم الأمر إلى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ، ويفرونني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم .

قال القاضي أبو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل علينا من يحفظنا خوف الانفصال عنه إلى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي - صاحب الموصل - فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل - وأن نمضي إلى البرسقي - صاحب الموصل - ونستصرخ به ، ويستجده ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا

عظيما إذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتا ويعالجه لئلا يفتح عند الحاجة ، ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء والثلج كثير على الأرض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت ، وأخبر رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا أنتم وأنتهزوا الفرصة ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكرا لا ياخذني نوم حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقممت وركبت لأعرف الطريق ، ومشيت في الثلج أطلب الجهة التي أقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل ، وسرت من آخره ، وكان قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح ، وركبنا وحثنا دوابنا ، وأعملنا السير حتى وصلنا الموصل .

وفي الموصل قابل هذا الوفد أق سنقر البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع إثارته وإقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاء حلب ، وعندما أشرفت عساكره على البلدة الباسلة ، رحلت قوات الصليبيين مذسحة ، وهكذا نجت حلب وبنجاتها نجت بلاد الشام مع المشرق العربي والإسلامي ، وقد علق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني الكبير توينبي على هذا الحادث بقوله : « لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لاتينيا » .

بوصول مد الاحتلال الصليبي سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م إلى نهايته انتهى طور الاحتلال الصليبي ، وبدأت حرب التحرير والاسترداد ، وانتقل المسلمون من حالة الدفاع إلى حال الهجوم

وبذؤوا يخططون لأعمال التحرير ، وغالبا ما توقف الصليبيون عن أعمال الهجوم ، وبات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه .

لقد مر طور حرب الاسترداد بأربع مراحل ، ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن العرب تحملت عبء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها ، وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة وشخصيات القادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ، مرحلة حلب ، مرحلة دمشق ، مرحلة القاهرة .

كانت مدينة الموصل - كما سلف بنا القول - أعظم مدن منطقة الجزيرة *mesopotamia* ، وفي التاريخ الإسلامي نجدها في المراحل المبكرة منه دائما متورطة في مشاكل العراق السياسية وغير السياسية ، وقلما كان لها دورها الفعال في أحداث بلاد الشام ، إنما يلاحظ منذ القرن العاشر بداية تحول للاشتراك في أحداث الشام ، إلا أن هذه المشاركة ظلت هامشية حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وبالتحديد عندما ازداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البداية العرب ، وقبل قدوم الغز وإقامة السلطنة السلجوقية رست مقاليد التغيير السياسي في بلاد الشام في أيدي رجال القبائل العرب ، وقد انتزع الغز هذه المقاليد منهم كما سبق الحديث عن هذا .

وكانت الموصل أول محطة للمهاجرين الغز نحو الشام ، وسبب هذا تحولا جذريا في تاريخ الموصل مع اقليم الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف ، وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءا من الشام ، وتورطت في مشاكله ، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والاساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام ، وربما على الشام بأسره ، ويمكن أن نرى في تساريخ الدولة العقيلية ، ثم الدولة الاتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

لقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب لسد الثغرة بين الرها وانطاكية ، ولعزل الشام عن المشرق ، بعد ما تم عزله الى حد بعيد عن مصر ، ليسهل بعد ذلك الاطباق عليه واحتلاله بشكل كامل ، لكن مدينة حلب نجت ودخلت في وحدة « طوعية شعبية » مع الموصل ، وهكذا توحد شمال بلاد الشام مع اعالي بلاد الرافدين تحت قيادة البرسقي ، ووجهت الآن طاقات المسلمين في الدولة الجديدة ضد الصليبيين ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي الى مرحلة الهجوم الايجابي ، لكن لسوء حظ المسلمين ان البرسقي اغتيل من قبل الحشيشية الاسماعيلية بعد عامين من انقاز حلب ، وبدء حرب التحرير .

ولقد ادى اغتياله الى انتكاسة مروعة ، لكن مؤقتة ، ذلك ان الامة كانت تعيش بداية عصر لليقظة لذلك اجتازت المحنة ، وتغلبت عليها ، لقد تأمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصل ، وانجرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصل كان يعرف ما يريد عن ايمان وعزيمة ، وبعد عام من مصرع البرسقي توجه وفد يمثل اهل الموصل الى بغداد ، وقام هذا الوفد باختيار الضابط زنكي بن اق سنقر قسيم الدولة ، وتعاقدا معه على تولي مقاليد الامور في دولة الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة ، وبعدما تم التعاقد معه اقنع الوفد سلطان بغداد بالموافقة على تعيين زنكي حاكما جديدا على الموصل واستبعاد سواه .

في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين الزنكي زمام الامور بالموصل ، وفي هذا يمكن القول بدأت بالفعل المرحلة الاولى من طور التحرير ، الامر الذي سنبحثه في الفصل المقبل ، وكنا قبل قليل قد اشرنا الى ما نجم عن قدوم الغز من تبديل للجغرافيا السياسية والاستراتيجية لبلاد الجزيرة والشام ، وكذلك أعقب قدوم الفرنجة ونجاحهم في تأسيس دولهم تبديلات جغرافية سياسية واستراتيجية جديدة ، فقد عانت الأوضاع الى ما يشبه ما كانت عليه قبل الفتح العربي في القرن السابع ميلادي بحيث جاءت الان

المؤثرات الكبرى عبر أسية الصغرى وشدت البلاد نحو هذه المنطقة ولهذا عادت إلى مكان الصدارة من جديد مدن : أنطاكية والرها والقدس وطرابلس ، لكن هذا لم يؤثر كثيراً على مكانة كل من دمشق وحلب ، وتدنت مكانة مدينة حمص وارتفع شأن مدينة حماه لأنها فصلت بين دمشق وحلب فقط ، ولكن لأنها تصدت لامارة طرابلس ولقوى الحشيشية التي استولت على عدد من القلاع الحصينة في جبال بهراء (العلويين) ولأنها أيضاً بقيت على صلات وثيقة مع قبائل بادية الشام وأهل المشرق .

ورسّخ تأسيس الفرنجة لدولة لهم في الرها مكانة الموصل وأهلها لتقود المرحلة الأولى من طور التحرير ، كما أن أهل الشام انجذبوا نحو العراق وليس نحو مصر ، كما هو موروث وطبيعي لضعف الخلافة الفاطمية في مصر ، ولقدوم التركمان من الشرق ، ولانشغال حكام الموصل في دفع الخطر الذي تهددهم من الرها ، وسنجد أنه بعدما تمكنت الموصل من الانتصار على الرها ، وبعدما حرّبتها من حكم الفرنجة ، تراجع تأثير الموصل في الأحداث الشامية ، وعادت الأنظار الشامية مجدداً تتطلع نحو مصر .

وجاء التطلع إلى مصر عبر دمشق ، وتوحدت دمشق مع حلب في مرحلة التحرير الثانية التي تلت مرحلة الموصل ، وهذا ما سنبحثه في الفصل المقبل ، وحتى يسهل فهم الأمور مفيد أن نختم هذا الفصل بتقديم عرض موجز لتاريخ الدولة البورية وحكمها لبلاد الشام الجنوبية ، أو بالحري لحكمها لدمشق .

البوريون أتابكة دمشق

سلفت الإشارة إلى التحاق دقاق بن تمش بدمشق ، وبعد هذا قدوم أتابكة طغتكين إلى دمشق حيث استقبل استقبالاً حافلاً في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وعلى الفور سلم دقاق إليه قيادة الجيش « واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسية البيضة (٧) » ، ووطد طغتكين سلطانه وتخلص من خصومه وكانت علاقاته بزوجته صفوة

الملك أم دقاق جيدة الى أبعد الحدود وهكذا ، استقامت له الحال بدمشق ، وأحسن السيرة فيها ، وأجمل في تدبير أهلها ، وبالسبب في الذنب عنها ، والمراماة دونها ، وسكنت نفس الملك شمس الملوك - دقاق - اليه ، واعتمد في التدبير عليه (٨) .

وكان طفتكين طموحا واسع الحيلة لذلك عمد إلى التخلص من دقاق بدس السم له ، وهكذا توفي هذا الملك الفتى في رمضان ٤٩٧ هـ / حزيران ١١٠٤ م ، وكانت دولته حين مات تضم مع الشام الجنوبي حمص وحماة والرحبة (٩) .

وبعد وفاة دقاق استدعى طفتكين ارتاش بن تتش من بعلبك وكان في الثانية عشرة من عمره وعينه ملكا جديدا لدمشق ، وتقدم إلى الأمراء المقدمين والأجناد بالطاعة لأمره والمناصحة في خدمته ، وأجلسه في دست المملكة (١٠) ، وذلك بعد قرابة شهرين مضيا على وفاة دقاق .

ولم يطمئن ارتاش لسلامة نفسه في دمشق وخاف « من ظهير الدين أتابك ومن الخاتون صفوة الملك . وأوقعت أمه في نفسه الخوف منهما ، وأوهمته أنهما ربما عملا عليه فقتلاه (١١) » فهرب بعد أقل من شهرين مضيا على تمليكه واجتمع معه صاحب بصرى ، وقد عاشا فترة من الزمن في منطقة حوران ثم مضيا إلى المملكة اللاتينية في القدس على أمل الحصول منها على جيش يستوليان به على دمشق ، لكنهما أخفقا ، فحين يذسا من المعونة ، وخاب أملهما في الإجابة توجهوا إلى ناحية الرحبة في البسرية ، واستقام الأمر بعدهما لظهير الدين أتابك وتفرد بالأمر ، واستبد بالراي (١٢) وتخلص من بقايا أسرة تتش ورجالاتها ، فبعد وقت قصير من فرار ارتاش توفي آخر أفراد أسرة دقاق ، وهو تتش بن دقاق وكان طفلا صغيرا ، وبهذا يمكن اعتبار سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م سنة البداية الفعلية لتأسيس الدولة البورية في دمشق من قبل طفتكين ، وحكمت هذه الدولة الجزء الأكبر من بلاد الشام لمدة تقارب النصف قرن ، وكان طفتكين في تاريخها هو

الشخصية الأبرز والأطول حكما والأكثر استقرارا ، كما أنه كان على رأس شخصيات عصره في المشرق العربي ، وكان على طغتكين أن يحصل على رضى السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية مع الاعتراف به حتى يكسب حكمه سمة الشرعية ، كما توجب عليه إدارة الوضع في حلب والإفادة من فوضى الحكم فيها ما أمكن ، وعمل بالوقت نفسه على أن تكون علاقاته بالخلافة الفاطمية حسنة لدفع خطر الصليبيين وهكذا تعاون معهم في ذي الحجة سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م في القتال ضد الصليبيين في المنطقة ما بين يافا وعسقلان (١٣) .

وصدر الخطر الأعظم على حكم طغتكين عن الفرنجة خاصة المملكة اللاتينية في القدس ، وتصدى طغتكين لهذا الخطر وحقق بعض النجاحات ، إنما فيما بعد تهاذنت السلطة البورية مع الصليبيين وظلت الهدنة قائمة - كما سنرى - طوال العصر البوري بشكل عام ، وكان الدافع الأساسي للتهادن رغبة حكام دمشق في دفع المخاطر على سلطانهم من أصحاب حلب والموصل ، فحين انعدمت هذه المخاطر اتخذ طغتكين موقف المهاجم للصليبيين .

ففي سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م هاجم الصليبيين ومنعهم من بناء حصن العلعال في وادي الأردن وفي السنة التالية عسكر في سواد حوران ومنع الصليبيين من العبث في المنطقة ، وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م تعاون مع الأسطول المصري في الدفاع عن صيدا والتفريج عنها ، كما أخذ يعد العدة لمساعدة طرابلس وفي السنة التالية ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م حاول مجددا الدفاع عن طرابلس بتسلم عرقة التي شكلت خط الدفاع الأول عنها فآخفق وسقطت عرقة ثم سقطت طرابلس للصليبيين الذين أسسوا فيها دويلتهم الرابعة في المشرق (١٤) .

وآثر هذا جرت مفاوضات بين طغتكين وبلد وين الأول ملك المملكة اللاتينية بالقدس وتم عقد معاهدة هدنة في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م اتفق فيها على أن يكون السواد

- حوران - وجبل عوف اثلاثا : للاتراك الثلث ، وللافرنج والفلاحين الثلثان (١٥) .

بيد ان هذه الهدنة لم تكن اتفاقا شاملا يقضي بايقاف جميع العمليات العسكرية بين الطرفين الدمشقي والصليبي ، فهذا لم يكن بالامر الممكن لأن كل دويلة صليبية لابل كل اقطاعية كان لها مصالحها وسياساتها الخاصة ، وهكذا راينا من قبل طغتكين يحاول تقديم المساعدة لحلب ضد انطاكية لابل اوضح من هذا رايناه يشترك مع مودود في القتال ضد قوات مملكة القدس ، وايضا راينا عملية اغتيال مودود في المسجد الجامع في دمشق (١٦) .

استطاع طغتكين الحفاظ على حكمه حتى سنة وفاته في ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ولم يكن هذا بالامر الهين خاصة وانه تعرض لضغوط شديدة من المشرق ، فزار بغداد سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م وقدم هدايا ثمينة لدار الخلافة ولدار السلطنة فحصل على الرضى وكتب له منشور سلطاني بولاية الشام حربا وخراجا ، واطلاق يده في ارتفاعه على ايشارة واختياره (١٧) هذا ويلاحظ ان طغتكين سمح في السنني الاخيرة لحكمه لاتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة من الحشيشية بالتمركز في دمشق وقد نالوا مساندة وزيرها ابو علي طاهر بن سعد المزدقاني وحصلوا بوساطته على قلعة بانياس التي كانت مركز الدفاع الاول عن دمشق ضد المملكة اللاتينية بالقدس .

يضاف الى هذا ان سنة وفاة طغتكين كانت السنة التي تسلم فيها عماد الدين زنكي حكم الموصل الامر الذي كان له ابعاد الاثار على دمشق وحكامها البوريين (١٨) .

كان طغتكين قد اوصى بالملك من بعده لابنه بوري ، وهو الذي نالت الدولة اسمها منه ، وقد افتتح بوري عهده بمذبحة كبيرة اوقعها باتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، وعندما عرف اسماعيلية بانياس بما حدث في دمشق تخلوا عن بانياس لصالح الصليبيين

الذين تشجعوا كثيرا فحشدوا قواتهم وزحفوا ضد دمشق وحاصروها في محاولة الاستيلاء عليها ، لكن هذه المحاولة اخفقت ، غير ان دولة بوري ما لبثت ان تعرضت لمخاطر جديدة حيث انتزع عماد الدين زنكي منها مدينة حماه ، لكن استطاع بوري بعد وقت قصير استرداد حماه ، وفيما هو في ذروة نشاطه تعرض لمحاولة اغتيال نفذها اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة وقد اصيب بوري في سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م بجراح بليغة عاش بعدها فترة قصيرة حيث توفي في سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م (١٩) .

كان بوري قد اوصى قبل وفاته بالملك من بعده لابنه شمس الملوك اسماعيل ، وعهد ان تبقى بعلبك واعمالها لولده محمد ، وفي البداية نشب نزاع بين اسماعيل ومحمد حسم لصالح اسماعيل ، واثّر تفرغه من امر بعلبك هاجم بلدة بانياس فاستردها بهجوم عاصف عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م ، كما استطاع بعد هذا اعادة سلطانه على مدينة حماه ، غير انه ما لبث ان تخطط في ادارة اموره الداخلية وعندما شعر بعجزه راسل عماد الدين زنكي في سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م يطلب منه الاسراع الى دمشق ليعلمها له وإلا فانه سيسلمها الى الصليبيين ، وعندما علمت امه بذلك « امرت غلمانها بقتله ، وترك الامهال ، غير راحمة له ، ولا متألّة لفقده » (٢٠) .

وعينت الخاتون صفوة الملك ابنها محمود حاكما جديدا لدمشق ، وكان على هذا الحاكم دفع زنكي عن دمشق ، ذلك ان زنكي قدم الى دمشق ليعلمها من اسماعيل بن بوري ، وعندما علم بمصرعه قام بمحاصرة المدينة ، وشدد عليها الخناق ، واثناء ذلك تلقى رسالة من الخليفة العباسي المسترشد بالله (٥١٢ - ٥٢٩ هـ / ١١١٨ - ١١٣٥ م) يأمره برفع الحصار عن دمشق والقُدوم مع قواته الى بغداد ، فنفذ هذا الامر ورفع الحصار عن المدينة (٢١) .

وعاود زنكي اعماله التوسعية على حساب الدولة البوزية فحاول

احتلال حمص فأخفق، غير أنه نجح بالاستيلاء على بعلبك سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩ م حيث عهد بالحكم فيها إلى نجم الدين أيوب والد صلاح الدين الأيوبي، ثم استولى على بانياس (٢٢) .

وبعد هذا انتقل عماد الدين من الحرب إلى الدبلوماسية ، فعقد مع البوريين زواجا سياسيا حيث تزوج هو من الخاتون صفوة الملك المعروفة باسم زمرد أم شهاب الدين محمود ، وفي الوقت نفسه تزوج محمود من ابنة زنكي ، وتنازل له عن حكم مدينة حمص ، غير أنه مـالبث شـهاب الدين محمد—ود أن اغتيل سنة ٥٣٣ هـ - ١١٣٨ م فبايع الأمراء جمال الدين محمد بن بوري ، الذي فوض أمور دولته إلى معين الدين أتر (٢٣) .

أصبح أتر الآن الحاكم الفعلي للدولة البورية ، وقد برهن أنه من أبرع السياسة وأكثرهم قدرة ، فقد استطاع الحفاظ على استقلال دمشق بوساطة توازن حذر بين عماد الدين زنكي والمملكة اللاتينية بالقدس ، فقد كان يستعين بالصلبيين ضد عماد الدين ، وبعماد الدين أو خلفائه ضد الصليبيين .

وكان عندما بلغ صفوة الملك زمرد خبر مصرع ابنها في دمشق حرضت زوجها عماد الدين على الثأر ، فجاء ومعه قواته وحاصر دمشق وضيق الخناق عليها سنة ٥٣٤ هـ - ١١٣٩ م ، وأثناء الحصار مرض محمد بن بوري مرضا شديدا أودى بحياته ، وعندما عرف عماد الدين بهذا الحدث ازداد طمعه بالاستيلاء على دمشق ، لكن أتر استطاع ضبط الأمور وجلب أبق بن محمد وعينه حاكما جديدا ، أنما بشكل اسمي ، ورأسل معين الفرنجة وعقد معهم اتفاقا يدفع لهم بموجبه مبلغا من المال ويسلمهم بانياس إن هم ساعدوه على دفع عماد الدين زنكي ، وبالفعل تحركت قوات الفرنجة نحو دمشق ، مما أرغم عماد الدين على الانسحاب ، ووفى إثر هذا أتر بعهوده ، فحاصر بانياس حتى تسلمها ثم سلمها إلى الفرنجة (٢٤) .

ولم يحرص الفرنجة على سلامة دمشق وحكامها حرص أنر عليهم ، فهم أرادوا احتلال دمشق اذا أمكنتهم الفرصة ، واذا لم تمكنهم دفعوا غيرهم عنها حتى تحين الفرصة ، فقد خشي الفرنجة الى أبعد الحدود من وحدة أجزاء بلاد الشام ، وهذا واضح تمام الوضوح فيما كتبه وليم الصوري في الأجزاء الأخيرة من كتابه ، فهو كان شاهد عيان للأحداث شغل مناصب عالية جدا في المملكة اللاتينية في القدس .

وهكذا نجد انه بعدما استحوذ الفرنجة على بانياس خططوا للاستيلاء على قلعتي بصرى و صلخد وبذلك كان يتسنى لهم الإطباق على دمشق خاصة عندما نتذكر امتلاكهم للأجزاء الكبرى من الساحل الشامي وعدة قلاع قريبة من منطقة البقاع ثم ان يعلبك كانت ملكا لزنكي ، وهكذا نجد في سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م قيام ملك القدس بالزحف نحو بصرى على رأس قوة كبيرة جدا ، وكان يأمل في تسلم حصني بصرى ثم صلخد ، وذلك بناء على اتفاق عقده مع التونتاش حاكم هاتين القلعتين إثر زيارة قام بها الى القدس ، ولاقى الجيش الصليبي مقاومة عنيفة أثناء زحفه في أراضي حوران من سكان الأرياف والمدن والقبائل العربية ، وتم الزحف في الصيف ، وكان العرب قد غوروا الآبار ، وهكذا عطش الفرنجة عطشا شديدا ، زاد من قسوته الهجمات الصاعقة التي كان يقوم بها المقاومون العرب ، وعندما وصل الجيش الصليبي الى بصرى ، وكان معه الحاكم الخائن التونتاش فوجي بقيام زوجة هذا الخائن بإغلاق أبواب القلعة والعزم على الدفاع وعدم السير في طريق الخيانة الذي سلكه ، زد على هذا علم الفرنجة ان أنر معسكر مع قواته في صلخد بعد تسلمها وأن نجدات كبيرة قادمة من حلب يقودها نور الدين محمود بن زنكي .

وكان زنكي قد اغتيل قبيل قرابة السنة وتسلم الحكم في حلب ابنه نور الدين ، وعقد نور الدين معاهدات مع أنر وتزوج ابنته ، وبناء على معطيات الوضع الجديد قرر الفرنجة التراجع ، وكان طريق

الانسحاب محفوفاً بالمخاطر ، وكاد الجيش الصليبي يفنى عن بكرة أبيه نتيجة لهجمات رجال المقاومة العرب ، لولا تدخل أنر فقد «جعل معين الدين يكف المسلمين عنهم ، ويصدّهم عن قصدهم والتتبع لهم في انهزامهم» (٢٥) .

لقد انقذ أنر الجيش الصليبي وأجل تدميره مدة أربعين سنة ، عندما دمره صلاح الدين عند قرني حطين ، ومع هذا قابل الصليبيون صنيع هذا الحاكم الذي أثار ملكه العاجل على قضية الأمة ، بأن قرروا بعد عامين الاستيلاء على دمشق .

ومن المعروف أن عماد الدين زنكي كان قد حرر مدينة الرها في سنة ٥٣٩ هـ - ١١٤٤ م وأزال بولتها الصليبية من الوجود الأمر الذي أثار مايعرف باسم الحملة الصليبية الثانية وشارك في هذه الحملة أعداد هائلة من الأوربيين وقادها إثنان من أكبر حكام أوربا هما فراڤانسوا السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا ، وبعد جهود مضنية ورحلة طويلة عبر أوربا الشرقية وأسبى الصغرى وصل الناجون من عناصر الحملة الى القدس ، وفي عكا عقد مؤتمر واسع لزعماء الفرنجة تصدره ملك القدس وملك فرنسا والملك الألماني ، واتفق الثلاثة على الزحف الى دمشق لاحتلالها .

وفي دمشق قام معين الدين أنر بتنظيم الدفاع عن المدينة ، واستغاث بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب وبأخيه سيف الدين صاحب الموصل وبالقوى الموجودة في البقاع ومنطقة بعلبك فهب الجميع لنجدة دمشق ، وصرف الفرنجة «أعنتهم الى ناحية دمشق في حشدهم وحديدهم في الخلق الكثير على مايقال ، تقدير الخمسين ألف من الخيل والرجل ، ومعهم من السواد والجمال والأبقار ماكثروا به العدد الكثير ، ودنوا من البلد ... فقصدوا ناحية المزة فخيّموا عليها لقربها من الماء ، وزحفوا اليه بخيلهم ورجلهم ، ووقف المسلمون بأزائنهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين» (٢٦) (٢٦ تموز ١١٤٨ م) .

ونشب قتال عنيف بين الفرنجة والمدافعين عن دمشق ، واشتد قرب فرع نهر يزید عند منطقة خانق الربوة ، وإثر هذا انتشر الصليبيون داخل البساتين الكثيفة فأكلوا ثمار المشمش قبل نضوجها وتعاضمت المقاومة داخل البساتين، وعلم الصليبيون بوصول نور الدين مع قواته الى منطقة حوران ويتدفق النجدات من منطقة بعلبك ، وخشية أن يطوقوا داخل البساتين ، قرر الصليبيون التحول بمعسكرهم نحو المنطقة الواقعة ما بين باب الصغير وباب شرقي ، أملين بالأحاصروا في تلك المنطقة وبأن يلقوا بعض المساعدة من الداخل لأن معظم السكان هناك كانوا يدينون بالمسيحية ، ومجددا خاب فأل الفرنجة ، فعرب دمشق على اختلاف دياناتهم نظروا اليهم نظرة واحدة ، واشتدت المقاومة لذلك اضطر الصليبيون الى رفع الحصار عن دمشق بعد عدة ايام والرحيل « مجفلين والهرب مخذولين مفلولين » (٢٧) .

أظهر حصار دمشق مدى ضعف الدولة البورية وأن نور الدين محمود هو القائد المؤهل للجهاد ضد الصليبيين وحافظ نور الدين على التعاون مع معين الدين أنر حتى وفاته سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م (٢٨) ، وبعد هذا عزم على دخول دمشق وإزالة حكم الأسرة البورية منها ، وحاول أكثر من مرة احتلال المدينة فأخفق غير أن شعبيته ارتفعت فيها ، ولهذا اضطر حاكمها مجير الدين أبق لزيارة نور الدين في حلب سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م حيث قدم له فروض الطاعة فردّه نور الدين الى دمشق ليحكمها نيابة عنه (٢٩) ومع الايام تصاعدت مكانه نور الدين وازدادت مكانة حكام دمشق هبوطا حتى محرم مطلع عام ٤٤٩ هـ / آذار ١٠٥٧ م ، آنذاك وصل نور الدين مع قواته الى أطراف دمشق بعدما أخضعها لحصار اقتصادي ، وطالب نور الدين بتسليمه دمشق فرفض حاكمها مجير الدين وحاول مقاومته ودفعه بالقوة ، لكن قواته كانت متخاذلة ، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق سور المدينة حيث نصبوا علم نور الدين « وصباحوا : نور الدين يامنصور ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة

لنور الدين ، وعدله وحسن نكره ، وبإدار بعض قطاع الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي فكسر أغلاقه ، وفتح فدخل منه العسكر على رعب ، وسعوا في الطرقات ولم يقف أحد بين أيديهم ، وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ، ثم دخل نور الدين وخواصه ، وسر كافة الناس ومن الأجناد والعسكرية» (٣٠) .

كان دخول نور الدين إلى دمشق الحدث الأعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية فقد تم الآن توحيد بلاد الشام ، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية أوسع وأهم ، وقال وليم الصوري معقبا على دخول نور الدين إلى دمشق ومعبرا بالوقت نفسه عما خالج سادة مملكة القدس اللاتينية : « وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسلمين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت لأنه كما قيل : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وتبعنا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك» (٣١) .

وتحول نور الدين الآن من حلب إلى دمشق ، وبهذا تحولت مدينة دمشق عن الموقف الإسلامي تجاه الصليبيين إلى وضع إيجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم وهذا ما سنتناوله بالبحث في الفصل المقبل .

الفصل الثاني

المرحلتان الأولى والثانية من حروب الاسترداد في الطور الثاني

سلف ان اشرت في الفصل المتقدم الى انه مع تسلم عماد الدين زنكي سنة ٥٢١ هـ - ١١٢٧ م لزمام الأمور بالموصل بدأت بالفعل المرحلة الأولى من طور التحرير ، وعماد الدين هو زنكي بن اق سنقر قسيم الدولة الذي تعرفنا اليه في الجزء الأول من كتابنا هذا ، ولد زنكي في حلب ، ثم انتقل بعد مقتل ابيه الى الموصل ، وهناك حظي برعاية كربوقا حاكم الموصل باسم السلطان بركيا روق ، ويبدو أن زنكي انتقل الى الموصل مع مماليك ابيه ، واعتنى هؤلاء به وكانوا ذوي شجاعة واقدام لذلك صارت لزنكي مكانته في اوساط السلطة ، بالموصل ، وظل الحال هكذا حتى سنة وفاة كربوقا في ٤٩٥ هـ - ١١٠٢ م ، وبعد وفاة كربوقا تقلب على حكم الموصل عدد من الولاة ، حافظ زنكي خلال ذلك على مكانته الرفيعة وشارك في صنع العديد من الأحداث ، وبات من اعراف العسكريين بالموصل وبأوضاع منطقتهم وفي سنة ٥١٦ هـ - ١١٢٢ م ذهب الى العراق وتسلم شحنة البصرة واقطع مدينة واسط ، لهذا تورط في مشاكل الصراعات في العراق ، الداء الذي لم يتخلص منه طوال حياته ، وبقي في العراق حتى اضطربت أوضاع الموصل كثيرا فوصل منها الى بغداد القاضي بهاء الدين أبو الحسن علي بن الشهرزوري ومعه صلاح الدين محمد الياغيساني لعرض مشكلة الحكم بالموصل على السلطات هناك ، وفي بغداد اتفقا مع زنكي ، وسعيا حتى استصدرا امرا سلطانيا بتوليته عماد الدين زنكي الموصل (١) .

وتسلم عماد الدين الحكم بالموصل ، وجعل صلاح الدين

الياغيسياني حاجبه والرجل الثاني بعده ، «وجعل بهاء الدين قاضي قضاة بلاده جميعها وما يفتح من البلاد... وكان بهاء الدين أعظم الناس عنده منزلة وأكثرهم انبساطا معه وقربا منه ، ورتب الأمور على أحسن حال واحكم قاعدة» (٢) .

وما أن مكن زنكي نفسه في الموصل حتى نشط في سبيل مد سلطانه فاستولى على جزيرة ابن عمر وتملك دولة شامية جزرية واسعة (٣) ، وكانت هذه المملكة محاطة من مختلف الجوانب بأراضي دولة الرها ، وممتلكات الأراتقة من الجزيرة ، ومن الجانب الشمالي كانت هناك إمارة أنطاكية وولايات آسيا الصغرى الإسلامية ودولة كليكية الأرمنية ، وفي الجنوب واجه عماد الدين الدولة البورية في دمشق مع فرنجة طرابلس والساحل الشمالي ، ووجد الى جانب هؤلاء جميعا العراق ومشاكل الخلافة والصراعات حولها .

ولم يكن من السهل أبدا على زنكي العيش في هذا الوسط ، لذلك أمضى حياته ينتقل من معركة الى أخرى ومن صراع إلى آخر ، ومن مؤامرة إلى مؤامرة ، وساعده على النجاح صلابة عوده وصرامته واقدامه وعدم مراعاته لغير ما راه مفيدا لمصالحه وتوسيع ملكه . حارب الفرنج في الشام الشمالي فاسترد منهم الأثارب ومعرة النعمان وكفرطاب ، وحاربهم في الوسط فاسترد بارين واستولى على حماة أكثر من مرة وحاول الاستيلاء على حمص وبعبك ودمشق وهكذا استردت مدينة حلب بعض عافيتها وأخذت تنهياً للقيام بالدور القيادي ضد الفرنجة .

وعرف زنكي الذي تميز بالانضباط أن الخطر الأعظم على ملكه كامن في الرها ، فقد أراد الفرنجة دوما الاستيلاء على حلب لسد الثغرة فيما بين كل من أنطاكية والرها ، وليسهل عليهم بعد ذلك الاستيلاء على الموصل ومن ثم الاطباق على أراضي الشام والجزيرة ، ولهذا كان رد زنكي الطبيعي تجاه هذا ، العمل في سبيل تحرير الرها ، وتحرير الرها كانت له فوائد جمة منها سيد المنافذ الشمالية لبلاد الشام في وجه الفرنجة في فلسطين .

بين نصوص موسوعتنا ترجمة جيدة لزنكي جاءت في كتاب بغية الطلب في تاريخ حلب لابن العديم ، نعرف من خلالها أن زنكي قد ضرب مثلاً أعلى في الجدية والالتزام بالنظام ، وروى ابن العديم أن زنكي كان « ملكاً عظيماً ، شجاعاً جباراً ، كثير العظمة والتجبر ، وهو مع ذلك يراعي أحوال الشرع ، وينقاد إليه ، ويكرم أهل العلم ، وبلغني أنه كان إذا قيل له : أما تخاف الله ؟ يخاف من ذلك ويتصاغر في نفسه » ووصفه واحد من معاصريه بقوله : « كان أتابك زنكي بن قسيم الدولة أقسنقر رحمه الله إذا مشى العسكر خلفه كأنهم بين حيطين مخافة أن يدوس العسكر شيئاً من الزرع ، ولا يجسر أحد من هيئته يدوس عرقاً من الزرع ، ولا تمشي فرسه فيه ، ولا يقدر أحد من الأجناد أن يأخذ لفلاح علاقة تبس إلا بثمنها أو بخط من الديوان إلى رئيس القرية ، وإن تعدى أحد صلبه عليها ، وكان إذا بلغه عن جندي أنه تعدى على فلاح قطع خبزه وطرده ، حتى عمر البلاد بعد خرابها ، وأحسن إلى أهالي مملكته ، وكان لا يبقى على مفسد... ونهى عن الكلف والمغارم والسخر والتثقل على الرعية ، وأقام الحدود في بلاده » ولحاجة زنكي إلى المادة البشرية فرض على شعب دولته نوعاً من أنواع الجندية الإجبارية ، حتى صار معظم جند قواته متطوعة من أبناء الشعب .

وكان هم زنكي وشغله الشاغل تحرير الرها ، والقضاء على الدولة الصليبية التي كانت فيها ، وبعد عمل طويل وجهاد عاشته الأمة كلا وأفراداً استطاع زنكي سنة ١١٤٤ م أن يحرر الرها والقضاء على أولى دول الفرنجة تأسيساً في المشرق ، ولقد عم بسقوط الرها صدى بالغ الاتساع والتأثير في المشرق والغرب ، وكانت تلك أقصى ضربة حلت بالفرنجة منذ دخلوا الشام ، وأفدح خسارة المت بهم .

ولعل في القصة التالية التي رواها ابن الأثير في كامله وهي لا شك مخترعة ، صورة عاكسة للآثار العظيمة التي أحدثها سقوط الرها

على الأوربيين وسواهم : « حكي أن بعض العلماء بالأنساب والتواريخ قال : كان صاحب جزيرة صقلية قد أرسل سرية في البحر الى طرابلس الغرب وتلك الأعمال ، فنهبوا وقتلوا ، وكان بصقلية انسان من العلماء المسلمين ، وهو من اهل الصلاح ، وكان صاحب صقلية يكرمه ويحترمه ، ويرجع الى قوله ، ويقدمه على من عنده من القسوس والرهبان ، وكان اهل ولايته يقولون إنه مسلم بهذا السبب .

ففي بعض الأيام كان جالسا في منظره له تشرف على البحر وإذا قد أقبل مركب لطيف ، وأخبره من فيه أن عسكره دخلوا بلاد الاسلام ، وغنموا وقتلوا وظفروا ، وكان المسلم الى جانبه وقد أغفى ، فقال له الملك : يا فلان ' أما تسمع ما يقولون ' قال : لا ! قال : إنهم يخبرون بكذا وكذا ، أين كان محمد عن تلك البلاد وأهلها ؟ فقال له : كان قد غاب عنهم ، وشهد فتح الرها ، وقد فتحها المسلمون الآن ، فضحك منه من هناك من الفرنج ، فقال الملك : لا تضحكوا ، فوالله ما يقول إلا الحق ، فبعد أيام وصلت الأخبار من فرنج الشام بفتحها « (٤) .

وتابع زنكي نشاطاته لتنفيذ خطته وحدث أنه بعد عامين مضيا على سقوط الرها أن قضى زنكي نحبه غيلة من قبل أحد غلمانه ، حدث ذلك وهو يحاصر قلعة جعبر ، ووقع ليلا بينما كان زنكي نائما ، وهرب الغلام الذي اقتترف جريمة قتله ، وجاء إلى تحت قلعة جعبر « فنادى أهل القلعة : شيلوني فقد قتلت السلطان ، فقالوا : اذهب إلى لعنة الله قد قتلت المسلمين كلهم بقتله »

وكان لمصرع زنكي أثرا مفاجعا على نفوس المسلمين ، فدعوه « بالشهيد » وبرغم كثرة الشهداء في التاريخ العربي ، فإن زنكي هو الوحيد الذي عرف بهذا الاسم ، إنما على الرغم من هذا كله لم يوقف موت زنكي مسيرة التحرير ، ولم يؤثر كثيرا على أوضاع

الامة ، ذلك ان الامم الحية لا تتأثر كثير بفقدان القادة ، ولا تتعطل مسيرتها بمصرعهم لانها تنجبهم الواحد تلو الآخر .

واثر مصرع زنكي مباشرة ، وقبل ان يوارى جثمانه الثرى انشطرت دولته الى شطرين شامي و آخر جزري عراقي ، واستقر على راس الشطر الشامي نور الدين محمود بن زنكي .

وقديما قيل : الجغرافية توجه التاريخ ، ومن هذا المنطلق بات التوجه الطبيعي لدولة قسوية في حلب — نحو الجنوب الشامي ، وستكتفي الموصل منذ الآن — إلى أبعد الحدود ، وقد زال من أمامها التهديد الصليبي في الرها — بالاهتمام بشؤون الجزيرة ثم العراق .

وكان مما ساعد نور الدين على التفرغ الشامي ومن ثم التوجه نحو دمشق والجنوب اهتمامه بالجهاد ضد الصليبيين وتضاؤل اعتماده على البداية التركمان كطاقة عسكرية منفردة ، لأن اهتمام التركمان تمركز منذ أمد على اسمية الصغرى ولأن أعداد كبيرة من الأكراد تجمعت في حلب حول أسد الدين شيركوه ، وجاء هؤلاء الأكراد الى بلاد الشام من أقصى المناطق الشمالية في أطراف جورجيا الحالية ، فهناك وجدت دويلة كردية اسمها دولة منوجهر أو دولة بني شداد ، وكان ملوك الكرج (جورجيا) المتعصبون لنصرانياتهم يخوضون هناك حربا صليبية ضد المسلمين ، وقد تمكنوا من الاستيلاء على أملاك دولة منوجهر قلعة تلو الأخرى ، الأمر الذي دفع بالأكراد الى الهجرة ، وكان من أوائل المهاجرين أسرة صلاح الدين حيث عمل جده ثم والده أيوب وعمه شيركوه في العراق ، ثم التحقوا بخدمة زنكي واستقروا في بلاد الشام ، وعندما سقطت دولة منوجهر كثر عدد الأكراد ، وتجمعوا حول شيركوه الذي بات الآن أكبر القادة العسكريين لدى نو الدين ابن زنكي ، ولا شك أن هذا يساعد على فهم مقدمات انتقال السلطة من دولة الأتابكة التركمان الى الأيوبيين الأكراد . ومن الملاحظ أنه بعد ما حررت الرها بات الصراع مع الصليبيين شاميا إلى أبعد

الحدود ، وتولت حلب الآن قيادة أعمال الجهاد ضد الفرنجة ، وبذلك طويت - بعد وفاة زنكي - المرحلة الأولى من طور التحرير ، لتبدأ المرحلة الثانية ، وتمركزت جهود حلب في بداية هذه المرحلة أولا ضد انطاكية لقربها منها ، لكن ما لبثت أن صرفت أنظارها كليا تقريبا نحو الجنوب ، وجاء هذا تباعا على خطوات تمكن فيها نور الدين من دخول دمشق وتوحيد الشام المسلم ، وكان من الطبيعي وهو سيد دمشق أن تتجه أنظاره نحو تحرير القدس وللتعاون مع مصر ، وهذا ما تم انجازه في المرحلة الحلبية في ظل قيادة نور الدين ، ونعود الآن الى سياق الأحداث :

لقد أثارت أخبار سقوط الرها مشاعر البابوية ، وحرصتها للدعوة الى حملة صليبية كبيرة تمضي الى المشرق لاستعادة الرها ولاكمال السيطرة على بلاد الشام .

ولقد توفر لهذه الدعوة داعية اسمه « القديس برنارد » شغل الدور نفسه الذي شغله سلفه بطرس الناسك ، وكما أن برنارد سار على خطى بطرس فإن البابا أنوسنت الثالث حاول أن يقلد البابا أوربان الثاني ، المبشر الأول بالحروب الصليبية ، فدعا الى عقد مجمع ديني ، وتم ذلك في فرنسا في فصيح سنة ١١٤٤ م وقد حضره عدد كبير من رجال الكنيسة والاقطاع ، الذين خاطبهم البابا فأثار حماسهم ، وأضرم نيران تعصبهم الى حد القرار بالذهاب الى الشرق .

وهكذا تألفت الآن حملة كبيرة شملت مجموعات رئيسة : واحدة من فرنسا بقيادة الملك الفرنسي لويس السابع ، وثانية من المانيا بزعامة الملك كونراد الثالث ، وثالثة من الانكليز والفلمنديين والاطليان وسواهم ، وقدرت الطاقة القتالية للجموع بسبعين ألف فارس ، وأعداد هائلة من المشاة والأتباع ، ذهبت المصادر البيزنطية الى جعلهم سبعمائة ألف (٥) .

وكانت هذه الحملة أكثر نظاما من الحملة الأولى ، وعندما

وصلت القسطنطينية وعبرت الى البر الاسيوي انفجرت الخلافات بين الملك الفرديسي والملك الألماني بشكل حاد ، فقررا الانفصال وأن يأخذ كل واحد منهما طريقا خاصا نحو الشام .

سار الملك الألماني في سهول الاناضول ففتك به وبرجاله مقاتلو سلاجقة الروم مع الحر والعطش فعاد فلهم ليأخذ طريقا آخر ، وأما الملك الفرديسي ومن بقي من رجال الحملة فأخذ طريق أسية الصغرى وبعد مشاق ومعارك وصل إيطاليا ، ومن هناك ركب نصفهم البحر حتى انطاكية ، وتابع البقية سفرهم برا فأباد أكثرهم التركمان قبل وصولهم إلى مشارف الشام .

وبعد جهود مضنية وصل الناجون من الحملة إلى القدس ، وهناك اجتمع ملك القدس بكل من الملك الألماني والفرديسي ، واتفق الثلاثة على الزحف إلى دمشق لاحتلالها ، وفي الحقيقة شكل وصول الحملة منذ البداية تهديدا هائلا لحكم نور الدين الناشئ في الشام ، وكان نور الدين بالواقع قد واجه أول تهديد إشر تسلمه للسلطنة ، في الرها ، فقد استغل الصليبيون حالة الفوضى التي تلت وفاة زنكي فاستعادوا الرها وكان ذلك سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م ، فقد جمع الفرنجة شتاتهم بقيادة جوسلين الثاني وقصدوا الرها « على غفلة بموافقة من النصاري المقيمين بها ، فدخلها واستولى عليها وقتل من فيها من المسلمين ، فنهض نور الدين محمود في عسكره ومن اجتمع إليه من التركمان وغيرهم في زهاء عشرة الاف فارس ... ووافوا البلد وقد حل ابن جوسلين وأصحابه فيه ، فهجموا عليهم ووقع السيف فيهم ، وقتل من أرمن الرها والنصاري من قتل وانهزم ابن جوسلين بنفسه » ، وهكذا انتهت محاولة الفرنجة هذه بضربة قاصمة خرج منها نور الدين منتصرا مبشرا بمستقبل مشرق للجهاد والتحرير (١) .

وعلى هذا لم يعد نور الدين يقنع بغير اقتلاع الفرنجة من بلاد الشام ، وشعر أن الله تعالى حين سهل له الوصول إلى السلطة ألقى على عاتقه أمانة رعاية مصالح المسلمين والجهاد ضد

الفرنجة ، فذشط ضد إمارة انطاكية واستطاع سنة ٥٤٢ - ٥٤٣ هـ - ١١٤٧ - ١١٤٨ م أن يحرر عدة قلاع مثل ارتاح والأثارب وكفرلانا .

ولقد أثبت نور الدين أنه لا يقل كفاءة وشجاعة عن أبيه ، ومقدرة عسكرية وقد تفوق على أبيه بصفاء نواياه ، وبتفرغه للجهاد فقط داخل بلاد الشام ، ولم يتورط كما فعل زنكي في صراعات العراق وسواها ، وكان نزيها عفيف النفس يحب العلم والعلماء ويؤثرهم ويشجعهم .

وبعدما نجح في تجريد إمارة انطاكية من كثير من ممتلكاتها ، ولتفرغه لشؤون الشام فقط اتجه بنواياه الطيبة نحو دمشق ، وكانت هذه المدينة - كما رأينا - تحكم من قبل بقايا الدولة البورية ويتحكم بها واحد من كبار القادة العسكريين واسمه معين الدين أنر ، وتبادل نور الدين السفارات مع أنر حتى « استقر الحال بينهما على أجمل صفة ، وأحسن قضية ، وانعقدت الوصلة بين نور الدين وبين ابنة معين الدين ، وتساكدت الأمور على ما اقترح كل منهما » .

وتوجس الفرنجة شرا من هذا التقارب ، وخاصة بعدما أخذت قوات نور الدين تنشط في حوران وتحيط مشاريعهم في السيطرة على السواد وبعض قلاع المنطقة ، لكن أهم نتائج التقارب هذا ظهرت أثناء التصدي لقوات الحملة الثانية لدى حصارها لمدينة دمشق ، فقد أخفق الحصار ، وتعرت سلطات دمشق وأفلاست شعبيا لاعتمادها على حماية مملكة القدس لها ، مما سبب رفع سمعة نور الدين وقاد بالنهاية إلى تسلمه لمقاليذ الأمور بدمشق ، فبعدما وصلت قوات الملك الفرنسي وغيرها من القوات إلى انطاكية عام ٥٤٣ هـ - ١١٤٨ م ، حاول أميرها الاستفادة منها في مهاجمة حلب فأخفق ، وقرر الملك الفرنسي الذهاب إلى القدس وهذا ما كان ، وبذلك لم تتوجه الحملة إلى الرها لاستردادها حسب الخطط التي وضعتها قبل الانطلاق من أوروبا .

وكان بطريرك القدس قد ذهب للقاء الملك الفرنسي لاقتناعه بالقدوم إلى القدس ، فقد رغب ملك القدس ورجال الاكليروس فيها وسماهم بالاستيلاء على دمشق قبل اتحادها مع حلب ودخول نور الدين إليها ، وبالفعل بعد وصول أعضاء الحملة إلى فلسطين عقد قادة الفرنجة الوافدين والبلديين مؤتمرا في عكا قرروا في ختامه بعد مداورات مطولة ، إنه في الظروف الحالية يبقى أفضل الأعمال هو الاقدام على حصار دمشق ، ذلك انها مدينة كانت تشكل خطرا كبيرا على مملكة القدس .

وبالفعل انطلقت قوات الفرنجة يتقدمها صليب الصلبوت ، واخذت الطريق نحو دمشق فاجتازت جسر الصنبرة بعد طبرية ، ولدى الوصول إلى بانياس عقد قادتها مؤتمرا عسكريا حضره عدد من الأشخاص الذين كانوا خبراء بأحوال دمشق المدينة والمنطقة ، وبالنتيجة تقرر فرض الحصار على دمشق من الجهة الغربية بعد الاستيلاء على البساتين هناك .

وكان تعداد الفرنجة لا يقل عن خمسين ألفا ، وبعدما اجتاز هؤلاء المنطقة الوعرة فيما بين بانياس وأحواز دمشق نزلوا في بلدة داريا ، ومن هناك امتدت قواتهم حتى خانق الربوة عند الدكة على نهر يزيد .

وعلى هذا كان بإمكان النجدات أن تصل إلى دمشق من حوران ومن بعلبك وكذلك من المناطق الشرقية ، وكانت منطقة البساتين التي فصلت بين معسكر الفرنجة ومدينة دمشق كثيفة الأشجار ، ممراتها ضيقة ، أحاط بكل بستان سور من الطوب الطيني الكبير (دك) ، وفي داخل البساتين نصب المدافعون عن المدينة الكمائن للفرجة وفتكوا بهم ، ووقعت معارك شديدة بين المسلمين والصليبيين ، واخذت النجدات تتدفق على دمشق ، وضغط أهل دمشق على معين الدين أنر لاتاحة الفرصة لنور الدين للدفاع عن مدينتهم والجهاد ضد الغزاة ، وهكذا أمكن رد المهاجمين عن الأسوار ، مما أقنع قادة الفرنجة باستحالة الاستيلاء على دمشق

من الجهة الغربية ، فقرروا التحول وحصارها من الجانب الشرقي حيث انعدمت الغابات في الخارج وطمعا بالتعاون مع سكان احياء الداخل الذين كان جلهم نصارى ، ومجددا اخفق الغزاة ، وشرعوا بالانسحاب ، ونجت دمشق من الحصار الصليبي الثاني في تاريخها والآخر ، وربح الجولة نور الدين ، فقد عقدت عليه الآمال ، ووضع هو بدوره الخطط لدخول دمشق وتوحيد بلاد الشام ، ورأى أن العمل المجدي ضد الوجود الفرنجي هو تدمير مملكة القدس اللاتينية ، فهي الراس في القوة والمكانة الدينية ، ومتى قطع الراس خمدت بقية اطراف الجسد (٧) .

وكان من معاني إخفاق الفرنجة في الاستيلاء على دمشق أن مشروع الحملة الصليبية الثانية قد بء بالافاق الكامل ، وأن التوسع الفرنجي باتجاه دمشق أو باتجاه حلب بات محالا ، وأنه بعد أمد قريب لن يكون أمام الفرنجة غير البحر أو مصر .

وضع نور الدين الخطط لدخول دمشق وأخذ في تمهيد السبيل إلى ذلك حيث استغل وقوع اضطرابات وصراعات على السلطة في القدس بين بلدوين الثالث الشاب وأمه الوصية على العرش ، واستفاد من حادثة اغتيال ريموند الثاني كونت طرابلس ، وقام في سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م بمهاجمة حصون أنطاكية وعندما حاولت قوات أنطاكية بقيادة الأمير ريموند ندي بواتيه التصدي له أبانها ، وقتل أميرها ، ثم تمكن في العام التالي من أسر صاحب تل بامر ، وبهذا تم له تصفية الوجود الفرنجي في كونتية الرها بشكل كامل .

حدث في سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م أن توفي سيف الدين غازي - أخو نور الدين - صاحب الموصل ، وحاولت بعض الأطراف توريط نور الدين بمشاكل الجزيرة والموصل فأخفقت ، واجتمع نور الدين بأخيه قسطنطين الذي تولى شؤون الموصل « وأنفقت كلمتهما واتحدت أراؤهما ، وكل واحد منهما لا يصدر إلا عن أمر أخيه » ، وبذلك ظل نور الدين متفرغا للشؤون الشامية فقط .

وفي هذه السنة بالذات توفي معين الدين أنر المتحكم بدمشق ، وبذلك عادت مقاليد الأمور إلى الأمير البوري الشرعي مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طفتكين ، وكان ضعيف الشخصية سيم التدبير ، لهذا كثر الطامعون في الولاية وانتشرت عصابات الفرنجة وذهبت في ديار الدولة خاصة في حوران ، مما دفع نور الدين إلى قيادة قواته إلى هذه المنطقة ، وذلك أنه كان يرى من واجبه الدفاع عن أراضي المسلمين سواء أكانت تابعة له أم تحت إمرة غيره ، وكان هذا سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م ، ولدى زحفه جنوباً ، كتب إلى من في دمشق يعلمهم بما عزم عليه في الجهاد ، ويستدعي منهم المعونة على ذلك بألف فارس ، تصل إليه مع مقدم يعول عليه ، وقد كانوا عاهدوا الفرنج أن يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من يستأكر المسلمين ، فاحتج عليه ، وغولط ... وقد كانوا راسلوا الأفرنج بخبره وقرروا معهم الانجاد عليه .

ويبدو أن نور الدين كان على معرفة بمسألة التهادن والتحالف بين أبق وبلدوين الثالث ، ثم إنه لم يكن في الحقيقة بحاجة إلى قوات دمشقية تشاركه في النشاط في حوران ، لكنه أراد من جانب أول تلقين الفرنجة درساً قاسياً وإفهامهم أن التحالف مع أبق لا يفيد ، ثم إنه ابتغى من جانب آخر تعرية أبق وأركان سلطته واختبار موقف أهل دمشق إن لم نقل إثارتهم ، وحقق نور الدين كل ما استهدفه وزاد على ذلك أنه ظهر في أعين الناس جميعاً من أصدقاء وأعداء أنه مسؤول عن الدفاع عن دمشق وأنه بطل الإسلام والمجاهد في سبيل الله ضد الفرنجة .

ومن حوران جدد نور الدين مراسلة السلطات البورية في دمشق قائلاً : « إنني ما قصدت بنزولي هذا المنزل طالبا لمحاربتكم ولا منازلتكم ، وإنما دعاني إلى هذا الأمر كثرة شكايمة المسلمين من أهل حوران والعربان بأن الفلاحين الذين أخذت أموالهم وشتمت نساؤهم وأطفالهم بيد الأفرنج ، عدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني الله ، وله الحمد ، من الاقتدار على نصره

المسلمين ، وجهاد المشركين ، وكثرة المال والرجال ولا يحل لي ، القعود عنهم ، والانتصار لهم ، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والنب عنها ، والتقصير الذي دعاكم الى الاستصراخ بالافرنج على محاربتني ، وبذلكم لهم اموال الضعفاء والمساكين من الرعية ، ظلما لهم وتعديا عليهم ، وهذا ما لا يرضي الله تعالى ولا احد من المسلمين .

وعلى قاعدة اذا لم تستح فافعل ماشئت جاهر رجال الدولة البورية بمواقفهم فكتبوا الى نور الدين جوابا على رسالته « ليس بيننا وبينك الا السيف ، وسيوافينا من الافرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ، ونزلت علينا » واثار نور الدين هذا الجواب واغضبه « وعزم على الزحف الى البلد ومحاربتة » ثم انه « اشفق من سفك دماء المسلمين ان اقام على حربها والمضايقة لها » فقد كان يعرف ان ابق ورجاله مستعصمون وراء اسوار قلعة دمشق ، وراسل ابق نور الدين بعد هذا ، ثم خرج الى لقائه فخلع عليه نور الدين « خلعة كاملة بالطوق ، واعاده مكرما محترما ، وخطب له على منبر دمشق ... ثم استدعى الرئيس (رئيس المدينة) الى المخيم وخلع عليه خلعة مكملة ايضا واعاده الى البلد ، وخرج اليه جماعة من الاجناد والخواص الى المخيم واختلطوا به ، فوصل من استمache من الطلاب والفقراء والضعفاء بحيث ماخاب قاصده ، ولا اكدى من سئاله » ثم رحل عائدا الى حلب وكان ذلك في مطلع سنة ٥٤٥ هـ - ١١٥٠ م .

ومنذ عودة نور الدين الى حلب ، اخذت تتوارد عليه اخبار مقلقة من مصر ، لهذا رأى من واجبه انقاذ مصر وانقاذ شعبها ، ولم يكن ذلك ممكنا من دون القضاء على حكم الدولة البورية وتوحيد البلاد الشامية ، ولهذا قام في مطلع عام ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م بقيادة قواته نحو دمشق وشرع بحصارها ومنع المؤن عنها « ووافت رسل نور الدين الى ولاية امر البلاد تقول : اننا ما اوثر إلا صلاح المسلمين ، وجهاد المشركين ، وخلص من في ايديهم من

الأسارى ، فإن ظهرت معي في عسكر دمشق ، وتعاضدنا على
الجهاد ، وجرى الأمر على الوفاق والسداد ، فذلك غاية الايثار
والمراد ، فلم يعد الجواب اليه بما يرضاه ، ويوافق مبتغاه .
وشدد نور الدين التضيق على دمشق مع أوامر واضحة لجنده
بعدم « الزحف الى البلد ، ومحاربة من فيه اشفاقا من قتل
النفوس ، واثنان الجراح » ولم « يأذن لأحد من عسكره في
التسرع الى قتال أحد من المسلمين من رجال البلد وعوامه ، تخرجوا
من اراقة الدم فيما لايجدي نفعا » .

وفي أثناء الحصار وصلت الأخبار الى نور الدين بوصول جيوش
الفرنجة الى أرض حوران وزحفها نحو دمشق ، فاضطر نور الدين
الى رفع الحصار عن المدينة والزحف نحو الفرنجة ، وخرجت من
دمشق بعض قواتها حيث اتحدت مع الفرنجة للقتال ضد نور الدين
وللاستيلاء على بلدة بصرى ، ولم تغلح هذه الخطط ، ومع هذا
راسل الفرنجة رجال الدولة البورية « يلتصقون باقي المقاطعة
المذبذولة لهم على ترحيل نور الدين عن دمشق ، وقالوا : لولا نحن
ندفعه مارحل عنكم » .

لكن نور الدين ترك حصار دمشق مؤقتا حتى يدفع
الفرنج ، وبعدها دفعهم عاود حصار دمشق وهو مطمئن انه لن يقع
بين نارين : نار الفرنجة ونار القوات البورية و « استمر رأي نور
الدين على وقف الزحف الى البلد ومحاربة اهله وعسكريته تخرجوا
من قتل المسلمين ، وقال : لا حاجة الى قتل المسلمين بأيدي بعضهم
بعضا ، وانا أرفهم ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة المشركين » وفي
هذه الأثناء جرت اتصالات بنور الدين لشراء رضاه وتوسط في ذلك
بعض الفقهاء واسد الدين شيركوه وأخوه نجم الدين أيوب ، وتبعوا
لذلك رفع نور الدين الحصار وعاد ادراجه الى حلب ، وبعد أمدة
قصير « توجه مجير الدين - أبى - صاحب دمشق الى حلب في
خواصه ، ووصل اليها ودخل على نور الدين صاحبها ، وأكرمه
وبالغ في الفعل الجميل في حقه ، وقرر معه قرارات اقترحها

عليه ، بعد أن بذل له الطاعة وحسن النياحة عنه في دمشق ، وبذلك صارت دمشق نظريا تابعة لسلطان نور الدين ، ومع هذا جاءت خطوة أبق واعتراه بسيادة نور الدين لكسب الوقت .

وفي هذه الأونة نجح الصليبيون في الاستيلاء على مدينة عسقلان ، وبعملهم هذا باتوا يمتلكون الساحل الشامي من اسكندرونة في الشمال حتى غزة في الجنوب ، وبذلك حرموا المسلمين من امكانات الافادة من البحر ، وعقب ابن الأثير في كامله على سقوط عسقلان بقوله : « فقوي الفرنج بملكها حتى طمعوا في دمشق ، واستضعفوا مجير الدين » .

وقرر نور الدين حسم الأمور خاصة بعدما تصاعدت مكانته لدى أهل دمشق ، فزحف في محرم عام ٤٤٩ هـ / آذار ١٠٥٧ م إلى دمشق ولدى وصوله إليها أخضعها لحصار اقتصادي ، وطالب بتسليمه إياها ، فرفض مجير الدين أبق وحاول المقاومة ودفع نور الدين بالقوة ، لكن قواته كانت متخالفة ، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق أسوار المدينة حيث نصبوا علم نور الدين « وصاحوا : نور الدين يامنصور ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لما هم عليه من المحبة لنور الدين وعدله ، وحسن ذكره ، وبادر بعض قطاعي الخشب بفأسه إلى الباب الشرقي ، فكسر أغلاقه ، وفتح فدخل منه العسكر على رعب ، وسعوا في الطرقات ، ولم يقف أحد بين أيديهم ، وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ، ثم دخل الملك نور الدين وخواصه ، وسر كافة الناس ومن الأجناد والعسكرية لما هم عليه من الجوع وغلاء الأسعار ، والخوف من منازل الأفرنج الكفار » .

وكان دخول نور الدين إلى دمشق هو الحدث الأعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية ، فقد تم الآن توحيد بلاد الشام ، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية أوسع وأهم ، وقال وليم الصوري مؤرخ المملكة اللاتينية الذي عاصر هذا الحدث معقبا عليه ومعبرا بالوقت نفسه عما خالج سادة مملكة

القدس اللاتينية » وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسيحيين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت ، لأنه كما قيل : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها ، وتظهر بقوة اكبر ضد عدو مشترك» (٨) .

وتحول نور الدين الآن من حلب الى دمشق ، وبهذا تحولت دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم ، ونجم عن هذا قيام حركة علمية نشطة فنور الدين بنى البيمارستان النوري ، واقام دار العدل ، ودار الحديث النورية ، وهي اول جامعة لعلوم الحديث في التاريخ الاسلامي ، وهو ايضا الذي شجع ابن عساكر على كتابة تاريخ لمدينة دمشق في ثمانين مجلدة ، وهذا امر لم يعهد له مثيل في سير الأمم وتواريخها ، كل هذا ضمن انجازات أخرى تصدرها التخطيط لانقاذ مصر والتحضير لتحرير القدس الشريف .

وقال ابن الأثير معقبا على دخول نور الدين لدمشق وتوحيده لبلاد الشام : «وكان أبغض الأشياء الى الفرنج أن يملك نور الدين دمشق لأنه يأخذ حصونهم ومعقلهم وليست له ، فكيف اذا أخذها وقوي بها» (٩) .

وصحيح ان نور الدين نقل مقر حكومته الى دمشق ، لكنه ابقى مدينة حلب معقل أسرته ومقرها الدائم والاساسي ، وسيتضح هذا بعد وفاته ، أي ان دخول نور الدين الى دمشق لم يمهّد مرحلة حلب في حرب الاسترداد ، فهذه المرحلة انتهت بعيد دخول صلاح الدين الى دمشق وتأسيسه الأسرة الأيوبية .

وكانت بلدة بانياس وقلعتها الحصينة - الصبيبية - المركز الدفاعي الاول عن دمشق في وجه مملكة القدس اللاتينية ، وحين دخل نور الدين دمشق ، وجد هذه المدينة مع قلعتها بأيدي الفرنجة قد تسلموها من قبل من أمراء الدولة البورية ، لذلك خطط نور الدين

لاستردادها ، وبعد القيام بعدة أعمال عسكرية ناجحة في منطقتها حاصرها نور الدين سنة ٥٥٣ هـ - ١١٥٨ م ، واستطاع أولا تحرير المدينة ، وشرع في حصار القلعة ، وفي تلك الأثناء قدم ملك القدس للتفريغ عن الصبيبة ، فانسحب نور الدين من بانياس وكن مع قواته في الشعراء القريبة من المنطقة ، ودخل الملك الفرنجي الى بانياس وقام ببعض أعمال الترميم فيها ، ثم شحنها بالمؤن والمقاتلة ومن ثم انسحب عائدا ، وعسكر مع قواته على مقربة من بحيرة الحولة معتقدا ان نور الدين قد عاد الى دمشق ، ولكنه فوجئ بانقضاض نور الدين على معسكره ، فمزقه وقتل رجاله ، ونجا الملك الفرنجي من الموت بكل صعوبة ، وقام نور الدين باجتياح المنطقة ، ثم عاد الى بانياس ليحاصرها ثانية لكنه اضطر مجددا لرفع الحصار ، لأن الفرنجة جمعوا من جديد جيشا زحف ثانية نحو بانياس لنجدها ، وفي الحقيقة لم يتمكن نور الدين من تحرير بانياس وقلعتها حتى سنة ٥٥٩ هـ - ١١٦٢ م ومرد ذلك انه بعيد رفع الحصار عن بانياس توجه الى حلب ، وهناك أصيب بمرض عضال ألزمه الفراش حتى أرجف به ويؤس من الشفاء فأوصى لأخيه ميرمران بالملك من بعده ، وقد استغل الفرنجة هذا الوضع لصالحهم ، غير انه لحسن الحظ شفي نور الدين ومن ثم عاود نشاطاته بشكل مؤثر وفعال مما دفع الصليبيين للتحالف مع الامبراطورية البيزنطية ، لكن في سنة ٥٥٩ هـ / ١١٦٢ م توفي بلدوين الثالث ملك القدس ، فخلفه أخوه عموري الأول (١٠) :

وكان عموري قبل توليه الملك حاكما ليافا وعسقلان ، قريبا من مصر مطالعا على أوضاعها الداخلية المضطربة ، لذلك وضع خططه للاستيلاء على مصر ، حتى انه كلف وليم/رئيس اساقفة صور ان يتولى اعداد كتاب يؤرخ به لاحتلاله مصر ، لأنه اعتقد ان القاهرة لقمة سهلة التناول لا يوجد من يحول دون تناوله اياها!

وكان هذا صحيحا بالنسبة للوضع داخل القاهرة ، غير ان وجود نور الدين عطل خطط الفرنجة وأحبطها ، حيث أرسل ثلاث حملات عسكرية الى مصر ، تمكنت أخيرا من انقاذ هذا القطر والحقاه

بالشام ، وقاد هذه الحملات اسد الدين شيركوه ، وقد رافقه فيها ابن أخيه يوسف بن أيوب (صلاح الدين) ، وشغل صلاح الدين في هذه الوقائع دورا رئيسيا وتجلت في تلك الاثناء مواهبه ومؤهلاته ، مما رشحه للزعامة ، وذلك بالإضافة الى تعرفه على مصر وعلى مشاكلها وامكاناتها .

سنبحث مسألة هذه الحملات بعد قليل لدى التفرد للحديث عن قيام صلاح الدين ، ولعله يكفي أن نذكر الآن أنه في سنة ١١٦٧ م تمكن نور الدين من توحيد مصر مع بلاد الشام ، وفي سنة ١١٧١ م تم إلغاء الخلافة الفاطمية ، وقامت في مصر حياة جديدة ويقظة متفتحة ، وبدأت مصر تستعد للاسهام في أعمال التحرير ، وطوقت الآن ممتلكات الصليبيين ، وأعد نور الدين قواته من أجل معركة فاصلة ، وكان موقنا من أن النصر سيكون حليفه ، وأنه لن يكون بعد فترة للصليبيين وجود في الشام ، وبلغت استعدادات نور الدين ويقينه من النصر الى حد أنه أمر بصنع منبر لتخطب عليه خطبة الجمعة الأولى في المسجد الأقصى بعد تحريره (١١).

وكان صلاح الدين يوسف بن أيوب واليا لنور الدين على مصر ، وقبل أن يتوجه نور الدين على رأس قواته نحو فلسطين أصدر أوامره الى صلاح الدين بقيادة قوات مصر ، والالتقاء معه على أسوار الكرك ، ولكن - ولكل عظيم سقطة - غلبت انانية صلاح الدين وشهوته للسلطة على نفسه ، وذلك بتحريض جهازه الذي أحاط به له ، وتخويفه من نور الدين - فتلكا صلاح الدين ولم ينفذ أوامر نور الدين متعللا بأوهى الأسباب ، وهكذا تأجل موعد المعركة الفاصلة ، وكلفت شهوة السلطة الأمة سنينا طويلة أخرى من الدم والعذاب .

وتوفي نور الدين بشكل مفاجئ عام ١١٧٤ م ، وقام بعده صلاح الدين ، فاستطاع أن يرث دولته ، ولهذا حديث آخر ميدانه فيما يلي :

قيام صلاح الدين

هناك خلاف شديد بين المؤرخين حول دور البطل في التاريخ؛ فبعضهم يعتقد أنه وجد بين البشر من ملك من الطاقات ما جعله يفوق سواه من الناس في وقته ، وبذلك تسنى له أن يتربع على عرش الزعامة ، وأن يحدث تغييرات كبيرة، ويحقق انجازات خطيرة ، تأثر بها معاصروه، ومن أتى بعدهم ، لكن بذنب متفاوتة، مما سبب له الشهرة والخلود .

وبعضهم الآخر ينكر دور البطل الفرد في صنع أحداث التاريخ حسب مشيئته ، ويعتقد أن الجماهير هي البطل الحقيقي الذي يصنع أحداث التاريخ ، ولكن إذا تذكرنا أن لكل واقعة من الوقائع ، العديد من الأسباب المتنوعة البعيدة والقريبة ، وأن المسببات هي سابقة للواقعة وأصل لها ، خففنا من غلواء الاعتقاد بأن الفرد البطل قادر وحده على صناعة التاريخ ، وأن الفرد البطل وحده لا شيء بدون جماهير تستجيب لإقضيته ، التي تعتبرها قضيتها ، وتتعاون معه وتحت قيادته ، لتنفيذ مطامح متشابكة بشكل معقد .

على هذا يمكن رؤية دور الفرد والجماعات في صنع التاريخ من خلال قضايا كبرى ذات جذور بعيدة في الماضي لها أسباب قريبة ، وحين تتضافر الأسباب وتتوفر القدرة على الانجاز يقوم دور الفرد على مدى فاعليته في الانجاز ، وقد يكون الانجاز كبيرا ، له فاعلية الجسم المستمر ، وقد يحدث أن يقوم فراغ كبير إثر غياب البطل ، وهنا نجد الفراغ والحاجة يقودان نحو تذكر دور البطل واستغلاله بشكل جديد فيه حسرة واغناء وشروح وتفسيرات ثم اضمفاء مواد جديدة عليه ، وهكذا يتحول دور البطل من واقعة تاريخية الى واقعة شبه أسطورية .

هذا ما يواجهنا عندما نود البحث في سيرة صلاح الدين وخاصة

الفترة المبكرة من حياته أي قبل وصوله الى السلطة ، ذلك ان صلاح الدين مثل غيره من الأبطال اهتم المؤرخون بأخباره بعدما وصل الى واجهة السلطة ، فجمعوها ، وهنا شعروا بالحاجة الى التعرف الى أخباره قبل السلطة فأقبلوا على جمعها من الذكريات ، وعملية الجمع هذه بآنية بسبب قلة مصادر المعلومات ، هذا مع ما تسببه رواية بعض الأخبار من إحراج ، ولما جبل عليه البشر من مداراة وأدب ولباقة إن لم نقل رياء ونفاق ، ولهذا فإننا لن نقف طويلا عند طفولة صلاح الدين وأعماله قبل وصوله الى السلطة .

لقد سكنت المناطق الجبلية الواقعة في اعالي الجزيرة شمالي الموصل وشمالها الشرقي بعدد كبير من القبائل الكردية ، وكان الأكراد غالبا ما يهاجرون الى بلدان الجزيرة حيث يندمجون يسكانها ، وعندما ضعفت السلطة المركزية في بغداد ، وأخذت اطراف الدولة تنفصل ، كان من بين القوى التي تحركت بعض قبائل الأكراد ، فمنهم من تجند في واحد من الجيوش ، ومنهم من شغل نفسه بالاغارة على اراضي الامبراطورية البيزنطية ، وهكذا وجد في القرن العاشر لدى الأكراد عدد من الغزاة تجمع حول كل واحد منهم عصابة عسكرية خاصة ، واشتهر من بين هؤلاء رجل اسمه باذ استطاع - كما ذكرنا من قبل - أن يؤسس دولة في ميفارقين وديار بكر عرفت باسم الدولة المروانية (٣٧٢ - ٤٧٨ هـ / ٩٨٣ - ١٠٨٥ م) .

وفي القرن الحادي عشر عندما هاجرت قبائل التركمان من منطقة ما وراء نهر جيحون الى خراسان فالعراق والجزيرة واسية الصغرى والشام دفع التركمان أمامهم أعداد كبيرة من الأكراد ، ومع نهاية القرن الحادي عشر صار عدد العناصر الكردية العاملة في جيوش دويلات بلاد الشام والعراق والجزيرة كبيرا ، وجذبت الحروب المزيد ، لكن كان لانسياس التركمان في اسية الصغرى وارمينية وانديجان والحروب هناك مع الأرمن والكرج والبيزنطيين الأثر الأعظم في قدوم أعداد جديدة كبيرة من

الأكراد ، كما حدث مع بني شداد الذين أشرنا اليهم من قبل ، ومع تزايد الأكراد وتناقص التركمان قامت الفرص أمام الأكراد في بلاد الشام بشكل خاص لوراثته دول التركمان ، وأعني بهذا الدولة الاتابكية ، دولة نور الدين بن زنكي .

هذا وسلفت الإشارة الى عماد الدين زنكي وتأسيسه للدولة الاتابكية في الموصل ، كما سلفت الإشارة الى منجزات عماد الدين في حرب الاسترداد ضد الفرنجة ، لكن من المفيد أن نشير الى أن عماد الدين تورط في عدد من الصراعات السلجوقية في العراق ، ففي سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م هزم زنكي في العراق فانسحب بفلول جيشه نحو تكريت يريد جواز دجلة ، وكانت قلعة تكريت يحكمها ضابط كردي اسمه نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان ، وقام أيوب بتقديم المساعدات والمعابر لزنكي مما كان له عظيم الأثر على زنكي ، وبعد عودته الى الموصل أرسل زنكي له الهدايا وأخذ الطرفان يتبادلان المراسلات والسفارات ، وقد ضاق بتصرفات أيوب سادة بغداد أعداء زنكي ، واضطروا الى عزله عن ولاية تكريت ، فاضطر أيوب في ٥٣٢ هـ / ١١٣٨ م الى مغادرة تكريت ميمما شطر الموصل ، ويروى أنه في الليلة التي غادر بها أيوب تكريت ولد له مولود ذكر سماه يوسف ، وهو الذي سيظهر فيما بعد باسم صلاح الدين .

واستقبل زنكي أيوب وأسرته بترحاب وأقطعهم أقطاعات كبيرة ، وانخرط أفراد الأسرة في خدمة زنكي ، وبرز بعد أيوب أخوه شيركوه ، وبرهن على كفاءات عسكرية عالية ، وعندما احتل زنكي بعلبك سنة ٥٣٤ هـ / ١١٤٠ م عين أيوب واليا عليها وأقطعه بلثها ، وظل أيوب في بعلبك حتى مقتل زنكي ، وهنا في هذه المدينة الاستراتيجية ترعرع صلاح الدين في كنف أبيه وعمه ، وقدر أنه تلقى ما كان يتلقاه أبناء طائفته من أهل عصره من تدريبات عسكرية وثقافة عربية إسلامية (١٣) .

وبعد وفاة زنكي صارت بعلبك من أملاك دمشق ، وفي سنة

١١٥٢ م ، وكان صلاح الدين قد صار في الرابعة عشرة من عمره ، غادر بصحبة عمه شيركوه بعلبك الى حلب حيث دخلا في خدمة صاحبها نور الدين الشهيد ، وسريعا غدا شيركوه من ابرز امراء جيش تور الدين ، وقد حاز على اقطاعات خاصة ، وتجمع حوله قوة عسكرية خاصة ستعرف فيما بعد باسم الاسدية ، لان شيركوه كان يلقب بأسد الدين ، ومن المرجح ان صلاح الدين نال من عمه رعاية خاصة ، وقد رافقه بشكل دائم حتى حل منه محل النائب ، كما ان صلاح الدين قد تأثر عظيم الاثر بخلق نور الدين ومثله كلها ، وفي سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ دخل نور الدين مدينة دمشق ، فعين شيركوه شحنة - حاكما عسكريا - لها ، وفي سنة ١١٥٦ م تسلم صلاح الدين منصب نائب شحنة دمشق لفترة قصيرة ، حيث ترك عمله هذا والتحق بجيوش نور الدين وشارك في اعمالها الحربية ضد الفرنجة ، ولازم نور الدين ملازمة شديدة حتى صار من رجاله المقربين ، وقد وصف ابن ابي طي ذلك بقوله : « واستخلص نور الدين صلاح الدين ، والحقه بخواصه ، فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر ، وكان تفوق في لعب الكرة - البولو - وكان نور الدين يحب لعب الكرة » (١٣) .

وفي الحقيقة نال صلاح الدين شهرته ، وبدأ يدخل الباب العريض للتاريخ عندما رافق عمه شيركوه في حملات نور الدين على مصر .

كانت مصر آنذ مقرا للخلافة الفاطمية ، ودون الدخول بتفاصيل تاريخ هذه الخلافة تكفي الاشارة الى ان الفاطميين ضعفت قوتهم بشكل كبير وخاصة في القرن الحادي عشر ، وكان ابرز الخلفاء الذين حكموا في القاهرة في هذا القرن المستنصر بالله (١٠٣٦ - ١٠٩٤) ففي ايام هذه الخليفة هوت الخلافة الفاطمية بسرعة كبيرة .

كانت الخلافة الفاطمية خلافة شيعية عقائدية ، قام نظامها على سيطرة الامام الخليفة على كل فروع السلطة ، وعددها ثلاثة وهي : الادارة ، الدعوة الاسماعيلية والدعاة ، والجيش ، وكان الخليفة

يعين من يقوم بأعباء الإدارة غالباً باسم وزير ، أما الدعوة وإن ارتبطت بالامام مباشرة فقد كان المسؤول عنها يعرف باسم « داعي الدعاة » ، وكان داعي الدعاة هذا يرأس الحزب الاسماعيلي للخلافة الفاطمية ، ويسير جيشاً هائلاً من الدعاة الموزعين في كافة انحاء عالم اسية وشمال إفريقيا .

وكان الجيش يرأسه قائد مرتبته الثالثة في سلم الإدارة الفاطمية أي بعد الوزير وداعي الدعاة ، والخلافة الفاطمية كما هو معلوم كانت قد قامت في إفريقية (تونس) على أيدي قبائل كتامة البربرية وسواها ، وعندما استولى الفاطميون على مصر وانتقلوا إليها كان قوام جيشهم من العناصر البربرية ، لكن مع الاستيلاء على مصر اضطدم هذا الجيش بجند بلاد الشام ، وقرامطة الأحساء والبحرين ، وأتراك العراق ، فهزم ، وتبين للخلفاء عجز عساكرهم أمام عساكر المشرق ، لذلك شرعوا في تجنيد بعض العناصر التركية والعربية والديلمية ، كما استوردوا أعداد هائلة من الرقيق الأسود وأدخلوها في جيشهم ، وهكذا صار الجيش الفاطمي قوامه عدة عناصر بشرية مشرقية ومغربية وإفريقية ، ويقدر بعض الباحثين بأن عدد السودان صار حوالي ثلاثين ألفاً كونوا سلاح المشاة ، في حين أن بقية العناصر كانت من الفرسان .

ومنذ أواخر القرن العاشر بدأ جند الخلافة الفاطمية يزدون من صلاحياتهم على حساب المؤسسات الأخرى ، وفي أيام المستنصر جرت محاولات انقلابية استهدفت الحكم على الخليفة والخلافة حسب ماكان جارياً في مركز الخلافة العباسية ، ونجحت إحدى المحاولات سنة ١٠٧٤ م بقيادة ضابط من أصل أرمني اسمه بدر الجمالي ، ومنذ ذلك الحين حكم قائد الجند على الخليفة وصار سيدياً فعلياً ومطلقاً للخلافة الفاطمية يحمل من الألقاب : أمير الجيوش ، الوزير وداعي الدعاة ، وصار هذا المنصب وراثياً أيضاً ، وعندما وصل الغزو الصليبي إلى الشام كان الأفضل بن بدر الجمالي عزيز مصر وسيدها .

وقد أدى هذا إلى ردات فعل مؤثرة داخل الدعوة الاسماعيلية وقاد بعد وفاة المستنصر مباشرة إلى انشقاق الدعوة الاسماعيلية إلى شطرين : نزارية ومستعلية ، ذلك أنه عندما توفي المستنصر واجه الأفضل أمير الجيوش أمر اختيار خليفة جديد ، وكان هناك نزار الابن الأكبر للمستنصر ، وكان معيناً لولاية العهد ، والمستعلي وكان أصغر من نزار وأضعف وبدون سند أو جماعة ، فاختاره أمير الجيوش خليفة وصاهره ، وهنا هرب نزار إلى الاسكندرية ، وقام بثورة هناك ، فلاحقته قوات أمير الجيوش ، وقضت عليه وعلى حركته .

ورفضت أعداد عظيمة من الاسماعيلية خارج مصر الاعتراف بالمستعلي ، وبرز بينهم في المشرق داعية كبير اسمه حسن الصباح ، قام بتأسيس دعوة اسماعيلية جديدة عرفت باسم - الحشيشية - أعلنت الحرب على خصومها وقررت اغتيالهم طقوسياً بواسطة الطعن بالسكاكين ، ولقاربة ثلاثة قرون اغتال الحشيشية عدداً كبيراً من قادة المسلمين والصليبيين ، واستولوا في المشرق والشام على عدد من القلاع الحصينة ، وكان دورهم أيام الحروب الصليبية متميزاً (١٤) .

وفي القاهرة توفي المستعلي سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١ م فخلفه ابنه الأمر ، وفي سنة ٥٢٤ هـ - ١١٣٠ م اغتال الحشيشية هذا الخليفة فكان آخر الخلفاء الأئمة ، حيث جاء بعده أربعة تربعوا على عرش القاهرة لكن خلفاء فقط لا أئمة ، أي أن سلطتهم كانت زمانية فقط ، وضعفت مصر أيام هؤلاء الأربعة ضعفاً شديداً ، وقامت صراعات داخلية بين عدد من الجند حول السلطة والحكم ، واشتدت هذه الصراعات أيام نور الدين ، وخاصة عقب دخوله إلى دمشق ، وتنبه نور الدين إلى ما كان يجري في مصر ، وبلغه أن الصليبيين يريدون الاستيلاء عليها ، وأن بعض رجالات الصراعات الداخلية قد اتصلوا بهم ودعواهم للقدوم إلى القاهرة .

ودون الدخول هنا بكبير تفاصيل الأحداث ، يكفي أن نذكر أن

نور الدين بعث بثلاث حملات متتالية إلى مصر قادها واحدة تلو الأخرى أسد الدين شيركوه ، وشغل فيها صلاح الدين دورا ، لاشك أنه كان كبيرا جدا ، وأن دوره هذا هو الذي رشحه للزعامة ، كما أن هذه الحملات عرفت صلاح الدين على مصر ومشاكلها ، وجعلته مع القوات الأسدية ينالون تدريبات عسكرية عملية ، ولاشك أن صلاح الدين أقام في أثناء ذلك بعض العلاقات مع بعض القوى السياسية المصرية ، وخاصة المعارضة منها .

وكان من بين الذين تحكموا بمصر وزير اسمه شاوور السعدي اصطدم بوالي الصعيد واسمه ضرغام بن ثعلبة ، فهزم ، واضطر إلى مغادرة القاهرة والتوجه إلى دمشق حيث التجأ إلى نور الدين وطلب مساعدته ، ولاشك هذا اللجوء والطلب قد لاقى هوى في نفس نور الدين ، لكنه تردد في الإجابة وأقبل على دراسة القضية بجميع أبعادها ، ووضع خطة عسكرية تقضي بإرسال فرقة من قواته بقيادة شيركوه ، وبالوقت نفسه إشغال الفرنجة في الشام عسكريا حتى لا تتاح لهم الفرصة للتدخل وقطع الطريق على شيركوه ، وفي جمادى الثانية لسنة ٥٥٩ هـ / أيار ١١٦٤ م انطلق شيركوه يريد مصر ، وعندما سمع ضرغام بمسير جنود الشام نحو مصر توجه نحو الصليبيين يئشده العون ، ووصل شيركوه إلى مصر وهزم قوات ضرغام ودخل القاهرة ، فأعاد شاوور « إلى منصبه ومرتبته ، وقرر قواعده ، واستقر أمره وشاهد البلاد وعرف أحوالها ، وعاد منها وقد غرس في قلبه الطمع في البلاد ، وعرف أنها بلاد بغير رجال ، تمشي الأمور فيها بمجرد الإيهام والحال » .

وما إن استقر شيركوه في مصر قليلا حتى عرف أساليب الحكم في القاهرة ، فتركها وتحصن في بلدة بلبيس ، وأراد شاوور إخراج شيركوه فأخفق ، فاتصل بعموري ملك القدس وعرض عليه مبلغا كبيرا من المال للقدوم إلى مساعدته ، وخف عموري على رأس قواته ، وبعدما وصل مصر قام يساعده شاوور بمهاجمة بلبيس ، وتصدى شيركوه للمهاجمين واتخذ موقف الدفاع ، وقام عموري

بمحاصرته واستمر الحصار ثلاثة اشهر ، قام خلالها نور الدين - وقد أخفق في إرسال النجيدات إلى شيركوه - بضغط عسكري شديد على ممتلكات الصليبيين في الشام ، فاضطر عموري إلى التفاوض مع شيركوه ، فاتفقا على الانسحاب جميعا من مصر ، وهذا ما حصل (١٥) .

ولم ترض النتائج المتواضعة لحملة شيركوه نور الدين ، إنما وضعت في روعه أن احتلال مصر أمر لا بد منه ، وأنه يحتاج إلى قوة أكبر من التي أرسلت ، وفي مصر كان شاور متيقنا من عودة جيوش الشام لذلك « كاتب الفرنج ، وقرر معهم أنهم يجيئون إلى البلاد وبلغ ذلك أسد الدين والملك العادل نور الدين فاشتد خوفهم على مصر أن يملكها الكفار » .

وبادر نور الدين إلى تجهيز جيش جديد ، عهد بقيادته إلى شيركوه ، ومرة ثانية رافق صلاح الدين عمه ، وفي ربيع الأول لسنة ٥٦٢ هـ / كانون ثاني ١١٦٧ م انطلق الجيش نحو مصر ، وبعد صعوبات شديدة وصل إلى أطفيج على بعد أربعين ميلا من القاهرة إلى الجنوب منها ، وهناك عبر النيل وتابع سيره حتى الجيزة حيث عسكر هناك .

ووصل في الوقت نفسه جيش مملكة القدس الصليبية يقوده الملك عموري ، وعسكر تحت أسوار القسطنطينية ، بحيث تفاوض مع شاور ، فتم الاتفاق على أن يدفع شاور للفرنجة أربعمئة ألف قطعة ذهبية مقابل عدم تخليهم عنه .

وراقب الجيشان الشامي والصليبي بعضهما بعضا عبر النيل ، ولم يتعجل شيركوه المعركة ، ذلك أنه كان على معرفة بأخلاق الفرنسان الصليبيين وامتزجتهم ، فالفارس الصليبي كان لا يعرف الانضباط ، وكان عديم الصبر متهورا ، وكانت أفضل الوسائل للتعامل معه مطاوعة القتال كيما يركبه الملل فيتهور بعمل انتحاري طائش أو ينسحب ، كما كان شيركوه عنده أخبار عن قيام نور الدين بالضغط العسكري الشديد على ممتلكات الصليبيين في الشام .

وكان موقف شيركوه العام حرجا فعقد مجلسا حربيًا لدراسة الموقف ، وفي هذا المجلس كان رأي غالبية القادة الانسحاب والعودة إلى الشام وقالوا لشيركوه : « إن نحن انهزمنا - وهو الذي لا شك فيه - فإلى أين نلتجئ ويمن نحتمي وحق لعساكر عدتهم ألف فارس قد بعدوا عن ديارهم وقل ناصرهم أن ترتاع من لقاء عشرات الألوف » وعارض أحد القادة هذا الرأي وقال : « من يخاف القتل والجراح والأسر فلا يخدم الملوك بل يكون في بيته ، والله لننعدتم إلى الملك العادل من غير غلبة وبلاء تعذرون فيه ، لياخذن أقطاعاتكم ، وليعوبن عليكم بجميع ما أخذتموه إلى يومنا هذا ، ويقول لكم : اتأخذون أموال المسلمين وتفرون عن عدوهم ، وتسلمون مثل هذه الديار المصرية يتصرف فيها الكفار » ! فقال شيركوه هذا رأي ووافقه صلاح الدين ، واتخذ القرار بذلك .

وعبر جيش الفرنجة النيل ، فتراجع أمامه شيركوه إلى منطقة الأشمونين وعبا قسواته للمعركة في بقعة عرفت باسم « البابين » وكانت قوات شيركوه لا تتجاوز الألفين ، في حين أن قوات الفرنجة وشاور كانت أضعاف ذلك .

وقامت خطة شيركوه على فصل سلاح فرسان العدو عن مشاته ، وكان فرسان الصليبيين مدرعين سلاحهم الأساسي هو الرمح الغليظ الاسطوانة ، وكان الفارس الصليبي يحزم نفسه إلى ظهر فرسه ، ويسلط رمحه إلى الأمام ويمسكه بكلتا يديه أو يضعه في مكان مخصص تحت إبطه ، واعتمد قتال هذا الفارس على قوة الخرق التي كان ينالها من اندفاع فرسه ، وبطبيعة تسليحه هذا كان بحاجة إلى حماية من جنود مشاة ، كما أنه كان لا يستطيع البقاء على أرض المعركة طويلا ذلك أنه كان يصاب بالانهك ، لأن دروعه كانت تعيق تعرق جسده .

ومع أن طاقات الفارس الصليبي كانت جبارة إلا أنه كان وحيد التسليح منعدم المرونة ، ليس لديه قدرة على الانسياب .

ورتب شيركوه قواته الترتيب الخماسي المعتاد : مقدمة ، قلب ،

مؤخرة ، ميمنة ، ميسرة ، وقام بوضع جميع العتاد مع القلب حتى يظهر حجمه كبيرا وعهد لصلاح الدين بقيادة القلب ، وتسلم هو قيادة الميمنة ، وأوصى صلاح الدين وأعوانه بقوله : « فإذا حملوا عليكم فلا تصدقوهم القتال ولا تهلكوا نفوسكم واندفعوا بين أيديهم ، فإذا عادوا عنكم فارجعوا في أعقابهم » .

وانقض فرسان الفرنجة على قلب جيش شيركوه ، « فقاتلهم من به قتالا يسيرا ثم انهزموا بين أيديهم فتبعوهم » ، وهنا قامت ثغرة بين سلاحى الفرسان والمشاة لدى الفرنجة « فحينئذ حمل أسد الدين فيمن معه على « مشاة الفرنجة » فهزموهم ووضع السيف فيهم ، فأثنى ، وأكثر القتل والأسر ، وانهزم الباقون ، فلما عاد الفرنج من إثر المنهزمين الذين كانوا في القلب رأوا مكان المعركة من أصحابهم بلقعا ليس به منهم ديارا فانهزموا » .

وإثر المعركة توجه شيركوه نحو الإسكندرية فدخلها ، وترك بها حامية صغيرة بقيادة ابن أخيه صلاح الدين وتوجه هو نحو الصعيد ليجمع الخراج ، وفي أثناء هذا أعاد عموري تشكيل قواته مع قوات شاور وزحف نحو الإسكندرية ، وأثناء ذلك راسل شيركوه شاور ، وعرض عليه التعاون معا ضد الفرنجة ، ووعده أنه بمجرد طرد الفرنجة من مصر فإنه سسينسحب مع قواته عائدا إلى الشام ، ورفض شاور الاستجابة ، فقتل رسول شيركوه وأطلع الملك عموري على محتوى المراسلة .

وزحفت قوات الفرنجة وشاور على الإسكندرية والقي عليها الحصار ، وأثناء ذلك حاول عموري الذهاب إلى الصعيد لقتال شيركوه فأقنعه شاور بعدم الذهاب ، وحوصرت الإسكندرية لمدة أربعة أشهر ، صمد خلالها صلاح الدين صمودا رائعا وأظهر براعة قتالية كبيرة ، كما نجح في كسب تأييد أهل المدينة له بحيث تضافوا في الدفاع معه ، وعندما اشتد الحصار قدم شيركوه من الصعيد ، وهنا جرت مفاوضات بين عموري وشيركوه اتفقا فيها على الانسحاب جميعا من مصر ، وهكذا رفع الحصار عن الإسكندرية ، وغادر

صلاح الدين وقواته المدينة في شوال ٥٦٣ هـ / اب ١١٦٧ م ، وكان في الاتفاقية أن يتم نقل الجرحى من جيش الشام على سفن الفرنجة إلى عكا ومن هناك إلى دمشق (١٦) .

وفي دمشق ساء نور الدين انسحاب قواته من مصر ، لكنه لم يقيم بنقد شيركوه أو لومه ، بل قدر له نصره في معركة البابين ، وأخذ من جديد يعد العدة لحملة ثالثة على مصر تكون حاسمة ، وفي المقابل زاد عموري ، وقد وصلته النجدة من أوروبا ، من استعداداته لغزو مصر ، وكان قد اتفق سرا مع شاور على ابقاء حامية عسكرية في القاهرة تساعد على البقاء في منصبه ، ويقول أبو شامة في الروضتين : « وكان الفرنج قد جعلوا لهم شحنة بمصر - الفسطاط - والقاهرة ، واسكنوا فرسانهم أبواب البلدين والمفاتيح معهم وتحكموا تحكما كبيرا فطفوا في البلاد وأرسلوا إلى ملكهم مري ، ولم يكن ملك الفرنج مذخرجوا إلى الشام ، مثله شجاعة ومكرا ودهاء ، يستدعونه لتملك البلاد ، وأعلموه خلوها من ممانع عنها ، وسهلوا أمرها عليه ، فلم يجيبهم إلى المسير ، واجتمع فرسان الفرنج ، ونووا الرأي والتقدم ، وأشاروا عليه بالمسير إليها والاستيلاء عليها ، فقال لهم الرأي عندي أن لا نقصدها ، فإنها طعمة لنا ، وأموالها تساق إلينا نتقوى بها على نور الدين ، وإن نحن قصدناها لنملكها ، فإن صاحبها وعساكره وعامة أهل بلاده ، وفلاحها لا يسلمونها إلينا ويقاثلوننا بونها ، ويحملهم الخوف منا على تسليمها إلى نور الدين ، وإن أخذها وصار له فيها مثل أسد الدين ، فهو هلاك الفرنج واجلاؤهم من أرض الشام ، فلم يصغروا إلى قوله وقالوا إن مصر لا مانع ولا حافظ لها ، وإلى أن يصل الخبر إلى نور الدين ويجهز العساكر ويسيرهم إلينا نكون قد ملكناها وفرغنا من أمرها ، وحينئذ يتعنى نور الدين منا السلامة ، فلا يقدر عليها ، وكانوا قد عرفوا البلاد وانكشف لهم أمرها ، فأجابهم إلى ذلك » .

وينكر وليم الصوري أن اشاعة انتشرت في أوساط الصليبيين

مفادها ان شاوور كان يرأسل سرا نور الدين ويطلب عونه للتخلص من الصليبيين ، لذلك جمع الملك جميع قوات مملكته من فرسان ومشاة وتوجه مسرعا نحو مصر ، وفي العشرين من تشرين الثاني ١١٦٨ (ربيع الأول ٥٦٤) اجتاز بعسقلان ، وبعد عشرة ايام من الزحف عبر الصحراء وصل الصليبيون إلى بلبيس حيث حاصروها ثم اقتحموها ، وكما يقول وليم الصوري : « وضع معظم سكانها طعمة للسياف دونما اعتبار للسن والجنس ، وإذا صدف ونجا بعضهم من الموت فإنهم فقدوا حرياتهم ووضعوا على رقابهم نير العبودية التعيس ، وهو مصير بالنسبة للناس الشرفاء أسوأ من أي نوع من أنواع الموت » . وكان من بين الأسرى ابن شاوور وابن أخيه .

ويصف وليم بعد هذا المجمل تفاصيل مذابح بلبيس ، ثم يحدثنا بأن عموري أمر بهدم بلبيس ، ثم زحف يريد القاهرة ، فوصلها وأقام معسكره أمامها وبدأت آلات الحصار لديه بالعمل ، وشدد عموري الحصار وضغط على شاوور الذي ارتاع لكل ما حدث فاقدم على طرح النار في مدينة الفسطاط فأحرقها ، وظلت النيران تعمل بها مدة أربعة وخمسين يوما ، ورأسل في الوقت نفسه نور الدين ، وقام الخليفة العاضد بإرسال أجزاء من شعر بعض نساء المسلمين إلى نور الدين ، كما قام شاوور بمراسلة عموري وعرض عليه مبلغ «مليونى قطعة ذهبية مقابل اطلاق سراح ابنه وابن أخيه وانسحاب القوات إلى ديارها » وتهدده انه إذا لم يقبل سيحرق القاهرة كما أحرق الفسطاط .

وكان عموري عندما توجه نحو مصر قد أعد أسطولا كبيرا أمره بالتوجه نحو مصر ، وبالفعل وصل هذا الأسطول إلى بحيرة المنزلة ، وأخذ تديس ، وأبحر في النيل يريد الوصول إلى معسكر الفرنجة ، لكن « المصريين سدوا النيل بمراكبهم ومنعوه من العبور » وأحرقوا عددا من سفنه ، وعندما بلغت الأخبار الملك عموري قرر إرسال حملة للاستيلاء على طرف من أطراف النيل على

الأقل ، ولكن هذه الحملة لم تمض إلى تنفيذ ما رسم لها ، ذلك أن الأخبار وصلت إلى عموري بأن شيركوه في طريقه إلى مصر ، وقد أجبره هذا على تغيير الخطة ، فأمر الأسطول بالانبحار عائداً إلى البحر في الحال والعودة إلى الديار ، واستمرت الاتصالات مع شاور الذي عجل بمبلغ مائة ألف قطعة والابتعاد عن أسوار القاهرة حيث استمرت المفاوضات مع شاور .

وفي الشام كان نور الدين، عندما بلغته أخبار ما حل بمصر مع مراسلات الخليفة العاضد وشاور ، وقد أمر على الفور شيركوه بالاستعداد للسفر إلى مصر وأرفقه جيشاً قوامه « أكثر من خمسة آلاف من الرجال الأبطال وأضاف إليهم نور الدين ألفي فارس » وانطلق شيركوه مسرعاً يريد القاهرة ، ولما سمع الفرنج بنهوض عسكر الاسلام أجفلوا أجفال النعماء ورحل ملكهم إلى بلبيس ، حيث أعد ما كان يحتاجه من مؤن ، وزحف في ٢٥ كانون الأول (١١٦٨) نحو الصحراء يريد شيركوه، لكنه ما أن توغل قليلاً حتى جاءته الأخبار بأن شيركوه عبر النيل مع قواته ، ودخل القاهرة ، وهنا وجد عموري أن السبل قد سدت أمامه ، وأن البقاء في مصر - كما يقول وليم الصوري - خطر ما بعده خطر ، وأن الاشتباك مع شيركوه مغامرة لا تقل خطراً ، لذلك عاد إلى بلبيس ، ومنها في الثاني من كانون الثاني ١١٦٩ م أخذ طريق العودة نحو فلسطين .

وفي القاهرة صار شيركوه سيد مصر ، وكان عليه أن يتخلص من شاور ، لتخلص له السيادة ، وقام الخليفة العاضد بمنح الاقطاعات والأموال لشيركوه وأتباعه ، وطالب شيركوه بإقطاعه ثلث البلاد ، فمأطله شاور ، وصار من عادته أن يركب كل يوم لزيارة شيركوه ، ليغرس في قلبه الطمأنينة حتى يتسنى له الغدر به ، ويبدو أن هذه النوايا كانت متوقعة ، لذلك اتفق صلاح الدين مع عدد من القادة على الفتك بشاور ، وفي أحد الأيام جاء لزيارة شيركوه فلم يجده في مقره ، وأخبره صلاح الدين بأنه ذهب لزيارة قبر الامام

الشافعي ، وتمنى عليه اللحاق به ، فاستجاب شاوور ، وقام صلاح الدين بمرافقته ، وفي الطريق وثب عليه يعاونه بعض القادة ، فآلقوه أرضا ، وسحبوه إلى إحدى الخيم ، « فعلم أسد الدين الحال ، فعاد مسرعا ، ولم يمكنه إلا إتمام ما عملوه ، وأرسل العاضد لدين الله صاحب مصر في الوقت إلى أسد الدين ، يطلب منه رأس شاوور ويحثه على قتله ، وتابع الرسل بذلك ، فقتل شاوور في يومه (شباط ١١٦٩ م) وحمل رأسه إلى القصر ، ودخل أسد الدين إلى القاهرة ، فرأى من كثرة الخلق واجتماعهم ما خافه على نفسه ، فقال لهم : أمير المؤمنين قد أمركم بنهب دار شاوور ، فقصدوها الناس ينهبونها فتفرقوا عنه ، وقصد أسد الدين قصر العاضد ، فخلع عليه خلع الوزارة ، ولقب الملك المنصور ، أمير الجيوش ، وقصد دار الوزارة » .

وهكذا صار شيركوه سيد مصر ، وصارت مصر فعليا من أملاك نور الدين ويلقى ولیم الصوري على هذا التغيير بحسرة بقوله : « كانت جميع موارد مصر وثرواتها الهائلة وقفا على حاجتنا ، وحدود مملكتنا من تلك الناحية كانت آمنة ، ولم يكن هناك عدو نخشاه في جهة الجنوب ، وكان البحر آمنة ممراته لا خطر فيها على السفن الراغبة بالقدوم إلينا ، وكان أفراد شعبنا يدخلون أراضي مصر دونما خشية وينشطون تجاريا في ظروف مناسبة جدا ، وكان المصريون يجلبون إلى مملكتنا البضائع الجيدة والحاجات الغربية غير المتوفرة لنا ، وفي زياراتهم لنا كنا نستفيد فوائد كبيرة وترقى مكانتنا ، زد على ذلك أن المبالغ الكبيرة التي كانوا ينفقونها بيننا أغنت موارد خزانتنا وزادت من ثروتنا الخاصة .

إنما الآن إنعكست الآية وتغير كل شيء إلى الأسوأ فكيفما التفت أجد فقط أسبابا للخوف وعدم الراحة ، فالبحر يرفض إعطاءنا ممرات آمنة ، وجميع المناطق ، المحيطة بنا خاضعة لعدونا ، والممالك المجاورة تعد العدة لتدميرنا . إنما مما يؤسف له أن شيركوه لم يتمتع طويلا بمنصبه فقد توفي بعد شهرين وعدة أيام

من تولى الوزارة (٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٤ هـ - ٢٣ آذار ١١٦٩ م) ، وبعد وفاته بثلاثة أيام استدعى الخليفة ابن أخيه صلاح الدين وعينه وزيرا مكانه ، ومنحه لقب «الملك الناصر» (١٧).

ولم يكن حدث وصول صلاح الدين الى السلطة امرا عابرا ، فهو لم يتم اختياره بحكم قرابته من أسد الدين شيركوه فقط ولكن لأسباب معقدة أخرى ، فقد كان الجيش الشامي في مصر يتألف من مجموعتين : واحدة عرفت باسم الأسدية ، وكان قوامها (٥٠٠) مقاتل ، والثانية ضمت بقية الجيش وعرفت بالنورية ، وقد راس الثانية عدد من القادة ، وإثر وفاة شيركوه رشحت جماعة النورية عددا من المرشحين لخلافته ، في حين اتفقت كلمة الأسدية على ترشيح صلاح الدين ، ونظرا لتصارع قادة النورية تهيأت فرصة النجاح أمام صلاح الدين فنال منصب الوزارة ثم قيادة الجيش مكان عمه ، ورفض عدد من قادة النورية اختيار صلاح الدين ، ولذلك لم تكن الأمور سهلة أمامه لدى وصوله إلى السلطة .

كان عليه أولا أن ينال تأييد قادة الجند الشامي ثم ينطلق لمواجهة مشاكل مصر ، وكانت كثيرة ، يتصدرها قصر الخلافة والجيش ، ثم كان عليه أن يوجد صيغة للتعامل مع نور الدين ، فقد ظهرت مطامح صلاح الدين الاستقلالية بشكل مبكر ، وحرصها الجهاز الذي تكون حوله .

لقد كان على صلاح الدين أن يوجد الحلول لجميع المشاكل ضمن ظروف صعبة جدا ، ووسط التهديد الصليبي الدائم ، ذلك أن الصليبيين ما كانوا ليسلموا لخسارة مصر ، بل على العكس من الملاحظ أن توجهاتهم صارت مصرية بالدرجة الأولى ، وهذا ما نراه في أخبار « الحملات الصليبية » المقبلة .

وفي البداية تمكن صلاح الدين من ارضاء غالبية القوات النورية ، والذي رفض ترك مصر وعاد إلى الشام ، وبعد هذا التفت نحو قصر

الخلافة ، حيث عرف أن بعض كبار رجاله راسلوا ملك القدس ودعوه إلى مصر ، وقد تمكن صلاح الدين في الوقت المناسب من ضبط أمور القصر ، لكن هذا قاده إلى الصدام مع القوات السودانية في الجيش الفاطمي ، وكان تعدادها أكثر من ثلاثين ألفا .

فقد ثار هؤلاء في القاهرة وأخذوا يحدثون الشغب والتحريق في مناطق المدينة ، وتحرك صلاح الدين ضدهم بسرعة وتمكن بواسطة قواته المنظمة من نفيهم من القاهرة ، وبذلك صفت له الأمور .

ولكن ما لبث في سنة ٥٦٥ هـ / ١١٧٠ م أن وصلته أخبار عن تجهيز حملة برية بحرية قوامها جيوش مملكته القدس مع نجدات من بقية الممالك ومن الأمبراطورية البيزنطية ، وقام صلاح الدين بإرسال النجدات إلى دمياط ، واعتنى بشؤون الدفاع عنها ، وكان لدمياط خط دفاعي متقدم ، فقد بنوا على طرفي مجرى النيل ، بعيدا عن أسوار المدينة أبراجا دفاعية ووصلوا بين هذه الأبراج بسلاسل ضخمة ، كانت تشد وقت الحاجة فتحول بين الأساطيل الغازية وبين الوصول إلى الأسوار .

ويقدم لنا ولیم الصوري تفاصيل كبيرة حول حصار دمياط لا نجد مثيلا لها لدى المؤرخين العرب ، فهو يخبرنا بأن المقاومة كانت شديدة جدا ، وأن المؤن والنجدات كانت تصل بشكل متواصل من القاهرة ، ويعني هذا أن الحصار لم يكن محكما ، وطال الحصار ، وانعدمت المؤن لدى الصليبيين وكان المحاصرون يقلعون بين الحين والآخر بهجمات صاعقة على معسكر الصليبيين ، من ذلك أن أسطول الغزاة رست سفنه في مكان ظنوه مناسبا ، وفي أحد الأيام وجد المدافعون « بأن اتجاه الريح كان من الجنوب وأن أمواج النيل تهدر بعنف ، فاستنموا الفرصة ، وقاموا بجلب مركب عادي وشحنوه بالأخشاب اليابسة مع الأسفلت والمواد سريعة الاحتراق ، ووضعت النار في القارب ، ودفع إلى النهر حيث قاده التيار بسرعة كبيرة نحو الأسطول » وقد أدى هذا إلى إحراق عدد كبير من السفن الكبيرة .

ومع مرور الأيام وجد عموري انه ليس فقط من العبث بل من الخطر الكبير البقاء في مصر ، لذلك اتخذ قرارا بالانسحاب وذلك بعد حصار دام حوالي الشهرين.

لا شك أن نجاح صلاح الدين في مواجهة مجمل هذه المشاكل ، أظهر معدن الرجل ، وجاء مؤشرا بالنسبة لمستقبل الأيام ، ولعل هذا زاد من النزعات الاستقلالية لديه ، وأدى إلى توتر العلاقات بينه وبين نور الدين ، وكان بالتالي محرضا لصلاح الدين للقيام بتمتين مركزه في مصر بالذات ثم القيام بالاستيلاء على أراضي ليبيا ، وقد قاده هذا إلى الاصطدام بسلطات الامبراطورية الموحدية في تونس ، مما كان له بعض الأثر على سياسة الموحيدين في الأندلس ، ثم رفضهم التعاون مع صلاح الدين ضد الصليبيين فيما بعد .

واهتم صلاح الدين بالبحر الأحمر ، فسعى للسيطرة عليه وعلى شواطئه ، ذلك أن مصر الفاطمية كانت تمتلك أسطولا خاصا ، والاهتمام بالبحر الأحمر جر صلاح الدين إلى الاهتمام بشبه جزيرة العرب ، حيث أرسل حملة إلى اليمن فاحتلها كما أخذ يهتم بالحجاز ، ومدينتيه المقدستين - مكة والمدينة - وعندما شعر صلاح الدين بمتانة مركزه أقدم على خطوة سياسية جريئة جدا ، وهي إلغاء الخلافة الفاطمية ، فقد أمر الخطباء في أول جمعة من محرم سنة سبع وستين وخمسمائة (٥٦٧ هـ / ١١٧١ م) بقطع الخطبة للخليفة الفاطمي واستبدالها للخليفة العباسي ، والحق عمله هذا بجرد محتويات قصر الخلافة في القاهرة وبيعها وتصفية جميع ممتلكات الأسرة الفاطمية وأسبابها (١٨).

إن مجمل الأحداث التي مرت بصلاح الدين منذ وفاة عمه وحتى تاريخ الغائه للخلافة الفاطمية فيه ما يبرهن على عبقريته وفيه في الوقت نفسه ما يشير إلى أنه ملك من الامكانات ، خاصة الادارية والعسكرية والاقتصادية ما ساعده على النجاح .

فعلى الصعيد الاداري ورث صلاح الدين من عمه ادارة خاصة

ناشئة ترأسها القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني ، وكانت قدراته الادارية والثقافية عالية ، وله خبرة مسبقة بالادارة الفاطمية لمصر ، وقد رافق القاضي الفاضل صلاح الدين منذ بداية حياته السياسية في مصر ، وظل معه رئيسا حتى النهاية .

ولا شك أن وجود الادارة الناجحة الى جانب صلاح الدين ساعد على مواجهته للمشاكل العسكرية والمالية ، فصلاح الدين ورث من عمه افراد الحملة التي جاءت من الشام ، وكان فيها حوالي ٨٠٠٠ مقاتل ، لكن كما سلفت الاشارة انسحب جزء من افراد هذه الحملة إلى الشام بعد تسلم صلاح الدين للوزارة ، وجاء اعتماد صلاح الدين أساسا على الجماعة الأسدية التي كان عددها ٥٠٠ مقاتل ، وخلال فترة وجيزة شكل صلاح الدين فرقة جديدة باتت تعرف باسم الصلاحية لا ندري تعدادها في البداية ، حيث أن المصادر لم تأت لها على ذكر ، إنما أشارت بعض المصادر إلى أن صلاح الدين أنفق سنة ١١٦٩ على قواته الجديدة مبلغا قدره (٥٠٠ ، ٤٨٧ ، ١) ديناراً ، ومن خلال بعض النصوص يتبين لنا بأن النفقة الاجمالية للمقاتل الواحد كانت قرابة « ٤٢٥ » دينار للعام الواحد ، ومن خلال عملية حسابية بسيطة يمكن أن نقدر أن عدد القوات التي جندها صلاح الدين سنة ولايته للوزارة في مصر كانت حوالي ٣،٥٠٠ ومع الأيام تضاعف عدد هؤلاء ، ففي عام ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م كان تعداد قوات صلاح الدين النظامية من الفرسان حوالي ١٤،٠٠٠ وكانت نفقاتهم حوالي ٤٥ مليون دينار ، إنما لم تقتصر قوات صلاح الدين على الفرسان النظاميين فقط ، فقد كان هناك بالاضافة لهم المتطوعة وفرسان القبائل العربية ، ففي هذه السنة عندما استعرض صلاح الدين فرسانه « عرض العربان الخدامين فكانت عدتهم سبعة آلاف فارس » .

لقد انحدر جل جند صلاح الدين من أصول اسلامية مختلفة ، او كانوا من الرقيق الأبيض المستورد ، وكان الجميع قد استعربوا وذابوا في جسم المجتمع العربي ، هذا المجتمع الذي تحمل افراده

الوزر الحقيقي والنفقات الكاملة للحروب الصليبية ، فمنه جاء رجال الإدارة والصناعة والعلماء والفقهاء والمخترعون والتجار ، وأفراد هذا المجتمع قدموا أعدادا كبيرة جدا من المتطوعين العسكريين وضح أثرهم في أكثر من معركة ، ويمكن أن نرى نماذج منها في أخبار تحرير الرها وفي معركة حطين ثم ملحمة عكا أثناء التصدي لما يعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، وفوق هذا كله لقد مول أفراد المجتمع جميع نفقات حروب التحرير ، وأفراد هذا المجتمع هم الذين حولوا بنية « الاقتصاد العربي » إلى « اقتصاد حربي » مسخر كليا للتصدي والتحرير.

ومن المؤكد أن صلاح الدين مع عدد كبير من جنده كانت أنساب أسرهم غير عربية ، وقد تصدروا الواجهة العسكرية للمجتمع العربي ، على أساس قيامهم بالمهام الجهادية ، فلقد كانت وشائج المجتمع العربي أيام صلاح الدين دينية ، وكان المسوغ الشرعي لتحكم الجند هو القيام بأعباء الجهاد في سبيل الله ، وفي ظل هذا المسوغ تحمل أفراد المجتمع في المدن والأرياف لقرون طويلة الكثير من التجاوزات مع نفقات جميع الحروب ، ومن المقدران الجند كما قلنا كانوا أثناء قيامهم بمهامهم الجهادية قد استعربوا كليا ، ووجد بينهم من كانت أسرته قد استعربت منذ جيلين أو أكثر ، وإذا ما أخذنا هذا بعين الاعتبار ، وراعينا العلاقة العضوية بين العروبة والإسلام ، وتذكرنا دور أفراد المجتمع العربي ، نرى محصلة منطقية : إن أعمال الجهاد للتحرير والتصدي للغزو الصليبي كانت عربية صرفة ، ومع هذا لا بد من تبيان أن العسكريين المسلمين أيام الحروب الصليبية ، وإن كانوا إحدى محصلات تطور المؤسسة العسكرية العباسية منذ أيام الخليفة المعتصم ، فإنهم في فترتنا كانوا يتصرفون ضمن نواظم مالية خاصة لم تكن قائمة أيام المعتصم ، فهذه النواظم ظهرت في العصر البويهسي ، وتطورت أركانها وتوطدت في العصر السلجوقي ، وقامت على ما عرف باسم الاقطاع العسكري ، وبموجب ما حدث في العصر السلجوقي وأيام الحروب الصليبية منح مقدم كل جماعة عسكرية ، تركمانية أو كردية

أو سوى ذلك ، قطعة من الأرض ، كان ينال نصيبا من مواردها ، فينفقه على نفسه وعلى عدد معين من المقاتلين كانوا يصحبونه وقت الحاجة ، وقد كانت لهذا أثاره السلبية على مواعيد الحروب وتوقيتها ، كما كانت له أثاره البعيدة على فعالية السلطة المركزية للدولة ، وسبب مشكلة دائمة في الفرق بين العدد النظري والفعلي للجيش (١٩).

ولابد أن المؤسسة العسكرية التي أقامها صلاح الدين بحجمها الكبير المتزايد احتاجت إلى نفقات مالية عالية ، ومؤكد أن موارد مصر وامكاناتها كانت كبيرة ، إنما عندما تسلمها صلاح الدين كانت البلاد نظرا لما مر بها من أزمات ، خزانها على حافة الإفلاس ، ويروى أن صلاح الدين عندما تسلم وزارة القاهرة ، ورث عن عمه مبلغا معتبرا من المال ، ثم إنه عندما قام بالغاء الخلافة الفاطمية كانت الأموال المحصلة من محتويات قصر الخلافة ضخمة ، والغاء هذه الخلافة مع تصفية جيوشها وإدارتها مكن من توفير كميات معتبرة من الأموال ، يضاف إلى هذا كله أن صلاح الدين قام ببعض الإصلاحات الإدارية ، وأعاد توزيع الأراضي المقطعة ، وهكذا توفرت له احتياجات نفقاته.

وبرغم جميع ما حققه صلاح الدين في مصر ، فقد كان من الناحية الرسمية تابعا لنور الدين ، لذلك كان عليه أن يبعث بالأموال إليه مساهمة في أعمال الجهاد التي كان نور الدين قائما بها ، وأرسال الأموال لنور الدين كان معناه تعطيل مشاريع صلاح الدين في مصر ، لذلك تضرر نور الدين من قلة ما أرسله له صلاح الدين ، ففي سنة ٥٦٨ هـ / ١١٧٢ م أرسل صلاح الدين إلى نور الدين رسولا حمله شيئا من مصادرات قصر خلافة القاهرة «فشكر نور الدين همته ، وذكر بالكرم شيمته ، ووصف فضيلته ، وفضل صفته ، وقال : ما كانت بنا حاجة إلى هذا المال ، ولا نسد به خلة الاقلال ، فهو يعلم أنا ما أنفقنا الذهب في ملك مصر ، وبنا إلى الذهب فقر ، وما لهذا المحمول في مقابلة ما جدنا به قدر ، وتمثل بقول أبي تمام :

لم ينفق الذهب المربى بكثرتة

على الحصا وبه فقر إلى الذهب

لكنه يعلم أن ثغور الشام مفتقرة الى السداد ، ووفور الأجناد ، وقد عم بالفرنح بلاء البلاد ، فيجب أن يقع التعاقد على الامداد بالمعونة والامداد ، فاستنزره وما استغزره واستقل المحمول في جنب ما حرره ، وتروى فيما يدبره ، وأفكر فيما يقدمه من هذا المهم ويؤخره .»

وقرر نور الدين ارسال وزيره الخاص إلى القاهرة «وامره بعمل حساب البلاد واستعلام أخبارها وارتفاعها ، وأين صرفت أموالها ، فإذا حصل جميع ذلك قرر على صلاح الدين وظيفة يحملها في كل سنة».

وقد أدى هذا كله إلى توتر العلاقات بين نور الدين وصلاح الدين ، ووصل التوتر الذروة في العام نفسه (١١٧٢ م) ذلك أن نور الدين قرر القيام بحملة حاسمة ضد الفرنجة الشام «فأرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج والنزول على الكرك ومحاصرته ، ليجمع هو أيضا عساكره ويسير إليه ، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والاستيلاء على بلادهم ، فبرز صلاح الدين من القاهرة وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز ، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو ، فلما أتاه الخبر بذلك رحل عن دمشق قاصدا الكرك ، فوصل إليه ، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه ، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه لاختلال وضع البلاد ، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها ، فلم يقبل نور الدين عذره .

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين ، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عذره ، وعزم على الدخول إلى مصر ، وأخرج صلاح الدين عنها ،

فبلغ الخبر صلاح الدين ، فعقد مجلس استشارة ضم أهله وعلى رأسهم والده مع كبار أعوانه ، وبعد مناقشات طويلة نصح صلاح الدين بالعمل على استرضاء نور الدين ومدافعة بالأيام ، وبالفعل أرسل صلاح الدين إلى نور الدين رسالة اعتذار مع هدية كبيرة ، فسكن غضب نور الدين ، إنما مؤقتا وظل الحال بينهما هدنة على دخن ، فقد بقي في نية نور الدين عزل صلاح الدين عندما تحين الفرصة ، ولكن هذه الفرصة لم تحن ذلك أنه توفي بشكل مفاجيء في دمشق «يوم الأربعاء الحادي عشر من شوال من سنة تسع وستين وخمسمائة» (١٥ - أيار ١١٧٤ م) لقد واجه حادث وفاة نور الدين في دمشق صلاح الدين بقضية مماثلة من حيث الجوهر لتلك التي واجهته إثر وفاة عمه شيركوه ، إنما وإن وجد الشبه في جوهر القضيتين ، فإن الفوارق بينهما كانت شاسعة تفوق المسافة ما بين دمشق والقاهرة ، فسورية سياسيا ليست مثل مصر ، ليس بسبب وجود الاحتلال الصليبي فيها ، ولكن لبنيتها الخاصة الجغرافية والسياسية والاجتماعية وحتى الدينية.

والباحث في حياة نور الدين المتميزة يلاحظ أن الذي واجهه من الجانب الصليبي كان عموري الأول ملك القدس ، وكان عموري قائدا متميزا أيضا ، له مطامع توسعية كبيرة ، وقد أحبط مشاريعه كلها نور الدين ، لذلك عندما بلغه خبر وفاة نور الدين شعر بأن الأقدار أعطته فرصة ثمينة ، فقرر الإمساك بها دونما تقاعس ويقول وليم الصوري : «عندما سمع الملك بسوفاته - أي نور الدين - حشد جميع قوات المملكة وبدأ بحصار مدينة بانياس» وكانت بانياس تشكل الخط الدفاعي الأول لدمشق ، بحيث يبدو أن عموري استهدف مدينة دمشق فاصطدم أولا ببانياس ، وقاومته المدينة بعنف شديد ، وأثناء حصاره لها تلقى رسالة من «أرملة نور الدين التي تحلت بشجاعة فاقت بها جميع الذنساء» تطلب منه رفع الحصار والانسحاب ، وبعد حوالى الأسبوعين اضطر إلى الاستجابة ، وانسحب عائدا نحو القدس ، وفي طريق العودة شعر

بالمرض ومسع وصوله للقدس فـارق الحياة
في (١١ - تموز ١١٧٤ م) (٢٠).

والسبب الذي جعل أرملة نور الدين تقدم على مراسلة عموري ،
هو أن نور الدين خلف بعده صبيا صغيرا عرف باسم الصالح
اسماعيل ، وبسرعة كبيرة أعلن ابن نور الدين خليفة له في دمشق ،
إنما هذا التحرك السريع لا يمكن أخذه مؤشرا على الوفاق
والانسجام بين أركان دولة نور الدين في دمشق بل العكس هو
الصحيح ، فقد شهدت دمشق في تلك الفترة العصبية صراعا عنيفا
حول الوصاية على الصالح اسماعيل .

وكما حدث في دمشق ، حدث في القدس ، فقد خلف عموري صبيا
صغيرا عرف باسم بلدوين الرابع ، أعلن عقب وفاة والده ملكا على
القدس ، وشهدت القدس الآن صراعا حول الوصاية على العرش ،
وبخلت قوى كثيرة محلية وخارجية حلبة الصراع ، وقد وصف لنا
وليم الصوري أخبار ما حدث بكل تفصيل ، وتحدث عن الملك
الصببي ، الذي عهد إليه أمر تربيته ، وكيف أنه عرف فيما بعد أنه
مصاب بالجذام ، مما أعجزه وسبب موته .

وفي دمشق اشتد الصراع حول التحكم بوريث نور الدين وعطل
هذا الأعمال القتالية ضد الصليبيين ، وفي القاهرة كان صلاح الدين
يرقب باهتمام ما يجري في الشام ، وقد حاول التدخل بواسطة
الرسل والمراسلة أكثر من مرة ، وأخيرا قرر الذهاب إلى دمشق
ورئاسة مملكة نور الدين خوفا من بعثرة أراضيها وهدر طاقاتها.

إن تحرك صلاح الدين نحو بلاد الشام يمكن أن يفسر من بعض
الوجوه ، على أنه تطبيق لسياسة مصر المستقلة القوية تجاه بلاد
الشام أكثر من أنه عمل غنثه المصالح الفردية ، فمصر كلما استقلت
وشعرت بالقوة تسعى للسيطرة على بلاد الشام ، ذلك أن مصر كما
هو معلوم - برغم وجودها في إفريقيا - ليس لها حدود طبيعية مع
بلاد الشام ، وقد غزيت دائما عن طريق سورية ، لذلك عمل حكام

مصر المستقلة دائما على احتلال سورية ، ومواجهة الغزاة بعيدا عن أرض مصر ، وتاريخ مصر الإسلامية منذ قيام الدولة الطولونية فيه برهان على صحة هذا ، ولعل في حياة صلاح الدين مثل قريب ، فهو قد قدم من سورية ، وقضى على الخلافة الفاطمية ، وأحل محلها نواة دولة أسسها هو ، وبعد ما فعل ذلك شعر بأن المخاطر ضد حكمه سيظل مصدرها بلاد الشام ، وعلى هذا الأساس فسر بعض المؤرخين تقاعسه عن تلبية دعوة نور الدين للاجتماع به عند أسوار الكرك ، حيث أن الكرك كانت تشكل حاجزا كبير الفعالية بين مصر والشام ، ذلك أن حكام مصر المستقلة عندما كانوا يواجهون حكما قويا في الشام لا يمكنهم قهره ، ويخشون منه على وجودهم ، كانوا يعمدون إلى المحافظة على قوة أو دولة حاجزة Buffer state بينهم وبين الشام.

ويلاحظ أن مصر المستقلة كانت تنجح أحيانا في احتلال بلاد الشام ، إنما غالبا ما كانت تخفق بالاحتفاظ بالمناطق الشمالية من هذه البلاد ، ولذلك كانت تتساهل مع الشمال ، لكن لا تتساهل مطلقا مع استقلال الجنوب ، لأن مثل هذا الاستقلال كان فيه تهديد مباشر وخطير للحكم فيها ، ولعل خير ما يوضح هذا وصية مشهورة قالها يعقوب بن كلب للخليفة العزيز الفاطمي ، ثاني خلفاء الفاطميين ، في القاهرة ، قالها وهو على فراش الموت : « سالم الروم ما سالموك ، واقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، ولا تبقي على دغفل بن جراح إن عرضت لك فيه فرصة » ، وقد قصد ابن كلب بالروم الدولة البيزنطية ، وبالحمدانية حكام حلب ، حيث قنع منهم بالاعتراف الشكلي ، وبدغفل بن جراح ، أمير قبائل طيء في فلسطين الذي كان يطمع بالاستقلال (٢١) بالرملة وتأسيس دولة طائفة فيها .

الفصل الثالث

المرحلة الثالثة من حروب الاسترداد في الطور الثاني

(مرحلة دمشق)

قبل أن يتحرك صلاح الدين باتجاه بلاد الشام غادر الصالح اسماعيل بن نور الدين دمشق وتوجه إلى حلب ليعتصم بها ، ولهذا عندما وصل صلاح الدين إلى دمشق دخلها دون أية مقاومة ، ولم يكتفب صلاح الدين بها ، كما أن المتحكمين بدولة الصالح اسماعيل لم يسلموا لصلاح الدين وواجهوه بالعدوان ، ولذلك ، ولطامح صلاح الدين بملك واسع غادر دمشق وقصد الشمال ، وخاض صلاح الدين العديد من المعارك ضد سلطات حلب وبلدان الجزيرة بما في ذلك الموصل والعديد من مدن الجزيرة ، وبعد سنوات حروب طوال تحقق لصلاح الدين إعادة توحيد بلاد الشام شمالا وجنوبا مع مصر تحت حكمه ، إنما يلاحظ أنه حدث مع صلاح الدين ما حدث مع الفاطميين وغيرهم قبله ، فقد تضاعف نفوذه على شمال بلاد الشام ، وكان العامل الفعال الآن ليس قوة شمال بلاد الشام كما كان فيما سلف ، ولكن قوة الاقطاع العسكري وتكتلاته.

ومهما قيل عن حروب صلاح الدين في بلاد الشام عقب وفاة نور الدين ، فإن هذه الحروب قد حسمت مادة القوضى في البلاد وحالت في الوقت نفسه بين الفرنجة وبين أي توسع في الشام أو سواها ، أو الاستفادة بأي شكل أو درجة من الأوضاع التي كانت سائدة قبل النصر النهائي له ، وعندما حقق صلاح الدين سيادته الكاملة على الشام صار سييدا لدولة عظمى تمتد من ليبيا إلى جنوب الموصل ، وتشمل مع بلاد الشام : الجزيرة ومصر والحجاز واليمن وطبعا ليبيا أو الشريط الساحلي منها . .

ولقد ملكت هذه الدولة ما يكفي من طاقات بشرية واقتصادية للأعداد للقيام بعمل حاسم ضد الصليبيين ، وأيقن صلاح الدين أنه قد حان الوقت لمنازلة جميع القوى الصليبية في المشرق في أرض معترك واحدة ، وفي ظروف مختارة بشكل يناسب ويمكن من النصر ، وخلال زمن موافق ، يتيح أحراز نصر ساحق ضد القوات المعادية .

ويلاحظ أن هذه الفترة قد شهدت يقظة كبيرة في جميع الميادين الحضارية ، تجلت بشكل واضح في مجالات العلوم العسكرية وفنون القتال ، فقد تم تحسين عدد كبير من الأسلحة ، خاصة النارية منها - النفط - النار الاغريقية - ومن حيث رفع مستوى التدريب والمقدرة القتالية الهجومية لدى قوات صلاح الدين ، كما أن دولة صلاح الدين ملكت اقتصادا عسكريا متينا ، فرغم جميع المآخذ على الاقطاع العسكري إلا أن اعتماده كان من معانيه تسخير الموارد الزراعية لصالح العمل العسكري ، هذا وملك صلاح الدين نواة اسطول أنت سفنه بعض الخدمات ، إنما على العموم عانت دولة صلاح الدين من النقص في الأخشاب والفولاذ ، ونتيجة لذلك كثيرا ما اضطرت إلى الاعتماد على تجارة التهريب - السوق السوداء - التي كانت تمارسها بعض جمهريات إيطاليا التجارية - جنوا - البندقية - بيزا .

وكان الصليبيون يمتلكون آنذاك الشريط الساحلي لبلاد الشام ابتداء من انطاكية ، وكان عرض هذا الشريط لا يتجاوز أحيانا الثمانين كيلو مترا ، وكانت أراضيهم موزعة بين دول ثلاث مراكزها : انطاكية ، والقدس ، وطرابلس ، وكانت هذه الأراضي محاطة من ثلاث جهات بالأراضي العربية ، حيث وجدت مدن بلاد الشام الكبرى مثل : دمشق ، حمص ، حماه ، بعلبك ، حلب ، وكانت هذه المدن واقعة على مقربة من «الحدود الصليبية» كما كان معظم سكان المناطق الواقعة في حوزة الصليبيين من العرب السوريين ، علاقتهم بالصليبيين علاقة الغرباء ، دون أية روابط اجتماعية أو سواها .

وقامت خطط صلاح الدين في رصد الصليبيين رصدًا جماعيًا وافراديا ، فهو قد استقر في دمشق ، وأقام في كل من حمص وحماه نواة مملكة اقطاعية أيوبية ، وكان على هاتين المملكتين رصد امارة طرابلس الصليبية ، كما جعل من حلب مقرا لمملكة أيوبية ثالثة مهمتها رصد امارة انطاكية الصليبية مع الامبراطورية البيزنطية ، وكانت مهمة صلاح الدين ذات شقين على الأقل ، رصد مملكة القدس والاشراف العام على دولته التي بلغت هذا الحجم الامبراطوري . وكانت المساعدات البشرية والحربية والاقتصادية ترد إلى الصليبيين من أوروبا بلا انقطاع عن طريق الأراضي البيزنطية وعن طريق البحر ، فقد كانت الاساطيل الأوروبية تملك السيادة على شواطئ البحر المتوسط خاصة الأوروبية والشرقية ، وكانت امكانات صلاح الدين البحرية اضعف من أن تخوض معركة مواجهة مع هذه الاساطيل .

لكن اذا كان اسطول صلاح الدين اضعف من اساطيل أوروبا فقد ملك عرب المغرب اساطيل جبارة ، وكان بإمكانها لو تعاونت مع اسطول صلاح الدين تقديم خدمات كبيرة جدا ، فلقد كان هناك اسطول امبراطورية الموحدين ، وكان الموحدون يخوضون غمار حرب ضروس ضد الصليبيين في جبهة الأندلس .

وبفطرة الشعور بوحدة المصير ، ووحدة المعركة ، وجد انذاك مواطنون عرب من مدن المغرب والمشرق كان بعضهم يغزو عامما في فلسطين وآخر في الأندلس ، من هذا المنطلق راسل صلاح الدين يعقوب المنصور الموحدى بسفارة سامية المستوى ، واستقبل المنصور الموحدى السفارة في مراكش ببعض من الحفاوة ، لكنه لم يلن المطلب الذي جاءت من أجله السفارة وذلك لأسباب عقائدية ، وسياسية تتعلق بالتوسع الأيوبي في ليبيا وبالعلاقات الموحدية العباسية ، ذلك أن الموحدين اعتبروا أنفسهم خلفاء لا ملوك عاديين ، لكن صلاح الدين لم يعترف بذلك بل اعترف بخلافة بني العباس فقط .

واعتمد الصليبيون في كثير من الحالات على حماية الامبراطورية البيزنطية ومساعدتها لهم ، وكانت هذه الامبراطورية القوية تسعى دائما للتنسيق مع الصليبيين والاستفادة من نشاطهم ، يضاف الى هذا ان الصليبيين ركنوا في كثير من الاحيان على المساعدات التي كانت تأتيهم من ارمينية ، و احيانا من بعض موارنة جبل لبنان .

ومفيد هنا ان ننكر ان الصليبيين حققوا نجاحاتهم المبكرة بسبب تمزق العرب ، وانصراف حكامهم الى النزاعات الداخلية ، لكن في أيام صلاح الدين انعكست الآية وانقلب السحر على الساحر ، فلقد توحد القطاع الأكبر من العرب تحت راية صلاح الدين ، واخذت الفرقة تحل بين صفوف الصليبيين اجتماعيا وحضاريا واقتصاديا ، كما اخذ التمزق يبذل قوى قادتهم سياسيا ، وكانت الروح المتوقدة التي ظهرت بين صفوف طلائع الصليبيين قد خمدت ، كما ان الفوارق بدت جلية بين ابناء الصليبيين الذين نشأوا في الشام ، وبين هؤلاء الذين قدموا حديثا من اوروبا ، وظهر بين صفوف الصليبيين عامة منظمات عسكرية دينية اصطلحت مصالحها في كثير من الاحيان وتعارضت سياسيتها ، كما جلب الصليبيون معهم الى الشام نظم الاقطاع التي كانت سائدة في اوروبا ، لهذا تضاعفت سلطات ملوك الدول الصليبية على الفرسان الاقطاعيين الذين تركزوا في بعض قلاع الشام ، ولم تعرف جيوش الفرنجة انظمة الطاعة والضبط والربط ، يضاف الى هذا ان بعضا من الاقطاعيين تطلع نحو عرش احدى الدول الثلاث وحكمه حكما مباشرا او على شكل وصاية .

وقام صلاح الدين في كثير من المناسبات ، وببراعة متناهية بتوسيع شقة الخلافات بين قادة الصليبيين ، كما كثف النشاط العسكري ضد القلاع ، مستهدفا تدمير الفرنجة اقتصاديا ، ليكون ذلك مقدمة للتدمير العسكري والسياسي ، وتركزت في البداية جهوده على حماية منطقة دمشق ، وذلك بتحرير اراضي الجولان مع منطقة جبل عامل وبعليك ثم الاشراف على الطريق البري الواصل بين مصر

والشام ، وكان للصليبيين على هذا الطريق حصن الكرك ، فجهد صلاح الدين في سبيل الاستيلاء عليه (١) .

لقد شهد وليم الصوري جميع هذه الأحوال المتغيرة ، وتملكه رعب شديد دفعه الى التنبؤ بأن مملكة القدس آيلة الى الدمار ، وقد قام هذا المؤرخ الكبير بوصف تحليلي للموقف مفيد الاطلاع عليه برمته : «ينبغي علي هنا ان انحرف عن مسار روايتي ، ليس لأتجول هنا وهناك دونما هدف ، بل لتقديم شيء ثمين ، فالأسؤال الذي أسأله دائما بحق هو : لماذا كان أجدادنا ، يتمكنون بشجاعة من التصدي في المعركة ، وهم أقل عددا لقوات عدوة أكبر منهم بكثير ، وغالبا - بنعمة الرب - ما كانت قوة صغيرة من قواتنا تحطم حشودا كبيرة للعدو ، حتى صار نتيجة لهذا اسم الصليبيين يبعث الرعب في قلوب الأمم التي لا تعرف الرب ، وهكذا تجلت عظمة الرب في أعمال أجدادنا ، وعلى العكس من هذا نجد رجال عصرنا غالبا ما تلحق بهم الهزيمة من قبل قوات أصغر منهم لا بل عندما يكونون بأعداد أكبر ويحاولون تنفيذ بعض المهام ضد الأعداد الأقل قوة منهم ، فإن جهودهم تتبدد وهم غالبا ما يجبرون على الهزيمة .

إن السبب الأول الذي يبرز أمامنا ، بعد دراستنا لهذه الحالة بشكل دقيق ، بمعونة الرب خالق كل شيء : هو أن أجدادنا كانوا أتقياء يخشون الرب لكن نما الآن في مكانهم جيل شرير انغمس بالاثم وسار في طريق الموبقات دونما رعاية أو تمييز ، إنهم مثل ، أو بالحري أكثر ، ممن قال عنهم الرب : « ابتعدوا عنا ، لأننا لا نريد أن نعرف طريقهم » ، إن هؤلاء قد حرّمهم الرب بسبب ذنوبهم من رعايته لأنهم أثاروا غضبه ، إنهم رجال العصر الحالي ، خاصة أولئك الذين يقطنون في الشرق ، فإذا ما أراد المرء أن يصف بدقة أخلاقهم ، أو بالحري آثامهم المرعبة ، سيعجز أمام ركام المواد المتوفرة أمامه ، وبكلمة موجزة هو سيبدو وكأنه يكتب عن الموبقات وليس يصنف كتابا في التاريخ .

وسبب ثان يبرز أمامنا هو أن رجال السلف المبجلين الذين جاءوا

الى اراضي المشرق كانت تدفعهم غيرتهم الدينية وأرواحهم المتوقدة بالحماس لمعتقدهم ، وكانوا معتادين على الانظمة العسكرية ، مدربين في المعارك ويدرسون استخدام الأسلحة ، وفي المقابل كانت شعوب الشرق على عكس ذلك ، حيث أنها عاشت طويلا وادعة مع السلم ، وابتعدت عن الحرب وكانت معتادة على فنون القتال ، ولا تعرف احكام المعركة وتنعم بالهدوء والراحة ، ولهذا لم يكن مستغربا أن تتمكن جماعة قليلة من الرجال بسهولة من هزيمة جماعات اكبر منها ، ومن ثم تفخر وتعتز برايات النصر ، لأن في مثل هذه المسائل - كما يعرف خبراء الحرب أحسن مني - الربح في السلاح مقرون بطول الممارسة ، فعندما تواجه قوة غير مدربة ، وليس لديها صبر فانت في العادة الراجح.

وسبب ثالث ليس أقل أهمية وتأثيرا يفرض نفسه على مداركي هو أنه كان لكل مدينة شرقية فيما مضى حاكمها الخاص ، ولنقل على طريقة أرسطو لم يكن هؤلاء يعتمدون على بعضهم بعضا ، ونادرا ما تحركوا بالاتجاه نفسه بل غالبا ما ساروا في الاتجاهات المتعاكسة ، ومن المقرر أنك إن تكافح في المعركة ضد خصوم هم على خلاف دائم ولهم أفكار متصارعة ، خصوم لا يثق بعضهم ببعض هؤلاء لن ينجح عنهم أي خطب ، لأن كلا منهم يخشى من حلفائه أكثر من خشيته من الصليبيين ، ولذلك فإنهم لن يستطيعوا ، أو بالحري هم ليسوا على استعداد لأن يتحدوا في سبيل طرد الخطر العام ، أو يسلحوا أنفسهم لتدميرنا.

لكن الآن ، - وهذه مشيئة الرب - جميع الممالك المتجاورة لنا أصبحت تحت قيادة واحدة.

وهكذا كما أسلفنا القول ، جميع الممالك حولنا تطيع حاكما واحدا ، وينفذون ارادة واحدة ، ويلتزمون بأوامره طوعا وكرها ، وهم جاهزون ، كقوة واحدة ، لحمل السلاح لقتالنا ، وما من واحد منهم يمكنه التورط بعمل يخدم به ذاته ، وفيه مخالفة أو عدم مراعاة لأوامر سيده ، وهذا السيد هو صلاح الدين الذي أشرنا إليه مرارا

من قبل وفي مناسبات عدة.... فهو الذي يضع هذه الممالك تحت امرته ... والآن إنني أعتقد أن هناك حاجة ملحة لأن نبذل كل جهد ممكن لمواجهة هذا الرجل العظيم والتصدي له في تقدمه السريع وفي انتصاراته المتوالية ، التي ستوصله حتما إلى أوج طموحاته ، فالشعور العام أنه كلما ازداد قوة سيبرهن على أنه عدو مرعب لنا . (٢) .

وكان صلاح الدين بعدما استقر في دمشق أنهى مرحلة التحرير الحلبية وافتتح المرحلة الثالثة وهي مرحلة دمشق ، وهذه المرحلة هي أهم مراحل طور التحرير وأفضلها ثمارا ، فيها تقرر مصير مشروع الحروب الصليبية والوجود الفرنجي في المشرق ، ومرد هذا إلى قيام معركة حطين خلالها ، وإثر حطين تحررت ، كما سنرى ، القدس وجل الأراضي المحتلة ، ولأهمية معركة حطين القصوى سنقف عند أخبارها بمزيد من التفاصيل والاهتمام.

حظيت معركة حطين بمكانة لم تحظ بها سواها ، ولا يمكننا فهم خلفيات هذه المعركة من الجانب العسكري فقط ، وبالأهمية نفسها ، إن لم يكن أعظم ، لا بد من دراسة الحالة السياسية داخل إمارات الصليبيين بشكل عام ، ومملكة القدس بشكل خاص ، والتركيز على الجوانب التي أثر بها الوضع السياسي والإدارة السياسية على هذه المعركة الحاسمة .

فمن المقرر أن الحرب هي في البداية قرار سياسي ، وكذلك في النهاية هي استثمار سياسي ودبلوماسي وعسكري ، فعلى رأس المشكلات التي تثيرها الحرب تأتي مسائل استيعاب نتائج الموقعة الحربية من نصر أو هزيمة ، فالقيادة السياسية هي وحدها التي يقع على عاتقها مسؤولية استثمار النصر العسكري ضمن الخطط العامة لقرار الحرب ، وضمن المعطيات الجديدة ، بحيث يتم تول النصر إلى انجاز له صفة الديمومة أو القدرة على الاستمرار.

نضيف إلى هذا قضايا الترابط والتنسيق بين القيادة السياسية

والقيادات العسكرية ، ثم تأمين المساندة الشعبية للحروب التي تخوضها الجيوش ، ذلك أن أي جيش يدخل الحرب بلا ظهور شعبي لا بد أن يخسر ، وهذا يسهل علينا فهم ما حدث في حطين ، فالصليبيون كانوا غرباء في الشام ، عبارة عن أعضاء مؤسسة عسكرية بلا ظهور شعبي ، ورغم سميتها العسكرية البحتة فإن الترابط والتنسيق بين السياسيين والعسكريين كان منعزلاً.

فقبل حطين بفترة شهدت مملكة القدس صراعات على السلطة ، كان أبرز أطرافها ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وخلال الصراع خسر ريموند قضيته ، وتآزمت العلاقات بينه وبين سلطات القدس ، وكان قد صار على رأسها ملك جديد اسمه «غي» فأقدم ريموند على التحالف مع صلاح الدين ، خاصة عندما عرف عزم الملك «غي» على مهاجمة مدينة طبرية - وكانت من أملاك زوجته - بغية الاستيلاء عليها.

وكان صلاح الدين قد أراد اختبار همدته التحالفية مع ريموند والقيام باستطلاع داخل الأراضي المحتلة ، بغية استكمال وضع خطته لغزو شامل ضد مملكة القدس ، ولهذه الغاية بعث بسرية استطلاع قادها ابنه الأفضل سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م وتمكنت هذه السرية من الوصول إلى أراضي الناصرة وهناك حاولت قوات فرنجية مختارة التصدي لها فأبديت إبادة كاملة ، وعادت سرية صلاح الدين تحمل إليه من الأخبار ما شجعه على قرار التوجه في حملته الكبرى ، حملة حطين ، سيما وأن قواته كانت تعرف مهامها والأرض بشكل ممتاز فخلال العامين اللذين مضيا قاد صلاح الدين قواته إلى حيث ستقوم معركة حطين بتدريبات عملية.

وكان للضربة المروعة في الناصرة أثارها على الصليبيين ، فقد أدت إلى قيام صلح بين الحزبين المتصارعين في مملكة القدس ، لكن هذا الصلح كان صلحاً شكلياً ، وليس حقيقياً ، فالعداوات الشخصية ، والأحقاد لم تدم أزالتها ، ويرى الكتاب الغربيون أن استمرارها حتى عشية معركة حطين ليس إحدى ماضي مملكة القدس

فحسب ، ولكن في الحقيقة كانت ذات أبعاد استراتيجية عميقة ، ذلك ان التاريخ السياسي والعسكري يتداخلان بشكل مدهش .

فمن وجهة نظر الاستراتيجية نجد ان حماقة الصليبيين في المعركة ، تظهر بوضوح مدى تفوق صلاح الدين في الحكم والمناورة السياسية والعسكرية ، ذلك انه ليس من الغلو بمكان القول بأن في هذا وحده يكمن مقياس النجاح في القتال بين جيشين كانا - على الأقل - متكافئين ، ثم إن ما قام به من ترتيبات فعلية اثناء القتال ، وبراعة في استخدام لقواته ، خاصة في اليوم الأخير للمعركة ، يقابله اخفاق الفرنجة في تنفيذ خططهم ، وان هذا كله ترابط باذسجام مع الخطة العامة ، وجاء نتيجة لمناورته في الايام التي سبقت الملحمة الفاصلة ؛ وهو يدل على ان لدى صلاح الدين عبقرية عسكرية لا تقل عن عبقريته السياسية والادارية ، ثم علينا ان نضيف الى هذا كله ان التكتيك الذي ظهر في المعركة ، هو على درجة عالية من الهمية ، ويبين بوضوح بعض اسس فن الحرب في الشرق الاسلامي :

فلقد اكتشف الصليبيون خلال قرن من الحملات ضد العرب والمسلمين ، ومن خلال تعاملهم مع البيزنطيين وتعايشهم مع جيوشهم ، عدم فعالية الفارس المدرع الثقيل غير المدعم بقوى من المشاة ومحروس من قبلها ، وبالنسبة لاعدائهم من العرب والتركمان وسواهم من المسلمين فإنهم ظلوا بونما تبديل يعتمدون على الانقضاض الشديد للفرسان المدعمين بالمشاة ، وذلك حسب الطرائق العربية الموروثة ، فالعرب قديما ، وكذلك التركمان بزعامه السلاجقة فيما بعد ، اعتمدوا بشكل اساسي على سلاح قوامه الفرسان الخفاف ذوي الاسلحة المحدودة والحركات المرنة ، فقد حمل هؤلاء الفرسان كميات من الذناب مع سيف او دبوس ، وكان الصليبيون امام فرسان المسلمين النبالة بلا حول ولاطول ، فقد انهكت رشقات نبالهم المتواصلة والقادمة من جميع الجهات فرسان الصليبيين وخيولهم ، ونادرا ماقامت هذه القوات بالتصادم الالتحامي ، بل اعتمدت الطرائق الفرثية (نسبة الى الفرسان القدماء

بالكر والفر وجذب العدو الى الخلف ثم الانقضاض عليه من جميع الجهات ، وكان هؤلاء الفرسان عندما يفرغون من رماياتهم ، يعلقون قسيهم الخفيفة على اكتافهم ، ويهجمون وسيوفهم وديابيسهم بأيديهم ، ووجد الفرسان اللاتين الثقال في كثير من الحالات بأنه من الممكن حصر الفرسان المسلمين خاصة عندما يكون وزنهم مؤثرا وكتلتهم الكبيرة واحدة غير موزعة الى اقسام ، وهذا شرط نادرا ماتحقق بشكل مستمر ، فالفراس الفرنجي كان من هواة القتال وليس من محترفيه ، يندفع ضد خصمه لحظة امتطائه لحصانه وامساكه برمحه ، دون ان ينتظر الاوامر من قائده او يتأكد من انتظام صفوف رفاقه بالاسلاح ، ومؤكد ان الاندفاع يدل على الحماسة لاعلى الشجاعة ، فالشجاعة هي الاقدام تبعا لاوامر العقل ، لالرغبات الغريزة ونزوات النفس الطائشة .

لذلك كان فرسان الفرنجة يجدون انفسهم بعد لحظات من 'قتال' ، وقد غدوا عبارة من مجموعات مطوقة من قبل الفرسان المسلمين ، وكان هؤلاء الفرسان يجبرون الفرنجة على القتال بشكل متواصل ودونما راحة ، وكانت اعدادهم في كثير من الأحيان تسمح لهم بالقتال المتناوب ، بحيث تقاتل فئة بينما يأخذ البقية قسطا من الراحة.

وكان من الممكن استخدام القوس العربي الخفيف ليطلق بسرعة ومسافات بعيدة ، لكن دشابه لم يكن من الممكن له خرق دروع الفرنجة الفولاذية ، ونظرا لاقدام الفرنجة على تغطية اجسادهم مع اجساد مطاياهم بالدروع الفولاذية ، اطلق المسلمون رماياتهم دونما تسديد ، اطلقوها اما في الفضاء نحو الاعلى ، او بشكل افقي منخفض على امل ان تصيب العلوية وهي ساقطة راس الفارس او احدى فتحات الدروع المخصصة للتهوية ، او تتمكن الافقية من عقر خيول الفرسان في بطونها ، وعليه فإنه على الرغم من ان فرسان الفرنجة كانوا محميين بشكل ممتاز بدروع واقية ، فان الاسهم العربية كانت فعالة بشكل فظيع ضد مطاياهم ، وينبع هذا التأثير

حسبما جاء لدى المؤرخين من قدرة المسلمين على ارسال وابل من الذشاب في اي اتجاه او وضع كان ومع انه - في القتال القريب - كان يمكن للاسيف والرمح والنبوس ان تؤدي دورا فعالا ، لكن الاسهام برهنت دائما على تأثيرها المميت ضد الخيول اكثر منها ضد الرجال .

وعندما كانت فرس الفارس الصليبي تعقر كان الفارس يتعطل عن العمل ويصبح بلا حول ولاطول ، لايمكنه بدروعه ورمحه الطويل القتال على الارض ، على عكس فرسان المسلمين ، وفي هذا المقام ينبغي ان نذكر بعدو اخر للفرسان اللاتين وهو الحر ، فالدروع المعدنية لم تكن ثقيلة جدا حتى تنهك الفارس ومطيته ، بل الذي كان يسبب الانهاك ان اللباس المعدني يحول بين الجسم وبين التعرق ، واي جسم يصاب سريعا بالانهاك عندما يتوقف التعرق ، وهنا نعيد الى الذاكرة طبيعة المناخ القاسية في جنوب الشام وفلسطين وان المعارك كانت غالبا ماتدشب في الصيف ، وفي اشد الاشهر حرارة كما حدث في حطين .

وحتى يتمكن الصليبيون من معالجة هذه المواجهات القاسية كان عليهم ان يتعلموا بدرجات متعاضمة ، الاعتماد على المشاة الذين كانوا قد نبذوهم فيما مضى ، كما ان الفرنجة ابركوا اثناء تلك اهمية التعاون المباشر بين سلاح المشاة والفرسان ، وقد جرت العادة على حماية الرجال بمعطف صنع من الجلد السميك المبطن بلبد سميكة من الاقمشة او فضلات الثياب ، ويغطي رجالة المشاة في بعض الاحيان بدروع صدرية من المعدن ، ويلاحظ ان هذا كله كان غير مجد ضد الاسهم ، وقد تم تسليح بعضهم بالفؤوس ، وبعضهم بالقسي الثقيلة - او القسي العقارة - وكانت القسي العقارة صعبة الحمل والاستعمال ، كما كانت تطلق طلقات اقل من القسي العربية ، لكن قوتها الخارقة كانت اعظم بكثير ، فقد كان بإمكان سهامها خرق الدروع ، كما ان قدرة العقر فيها كانت اعظم ، ونتيجة لذلك نلاحظ ان هذا السلاح غالبا ماكان اداة اعاقا للفرسان المسلمين ، وخاصة النبالة منهم .

وجاء استخدام الفرنجة لجماعات من المشاة مسلحة على هذه الشاكلة ، بغية حماية الفرسان من جميع الجوانب بشكل كثيف ، عن طريق تشكيل ستارة متحركة للأجزاء السفلية من المطايا وللفرسان الموزعين ، ومع الايام غدا هذا نظاما قائما ومعتمدا لدى الصليبيين ، فقد كان الفرسان يتجمعون في بداية المعركة تحت مكان مستور او محمي ، او في بقعة مختارة ، ويقدمون المشاة امامهم على شكل صفوف ، ويسعون لاستدراج المسلمين للقيام بالهجوم ، وفي اللحظة المناسبة كان الفرسان الثقيل ينقضون ، وكل منهم قد شرع رمحه الطويل القوي الاسطوانة ، بعدما ركز زجه في مكان معد خصيصا ، فمن المعروف ان فرسان الفرنجة اعتمدوا على قوة الخرق المتأتية من اندفاع خيولهم القوية والسريعة جدا .

وقام مؤرخ حديث متخصص بفنون القتال في العصور الوسطى بوصف هذه العملية كما يلي :

« اذا بقي المسلمون في نطاق المدى المجدي للرميات الصليبية ، فان الفرنجة كانوا يبقون دون الرد على رميات دشابهم التي تحولها المسافات مع الموقف الدفاعي للصليبيين الى حالة هي اقل تأثيرا مما يخشى منه ، انما اذا اقترب المسلمون فان المشاة الصليبيين كانوا يأخذون اماكنهم على الارض ، ويفتحون قسيهم الكبيرة ، ويرمون على المسلمين برمايات مجدية ومؤثرة ، وهنا كان اذا ما غامر الفرسان المسلمون بالقيام بالانقضاض ، كانوا سيسحقون حتما ، بانقضاض الخيالة الاوربيين الاعظم تأثيرا ، شريطة ان يظل مجال عملهم في نطاق مشاتهم ، ومادام الصليبيون في هذا المحيط فإنهم كانوا لا يقهرون » .

وسريعا ما ابرك العرب اهمية مشاة الفرنجة كسلاح رفيف ، لذلك سعوا بمختلف الطرق لفصلهم عن الفرسان ، وكانوا اذا مانجحوا في ذلك يربحون المعركة ، كما هو واضح بشكل جلي في معركة حطين ، حيث - كما سنرى - قتل للفرنجة آلاف الخيول او عقرت ، وتم

سحق خيرة فرسان اللاتين ، وبالتالي تدمير المؤسسة العسكرية الاوربية في الشرق .

هذا ولقد سبق لنا البحث بالاحوال العامة قبل حطين ، كما بحثنا في اخبار قيام صلاح الدين واستلامه زمام الامور ، وتمت الاشارة الى انه قد واجه العديد من المشاكل ، واصطدم بأتابكة الموصل وسواهم ، لذلك رحب بالفرصة التي توفرت لديه بقيام هدنة بينه وبين الفرنجة ، وذلك حتى يتمكن من حل مشاكله هذه ، ويكمل توطيد اركان دولته ، ويروى انه اصيب اثناء مسعاه هذا في تشرين الاول لسنة ١١٨٥ م ، بمرض عضال ، حتى يئس من حياته ، وعندما وقف بين الحياة والموت ، رأى ان مصير المملكة اللاتينية معلق بالميزان ، ورأى ببصيرته كحاكم شرقي ، ان موته كان معناه ، بلا شك انعدام الوحدة بين صفوف المسلمين ، والعودة الى حياة الفوضى ، حتى تتأتى فرصة جديدة لقيام حاكم قوي جديد ، وكان هذا في اوسط معانيه حياة جديدة منحت للقوى اللاتينية في سورية ، وفرصة لاتعوض لحل مشاكل مملكة القدس ، والعودة الى الاتحاد ، لكن القدر قرر العكس ، وبعدت المنية عن صلاح الدين ، وبدأ الرجل العظيم يتعافى ، وفي اذار لسنة ١١٨٦ م ابرم معاهدة جديدة مع اتابكة الموصل ، بقي بموجب بنودها الامير الاتابكي اميرا للموصل وسيدا لاعالي بلاد الرافدين ، انما مع الاعتراف بسيادة صلاح الدين والدعوة له ، وفي نيسان من هذا العام - ١١٨٦ - استعاد صلاح الدين عافيته تماما ، وعاد الى حلب ، ثم توجه في ايار الى دمشق ، وقد جاءت افراح الشعب واحتفالاته في هاتين المدينتين تعبيراً عن قلق الشعب العربي في الشام على قضيته ، وعلى مدى التعلق بصلاح الدين واتساع شعبيته .

اما الان ، وقد رد الله عليه عافيته ، وهو حاكم مصر واليمن وليبيا ، واجزاء من شبه الجزيرة العربية ، وسيد الشام بعاصمته : دمشق وحلب ، وسيد الجزيرة الموصل ، فقد بقي لهذا

السلطان المتدين مطمح واحد ، وهو مطمح كل مسلم ، في تحرير الارض في الساحل والداخل ، من الصليبيين ، وكان هذا بالنسبة له جهادا في سبيل الله ، وطبعاً كانت القدس بالنسبة له ولجميع المسلمين هي الهدف ، فمنذ ايام نور الدين وضعت الخطط لتحرير المسجد الاقصى ، وتم اعداد المنبر لتخطب عليه خطبة التحرير الاولى ، والمستعرض لاختبار وقائع الحروب الصليبية يشهد ان المسلمين قد قاتلوا دائما بحماس وغيرة دينية كبيرة ، وهذه المعركة لن تكون مستثناة ، بل على العكس ، فهم نادرا ماقادهم رجل مثل صلاح الدين ، كان متميزاً بتقواه وعدله واستقامته ، كتميزه في القيادة وفي فنون الحرب والادارة والسياسة ، ولهذا كان رجلاً محبوباً من قبل شعبه الى درجة التقديس ، ولقد قيل بأن مرض صلاح الدين ملاءه بشعور عميق ، بأن مقام به حتى ذلك الحين من خوض للحروب الداخلية قد تجاوز الحد ، وان الله تعالى قد انذره بهذا المرض وذكره بأن واجبه هو طرد اللاتين من بلاد الشام ، ورجل مثل صلاح الدين مشهور بتقواه لايد انه قد شعر بضرورة الاسراع بالهجوم من اجل التحرير ، ومهما يكن الحال فإنه لايد وقد غضب غضباً شديداً جداً عندما علم بهجوم ارناط صاحب الكرك ، على قافلة مسلمة في اوائل سنة ١١٨٧ م كانت في طريقها الى دمشق ، فالهدنة الآن مع الفرنجة قد زالت ، ومسوغ إعلان الجهاد قد توفر تماماً .

وفي ربيع سنة ١١٨٧ م دعا صلاح الدين الى الجهاد ، وبينما كانت القوات تتوافد من جميع اجزاء دولته الكبرى وتوابعها ، قامت التحضيرات من اجل غزو فلسطين ، وبينما كانت القوات تتجمع ، ارسل صلاح الدين ابنه الافضل على رأس قوة استطلاع ، وكان لنجاح هذه القوة المدهش في الناصرة عظيم الفوائد في تشجيع السلطان على المضي في خطته ، وفي خفض معنويات الصليبيين ، وبعد هذا بوقت قصير اوعز صلاح الدين الى واليه في حلب للقيام بإمضاء هدنة مع الفرنجة انطاكية ، حتى تتمكن عساكر حلب من الاشتراك في الحملة ، وقد طلب صلاح الدين هذا على ارضية الخلافات الحادة التي كانت قائمة بين القدس وانطاكية .

وكان مكان تجمع الجيوش لعرضها عند تل عشترا في احواز بلدة نوى على مقربة من حدود الاراضي المقدسة ، شرقي بحيرة طبرية ، ومع حلول الاسبوع الثالث من حزيران ، وصل جميع الجند ، حتى المتأخرون من العساكر واهالي البلدان النائية ، وفي ٢٤ من الشهر نفسه عقد صلاح الدين مجلسا حربيًا لتدارس الاهداف الاستراتيجية ووضع الخطط ، او لنقل الشكل التنفيذي للخطط ، وصدر الامر إثر الاجتماع بغزو المملكة اللاتينية ، وكان عدد القوات التي مرت امام عارض جيوش صلاح الدين حوالي العشرين الفا من العساكر الديوانية والمتطوعة ، ويقدر أن الذي تجمع للفرنجة العدد نفسه عند المقل والضعف عند كثير من الكتاب المنصفين.

لسوء الحظ لم يقدم لنا احد من المؤرخين وصفا مفصلا لجيوش صلاح الدين وانواع القوات والاسلحة فيه ، انما يمكن القول قياسا على ماوردته مصادر العصر ، وبناء على التكتيك الذي اعتمد اثناء المعركة ، ونجح استخدامه ، ان النبالة من مشاة وفرسان شكلوا العنصر الاساسي ، وهذه قاعدة جرت مجرى العادة في الجيوش الاسلامية في المشرق ، منذ بداية العصر السلجوقي ، هذا ونلاحظ ان الروايات العربية واللاتينية التي تحدثت عن وقائع ملحمة حطين شددت على تأثير نشاب الرماة المسلمين اثناء القتال ، ونشير هنا الى انه على الرغم من ان القوس كان السلاح الرئيسي لعسكر صلاح الدين من فرسان ورجالة ، الا ان العادة جرت ان يحمل كل منهم بالاضافة الى قوسه سيفًا او دبوسًا او ماشابه ذلك من الاسلحة الفردية التي كان المقاتل يلجأ الى استخدامها في القتال الالتحامي القريب وبعد نفاد نشابه ، يضاف الى ما سبق انه يتوجب علينا هنا ان نشير الى ان قوات المتطوعة كانت خفيفة التسليح ، اشبه بالمليشيات ، وقد رأى بعض الكتاب انها كانت تقابل القوات الاحتياطية لدى الفرنجة ، لكن في هذا شيء من التجاوز ، فقوات الاحتياط لدى الفرنجة وان كانت خفيفة التسليح نسبيًا ، الا انها كانت محترفة ، وعلى هذا فنحن اذا ماشينا من قال بأن تعداد القوات الصليبية كان حوالي العشرين الفا من العساكر ، فان

الطاقة القتالية لهذه القوات كانت لاتقل عن ثلاثة اضعاف قوات صلاح الدين نظرا للاحتراف ونوعية التسليح ، وهنا نعيد الى الذاكرة الوصف الذي ساقه وليم الصوري الذي اثبتناه قبل قليل ، مع حقيقة انه في كثير من المعارك التاريخية كانت القوات المهاجمة انى عندا وتسليحا من القوات المدافعة ، وحقت النصر ، ويبدو ان بعض عساكر صلاح الدين كان تسليحهم ثقيلًا ، وكانوا مدرعين مع خيولهم ، وقد رابط هؤلاء مع خيولهم قرب قاعدة العمليات ، وتالف منهم حرس صلاح الدين الخاص .

وكان صلاح الدين شديد التدين يراعي قواعد الشريعة ، ويتمسك بما جاء في السيرة النبوية ، خاصة ، اثناء مغازيه ، وعلى اساس هذه القاعدة نجده يأمر بإزالة معسكره في يوم الجمعة ٢٦ حزيران ومعلوم ان الجمعة هو يوم جماعة المسلمين ، يتوجه فيها الخطباء بالدعاء على جميع منابر الاسلام للمجاهدين في سبيل الله بالنصر المؤزر ، ولهذا جاء امر صلاح الدين بازالة المعسكر وقت الصلاة ، في الظهيرة ، وفي اليوم التالي - السبت - عبر نهر الاردن جنوب بحيرة طبرية ، واتخذ قاعدة له قرب شاطئ النهر ، وهكذا بدا الهجوم فعليا .

ولم تكن تحركات صلاح الدين خفية ، لهذا قابلها في القدس اجراء كافة الاستعدادات ، ففي اوايل ايار بعد نازلة الناصرة التي حلت بالصليبيين على ايدي طلائع صلاح الدين ، جرت مصالحة بين غي ملك القدس الجديد ، وريموند الثالث خصمه وصاحب طبرية وطرابلس ، وذهب الفرقاء الى مدينة القدس حيث جرى احتفال بهيج باتحاد القوى الصليبية ، وبعد الاحتفالات طلب ريموند الان للعودة الى طرابلس ، فأوعز اليه الملك ان يجمع عساكره ، ويلتحق به في مكان تقرر لحشد وتجميع الجيوش الصليبية في بلدة صفورية ، وذلك لما تأكد لديهم من معلومات بان صلاح الدين يعد العدة لهجوم عام ، وأشار ريموند على الملك عي بمراسلة بوهموند صاحب انطاكية يئشد منه المساعدة ، ونفذ غي ذلك ، واستجاب بوهموند

استجابة رمزية ، فقام بإرسال أكبر ابنائه مع خمسين من الفرسان وعندما توجه الصليبيون نحو بلدة صفورية لم يذسوا جانب الدعم الروحي فأخرجوا خشبة صليب الصلبوت ، وطلبوا من بطريك القدس حملها فرفض ، وذكر « الرفض المشين للبطريك » عقول الناس بنبوءة وليم الصوري ، فقد قال صاحب ذيل تاريخ وليم الصوري : « وبعد هذا أرسل الملك رسالة إلى البطريك ليخرج صليب الصلبوت ويحمله إلى الجيش ، فاستجاب ، وأخذ الصليب ، وحمله إلى خارج القدس ، وأعطاه إلى راعي القبر المقدس ، وطلب منه أن يحمله إلى الملك ، لأنه هو نفسه لديه عذره ، ولن يستطيع الذهاب ومن الصعب عليه الالتحاق بالجيش (ويدع السيدة باسك دي رفرى) وتم تنفيذ هذا كله ، وبهذا تحققت نبوءة وليم رئيس أساقفة صور ، التي قالها عندما انتخبوه بطريكاً : (هرقل استرد الصليب من الفرس ، وأعادته إلى القدس ، وهرقل - البطريك - سيرمية ، وفي أيامه سيضيع) ففي ذلك الوقت بالذات قذف هرقل بالصليب إلى خارج القدس ، وبهذا لم يعد إليها ثانية ، بل فقد في المعركة كما سنسمع . »

وعندما وضع صليب الصلبوت بحفظ الملك ورعايته ، أشار عليه جيرالد مقدم الفرسان الداوية ، بأن يعلن النفير العام في طول الأرض وعرضها ، ويدعو جميع الرجال المخلصين والقادرين على حمل السلاح للالتحاق بخدمته ، وكان مثل هذا الاجراء يجري تطبيقه والاختذ به عندما تكون الحالة شديدة ، والوضع متأزم بشكل خاص ، وهناك حاجة ماسة إلى مزيد من العساكر أكثر مما كانت تقدمه الاقطاعات في العادة ، وفي هذا الوقت كان جيرالد قد تسلم هبة مالية كبيرة كان قد بعث بها هنري الثاني ملك انكلترا إلى جماعة فرسان الداوية (بعد مقتل القديس توماس أوف كانتبري) وقام جيرالد بدوره بالتبرع بهذا المال للملك ، وقدمه له ، وتقبل الملك مال الهدية بسرور زائد ، واستخدمه في تجنيد المزيد من الفرسان والرجال .

وتوجه ريموند الثالث الى مدينة طبرية ، من اجل تحصينها ، ليترك بها حامية مناسبة ومؤن كافية لحصار طويل ، وترك ريموند زوجته في طبرية ، وكانت بالاصل اقطاعا لها ، وقبل مغادرته لطبرية اوصى زوجته انها اذا ما هوجمت مدينتها بشدة متناهية من قبل صلاح الدين الى درجة عجزت فيها عن الاستمرار بالمقاومة ، عليها مغادرة المدينة ، وان تتركب مع من يبقى معها في القوارب الى طرف البحيرة المقابل ، حيث تنتظر هناك قدوم المساعدات والنجادات ، ولا ندري عدد الرجال الذين تركهم معها - ان كان قد ترك احدا - وقبيل مغادرته لطبرية حمل معه ما كان بالمدينة من اموال واصطحب معه اولاد زوجته الاربعة وهم : هيوج ، وليام ، رالف ، واوتو ، والتحق بالملك في بلدة صفورية ، ومعه رجال طرابلس والذين قدموا برفقته من طبرية ، ويلاحظ ان المصادر الغربية تبدي اعجابها الشديد بشجاعة صاحبة طبرية ، لقبولها البقاء في مدينتها والمرايطة بها مصاقبة لصلاح الدين وجيوشه ، وحيدة فيما عدا حامية صغيرة ، وكيف انها سمحت لزوجها ليس في مغادرتها فقط ، بل باصحابه اولادها الاربعة ، ويرى الغربيون في عملها هذا مثالا رائعا على وقف النفس وتكريسها من اجل قضية تؤمن بها ، ومهما يكن الحال ، فان هذا يوضح مدى التعصب والحماس الشديدين اللذين ابداهما العديد من الجنود الصليبيين ورجالاتهم - فيما بعد - للذهاب فورا لانقاذها ، اثر ما قام به صلاح من مهاجمة المدينة ، ومع هذا كله ، فان ريموند الثالث ، العارف بصلاح الدين والخبير باخلاقه وتصرفات المسلمين ، كان يشعر بان زوجته في مأمن تام ، ولا خطر عليها البتة ، وان اولادها معه افضل لهم واكثر امنا من بقائهم معها ، ورغبته التي ابداهما فيما بعد ، عندما ضيق صلاح الدين الخناق على طبرية ، هي دليل على انه كان مطمئنا من ناحيتها ، وانها ستكون بامان تام ، فصلاح الدين كان - بلا شك - مازال - طبعاً - بحدود ما تسمح به الظروف - صديقا - ثم اخلاق صلاح الدين قالت دائما : انه حتى لو سقطت مدينة طبرية ثم قلعته ، فان زوجة ريموند ستعامل من قبل المسلمين معاملة طيبة سامية وهذا ما حدث بالفعل بعد شهر واحد .

واجتمع الجيش الصليبي في بلدة صفورية ، وكان اكبر جيش يجتمع لفرنجة المشرق منذ سنوات عديدة ، يضاف الى هذا ، انه - بلا ريب - كان من اكبر الجيوش في تاريخ الصليبيين في بلاد الشام ، وتتباين المصادر بشدة في تقديرها تعداد الجيش ، ويبدو - حسب ادنى التقديرات - ان الرقم فاق العشرين الفا ، اي ما يقارب تعداد جيش المسلمين ، انما مع فوارق اشرنا لها من قبل ، نضيف اليها امرا آخر ، هو ان الجيش الصليبي لم ينعم بوجود ظهير شعبي له او احتياط محلي ، على عكس جيش صلاح الدين ، فالصليبيون ، برغم المدة الطويلة التي مرت على تاريخ وجودهم في المشرق ، كانوا عبارة عن افراد مؤسسة عسكرية غريبة ومرفوضة من كافة النواحي ، وبامكاننا هنا اعطاء فكرة واضحة الى حد ما عن مختلف القوات والاسلحة التي تكون منها جيش الفرنجة : لقد كان هناك اولا الفرسان نوو التسليح الثقيل ، فيه بارونات - او امراء - الاقطاع ورجالاتهم ، واءضاء جماعتي الداوية والاستبارية ، واولئك الذين حملوا رتبة الفروسية ، وكان بامكانهم تقديم المعدات والسلاح ، ويستفاد من المصادر اللاتينية خاصة ، انه كان لدى الفارس الصليبي في غالب الاحيان ، الى جانب دروعه الكاملة وخونته وسلاحه ، فرس او فرسان كان يجنبهما ، وكان عدد الفرسان الثقال حوالي / ١٢٠٠ / وهو احد الارقام الدنيا التي اعطيتها المصادر الغربية ، وجاء بعد الفرسان الثقال الخيالة الاخف تسليحا ، وقد رافق هؤلاء الفرسان الثقال ، وعملوا معهم بمثابة مساعدين واتباع وكانوا يعرفون باسم السيرجانتية .

وميز هؤلاء في معركة حطين كسيرجانتية فرسان ليميزوا عن السيرجانتية الاصلاء ، الذين كانوا بالاساس رجاله يجري تسليحهم على حساب الكنيسة والمؤسسة الدينية ، وذلك غالبا ما كان بشكل ثقيل ، ولم توضح المصادر تعداد السيرجانتية الخيالة وحدهم ، انما لابد ان تعدادهم فاق تعداد الفرسان الثقال ، ويبدو ان تعدادهم مجتمعين مع الفرسان الثقال تراوح ما بين ثلاثة الى اربعة الاف .

والى هؤلاء الفرسان والخيالة نضيف جماعة ثالثة من الخيالة ، وهي جماعة الخيالة « الرديف » وكان تعداد هؤلاء لا يقل عن تعداد السيرجانتية الخيالة ، وقد عرفوا باسم التركبلي وكان هؤلاء كما هو معتقد من المرتزقة من مزيج من اناس من اصل اغريقي ومشرقي (من بين الطوائف والاقليات) وجرى تسليح هؤلاء حسب الطريقة الاسلامية ، اي كانوا فرسانا نبالة ، ولهذا كانوا ذوي فعالية عالية في المناورات السريعة وفي عمليات الانقضاض المفاجيء ، وخاصة في منطقة ذات مرتفعات مثل مرتفعات طبرية ، حيث كانت جماعات الفرسان الثقيل في وضع حرج غير مريح ، وكان هؤلاء يوضعون في العادة تحت الامرة المباشرة لمارشال مملكة القدس ، وكانوا رواديف اي قوات احتياطية ، تابعة بشكل خاص لكل من جماعات فرسان الاسبنارية والداوية ، الذين كان لديهم ضابط خاص معين لقيادتهم باسم التركبليير .

وجاء بعد القوات المحمولة : الرجال ، وكان فيهم المشاة السيرجانتية الذين تبعوا نظاميا للاقطاعيين ، وتولت الكنيسة والمؤسسات الدينية الانفاق عليهم ، ثم المشاة من الرجال الذين التحقوا بالخدمة العسكرية بسبب النفير العام الذي اعلنه الملك ، وقدر المعاصرون الغربيون لمعركة حطين تعداد هؤلاء مابين سبعة الاف إلى عشرين الفا ، ويرى بعض الباحثين في ايامنا أن الرقم الأول صغير جدا ، لكن لم يكن هناك أكثر من خمسة عشر الفا من المشاة على أبعد تقدير ، ومهما يكن الحال ، فاننا نلاحظ أنه اذا كان الفرسان الثقيل والسرجانتية من خيالة ورجاله - تابعين للمؤسسات الاقطاعية المدنية والكنسية ، وكانوا يؤدون خدمات مقابل الارتباط الاقطاعي ، فإن قسما كبيرا من الجيش كان من القوات المأجورة ، فالتركبلي ولربما معظم المشاة أيضا ، كانوا من المرتزقة المحليين ، فقد رأينا الملك غي يشترى بأموال الهبة الانكليزية أعدادا كبيرة من الفرسان وأنواع أخرى من الخيالة ، ومن المحتمل أنه أنفق كمية من أموال الهبة الانكليزية على السيرجانتية ، بأن يقوم كل واحد من رجالته بعرض شعار (رنك) ملك انكلترا ،

ويدعي بعض الكتاب في أيامنا ، بأن تعداد الفرنجة في المشرق ما كان
ليمكن من تجنيد عساكر أكثر مما تجمع في صفورية دون ترك مدن
المملكة - مملكة القدس - مع الأجزاء الشمالية دونما دفاع
تماما .

ومع حشد الفرنجة لهذه القوات الكبيرة جدا ، برزت أمام الملك
غني والكونتات مشكلة التكتيك والاستراتيجية : كيف يمكن استخدام
هذا الجيش اللجب بشكل نافع ومؤثر ، ثم لماذا جمع كله في معسكر
واحد ، ولم يوزع على المواقع الدفاعية للمدن والقلاع ، أو قيد إلى
خارج حدود المملكة لمنع صلاح الدين من اجتياز نهر الأردن ؟
واختلفت آراء قادة الفرنجة حول هذا الموضوع الخطير ، وكان رأي
ريموند الثالث منذ البداية اعتماد سياسة الانتظار والمطالبة حيث
خاطب الملك بقوله : « أشير عليك يا مولاي وأنصحك كما واقترح
عليك أن تشحن مدتك وقلاعك بالرجال والمؤن والأسلحة ، وبقيّة
أنواع الاعتدة الدفاعية ، وعلى الرغم من أن أمير أنطاكية أرسل لك
ولده مع خمسين من الفرسان ، جدد مراسلتك له ، واطلب منه المزيد
من الرجال ، وابعث رسالة إلى بلدوين صاحب ابلين (يبنى) ،
وأخبره بأن صلاح الدين دخل إلى أراضي المملكة مع جيش عرمرم ،
وأعلمه أن عليه الحضور شخصيا لتقديم المساعدة للمملكة ، ذلك
أنني أعرف أن صلاح الدين سيمكث ، وقد يقيم طويلا ، وكما تعلم
فنحن الآن في منتصف الصيف ، وهذا أعظم الأوقات جبرارة على
مدار السنة ، ولا شك أن وحشة المكان ، والمناخ الحار سيضايقانه ،
وسيشغلانه ، وإثناء ذلك يكون أمير أنطاكية وبلدوين صاحب ابلين
قد توفر لهما ما يكفي من الوقت ليصلا إلينا ، وهنا بينما يكون
صلاح الدين شاعرا بالآمن ، مطمئنا نكون نحن قد صرنا جاهزين ،
فنقوم بمهاجمة مؤخرة قواته ، وننزل إليها ضربة قاصمة ،
بشكل - بمشيئة الرب - تمكن من إبقاء مملكتكم حية وبآمان » .

ليس بالمصادر ما يفيد أن نصيحة ريموند هذه وآراءه كانت
مسموعة وأخذ بها ، ذلك أنه لم يكن هناك أي قتال مباشر حتى بعد

دخول صلاح الدين إلى أراضي المملكة ، كما أن أيا من القوات لم يرسل إلى الحصون والقلاع لتقوية دفاعاتها ، وهذا ما سيظهر جليا بعد نصر حطين ، حيث كان من الأسهل نسبيا الاستيلاء على معظمها .

وقع الاختيار على منطقة صفورية لتكون قاعدة للقوى اللاتينية ، لما تمتع به هذا الموقع من مزايا محددة وفوائد كبيرة بالنسبة لهذه الحملة خصيصا ، فصفورية كانت آنذاك عبارة عن بلدة صغيرة غير مسورة ، من ممتلكات صاحب طبرية ، تقع على مسافة ثلاثة أميال أو أربعة من الناصرة ، إلى الشمال الغربي منها ، وكان إلى الجنوب منها على مسافة ميل واحد نبع ماء وجدول جار ، وهو ما عرف باسم نبع الصفورية ، وعلى هذا كان الماء وفيرا في هذا الموقع ، وكان كافيا لجيش كبير جدا ، في فصل الحر ، وكان هناك مع الماء كميات وافيه من المؤن ، سهل تأمينها من القرى المجاورة ، هنا في هذا الموقع المناسب أقام الصليبيون معسكرهم ، وأقاموا ينتظرون وصول صلاح الدين .

وعلى بعد خمسة عشر ميلا أو ستة عشر جثت مدينة طبرية على الشاطئ الغربي للبحيرة - التي حملت اسمها - وذلك على مستوى ستمائة قدم تحت سطح البحر ، وترتفع الأرض خلف المدينة ، وتمتد جنوبا منها ، بشكل حاد إلى مستوى ألف قدم فوق سطح البحر ، وتمتد جنوبا محاذية للبحيرة ، وتشكل شرفا صخريا له ارتفاعات متساوية تقريبا ، ويبدأ هذا الشرف ، في مقابلة المدينة مباشرة ، بالانحراف باتجاه الشمال الغربي ثم باتجاه الغرب ، وعلى مسافة خمسة أميال إلى الغرب هناك تل مزدوج القمة ارتفاعه فوق ألف قدم ، ويعرف باسم « قرني حطين » وهو مكان احتفالات طقوسية موسمية (عيد النبي شعيب) وبمتابعة التوجه غربا يصل الشرف إلى أقصى ارتفاعه وهو سبعمائة ألف من الأقدام وذلك عند جبل ترعان على بعد خمسة أميال ، وتقع قرية حطين على مسافة قصيرة إلى الشمال مباشرة من « قرني حطين » في الوادي ، ويمكن

أن يرى ارتفاع هذه الهضاب من الشرق والشمال ، اي من طبرية وحطين ، حيث أنها لا تبدو هكذا من الجنوب والغرب ومرد هذا جزئيا أن الشرف يرتفع من شواطئ بحيرة طبرية من مستوى ستمائة وعشرين قدما تحت مستوى سطح البحر ، وجزئيا أن الأرض الى جهة الجنوب والغرب عبارة عن هضبة بخطوط ارتفاع متساوية تتراوح من ثمانمائة الى ثمانمائة وخمسين قدما ، وهي مليئة بصخور كبيرة ومقطعة بالوديان التي قد تنتهي الى الأرض المنخفضة شمال شرقي صفورية أو جنوب شرقي وادي سهل الأحما (كفر الأحما) ، (٤) وقد قام رحالة حديث بوصف الأرض الواقعة قرب قرني حطين في مطلع القرن الحالي كما يلي:

« كما رأينا على هذا الجانب - الجنوب - أن التل ، أو الجبل ، هو عبارة عن عقبة صخرية منخفضة ، يبلغ ارتفاعها حوالي ثلاثين أو أربعين قدما ، وطولها أكثر من عشر دقائق من الشرق إلى الغرب ، وينبعث في نهايتها الشرقية قمة أو « قرن » إلى ارتفاع حوالي ستين قدما فوق السهل ، وهناك على النهاية الغربية قمة « قرن » أخرى ليست بنفس الارتفاع ، ويبدو منظر هاتين الكتلتين عن بعد وكأنه سرج فرس ، وقد دعيا باسم قرني حطين ، ويمتد هذا التل بمجمله ليساير أطراف السهل الكبير حيث يرتفع منها الجانب الشمالي للتل بشكل انزلاقي شديد إلى علو ليس أقل من أربعمائة قدم ، ودون ذلك في الأسفل إلى الجنوب تقوم قرية حطين ، وهناك باتجاه الشمال والشمال الشرقي كتلة صخرية ثانية مندفعة أيضا تنساب بشكل منحدر إلى مستوى البحيرة .

إن قمة القرن الشرقي مستديرة قليلا ، وسطح قمة المنخفض بين القرنين هي أيضا منبسطة على شكل سهل....».

وتشير خرائط ما قبل الحرب العالمية الثانية إلى وجود ممرين كانا يعبران التل ، سار أحد الطريقين من الشرق مباشرة من منطقة في أحواز صفورية ، وعبر التل الى الجنوب من طبرية مباشرة ، لكن الطريق الآخرين كان ينحرف شمالا في منتصف الطريق بين صفورية

وطبرية ، ويماشي في الغرب حوالي قرني حطين ، ويستمر باتجاه الشمال منحدرًا إلى قرية حطين ، ويتابع انحداره هابطًا باتجاه الشرق إلى شواطئ بحيرة طبرية ، وعلى الرغم من أن طرق العصر الحديث يمكن أن لا تتماشى مع طرق القرن الثاني عشر ، لكن الأوصاف المعاصرة للصليبيين ، والروايات التي شرحت أوصاف مسيرة جيوشهم من صفورية تبين بأنهم ساروا أولاً عبر طريق مباشر ، ساروا باتجاه الشرق يريدون مدينة طبرية ، ثم انحرفوا في منتصف الطريق شمالاً نحو ممر قريب من القرنين ، وواضح أن في هذا مطابقة تامة للطرق قبيل أيام الاستعمار الانكليزي لفلسطين .

ويعبر هذان الطريقان بين صفورية وتل قرني حطين مع ما يجاوره من الأراضي المرتفعة حوالي عشرة أميال من الأراضي الصخرية التي تأخذ شكل هضبة ، وهي منطقة بلا ماء ، أو على الأقل بلا نبع غزير أو جدول فيه مياه كافية لجيش كبير أثناء زحفه في أشهر الصيف الحارة ، وكان هناك ماء وفير وراء هذه السلسلة من الكتل الصخرية : في الشمال من حطين أو في الشرق حذاء البحيرة ، وقرب مدينة طبرية ، وكان هناك ماء إلى الجنوب في وادي سهل « الأحما » ، لكن على الطريق المباشر ما بين الكتلة الكبيرة غربي طبرية ، ومعسكر الصليبيين في صفورية لم يتوفر منه شيء أبداً .

ولذلك كان البديهي أن مصلحة الصليبيين قامت في البقاء حيث كانوا في صفورية ، وذلك بعدما أحجموا عن منع صلاح الدين من عبور الأردن ، وتركوه يزحف نحو طبرية ، ففي منطقة صفورية كان الفرنجة متأكدين من توفر المياه لديهم والمؤن الوفيرة ، ولقربهم من قلاعهم وبلدانهم المسورة ، وكان عليهم الآن المكوث في صفورية لانتظار هجوم صلاح الدين ، فهم كانوا على ثقة واطمئنان ، فقد حشدوا أكبر جيش كان ملك الفرنجة للقديس يأمل بحشده ، وكان بإمكانهم دوماً - عندما تدعو الضرورة - الانسحاب إلى المدن والحصون الشديدة المناعة قرب الساحل ، ووضح بعد عبور صلاح

الدين للأردن أنهم اذا ما غامروا بالتقدم بساتجاه اي هدف في الشرق ، فسيكون بإمكان صلاح الدين اجبارهم على خوض معركة حسب مشيئته وقبل الوصول الى الماء ، وأنذ سيكون الانسحاب صعبا ، ان لم يكن مستحيلا ، خاصة وانه لم يكن لديهم في الداخل قوات احتياطية لدعوتها لنجدتهم والتفريغ عنهم ، ويصرخ كاتب امريكي معاصر اثناء حديثه عن هذه الحالة باندفاع عاطفي وتحرق شديدين قائلا : « دع المسلمين يغامرون بالزحف داخل الهضبة التي بلا ماء ، دعم ينالهم الانهاك بعد زحفهم تحت اشعة الشمس المحرقة »

ولكن الحرب لم تكن بالنسبة لصلاح الدين مغامرة او هواية ، بل ان حملته كانت قرارا استراتيجيا له ابعاده السياسية والعسكرية التكتيكية ، وقرار صلاح الدين تم بعد دراسة شاملة واستطلاع اخباري وميداني واسع ، فهو بعد عبوره للأردن كان يدرك تمام الادراك احوال الفرنجة الداخلية ، ويعرف سلامة اوضاعهم وطاقاتهم حيث هم ، لهذا كان عليه ان يحاول بمختلف الوسائل اقتلاعهم من قاعدتهم في صفورية واستدراجهم الى شرك ينصبها لهم ، وسبق ان ذكرنا بأنه عبر على رأس قواته نهر الأردن جنوب بحيرة طبرية في أواخر شهر حزيران ، وعسكر ليلته الأولى قرب ضفاف النهر ، وتبعه لاحدى الروايات كانت قواته معبأة بشكل قاد فيه القائد تقي الدين الميمنة ، والقائد مظفر الدين الميسرة واحتفظ صلاح الدين لنفسه بإمرة القلب ، ومكث الصليبيون بعد عبوره للأردن في صفورية ، فحرك صلاح الدين قواته إثر ذلك الى منطقة « كفر سبت » على الطرف الجنوبي للسهل ، إنما الى الغرب من المنطقة الجبلية ، حيث ظل الماء لديه وفيرا ، وجهد من هناك في سبيل تجريكهم واقتلاعهم عن طريق المناوشات ، لكن عبثا حاولوا أخفقت هذه الطرائق في إشارتهم ، وفي هذا دليل واضح على أن غالبية الفرنجة ظلوا حتى ذلك الوقت متحليين بالصبر والحكمة ، متمسكين بقرارهم في الاستفادة من وضعهم المناسب ، وهنا قرر صلاح الدين أن يغامر بكل شيء ، إنما بشكل

مدروس وفي غاية البراعة ، على أنه والحق يقال كان تحركا خطرا أيضا ، لقد قرر مهاجمة مدينة طبرية بالذات .

وليس من الواضح تماما في روايات المؤرخين انه كان على معرفة مسبقة بوجود زوجة ريموند في طبرية ، إنما والرجل كان لديه جهاز استخبارات متين ، لاشك أنه كان على بينه من هذه الحال ، ومهما يكن الأمر ، فإن صلاح الدين كما يبدو ، قدر ، وجاء تقديره صحيحا تماما ، بأن هجوما على طبرية ، يعرض أميرة طرابلس للخطر ، لابد وأنه سيبعث روح الفروسية لدى الصليبيين ، وسيثير العناصر المضطربة والمتمردة بينهم ، ويجعلها تحاول الزحف عبر التلال الجرداء لتلك المنطقة ، مع أن مثل هذا الزحف كان سيجعل الجيش الصليبي في موقف غير مناسب ومدمر .

لقد كانت الاميرة البيزنطية ، أنا كومينا ، من شهود الحملة الصليبية الاولى ، وكانت بارعة عميقة الاحاسيس ، لديها قدرات وصفية لاسمات والأخلاق نافذة لاتحد ، وقد قامت في أكثر من مكان في كتابها « الالكسياد » بوصف أخلاق وسلوكية فرسان الفرنجة ، وهنا نجد : سهولة في الاثارة ، اندفاع شديد أحقق ، وإصرار لاتراجع فيه ، ولامبالاة بالموت ، متى ما اتخذ الفرنسي قراره ، أو وقع هواه على أمر ما ، ولاشك أن صلاح الدين كان يعرف هذا وزيادة ، كما كان يعرف العلاقات الداخلية بين قادة الفرنجة ، لهذا قام بمغامرته المدروسة في الهجوم على طبرية ، فأثار الفرنجة وجعلهم يغامرون لعبور الطريق بين صفورية وطبرية ، وهو طريق كما سلفت الاشارة ، كان يقوم وسط المنطقة الجرداء الجافة ، وما أن يسلك ، فلا مخرج منه ، وعلى الصليبيين أنذ أن يغامروا بالسير فيه طويلا بلا ماء ، وكان على صلاح الدين العمل - وكله أمل - في تمزيق الجيش العرمرم قبل أن يتمكن من الوصول إلى أحد الممرين فوق تل حطين ، والوصول إلى مياه البحيرة .

وعلى هذا الأساس قام صلاح الدين في يوم الثلاثاء الثاني من

تموز ، بوضع الجزء الاساسي من قواته فوق المرتفعات تحت الشرف الصخري الى الغرب من طبرية ، حيث تمكنت من اغلاق الطريق المباشر الى المدينة ، وظلت تتحكم بالممرات والقدرة على تأمين المياه لانفسها ، وكان بإمكانها - كما ظهر فيما بعد - التحكم بطريق الوصول عبر الممر الآخر ، لكن لا بد من الاشارة هنا بأن هذا الجيش قد تمركز في مكان بحيث إن الهزيمة بالنسبة له كانت أبسط معانيها كارثة الفناء والموت غرقا ، فوجود البحيرة ونهر الأردن في خلفه ، كان سيجعل الانسحاب في غاية الصعوبة ، ان لم يكن مستحيلا في ظروف الفرار بعد القتال ، ومع هذا كله نجد ان صلاح الدين قام بنفسه بالهبوط على رأس قطعة صغيرة من قواته على طبرية ، ونجح بسرعة في الاستيلاء على المدينة ولم يستغرق الأمر أكثر من ساعة من الزمن ، لكن حصن المدينة صمد ولم يسقط له ، وهناك اعتصم كل من الأميرة مع حاميتها الصغيرة ، وقامت هذه السيدة على الفور بتدبير رسالة أنفذتها الى الجيش الصليبي المعسكر في صفورية تصف سقوط طبرية وما نزل بها وبمن معها من ضيق شديد وخطر مخيف .

لقد استطاعت أميرة طرابلس بطريقة ما تأمين رسول تسرب بالرسالة ، حتى أوصلها الى المعسكر الصليبي مساء يوم الخميس ، ويتساءل المرء هل تسرب الرسول ببصراعيته الشخصية ، أم أن عين رجال صلاح الدين شاهدته ، لكن تركته يذهب ، فهذا كان موجودا في أصل الخطة ، المهم أن الرسول أخبر الصليبيين بأنهم مالم يهبوا بكل سرعة وحماس الى تقديم المساعدات والنجدات لطبرية ، فإن المدينة سيتم فقدانها الى الأبد ، وأنه غادرها المسلمون يقومون بأعمال النهب والاحراق في أجزاء المدينة .

لقد خلقت هذه الرسالة أزمة إستراتيجية للصليبيين ، فهم يرغبون الآن رغبة شديدة - وقد طال بهم القعود - بالتحرك والاقدام على تخليص طبرية وانقاذ الأميرة المحاصرة ، وتشعبت آراء القادة

حول هذا الموضوع ، وتوحدت عواطف الفرسان ، وكان رأي جيرالد مقدم الداوية وأرنات صاحب الكرك مع غالبية الفرسان بأن عليهم التحرك في الصباح الباكر ، وقالوا بأن الشرف ومثل الفروسية يتطلبان ، لا بل يفرضان ذلك ، قالوا ذلك تحركهم عواطفهم وغرائزهم ، مع أن مثل هذا التحرك كان من أشد الأعمال حماقة ، وفي الطريق الى طبرية كان هناك عشرة أميال من الأراضي الوعرة الجافة الصعبة المجاز ، كما كان ايضا جيش صلاح الدين المتمركز تحت الشرف والمتحكم بالمرات والمقلق لها جميعا ، لقد كان - في الحقيقة - شرك منصوب لهم ، لكن « الطعم » كان مغريا لأصحاب العواطف الجياشة .

وبعدما وصلت الأخبار الى مسامع الملك غي ، أقدم على الفور فوجه الدعوة لجميع البارونات ورجال الأكليروس لعقد مجلس حربي ، وفي بداية الاجتماع أخبر الملك الحضور بفحوى الرسالة التي تسلمها من صاحبة طبرية ، وبعد ما أطلعهم على الأخبار التي حملها الرسول ، التفت أولا نحو ريموند الثالث صاحب طرابلس ، لالمكانته وعظيم خبرته ، وطول تجاربه فحسب ، لكن لأن مدينة طبرية المهاجمة مدينته ، وزوجته هي الأميرة المحاصرة ، وهي صاحبة الرسالة ، والمهددة بالخطر ، وخاطب غي ريموند بقوله: « ما رأيكم ياسيدي ، وما هي النصائح التي يمكن أن تقدمها اليها؟... »

ولم يكن ريموند من الرجال الذين يفقدون السيطرة على أنفسهم في مثل هذه الأزمات ، وذلك على الرغم من الشعور الشعبي تجاهه ما كان يجري ، فهو حسب بعض المصادر اللاتينية الصديقة له ، لم يمتلكه الخوف ولا الأسى ، ولم يخذل على سلامة زوجته ، ذلك انه كان يعرف مدينته ، ويعرف صلاح الدين ، ويدرك الخدعة ، ويعلم أكثر من سواء طبيعة المنطقة ، لهذا جاء جوابه كما يلي : « لا بأس أنا سأدلي برأيي ، اذا ما أصغيتم إلي وصدقتموني ، فأنا أعلم علم

اليقين أنه مامن أحد منكم يرغب في تصديقي .» ورد عليه الملك قائلا :» أخبرنا بما تراه ، وأعلمنا بما علينا عمله .»

واستجاب ريموند فتحدث ثانية وقال موجهًا كلامه الى الملك :» أصغ ياسيدي أنت والسادة الحضور الى ما سأقوله ، ان ماأراه هو : دع طبرية تذهب ، حتى وإن لم أستطع ترتيب أمور عودتها إلي واستردادها من المسلمين ، وحتى في حال عجزني عن تدبير أمر انسحابهم ، إنني أوصيكم بكل صدق بألا تذهبوا الى مساعدة المدينة ونجدة المحاصرين بها ، دعوها تذهب دعوها تسقط ، وهانذا أخبركم لماذا : إن طبرية لي ، وهي من أملاك زوجتي ، وموضوعة تحت تصرفي ، وما من أحد سيخسر قدر خسارتي اذا ما فقدناها .

أنا لا أتمنى أن يتأذى أي منهم ، وقد سبق لي أن أنذرتهم ، وأعلمتهم بأنهم اذا ما وجدوا هجوم صلاح الدين شديداً ، وكبيراً الى حد أنهم لا يستطيعون مقاومته ودفعه ، فان عليهم القيام بركوب بعض القوارب والبحث عن ملجأ ما في البحيرة وأطرافها حتى نقدم ، عندما تنهيا الفرصة لانقاذهم .»

إنني أعلم علم اليقين ان المسلمين اذا ما استولوا على طبرية ، لن يحتفظوا بها ، بل سيهدمون أسوارها ثم يدعونها ، ولن يتحركوا نحونا لمهاجمة معسكرنا ، واذ حدث واستولوا على القلعة وأسروا زوجتي ورجالي واستولوا على ممتلكاتي وهدموا مدينتي ، فإنني سأقوم فيما بعد بانقاذهم ، وبإعادة بناء سور المدينة وترميم ما تهدم منها ، وذلك مع أول فرصة تواتيني ، فأنا كنت ومازلت أفضل ان أرى طبرية تهدم ، وزوجتي تؤسر مع رجالها وممتلكاتي تسلب وتنهب ، على أن أرى الأرض كلها تذهب ، فأنا موقن بأننا اذا ما مضينا لانقاذ طبرية ومن فيها ، فإننا سنخسر الأرض ، وسترى جيشك هذا كله ما بين قتيل وأسير ، وهانذا مخبرك لماذا ؟.

لا يوجد بين منطقتنا هذه وطبرية ماء ، اللهم الا

نبيع « كرسون » ؟ وهو نبيع صغير لا يقوم بأود الجيش ، وأنا على يقين أنك حالما تتحرك من هنا - إذا ماقررت الذهاب ، لانقاذ المدينة - ستجد المسلمين أمامك بانتظارك ، وسيناوشونك بأنواع القتال طوال النهار ، وسيستدرجونك سواد الليل حتى يضعوك في منتصف الطريق ما بين موقعنا هذا وطبرية ، وسيجبرونك على المعسكرة هناك لأنك لن تستطيع القتال بسبب الحرارة ولأن السير - جانبية لن يكون لديهم ماء للشرب ، انهم سيموتون عطشا ، وإذا ما حاولت القيام بهجوم ، فان المسلمين سيفرون أمامك متراجعين نحو الهضاب حيث لايمكنك المرور بدون السير جانبية ، واذا وجدت ان عليك المعسكرة هناك ، ما الذي سيشربه رجالك وتشربه خيولك ؟ هل يبقون بلا ماء؟ أن مثل هذا الحال سيكون مميتا ، ففي اليوم التالي سياخذوننا جميعا باليد ، لأن لديهم الماء والطعام والراحة ، سنقتل جميعا أو نقع في الأسر ، انني لهذا كله ارى انه من الخير لنا ان ندع المدينة تذهب ، دون أن نخسر كل الأرض ، لأنه من المؤكد أنك اذا مضيت الى هناك ، فالأرض سنخسرها جميعا .

سيدي ، إنك إذا ما اردت حقا دخول الحرب ضد صلاح الدين ، دعنا نعسكر امام عكا ، حيث سنكون قرب حصوننا ، انني اعلم علم اليقين أن صلاح الدين رجل متكبر الى حد أنه لن يدع المملكة ويغادر اراضيها حتى يحاربك ، وانه اذا ماهاجمك امام عكا ، ولم يواتنا الحظ - لاسمح الله - فاننا سننتراجع الى عكا وإلى بقية المدن القريبة ، انما اذا نصرنا الرب عليه ، فاننا سنسحقه قبل ان يتمكن من العودة الى اراضيه ، اننا سنحطمه تحطيمًا شديدا الى حد أنه لن يستطيع ثانية جمع قواته .

وعندما انهى الكونت كلامه ، تمتم مقدم الداوية ثانية وبشكل مسموع قائلا : إنه يتبرقع بجلد الذئب ، لكن الكونت لم يعره اهتمامه ولم يلتفت الى هذه الكلمات ، وتظاهر بعدم السماع ، مع

انه سمع كل عبارة ، ثم استأنف خطابه للملك قائلا : سيدي ، اذا لم يقع كل شي كما اخبرتك ، اقطع راسي .

وجاء في الكامل لابن الأثير ما يؤيد بعض محتويات هذه الوصية ، ويوضح بقية جوانب القضية حيث قال : « فسار - صلاح الدين - حتى خلف طبرية وراء ظهره ، وصعد جبلها ، وتقدم حتى قارب الفرنج ، فلم ير منهم أحدا ، وفارقوا خيامهم ، فنزل وأمر العسكر بالنزول ، فلما جنة الليل ، جعل في مقابل الفرنج من يمنعهم من القتال ، ونزل جريدة ، وقاتلها ونقب بعض أبراجها ، وأخذ المدينة عنوة في ليلة ، ولجأ من بها الى القلعة التي بها ، فامتنعوا بها ، وفيها صاحبيتها ومعها اولادها ، فنهب المدينة وأحرقها ، فلما سمع الفرنج بنزول صلاح الدين الى طبرية ، وملكه المدينة ، وأخذ ما فيها وأحرق ما تخلف مما لا يحمل ، اجتمعوا للمشورة ، فأشار بعضهم بالتقدم الى المسلمين وقتالهم ، ومنعهم عن طبرية ، فقال القمص (ريموند الثالث) : إن طبرية لي ولزوجتي ، وقد فعل صلاح الدين بالمدينة ما فعل ، وبقيت القلعة ، وفيها زوجتي ، وقد رضيت ان يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ، ويعود ، فوالله لقد رأيت عساكر الاسلام قديما وحديثا ، وما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرة وقوة ، واذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها ، فمتى فارقتها وعاد عنها أخذناها ، وان اقام بها لا يقدر على المقام بها الا بجميع عساكره ، ولا يقدر على الصبر طول الزمان عن اوطانهم واهليهم ، فيضطر الى تركها ، ونفك أسر من أسرنا ، فقال له برنيس أرناط - صاحب الكرك - قد أطلت في التخويف من المسلمين ، ولا شك أنك تريد لهم ، والا ما كنت تقول هذا ، وأما قولك انهم كثيرون ، فان النار لا يضرها كثرة الحطب ، فقال : أنا واحد منكم ، إن تقدمتم تقدمت ، وإن تأخرتم تأخرت ، وسسترون ما يكون ، فقوي عزمهم على التقدم الى المسلمين ، وقتالهم ، فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه ، وقربوا من عساكر الاسلام ، فلما سمع صلاح الدين بذلك ، عاد من طبرية

الى عسكره ، وكان قريبا منه ، وانما كان قصده بمحاصرة طبرية ان يفارق الفرنج مكانهم ، ليتمكن من قتالهم ، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والزمان قيظ شديد الحر ، فوجد الفرنج العطش ، ولم يتمكنوا من الرجوع خوفا من المسلمين .

ونعود الى الروايات اللاتينية ، ونتابع معها وصفها لمناقشات المجلس الحربي للفرنجة ، فنجدها تقول انه بعدما انهى ريموند كلامه سأل الملك البارونات ماذا يرون فيما قدمه الكونت من مشورة وأراء ، فأجابوه بأن كل ما قاله الكونت صحيح تماما ، واتفقوا على أنه بات عليهم العمل كما قال ، وهنا أبدى الاسبتارية رضاهم وموافقتهم ، وأعلن الملك عن قناعته بذلك الرأي ، وكذلك فعل جميع البارونات ، فيما عدا أرناط مع مقدم الداوية ، لكن رغم هذه المعارضة اتخذ الملك مع جميع البارونات قرارا بالعمل حسب مشورة ريموند .

بعد هذا العرض ماذا يمكن لنا أن نرى في مشورة ريموند ؟ من حيث المبدأ إن كلامه كما نقله المؤرخ اللاتيني قد تنبأ بشكل صحيح وكامل تماما بجميع حوادث اليوم التالي ، كما وقعت ، وهذا لا يدع الشك لدينا بأن الجزء الأكبر والأخير مما نسب الى ريموند حسب الرواية كله مخترع ، قصه الراوي متأخرا بعد المعركة ، ومع هذا فإن قراءة هذه الرواية تترك في النفس انطبعا خاصا ، فهي بما لها وعليها ، تتحدث عن شي قد حصل ، وتروي بشكل غير مباشر أخبار وقائع حطين الحاسمة .

نحن لن نستطيع - بشكل مؤكد - أبدا معرفة ما حدث من مناقشات في خيمة الملك غي ذلك المساء ، فلقد طواها الزمان ، ولن نستطيع أبدا معرفة ما قاله الكونت ريموند ، لكننا نعرف بأن مناقشاته كان لها أثرها الواضح على الفرسان ، الذين دفعتهم أرواحهم المتوقدة ، ساعة سمعهم الأخبار الى المطالبة بالزحف فورا ، فتوقفوا الآن وهذا جيشانهم ، لهذا نفترض بأن الآراء التي عرضها كانت مصيبة تحوي مشورة جيدة ، الى حد قرار

التربص ، فهو كان بلا شك على معرفة بالمنطقة أكثر من سواه ، وكانت معارفه الحربية ، وقدراته التكتيكية مشهورة ، كما أنه ملك قدرة الاقناع ، بعد عرض الأفكار بشكل واضح ومنطقي ، وفيما يختص بطبرية فإنه كان المسؤول عنها ، ويرجح أنه لم يكن قلقا عليها ، ولو كان لترك فيها منذ البداية حامية قوية ، زد على هذا كله أن ريموند الثالث كان فاهما لاستراتيجية صلاح الدين ، ودون شك قد قدر بأنه إذا مكث الصليبيون في صفورية ، فقد كانت فرصة متوقعة ، بأن صلاح الدين سيضطر أخيرا الى الانسحاب من طبرية ومن معسكره تحت التلال والعودة نحو دمشق ، أو أنه سيقدر الهجوم والاندفاع داخل الأراضي الصليبية .

وباستخلاص من مختلف الروايات بأن ريموند كان يعتبر نفسه أنه ما يزال على علاقة طيبة مع المسلمين ، وأنه كان يأمل بالحصول على انسحاب صلاح الدين ، والحيلولة دون القتال ، بعد نوع من المباحثات ، فصحيح أن صلاح الدين كان لديه الماء ، إنما كما يبدو ، كان تحصيل كميات كافية من المؤن تكفي للةطويلة أمرا صعبا ، ثم كان صلاح الدين يقود جيشا نصفه من المتطوعة الذين يفقدون الصبر بعد قليل من المراقبة ، والنصف الآخر من أمراء الاقطاع وحكام الأطراف الذين تملكهم الرغبة الشديدة في العودة الى أراضيهم ، لقد كان صلاح الدين بعيدا عن قواعده ، معسكرا في أرض عدوة ، وكان لا يستطيع المراقبة طويلا ، وطبعاً كان من الأفضل للفرنجة المقامرة على أن يتحرك صلاح الدين منسحبا أو يزحف نحوهم ، بدلا من قيادة جيوشهم في الأرض الجرداء الصعبة التضاريس ، لقد أراد ريموند تقليد فنون المسلمين بالقتال بالانسحاب نحو الشاطئ واغراء صلاح الدين ليس فقط بعبور الهضبة ، وإنما بالتغلغل داخل أراضي مملكة القدس ، لقد كان القتال عند طبرية شرك منصوب ، ريموند وحده ملك - حسبما توحيه المصادر المختلفة - الفهم الاستراتيجي له ، فهل يا ترى ملك ذلك فعلا أم أن المؤرخ اللاتيني سجل وقائع المعركة ونتائج

التحليلات لما حدث ؟ تبقى القضية معلقة بمثابة سر كبير من أسرار التاريخ .

وبعد هذا كله لنفترض أن كل ما قيل بأن ريموند قد أشار به كان صحيحا ، وأن الملك والبارونات وافقوا في البداية على أرائه ، لكن من قال بأن القرارات - في العصور الوسطى - كانت تتخذ في الاجتماعات العامة ، وأن إعلان الحرب لدى الفرنجة وملوكهم خضع لأحكام العقل والمنطق ، وليس للشهوات والمطامح الفردية ، وعليه قد يكون ريموند أشار بالرأي الصحيح ، لكن كلمته لم تكن الكلمة المسموعة لتنفيذ ، وحزبه لم يكن الحزب الحاكم في القدس ، لقد كان ريموند عدوا للملك غي ولأعوانه خاصة جيرالد مقدم الداوية وأرنات صاحب الكرك ، فصراعاته ضد الجماعة الحاكمة في القدس قد أجبرته على الحالف مع صلاح الدين ، وكان الحزب الحاكم لا يكتفي بعدم الثقة به ، بل كان ما يزال - رغم المصالحة - يعتبر بأعين الكثيرين خائنا «يتبرقع بجلد الذئب» لا يجوز مطلقا الوثوق بكلامه ، ولا شك أن جيرالد وأرنات وغيرهما كثير آمنوا بهذا ايمانا مطلقا ، وهنا لب القضية الحقيقية في ما حدث ، وأدى الى ما نزل بالفرنجة في حطين ، المشكلة أن الصراعات الشخصية ، والعداوات الفردية التي وجدت بين صفوف قادة الصليبيين الى فترة طويلة ، جعلت الامور تتداخل ، والأحكام تمتزج الى حد غدا فيه من المحال التمييز في عقولهم بين ريموند خصمهم وريموند العسكري المجرب والاستراتيجي الخبير .

وتشير المصادر الغربية الى أن في حوالي منتصف الليل انقضى الاجتماع ، وانصرف البارونات الى خيمهم ظانين بأن المسألة قد تقرر ، وهم على ثقة تامة بأن الجيش لن يتحرك الآن ، وسيبقى تلك الليلة في معسكره حتى يجد جديد فيجري بحثه ، وجلس الملك في سرادقه يروح عن نفسه الى ساعة متأخرة من الليل ، وما كاد يفرغ من ذلك حتى دخل جيرالد مقدم الداوية ، وخاطبه بقوله : « هل تصدق ما قاله هذا الخائن ، وتؤمن بما قدمه من مشورة وراء ، إنه

عار عليك أصلا أن تستمع اليه ، وأن يقوم بتقديم النصيحة لك ، وإنه أيضا لعار عليك عظيم ، كما هو مهين بالنسبة لك - وأنت الذي توجت ملكا منذ زمن غير بعيد ، واستطعت رغم ذلك حشد جيش كبير لم يجتمع مثله لك قبلك في هذه الأرض - أن تتراخى وتتهاون ، وتدع مدينة ، هي على بعد ستة أميال منك ، تفقد لها لعدونا ، إن هذه أولى المهام التي القيت على عاتقك ، وأول الواجبات التي عهد بها اليك ، منذ جرى تتويجك ، وأعلم جيدا ، قبل أن ترى ، بأن الداوية سيخلعون أقببتهم البيضاء ، ويبيعونها أو يرهقونها ، ما لم ينتقم من المسلمين ما حل بي وبهم من عار واذلال (يشير الى واقعة الناصرة) امض ، وأعلن في الجيش كله ، بأن على كل رجل حمل سلاحه ، والانضمام الى جماعته ، للانضواء تحت لواء الصليب المقدس .

ولم يتجرا الملك غي على معارضته ، ونفذ كل ما امره به ، لأنه كان يحبه ويخشاه ، حيث أنه هو الذي نصبه في الملك ، وأعطاه الأموال التي بعث بها ملك انكلترا .

ولم يكن تأثير ضعف الملك غي وعجزه ، على جماعته حسما بشكل مميت مثلما كان تلك الساعة من بعد منتصف الليل ، فقد كان هو القائد العام ، وكان كل شيء متوقفا على قراره وعليه شخصيا كما عرف جيرالد بشكل واضح ، ولقد تمكن جيرالد ببراعة فظة من جعله يشعر أنه مدان للداوية ولقدمهم جيرالد ولجميع الذين صنعوا منه ملكا ، ولا شك أن هذه قد كانت نقطة حساسة جدا ، ففي الماضي ، قام جيرالد ، بتنصيبه ملكا على القدس ، رغم أنف جميع البارونات فكيف يمكنه الآن مخالفته ؟ يضاف الى هذا أن مقدم الداوية دغدغ عواطفه واستثار شجاعته وحرضه ، ذلك أن الملك غي رغم كل شيء كان من فرسان الفرنجة ، يحمل الطباع نفسها ، ولم يكن جباناً ، بل مغامرا متهورا ، ومع ذلك عرف جيرالد كيف يجعله العسوبة بين يديه ، ولهذا أقدم غي في تلك

الساعة المتأخرة من الليل ، أقدم دون تردد ، على اصدار الأوامر لمن كان حوله بإزالة معسكرهم ، وحمل السلاح للزحف نحو الأمام .

وقضت قوانين الفرنجة وتقاليدهم ، أن مثل هذا القرار كان بعد صدوره لا يمكن نقضه أو التراجع عنه ، وفي الحال شرع الجيش بالتحرك نحو طبرية ، وبأث من المحال تغيير الخطة ، وصار الأمر الآن طبرية أو الكارثة ، ولكم هو مدهش وضع الفرنجة ، أن يرفض ملكهم نصيحة ريموند وهو على انفراد بعد ما أعلن عن قبوله لها قبيل سويغات في مشهد عام ، أن يتخلى عن ذلك كله نتيجة لضغط جيرالد عدي ريموند ، منذ أن حرمه الأخير من زواج موعود « بيسيدة البترون » وذلك قبل ست سنوات مضت ، وذلك حسب تصريح المؤرخ الفرنجي الذي شهد هذه الأحداث ، ولذلك دعاه بـ « الرجل الذي ضاعت الأرض على يديه » .

كانت ساعة اصدار الأوامر أسوأ ساعات الليل ، فيها ترتخي الأجساد ، وتهبط المعنويات ، وتكثر الأحلام ، ولهذا يخبرنا المؤرخ الفرنجي بأن الانزعاج بين الفرنسيان كان كبيرا جدا ، عندما سمعوا بأوامر الزحف ، وأصر بعضهم على معرفة من دفع إلى اتخاذ هذا القرار المفاجي ، وما الذي بعث على تغيير الخطط السالفة ، لكن الملك رفض إخبارهم ، وقرر عدم تقديم أية إيضاحات ، وأصر على ما أصدره من أوامر ، لذلك عبثا حاولوا الضغط عليه لثنيه عن قراره أو التراجع عنه ، فاطاعوه مكرهين والحزن يملأ قلوبهم ، أو حسب عبارة المؤرخ الفرنجي : « اطاعوه لأنهم كانوا رجال صدق وأصالة ، ونفذوا أوامره ، ولربما كان خيرا لهم وللمسيحية لو أنهم رفضوا إطاعة أوامره » .

ويستخلص من رواية هذا المؤرخ أن رجال الفرنجة تهيأوا للزحف في ساعات ما قبل الفجر ، وهو - كما قلنا - وقت تكون شجاعة الرجال فيه في أدنى المستويات انخفاضا ، وانتشر الشعور باليأس ، وتوجس الشر ووقوع الكارثة ، بين صفوفهم ، وترك هذا

الحال اثاره العميقة ليس على مؤرخنا القديم بل حتى على كتاب العصر الحديث في الغرب ، لهذا أسرف وأسرفوا في ايضاح الحالة النفسية لعساكر الفرنجة ، ولا شك أن كميات القصص المروية ، وفي كل منها نبوءة بالكارثة ككل أو شطر ، ما يعكس الأحوال النفسية المتدهورة للصليبيين ، خاصة وأن معظم هذه القصص جرت روايته فيما بعد .

ومفيد لنا أن نسرد وقائع احدى القصص ، ففيها ما يقدم صورة واضحة لحالة الهياج والاضطراب النفسي والهلع الذي ساد بين صفوف الفرنجة : قيل بأن واحدا من مشاة المؤخرة القسى القبض على امرأة مسلمة ، فأعلن أنها كانت ساحرة ، وظفها صلاح الدين وبعث بها لتلقي بسحرها على الجيش الصليبي ، وانتشر الخبر ، وهاج الجيش وماج ، واضطرب الحال ، وفقد الجميع السيطرة على عقولهم ، وجرى ايقاد نار عظيمة لاحراقها ، وقيل بأنها القيت في النار فلم تؤثر بها ، وزاد الاضطراب والهياج حتى قيل بأن الرجال والخيول على السواء تأثروا بسحرها ، ولقد أقدم أخيرا أحد الرجال فاجتث رأسها ببلطة هولندية كانت بيديه ، وتناثر دماغها في كل مكان ، وأصاب دمها الكثيرين ، حتى رفضت الخيول ملامسة الماء طوال النهار والليل قبل أن يتحرك الجيش ، ثم تخلت عن خيالنها في اليوم التالي...

لقد كان الجيش الصليبي مؤلفا من ثلاثة أقسام ، ففي المقدمة سار ريموند ، على أساس رتبته ، وبسبب أن الزحف كان في أراضيه ، ووقف الملك في القلب ومعه رجاله وفرسانه وصليب الصليبوت محمولا من قبل اساقفة عكا والد ، وبقي في المؤخرة « بالين صاحب ابلين » ومعه فرسان الداوية .

في صباح يوم الجمعة الثالث من تموز بدأ زحف القسوات الصليبية ، وكان معسكرهم مرصودا من قبل المسلمين ، لذلك نقلت الاخبار سريعا الى صلاح الدين ، الذي ما أن سمع بالاعخبار حتى سر سرورا كبيرا ، ذلك أن ما خطط له بدأت علامات النجاح المتأمل

له بالظهور ، وكان يشرف على فتح طبرية ، وعلى الرغم من أن رجاله كانوا قد شرعوا في فتح ثغرة في أسوار قلعة طبرية ، وأن القلعة اشرفت على السقوط ، فإنه ترك طبرية ، والتحق على الفور بالجزء الأكبر من جيشه المقيم تحت الشرف الكبير الى الغرب من طبرية ، وترك شحنة صغيرة لتتولى امر المدينة ومتابعة حصار القلعة ، ووضع الآن أن طبرية لم تكن هدف صلاح الدين الحقيقي ، وعندما بلغه الخبر صرخ قائلاً : « جاءنا مانريد ، ونحن اولو بأس شديد ، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل مادونه مائع ، ولا عن فتحه وازع » .

وبمجرد مغادرة الصليبيين للصفرية في طريقهم يريدون طبرية ، بدأت التوقعات المعززة لريموند ، تظهر صحتها ، والأهم من ذلك أن التكتيك « الفرثي » (أي نظام فصل أسلحة الجيش الصليبي عن بعضها) ظهر بوضوح لانظير له ، وطبقه صلاح الدين بشكل مثالي ، إنما بصعوبات كبيرة وأعمال معقدة جدا ، المهم أنه نجح كما سنرى في فصل سلاح الفرسان عن سلاح المشاة ، وأنزل ضرباته المدمرة بكل منهما على حدة .

فمع تقدم الجيش الصليبي ببطء ، اخذت كتائب من القوات المسلمة ، خاصة من الخيالة النبالة تناوشه من جميع الاطراف ، وتحرك بتحركه ، واستمر هذا طيلة الصباح ، ولم تلبث الشمس أن ارتفعت في قبة السماء ، وهنا ارتفع الحر ، وازداد العطش ، وعظم ، ولم يكن هناك ماء ، وواضح أن التحرك المفاجيء للجيش ، وصدور الأوامر إليه بعيد منتصف الليل ، وتخيل قادة الفرنجة أنهم سيكونون في طبرية مع إشراقة الصباح ، كل هذا جعل أفراد الجيش الصليبي لا يحملون معهم الماء ولا حتى المؤن ، ولعله أثناء معسكرته في صفرية لم يكن لديه اوعية لحفظ الماء ونقله ، ذلك أن معركة حطين كانت بالفعل معركة الماء .

وعلى هذا لم يكد الصليبيون يسيرون قليلا حتى اخذت نبال المسلمين تعقرهم والعطش بعضهم ، وساروا مصابرين في ظل هذه

الحالة الصعبة حتى وصلوا أخيرا إلى مسكان عرف باسم « لوبية » وهي واقعة في حوالي منتصف المسافة إلى طبرية ، وكان الوقت آنذا منتصف النهار ، وهنا ازداد ضغط كتائب صلاح الدين عليهم من كل ناحية ، فقد بدأ تنفيذ مرحلة جديدة حاسمة من الخطة ، وازداد العطش الحارق في تلك الساعة ، وأصبح الحر لا يحتمل ، ولنتذكر مجددا هنا بعض الحقائق :

لقد غطي الحديد جسد كل فارس ومطيته ، كما أن أجساد الرجال كانت أجزاء كبيرة منها مغطاة بوسائل واقية من اللبد أو الجلود أو المعادن ، وسبب هذا ضيقا شديدا لكل واحد من عساكر الصليبيين ، ليس لأن وزن الدروع كان كبيرا ، بل لأن هذه الأثواب على مختلف أنواعها كانت تحد من حرية حركة الإنسان ، ولتصور أحدنا نفسه موضوعا داخل قالب معدني أو غير معدني ، ولوقت طويل ، وسط حرارة شديدة جدا ، مما يزيد الضيق ضيقا وينهك أقوى الأجسام ، وفوق هذا كله وأهم ، مشكلة التعرق ، فما ارتداه الفرنجي حال بين جسده وبين التعرق ، وسد مسام الجلد ، لهذا قامت تقاليد أهالي بلاد الشام على ارتداء الثياب الرقيقة البيضاء الفضفاضة في موسم الصيف .

وسلف بنا أن ذكرنا أن فرسان الداوية ساروا في مؤخرة الجيش ، وفي منطقة لوبية شدد المسلمون الضغط على الداوية ، وكانت ضرباتهم موجعة إلى درجة دفعت الملك غي إلى إصدار أوامره بنصب الخيم وإقامة المعسكر ، والمسألة الآن ليست في حقيقة أن الجيش الصليبي بات الآن على مسافة قصيرة من الماء ، فالنقاش هنا لا يدور حول قرار الملك إقامة المعسكر ، فالضغط لاشك كان شديدا من كافة الجوانب ، لكن القادة الكبار لا يتخذون قرارات الانتحار لأنفسهم ولجيوشهم بعد سويغات من الحرب ، فمن الوجهة الاستراتيجية هناك إجماع على أن إقامة المعسكر في ذلك المكان كان غلطة مميتة ، وأنه كان على الصليبيين الصبر والاندفاع بأي ثمن نحو الماء ، وهنا نلاحظ في الكتابات الغربية أن كل فريق من الجيش

الصلبيبي وجه اللوم للفريق الآخر حول اتخاذ هذا القرار ، وبصرف النظر عن ذلك ، إن إقامة المعسكر في لوبية وضع الجيش الصليبي داخل طوق للحصار فرضه المسلمون ، ولم يعد بإمكان الفرنجة العودة إلى صفورية ، وبات التقدم عملا انتحاريا ، لكنه المخرج الوحيد ، ذلك أن البقاء داخل المعسكر - وليس هناك أمل لبالنجدات ولا بسواها - كان يعني الموت البطيء جوعا وعطشا أو الاستسلام الجماعي .

ويختلف المؤرخون اللاتين حول تحديد الشخص المسؤول عن إعطاء أوامر التوقف وإقامة المعسكر ، ولا شك أن مثل هذا أمر طبيعي في ظل تلك الظروف الصعبة ، فمع ازدياد صعوبة الزحف لابد أن الرجال الذين رووا أخبار الأحداث ، قد تداخلت معلوماتهم واضطربت ، بسبب سوء الأحوال ، يضاف إلى ذلك أن كل واحد من الرواة كان كما هو متوقع في طرف من أطراف الجيش ، ورأى الأمور من زاوية خاصة ، وبصرف النظر عن هذا كله ، فالذي يأتي بالدرجة الأولى من الأهمية بالنسبة لنا حقيقة مفادها أن قرارا بالتوقف قد صدر بصرف النظر عن أصدره أو أشار به ، والطريف هنا هو أن بعض كتاب الغرب اتهم مجددا ريموند بأنه قدم للملك مشورة فاسدة سببت اتخاذ هذا القرار ، ولنقدم بالبحث في هذه المسألة ، ففي ذلك فائدة كبيرة في اطلاعنا على أحوال الفرنجة ، وبعض الدوافع للتوقف والأهداف .

ويذكر صاحب تكملة تاريخ وليم الصوري وسواه أنه عندما وصل الجيش إلى نقطة قائمة في منتصف الطريق بين صفورية وطبرية ، حسب الوصف البسالف ، سأل الملك غي كونت طرابلس أن يقض مشورته حول الوضع ، فاستجاب بأن أشار عليه بالتوقف حيث هو ، ويقيم معسكره ، وتجمع جميع المصادر الغربية على وصف هذه المشورة بالفساد والخيانة ، لكن مصدرا واحدا بينها يوحى بأن التوقف كان بقصد لم شتات القوات وجمعها بقصد القيام بهجوم عام ، وأن مثل هذا الهجوم لو تم لحقق النصر على المسلمين .

قد يكون هذا صحيحا ، إنما من الملاحظ في أخبار الكثير من المعارك التي حدثت في العصور الوسطى أن إصدار بعض الأوامر في الساعات الحرجة ، ثم تبديل أماكن بعض القطعات أو تراجع بعضها أو ما يشابهه ، كان يسبب الفوضى ويقود إلى الهزيمة ، على كل حال يقدم صاحب هذه الرواية المزيد من التفاصيل ، ويذكر بأن ريموند أشار على الملك بالتحول عن الطريق التي كان يسير عليها ، وأخذ طريق آخر ، فقد أصبح الوقت متأخرا للوصول إلى طبرية ، بسبب المناوشات والهجمات المستمرة لكثائب الاسلام ، ثم لم يكن هناك أي ماء في لوبية ، وأخبره أنه وراء التلال إلى اليسار هناك قرية اسمها حطين فيها عدد كبير من الزنابيع ، فهناك من الممكن المعسكرة لمدة ليلة ، ومن ثم يستأنف الزحف في اليوم التالي إلى طبرية براحة ودونما عناء ، ووافق الملك على هذا الاقتراح ، لكن حسب رأي المؤرخ كانت تلك المشورة فاسدة ، فلقد كان لدى الصليبيين آنذاك ما يكفي من القوة لهزيمة المسلمين ، أو على الأقل شق طريقهم نحو طبرية حيث الماء .

ويتابع عرضه بأن الملك غير طريقه ، وانحرف نحو التلال القائمة إلى جانبه ، إنما حدث أثناء تغيير الاتجاه أن فقد الجيش نظامه وتماسكه ، مما شجع المسلمين وجعلهم يزحفون من جميع الجهات لتمزيقه قبل أن يتمكن من الوصول إلى الماء ، وقد توقف الصليبيون على هضبة في مكان عرف باسم قرن حطين ، وهنا توجه الملك غي بالسؤال ثانية إلى ريموند: ماذا عليه أن يعمل؟ وأجاب ريموند هذه المرة ، بأنه لو سمع نصيحته منذ البداية ، لما خسر نهاره ، لكن الآن تأخرت الأمور ، ولم يبق أمامه إلا - كما قال - أن ينصب معسكره هناك على قمة الهضبة ، وهذا ما فعله غي .

من الواضح أن المكان الموصوف في هذه الرواية هو الأرض القريبة من قرني حطين ، حيث - كما قال هذا المؤرخ نفسه - قامت المعركة في اليوم التالي وأن ريموند قد حرض الملك على اجتياز الممر الواقع إلى الغرب - كما سبق وصفه - إلى

حطين والماء ، وما يعنينا هنا هو تغيير الملك لاتجاهه وتخليه عن الطريق المباشر إلى طبرية ، وحيث أن ريموند كان على رأس مقدمة الجيش يبدو أنه أشار بتغيير الاتجاه ، ونفذ فوصل إلى قرب الممر إلى الماء ، لكن الجزء الأساسي من عساكر الجيش مع قوات المؤخرة كانوا بعيدين في الخلف ، ولعل عملية الانحراف إلى اليسار أو إلى الشمال تمت في لوبية ، وأن الجيش والملك تعذر عليهما اللحاق بريموند ، فصدر الأمر بالمعسكرة هناك في لوبية ومنطقتها لأن الجيش كان كبيراً ويحتاج إلى رقعة واسعة من الأرض ، ويبدو أنه بعدما صدرت الأوامر بالمعسكرة تراجع ريموند مع المقدمة أو جرى استدعاه ، وعلى هذا نجد أن ما ذكره هذا المؤرخ من أن المعسكرة جرت على قرن حطين ، ليس صحيحاً ، يضاف إلى أنه لا توجد روايات أخرى تشير إلى ذلك ، ثم إن هذا الخبر لا يتماشى مع مجريات اليوم التالي .

وفي رحلة لمؤلف مجهول (جرى نشرها في لندن سنة ١٨٧٥ م ، وتعرف عادة باسم ليلوس وصف فيها صاحبها الأراضي المقدسة) رواية عن معركة حطين ، لعلها نقلت عن شاهد عيان حضر الحوادث وشارك بها ، وكان في المقدمة مع ريموند ، كما أنه كان من المؤيدين له والمدافعين عنه ، وتتشابه هذه الرواية من بعض الجوانب مع رواية تكملة تاريخ وليم الصوري ، إنما مع فارق بالتفاصيل ، فهي مختصرة ، ورواية التكملة واسعة ، وقد جاء فيها : « عندما وصل الجيش لوبية ، أشار الكونت على الملك أن يسرع الخطى فوق مكان صخري ضيق طوله قرابة ميل واحد ، حتى يتمكن من الوصول إلى بحيرة طبرية والماء ، وأخبره أنه إذا لم يفعل ذلك ، سيموت وجيشه عطشا » .

ويبدو أن الممر المقصود هنا هو الموجود إلى غربي قرني حطين ، الذي رجحنا وصول ريموند على رأس المقدمة إليه ، والجدير بالذكر أن صاحب هذه الرواية لا يوجه اللوم إلى ريموند لتقديمه رأياً فاسداً ، بل يخالف الروايات الأخرى فيوضح بأن الملك حاول في

البداية اللحاق بالكونت ريموند ، لكنه عندما رأى حركة الجيش البطيئة والفوضى الناجمة عن تغيير الاتجاه ، ثم ما نزل بالداوية في المؤخرة ، الذين ضغط عليهم بشدة متناهية ، حتى أنهم باتوا عاجزين عن متابعة القتال والحركة ، عندها أمر بالتوقف ، وبُنصب الخيم ، وأن ريموند عندما شاهد ذلك صرخ : « واحسرتاه ، واحسرتاه ، يا إلهي ، انتهت الحرب ، لقد خانونا ، ودمرت الديار » ، ومعنى هذا أن ريموند كان ضد التوقف في لوبية .

ومهما يكن اسم الرجل المسؤول ، يستخلص من جملة ما جرى عرضه أن جيش الفرنجة زحف من صفورية ، يريد طبرية عبر الطريق المباشر ، فاعترضه المسلمون واحاطوا به ، ووجهوا إليه الضربات المميتة ، ولم يكن مع الفرنجة ماء ولا مؤن كافية ، وكان اليوم شديد الحرارة ، وعند الوصول إلى منتصف الطريق ، حيث حمل المكان عموماً اسم « لوبية » تقرر تغيير الاتجاه نحو اليسار نحو قرية حطين حيث بعض الماء ، مع ممر يمكن النفاذ منه إلى طبرية ، وأدى قرار تغيير الاتجاه إلى خلل شديد في نظام الجيش الزاحف ، وهنا ازدادت ضراوة هجمات المسلمين ، وبات من المحال متابعة التحرك ولم يكن هناك مجال للهزيمة ، لذلك أصدر الملك الأمر بالتوقف والعسكرة .

ومن المرحج أن تكملة تاريخ الصوري كتبت من قبل أرنول جون سيد بالين أوف ابلين ، وهو رجل كان موجوداً في المؤخرة ، ورغم التفاصيل التي قدمها فإن معلوماته عن مقدمة الجيش ربما هي مغلوطة ، يرجح عليها الرواية التي أوردها صاحب ليبلوس ، ولا يهمننا هنا من يوجه إليه اللوم حول قرار التوقف ، بقدر ما يهمننا الحكم على هذا الاجراء ، ثم التنسيق بين مختلف الروايات والافادة منها جميعها إلى أبعد الحدود .

المهم الآن ان قراراً بالتوقف جرى اتخاذه وتنفيذه ، وبات الآن على اللاتين مواجهة ليلة ليلاء ، وهم تحت السلاح ، دونما أدنى أمل بتحصيل الماء لاطفاء عطشهم القاتل ، وكانوا مطوقين تماماً من قبل

المسلمين ، الذين بسدوا محاولتهم الأولى والوحيدة للوصول إلى الأراضي المنخفضة ، وبات أن يجربوا ثانية ، أمرا لا يمكن مجرد التفكير به ، ففكا الفخ أغلقا بإحكام حولهم .

وإذا نظرنا الآن إلى الوراء ، كما فعل كتاب الروايات الغربية ، لاهتمامنا بما جرى داخل المعسكر الصليبي في تلك الليلة الليلية وأخذين بعين الاعتبار رعبها وشدتها مع ما حدث في اليوم ، نجد من السهل الاقدام مباشرة على ادانة قرار التوقف لتمضية الليل في تلك الهضبة الجافة ، والماء على مسافة قصيرة إلى الشمال عبر الهضبة ، لقد صدر قرار الادانة بعد التوقف وتفحص الموقف ، ولم تكن هناك معارضة له ساعة صدوره ، بل لربما يمكن القول بأن قرار التوقف صدر لتقرير أمر واقع ، فقسم كبير جدا من الجيش كان قد توقف عن الحركة ولم يكن أمامه فعل غير ذلك ، واضطر أفرادهم إلى نصب الخيم للاستراحة وللوقاية من حر الشمس ، ويبحث المؤرخ في أيامنا فيما حدث ، ولا يهتم كثيرا ما يتمناه بعضهم لو أنه حدث أو لم يحدث فلا مكان لعبارة « لو » في التاريخ ، وللانصاف نستخلص من مختلف الروايات بأن جهودا مضيئة وجدية بذلت للوصول إلى الماء ، وأن مقاومة الصليبيين استمرت إلى النهاية ، ولم يحدث انهيار في العزائم والقوى ، وهذا بحد ذاته هام جدا ، وفيه دلالة على أن النصر الذي ناله صلاح الدين في حطين ، كان باهظ الثمن ثم بعد جهود غير محدودة ، وهنا تظهر عظمتة ودوره الحاسم ، كما أن الذي يهزم جيشا من الشجعان ليس كمن يهزم الجبناء .

لقد كانت وقائع اليوم الاول للزحف رهيبية ، وبلغ الانهباك الجسدي عند الصليبيين حدا عاليا ، وكانت النهاية محتومة ولا يمكن الحيلولة دون تحطيم المؤسسة العسكرية اللاتينية ، هنا انتصرت العقيدة القتالية للمسلمين بعد سلسلة من الهزائم السالفة ، انتصرت لأن تطبيقها جرى بشكل نمونجي .

لقد زحف الصليبيون من صفورية ، يشكلون جيشا عملاقا ، تخيلوا أنه لن يقهر ، وأن ما من قوة على وجه الأرض يمكن أن

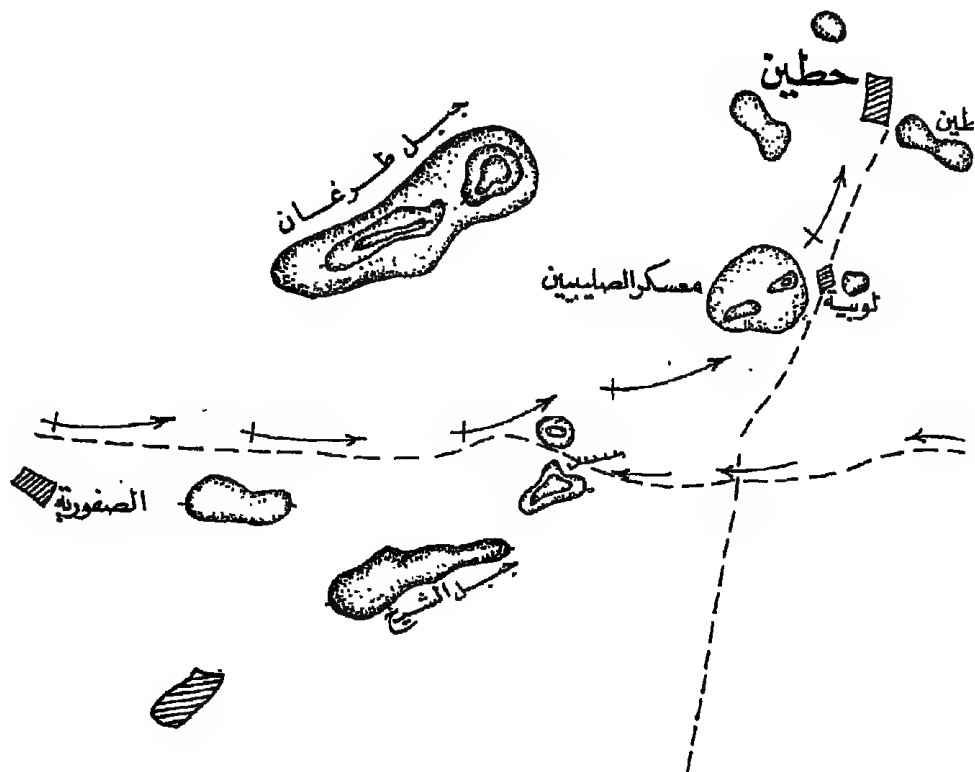
تتصدى له وتعترض سبيله ، سار قادته على الطريق المباشر نحو طبرية ، وهم يخيل إليهم الوصول إليها في سويعات ، لهذا لم يفكروا باصطحاب الماء والمؤن الكافية ، ولكن فاتهم أن الشجاعة بلا عقل حماقة ، وأن العقل قادر على قهر جميع القوى ، ساروا عبر أرض لم يقع اختيارهم عليها ، بل فرض الأمر عليهم فرضا ، ولهذا ما أن زحفوا قليلا حتى وجدوا الأمر صعبا جدا ، فالحر والعطش ، والنشاب والنار ، والسيوف ، وأعمال الانقضاض الجريئة ، بدت أعظم من قواهم ، ووضح بعد قليل من الوقت أنهم لن يتمكنوا من تجاوزها ، وغرقوا في بحر من الفوضى والتعب ، صحيح أنهم صابروا على مشارف طبرية ، لكنهم وجدوا الجسم الاساسي من جيش المسلمين واقفا بانتظارهم يسد جميع الممرات ، فتبعوا هنا رأي ريموند أو سواه فتخلوا عن الطريق المباشر ، وقرروا الانعطاف نحو اقرب النقاط التي فيها ماء ، أي إلى حطين ، التي جثمت هناك إلى اليسار منهم في أعلى الهضبة ، انعطفوا وكلهم أمل بالخلاص ، ولم يدركهم أن صلاح الدين ترك هذا الممر ، يبدو وكأنه مفتوح ، فذلك كان مرحلة تنفيذية جديدة في الخطة ، وشرك جديد منصوب ، انعطفوا فدبت الفوضى بين صفوفهم ، ووقف المسلمون مجددا حولهم وأمامهم في الطريق ثانية ، وصار الوضع الآن إما الاشتباك في معركة عامة أو الاستراحة هناك حتى تنقضي الليلة ، والسؤال الآن : هل كان بإمكان الفرنجة الدخول في معركة التحامية بعد عناء ذلك النهار ، صحيح أن ريموند قد يكون قد توصل إلى الممر في الأعلى ، لكن من يمنع من الافتراض - استنادا لوقائع اليوم التالي - أن الطريق أخلي أمامه ، وأن صلاح الدين كان يريد قطعة من جسم الجيش الصليبي لمعرفة بقدراته القتالية وعظيم خبرته بالتكتيك ، وشجاعته .

لقد حدث التوقف ، وكانت ليلة لوبية رهيبة ، لكن النهار الذي تلاها كان أكثر رهبة ، لم يلمس الصليبيون في تلك الليلة ولا خيولهم الماء ، بينما كان المسلمون من حولهم في راحة وتمكن ، حيث كانت قرب وروايا الماء تنقل إليهم على ظهور الجمال من البحيرة

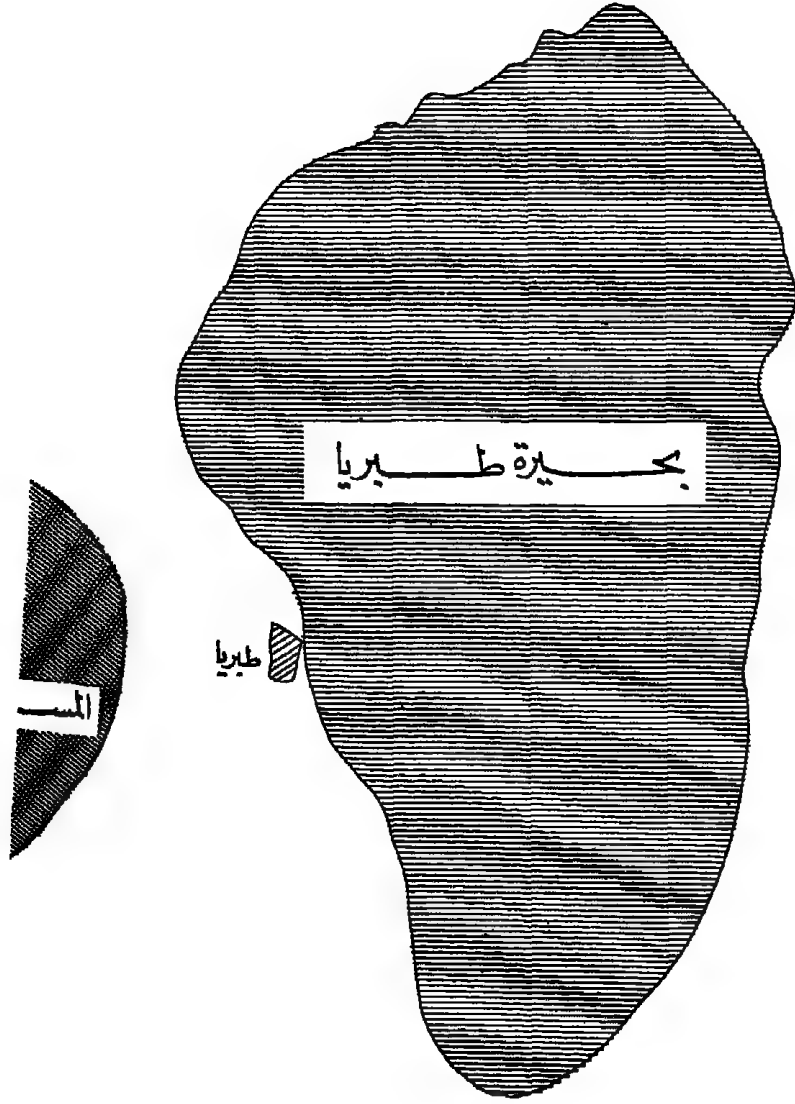
باستمرار ، وتبعا لبعض الرواة أمر صلاح الدين بصيب بعض الماء على الأرض على مرأى ومسمع من الصليبيين ، ليزيد في عذابهم ، وأحاط المسلمون بالصليبيين من كافة الجهات ، وكانوا قريبين منهم إلى درجة أن سنورا لم يكن بمقدوره النجاة من داخل المعسكر الصليبي ، ولم تتوقف الهجمات وإطلاق الذخاب والمواد المحرقة ، وأصغى الصليبيون طوال الليل إلى أصوات المسلمين تنادي : الله أكبر ، لا إله إلا الله ، ولذلك - حسب قول المؤرخ اللاتيني - لم ينالوا إلا قليلا من الراحة ، وفي ظلمة الليل غرقت أمالهم كلها ، وزالت معها شجاعتهم ، أو لنقل ما بقي لديهم من شجاعة .

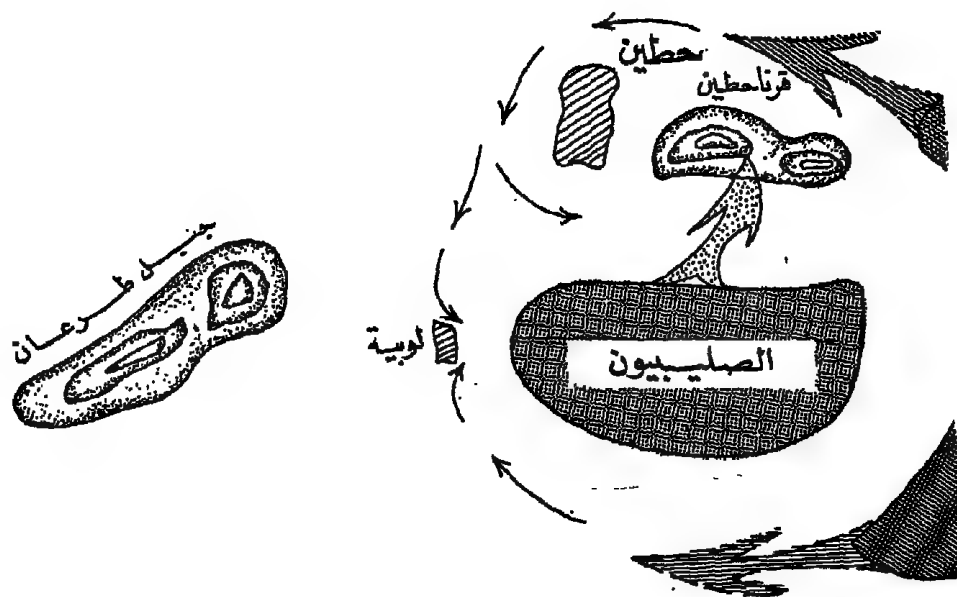
وكما قلنا اختلف حال المسلمين عنهم تماما ، فقد كانوا في غاية السرور ، يهللون ويسبحون ويتوجهون بالشكر إلى رب العالمين ، لقد كانوا حتى الآن يخشون الصليبيين ويهابون اللقاء بهم ، لكن في هذه الساعة ، يقودهم صلاح الدين ، عندما رأوهم داخل الشرك الذي نصبوه لهم ، قويت قلوبهم ، وازدادت ثقتهم بأنفسهم ، وحقا صنع المؤرخ الاسلامي العماد الكاتب حين وصف تلك الليلة وأحوال الفريقين بقوله : « وحجز بينهم وبين الماء ، واليوم قيظ ، وحجز الليل بين الفريقين ، وحجرت الخيل على الطريقين ، وهينت دركات النيران ، وهننت درجات الجنان ، وانتظر مالك ، واستبشر رضوان فهي - ليلة القدر خير من ألف شهر تنزل الملائكة والروح - وفي سحرها نشر الظفر يفوح ، وفي صباحها الفتوح ، فما أبهجنا بتلك الليلة الفاخرة ، فقد كنا ممن قال الله تعالى فيهم : - فاتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة - وبتنا والجنة معروضة ، والسنة مفروضة ، والكوثر واقفة سققاته ، والخلد قاطفة جناته ، والسلسبيل واضح سبيله ، والاقبال ظاهر قبيلة ، والظهور قائم دليله ، والله ناصر الاسلام ومديله » .

ولقد روي بأن صلاح الدين سهر ليلته بطولها ، وهو يشرف على ترتيبات المعركة لليوم التالي ، فقام بتوزيع جند المقدمة والطلانح لكل كتيبة ، وعين الرماة ، وزودهم بالسهم ، وكان ما فرقه من الذخاب









أربعمائة حمل ، وأوقف « سبعين جمازة في حومة الوغى ، يأخذ منها من خلت جعابه ، وفرغ نسا به » ، وأعد الجند أسلحتهم ، وصلوا لله وتوجهوا إليه بالدعاء والحمد ، وكلهم أمل وثقة بالفرج ، واستنزلوا النصر من عند الله ورجوا عونه وإعزاز دينه..

وفي صباح يوم السبت الرابع من تموز ، كان الفريقان جاهزان من أجل الصراع النهائي ، ولا شك أن كل منهما أدرك أن مستقبل المملكة اللاتينية والوجود الصليبي في المشرق متوقف على نتيجة الصراع ، ونعود لنذكر أنه من حيث التعداد والقدرة القتالية كان الجيشان ما يزالان متعادلين تقريبا ، لكن بينما كان المسلمون قد نالوا قسطا من الراحة ، وكانوا واثقين - دون غرور - بأنفسهم بدرجة كبيرة لم يعرفوها من قبل ، كان الصليبيون طوال يوم وليلة بلا ماء ، لم ينل رجالهم ولا الخيول راحة كافية مما عانوه في اليوم السابق ، ولا شك أن هذا عامل كان له فعاليتيه في المعركة .

لقد كان سلاح الفرسان الصليبي ما يزال على حاله من القوة والقدرة على الخرق ، ويبدو أن خطة عمل الفرنجة قامت على الانقضاض ثانية من أجل الوصول إلى الممر إلى الشمال من القرنين ، وللوصول إلى الماء مهما كان الثمن ، وكانت المنطقة وعرة لاجمال فسيح فيها لعمل الفرسان الثقيل وحملتهم ، وأدرك صلاح الدين هذا ، وهنا ظهرت عبقريته مجددا ، وكان ريموند الثالث كما سبق التبيان في المقدمة ، ومعه أبناء زوجته الأربعة وريموند أمير انطاكية وفرسانه ، ومن جديد استخدم المسلمون التكتيك الفرثي المعتاد ، وأرادوا استدراج الفرسان إلى ما ظنوه « مجالا رحبا للحملة » وعزلهم عن الرجالة ، وكان صلاح الدين يرغب في تأخير العمل حتى تصبح الشمس في كبد السماء ، على أساس أن الحرارة كانت أكثر الأسلحة تأثيرا ضد أعدائه الصليبيين ، وفتحت قوات صلاح الدين الطريق قليلا ، وأفسحت المرور به ، إنما دون أن تكون لديها الرغبة في تلك الساعة بالسماح لمقدمة الفرنجة بالوصول إلى أهدافها أو النجاة ، ونتيجة لهذا وصل ريموند إلى الممر ، لكنه وجد

المسلمين هناك سدوا المنافذ كلها أمامه ، وحاول أن يتخطاهم ، ويفتح ثغرة أو منفذا بين صفوفهم فحبطت أعماله ، فقد كان المسلمون جاهزين لاطلاق رمياتهم الكثيفة ، التي مالبثت أن برهنت أنها مميتة .

وانحرفت مقدمة ريموند قليلا نحو السهل القائم إلى جنوب قرني حطين ، وتبعها بقية الفرنجة ، وهناك التحمت القوتان الرئيسيتان من الجيوشين ، وذلك من حوالي الساعة التاسعة صباحا ، ولقد كان ترتيب الجيش الصليبي - بما فيه قوات ريموند - مختلفا عما كان عليه الحال في اليوم السابق ، فقد أوكل غي أمر ترتيب الصفوف للمعركة إلى أخيه أمالرك ، الذي شغل وظيفة المراقب العام للملكة ، وأوكلت قيادة المؤخرة إلى بالين صاحب ابلين ، كما كان في السابق ، وكان معه بعض الأمراء منهم رينالد أمير صيدا ، لكن لم يكن معه الداوية كما كان الحال في اليوم السابق .

وجاء تنظيم القسم الأساسي من الجيش الصليبي حسب المبادئ العامة التي جرى تبيانها في مطلع هذا البحث ، ولحسن الحظ ، لدينا وصف وثائقي مفصل لذلك ، قدمه أحد الرواة الحضور جاء فيه : « بعد ما جرى تقسيم الجيش إلى وحدات و صفوف قتالية صدرت الأوامر إلى المشاة بالقيام بمهام حماية الجيش بوساطة الرمايات ، وذلك بغية تمكين الفرسان من القيام بمواجهة العدو بسهولة ، وعليه تتم حماية الفرسان من رميات العدو ، بوساطة المشاة ، بينما يتولى الفرسان حراسة المشاة وحمايتهم برماحهم ، ويمنعون العدو من الانقضاض عليهم ، ويغدو بهذه الطريقة كل فريق آمنا من خلال التعاون مع الفريق الآخر » .

إنما كيف اصطف السلاحان ، وأين كان موضع كل منهما ؟ هذا ما لم تذكره المصادر ، ويمكن لنا أن نتصور أن ذلك كان : بأن تم توزيع المشاة المسلحين بالقسي العقارة والفؤوس في الأمام وعلى الجناحين ، تمهيدا لهجوم الفرسان الثقيل ، وعندما حان وقت انقضاض الفرسان ، أفسح المشاة السبيل لهم في الأمام ، ثم

مالبثوا أن تجمعوا لحماية المؤخرة والجناحين ، هذا ما نستخلصه من مختلف الروايات ، لكن مهما كانت صيغة التشكيلات ، من المهم لنا أن نلاحظ الحاح الكتاب ، واجماعهم على ايضاح مسألة اعتماد الفرسان على الحماية المقدمة إليهم من الرجال .

وتمركز في قلب هذا القطاع الاساسي من الجيش الصليبي ، الملك غي مع فرسانه المختارين ، وكان الى جانبه صليب الصليبيون يحمله أسقفان ، وكان هذا الصليب هو الينبوع المتبقي لدى الصليبيين ليبعث فيهم الشجاعة والصبر حتى يتمكنوا من خوض غمار ذاك اليوم الحاسم ، وكان بين هؤلاء الذين وقفوا إلى جانب الملك ، الداوية والاسبترارية الذين كانوا خيرة فرسان الفرنجة ، ولقد عهد الى هؤلاء جميعا بالقيام بالهجوم الأول ضد المسلمين .

وما ان تم الالتحام حتى ضغط الداوية بقيادة مقدمهم جيرالد على المسلمين ضغطا شديدا ، فقتلوا عددا منهم ، واجبروا قسما منهم على التراجع ، وكان ما بذله هؤلاء الفرسان من جهود كبيرا ومضنيا ، لكن تراجع المسلمين امامهم لم يكن فرارا ، بل عملا تكتيكيا مرسوما ، لذلك حبطت جهود الداوية ، وكانت بلا مردود يذكر ، وتبددت معالم الخطة الصليبية التي جرت حسب العادة ، لاحسب الحاجة والواقع ، فهجوم الفرسان كان يعوزه الدعم والحماية ، وكان من الممكن للمشاة في السهول تقديم مثل هذا المطلب ، لكن في ظروف حطين حيث المناخ والتضاريس ونشأب المسلمين عجز المشاة عن الاحتفاظ بتنظيمهم الاساسي في مرافقة الفرسان ، وادى إلى عزل فرسان الداوية والاسبترارية وتمزيقهم إربا إربا ، وحدث هذا كله كما يلي :

« عوضا عن أن يبقى المشاة محتفظين بتشكيلاتهم إلى جانب الفرسان ، وذلك عندما زحف المسلمون نحوهم ، تكتلوا في جمع واحد ، واندفعوا إلى جانب أحد التلال (وكان بلا شك واحدا من قرني حطين) وأرسل الملك والاساقفة خلفهم ودعاهم للعودة لحماية صليب الصليبيون - الأثر الوحيد المتبقي من حادثة

الصلب - ولحماية جيش الرب ، لكنهم أجابوا بالرفض ، وقالوا :لا نستطيع القدوم ، لأن العطش أنك قوانا ، وأعدمنا القدرة على القتال ، ومرة ثانية بعث يأمرهم بالعودة فرفضوا ، وهكذا تركت خيول الفرسان بلا أية حماية .

ووجد في الوقت نفسه الداوية والاسبتارية والتركيبي على مجنبتهم ، أنهم ما عاد بإمكانهم إيقاف زحف المسلمين الذين تقدموا بتشكيلة غطوا فيها كل الجوانب ، واستمروا في إمطار خصومهم بالنشاب ، وبعدها تقدموا لمسافة قصيرة استغاثوا بالملك ، وطلبوا منه المساعدة ، وقالوا بأنهم لم يعد بإمكانهم الصمود وتحمل اعباء القتال العنيف ، لكن عندما رأى الملك والذين حوله بأن المشاة رفضوا رفضا قاطعا العودة ، وأنه بدون مساعدتهم ، هم انفسهم ليس بإمكانهم الصمود أكثر في وجه نشاب المسلمين ، عندها أمر الملك مجددا بنصب الخيم ، من أجل حماية صليب الصلبوت ، وعلى أمل اتخاذ موقف دفاعي في وجه هجمات المسلمين ، فالملك بلا شك قد أمل بأن الخيم ستكون مكانا لتجمع القوات المبعثرة ، وتعوض عن خسارة المشاة ، لكن ما حدث مجددا هو أن المقاتلين تراجعوا بشكل فوضوي ، وتجمعوا حول الصليب ، وتركوا فرسان الداوية والاسبتارية لوحدهم يعانون من الخسائر الجسيمة » .

وهكذا حلت الفوضى بين الصليبيين وتحكمت بصفوفهم منذ البداية ، بسبب عزل المشاة عن الفرسان ، ونتيجة لهذا أخفقت خطة الفرنجة التي رسموها باحكام ، ونجحت خطة المسلمين ، وحدث فصل الاسلحة عن بعضها بعضا ، وصار فرسان اللاتين الدارعين ومطايهم بلا حماية من نشاب وسيوف وحراب المسلمين الذين ضغطوا عليهم من كافة الجهات .

لقد كان تكتيك المسلمين رائعا واعمالهم القتالية مدهشة ، تراهم ساعة في موقف الدفاع ، وساعة أخرى في موقف الهجوم المتحرك ، وظل كونت طرابلس في المقدمة ، وعندما رأى ما حل بالملك والداوية والاسبتارية ، وشاهد تداخل قوات الجيش والفوضى الكبيرة التي

سانت بين صفوفه ، أدرك ومن معه أن لافائدة من التراجع نحو مكان صليب الصليبوت لحيلولة المسلمين بينهم وبين ذلك ، وهنا نظر ريموند ومن معه كل بوجه الآخر وقال : « من استطاع العبور فليعبّر ، فالمعركة ليست لصالحنا ، ثم إن القتال لا يمكن الاستمرار به » ، واستمر المسلمون بالاندفاع نحو الصليبيين واحكام الحصار عليهم ، وذشابهم يفتك بهم فتكا شديدا .

وتخلي في تلك الساعة ستة من الصليبيين عن مواقعهم بعدما أصابهم اليأس ، وذهبوا إلى جيش صلاح الدين وأخبروه بالحال الصعب الذي كان فيه الجيش الصليبي ، وأعلموه بأن هذا الجيش لن يستطيع الصمود إلا قليلا ، فالشمس أحرقتة ، والعطش أنهك قواه ، وأسقف عكا أحد الأوصياء على صليب الصليبوت أصيب بضربة قاتلة ، فسلم الصليب إلى أسقف اللد .

واستفاد المسلمون من المعلومات الجديدة ، ووضحت صورة الاوضاع داخل الجيش الصليبي لديهم ، فاندفعوا باتجاه الهضبة إلى حيث التجأ المشاة ، وضغطوا عليهم لآبادتهم قتلا وأسرا ، وهنا حاول بعض المشاة تسلق بعض الصخور على الأطراف ، بعدما قتل أكثرية رفاقهم أو أسروا ، وحتى هؤلاء الذين « تخلوا عن صليب الصليبوت ، وعبثا تسلقوا إلى الهضبة واجهوا الموت » .

وعندما رأى ريموند والذين معه هذا الحال المتردي ، ازدادوا يقينا بأن المعركة غدت ميؤوسا منها ، وأنه من المحال العودة إلى الملك والانضمام إلى صفوفه ثانية ، لذلك قام ومعه أتباعه بحملة يادسة على الجناح المسلم المقابل لهم ، لفتح طريق للنجاة ، وكان هذا التصرف منطقيًا من بعض الجوانب ، جبانًا من جوانب أخرى ، لهذا أجمعت المصادر اللاتينية على نقله حتى صاحب رواية ليلوس ، وجه النقد لريموند ، عندما تحدث عن نجاته ، وقال بأنه أقدم على التخلي عن الصليب المقدس .

المهم ، جمع ريموند أتباعه من حوله ، وكان بينهم ريموند صاحب

انطاكية مع اولاده الاربعة ، وتمكن معهم من تسلق الصخور ، وساعدتهم خيولهم على ذلك ، ثم شق طريقه بين المسلمين ، ووصل إلى الممر الذي سبق له أن حاول احتلاله أكثر من مرة من قبل ، وعندما رأى تقي الدين قائد ميمنة صلاح الدين المقابلة لهم هؤلاء الرجال وقد تقدموا يائسين من الحياة تفاقل عنهم ومكنهم من الفرار ، ثم عاد فأغلق الممر خلفهم ، ولا بد أن هذا حدث عند الظهر ، وصحیح أن ريموند صار الآن منفصلا عن الجيش الصليبي تماما ، فالذي أفاد من ذلك الجيش الاسلامي : لقد فقد الصليبيون أمهر قادتهم مع عدد كبير من الفرسان ، وغدت الساحة التي كانت تشغلها هذه القوة خاوية ، فاندفع المسلمون إليها وشغلوها ، وبذلك أصبح الطوق المضروب حول الفرنجة محكما وأكثر ضيقا ، واقترب القتال من النهاية .

وكان صلاح الدين ما يزال يتابع أخبار القتال بنفسه ، وكان قلقا على نتيجة المعركة ، ذلك أن الفرسان الصليبيين استمروا يقاتلون ببأس ، وهنا تشجع صلاح الدين ، وقرر دفع أكبر القوات ، وبذل غاية الجهد لحسم الموقف ، ذلك أن المعلومات التي تلقاها من الستة الذين التحقوا بجيشه ، مع المعلومات التي جاءت عن فرار ريموند ورجاله ، قد أثارت الحماس في نفسه ، فأمر تقي الدين مع قواته المختارة بالتحرك ، واستغل تقي الدين الفراغ الذي تركه ريموند ، والساحة التي شغرت بعد فراره ، وجاء هجوم تقي الدين بغد الظهر ، وأجبر الفرنجة على التراجع إلى المنطقة الصخرية الصعبة ، لكن المعركة لم تنته ، واستمر القتال عنيفا للغاية .

ولم يكف الفرنجة ما عانوا منه حتى الآن من الحر والعطش والذباب ، فقد تعرضوا الآن لحنة جديدة ، جاءت نتيجة لعبقرية المسلمين المتفوقة ، فقد لاحظ واحد من المتطوعة من جيش صلاح الدين أن اتجاه الريح هو نحو الجيش الصليبي ، فرمى النار في الأعشاب التي كانت تغطي المنطقة ، ونتيجة لهذا نجد أن أولئك الرجال مع مطاياهم ، الذين كانوا بلا ماء لساعات طوال ، وكان قد

انهكهم القتال الشديد تحت الشمس المحرقة ، ضاقت الآن صدورهم ، وكادوا يختنقون من الدخان الذي ملا الهواء ، لابل ربما فقد بعضهم حياته فعلا نتيجة لذلك ، ويتساءل الانسان اليوم متى نفذ المسلمون عملهم البديع هذا ؟ فيجد ان ما من اثنين من المؤرخين اللاتين يتفقان في الرواية ، ولا يجد في المصادر الاسلامية ما يشفي الغليل ، وأنه لا امر يبعث على الاسف ان مواد المصادر الاسلامية ، خاصة ما كتبه العماد الاصفهاني ، ضاعت تفاصيلها في ثنايا صنعة البديع والجناس ، لهذا جاء جل اعتمادنا على المصادر اللاتينية ، التي روت تفاصيل مفيدة عما جرى داخل معسكر الفرنجة ، وحبذا لو فعل كتاب الاسلام مثل ذلك لاكتملت الصورة بين الطرفين .

يقول واحد من المؤرخين اللاتين بأن النار اشعلت في الصباح الباكر قبيل بداية المعركة ، ويتذكر آخر أن صلاح الدين كان قد أعد المواد المحرقة في الليل قبل المعركة ، ويستخلص من مواد الرواة المسلمين بأن ذلك كان بعد فرار ريموند ، وقد أوضح واحد منهم بأن ذلك كان الضربة الاخيرة التي وجهها المسلمون عندما شرع بقية الفرسان الصليبيون مع ملكهم بالتجمع فوق أحد القرنين ، حيث كان من الممكن سجنهم وسط دائرة من الدخان والنار الملتهبه في وجوههم ، ذلك أن شكل القرن كان مستديرا .

واشتد حال الصليبيين سوءا ، وزاد الضغط عليهم وعظم بشكل مؤلم ، فصاروا يعانون أكثر فأكثر من الحرارة والدخان ، وقد انقص شجاعتهم تخلي عدد كبير من الجيش وفراره مع مقتل أعداد كبيرة أخرى من مقاتليهم ، ولهذا تدنت معنوياتهم إلى الحضيض ، لكن رغم ذلك فإن يأسهم أعطاهم بعض الشجاعة التي كانت كافية لتابعة الدفاع حتى آخر ساعات المعركة ، واضطر بالتدريج هؤلاء الذين لم يقتلوا أو يهربوا إلى التراجع إلى أحد القرنين ، ربما نفس القرن الذي التجأ إليه الرجال من قبل ، وعندما تجمع هؤلاء المقاتلون المنهكون هناك من أجل الدفاع النهائي ، حلت بهم أقسى ضربة مذخلوا الحرب ، ضربة المتهم إيلاما شديدا أكثر من الحر

والعطش والدخان والذباب ، وحتى من الهزيمة نفسها ، ذلك أن
تقي الدين قد تمكن بهجومه الكاسح ، الذي جاء عقب فرار ريموند ،
من الاستيلاء على صليب الصليبوت ، وكانت هذه الخشبة هي مصدر
العواطف والمعنويات الوحيد الذي تبقى لدى الصليبيين ، قد يكون
من الصعب بالنسبة للانسان المعاصر تصور خسارة تلك القطعة من
الخشب بالنسبة لأولئك الرجال ، لكن الذين يفقهون في أساليب
الحرب النفسية والتوجيه المعنوي يقدرعون عظيم التقدير مكانة أية
أداة ، تؤثر على المقاتلين ، خاصة أثناء القتال ، وكانت خشبة
الصليب في العصور الوسطى ذات مكانة سامية جدا لدى المسيحيين
عامة والكاثوليك منهم خاصة ، فهي الاداة التي من أجلها أثار
هرقل - امبراطور بيزنطة - صليبية القرن السابع ضد
الامبراطورية الساسانية ، لقد حملت خشبة الصليب المزعوم هذه مع
الفرنجة في جميع معاركهم الرئيسية ، لاعتقادهم بأنها تجلب - لابل
تضمن - التأييد السماوي لأعمالهم ، وقد حفظ الفرنجة هذه
الخشبة ، واعتنوا بها عناية فائقة ، ولم يتم استرداد هذه الخشبة
من قبل الفرنجة ثانية ، واختفت آثارها ، وكما هو متوقع بكأها
المؤرخون اللاتين ، وحزنوا لفقدائها ، حتى أننا لنجد مصنف
ليبلوس ، انفعلا شديدا حين أتى على ذكر خسارتها ،
واعتبر هذا الحدث خاتمة المعركة ، فلم ينكر إلا شذرات عما حدث
بعد خسارتها ، والمفيد هنا نكره وملاحظته بعمق هو أثر هذا العمل
على المسلمين ، فلقد عرف المسلمون دين عدوهم بشكل عميق ،
وأدركوا مدى مكانة هذه الخشبة في معتقداته ، وقدروا كم هو مهم
الاستيلاء عليها ، ولهذا نعاود تأكيدنا على أن معركة حطين انتصر
فيها التكتيك الاسلامي المطبق بعقل وشجاعة والتزام ، وهكذا كان
هذا النصر باهظ الثمن .

ولنستمع الى العماد الاصفهاني الكاتب يحدثنا عن الصليب
وعملية الاستيلاء عليه : « ولم يؤسر الملك ، حتى أخذ صليب
الصليبوت ، وأهلك دونه أهل الطاغوت ، وهو الذي إذا نصب وأقيم
ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشبة

التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر ، وأعدوه ليوم الروح المشهود ، ولوسم عيدهم الموعد ، فإذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤوس ، تبادروا إليه وانتالوا عليه ، ولايسع لأحدهم عنه التخلف ، ولايسوغ للمتخلف عن اتباعه في نفسه التصرف ، وأخذة أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو اشد مصاب لهم ، في ذلك المعترك ، فإن الصليب السليب ماله عوض ، ولا لهم في سواه غرض ، والتأله له عليهم مفترض ، فهو إلههم ، وتعفر له جباههم ، وتسبح له أفواههم ، يتغاشون عذد احضاره ، ويتعاشون لابصاره ، ويتلاشون لآظهاره ، ويتغاضون إذا شاهده ، ويتواجدون إذا وجدوه ، ويبذلون دونه المهج ، ويطلبون به الفرج ، بل صاغوا على مثاله صليانا يعبدونها ، ويخشعون لها في بيوتهم ، ويشهدونها ، فلما أخذ هذا الصليب الأعظم عظم مصابهم ، وهمت أصلابهم ، وكان الجمع المكسور عظيما والموقف المنصور كريما ، فكأنهم لما عرفوا اخراج هذا الصليب لم يتخلف أحد من يومهم العصيب ، فهلكوا قتلا واسرا ، وملكوا قهرا وقسرا .

وعلى الرغم من أثر خسران خشبة الصليب القاصم على الجزء الأعظم من عساكر الفرنجة ، فإن عصبية منهم تابرت على المناقحة ، وبقي في نفوسها بعض الشجاعة ، وفي أبدانها بعض القوة لمثابرة الصراع والدفاع ، وتجمع قلة من هؤلاء الفرسان الأشداء حول الملك ، وتمكنوا بطريقة ما من نصب خيمته ، وقاموا من هناك بهجوم يائس ، ربما أملوا من ورائه شق طريق للفرار ، كما فعل كونت طرابلس من قبل ، وبعد نجاح أولي حيث تمكنوا من دفع المسلمين إلى الخلف نحو صلاح الدين ، بادر هذا القائد الشجاع ، فأمر على الفور بهجوم معاكس رد الصليبيين على أعقابهم ، ومكن المسلمين من هدم خيمة الملك ، وبذلك انتهت المعركة ، ووصف واحد من المؤرخين المسلمين هذه الخاتمة بقوله :

ولما حمل الأفرنج « تلك الحملات ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى

الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فآلقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم .»

وجاءت نهاية المعركة قرابة العصر ، وأفضل وصف وثائقي لساعاتها الأخيرة ولأحداثها المثيرة ما رواه ابن الأثير عن الملك الأفضل بن صلاح الدين ، « قال : كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى الحقوهم بوالدي : قال : فنظرت إليه ، وقد علقه كآبة ، واربد لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان ، قال : فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا فصعدوا إلى التل ، فلما رايت الفرنج قد عادوا والمسلمون يتبعونهم صحت من فرحي : هزمناهم ، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، والحقوا المسلمين بوالدي ، وفعل مثل ما فعل ، وعطف المسلمون عليهم ، فالحقوا بالتل ، فصحت أنا أيضا : هزمناهم ، فالتفت والدي إلي ، وقال : اسكت ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة ، قال : فهو يقول لي ، وإذا الخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان وسجد شكرا لله تعالى ، فبكى من فرحه ، وكان سبب سقوطها أن الفرنج لما حملوا تلك الحملات ، ازدادوا عطشا ، وقد كانوا يرجون الخلاص في بعض تلك الحملات مما هم فيه ، فلم يجدوا إلى الخلاص طريقا ، فنزلوا عن دوابهم ، وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون إليهم ، فآلقوا خيمة الملك ، وأسروهم عن بكرة أبيهم ، وفيهم الملك ، وأخوه ، والبرنس أرناط صاحب الكرك ، ولم يكن في الفرنج أشد منه عداوة للمسلمين ، وأسروا أيضا صاحب جبيل ، وابن هنفري ، ومقدم الداوية ، وكان من أعظم الفرنج شأنا ، وأسروا أيضا بليبانوس صاحب البترون ، وهيوج صاحب جبلة ، وصاحب مرقية ، وجماعة من الداوية وجماعة من الاسبتارية ، وكثر القتل والأسر فيهم ، فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا واحدا ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحدا ، وما أصيب الفرنج مذخرجوا إلى الساحل..إلى الآن بمثل هذه الواقعة .»

لقد كان عدد الذين قتلوا أو أسروا يعدون بالآلاف ، والذين لم يقتلوا كانوا منهكين ، وقد هدمهم فقدان صليب الصليبوت ، إلى حد أنهم لم يحاولوا الفرار ، ذلك أنهم وضعوا بالأسر ، وتركوا بلا حراسة ، حتى حملوا إلى أسواق النخاسة في بلاد الشام لبيعوا هناك ، ويقول ابن شداد في المحاسن اليوسفية : « وكان الواحد العظيم منهم يخلد إلى الأسر خوفا على نفسه ، ولقد حكى لي من أثق به أنه لقي بحوران شخصا واحدا معه طناب خيمة فيه نيف وثلاثون أسيرا أخذهم وحده لخدلان وقع عليهم » .

ولما انتهت أعمال القتال ، وفرغ المسلمون من جمع الأسرى « نزل صلاح الدين في خيمته ، وأحضر ملك الفرنج عنده ، وبرنس أرناط صاحب الكرك ، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهله العطش ، فسقاه ماء مثلوجا ، فشرب وأعطى فضله برنس أرناط صاحب الكرك فشرب ، فقال صلاح الدين : إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أمانى ، ثم كلم البرنس وقرعه بذنوبه ، وعدد عليه عوراته ، وقام إليه بنفسه فضرب رقبتة ، وقال : كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير إلى مكة ، والمدينة ، والثانية لما أخذ القفل غدرا ، فلما قتله وسحب وأخرج ، ارتعدت فرائص الملك ، فسكن جأشه وأمنه » .

لقد عومل الأسرى جميعا معاملة إنسانية ممتازة ، واختلوا إلى دمشق حيث أطلق سراح بعضهم أو فودي بهم ، أو جرى بيعهم ، وذلك فيما عدا أرناط صاحب الكرك ، وفرسان الداوية والاستتارية ، حيث اعتبرهم صلاح الدين مجرمي حرب ، فبعد اعدام أرناط جرى اعدام حوالي المئتين من فرسان الداوية والاستتارية ، حتى روي بأن صلاح الدين أقدم على شراء بعض من هؤلاء الفرسان من أسريهم ، وأمر بإعدامهم أمام الجيش وجنده جميعا ، وهكذا كانت نهاية أكبر جيش جمع قط للصليبيين ، أو بالحري نهاية المؤسسة العسكرية للاحتلال الصليبي ، الذي استهدف جعل بلاد الشام وطنا لاتينيا فيما وراء البحار .

لقد كان عدد الفرسان الجرحى قليلا ، لكن لم ينج من الخيول فرس واحد ، ووصف العماد الكاتب ما رآه على ساحة المعركة ، وقد أثر به المنظر تأثيرا عظيما فقال : « ومن عجائب هذه الواقعة ، وغرائب هذه الدفعة أن فارسهم ما دام فرسه سالما لم ينزل للصرعة ، فإنه من لبسه الزردي من قرنه إلى قدمه كان كأنه قطعة حديد ، ودراك الضرب إليه غير مفيد ، لكن فرسه إذا هلك فرس وملك ، ولم يغنم من خيلهم ودوابهم ، وكانت الوفا ما هو سالما ، وما ترجل فارس إلا والطنع والرمي لركوبه كالم ، » .

في يوم الماء ، يوم حطين لا بد أن خيول الفرنجة قد عانت مثل رجال الصليبيين من الحر والعطش والنار والدخان والذباب ، ذلك أنه إذا كان ذباب المسلمين الذي وصف المؤرخون كثرت وفاعليته ، لم يجرح عددا كبيرا من الفرسان اللاتين ، فإنه قتل أعدادا هائلة من الخيول ، وبكلمة موجزة لم يتجل أثر تخلي المشاة عن حماية الفرسان ولم يظهر بوضوح كما في حطين ، ولقد رأينا بوضوح كيف تحول مجرى المعركة بسرعة إثر نجاح المسلمين في تنفيذ خططهم بفصل المشاة عن الفرسان ، وكيف حلت الفوضى وسط الجيش الصليبي .

لقد أفرد العماد الكاتب واحدا من فصول كتابه البرق الشامي للحديث عن الذباب ويمكننا من أوصافه مع أوصاف بقية المؤرخين المسلمين استخلاص صورة واضحة مشرقة لما حدث بالفعل : لقد كان فرسان الفرنجة على خيولهم وبدروعهم لا يمكن اصابتهم ، ولكن يمكن اصابة مطاياهم ، لهذا اعتمدوا على حماية الرجال الذين احاطوا بهم ، وكانوا أشبه بستارة بشرية ، حمت المطايا من الذباب وضربات المسلمين ، ولأجبار فرسان المسلمين على الابتعاد عنهم برماية قسيهم العقارة القوية ، ولذلك عندما حدث الفصل ، وتخلي الرجال وعجزوا عن التقدم ، طوق المسلمين الفرسان من جميع الجهات ، وفتكوا بخيولهم بسهامهم وسيوفهم وحراهم ورماحهم ونفوطهم ، ولا بد أن عمليات الافناء حلت أولا بالخيالة

الخفاف التسليح مثل الاسارجنتية ، ذلك انهم كانوا وخيولهم غير مجهزين بأسلحة ثقيلة تؤمن لهم الحماية الكافية ، وبعد هؤلاء جاء دور الفرسان الثقال الذين فقدوا الآن جميع أنواع الحماية .

لقد حاول المسلمون مرارا - في معارك متقدمة - فصل المشاة الفرنجة عن فرسانهم ونجحوا ، لكن نجاحهم في حطين كان مثاليا ، جاء نتيجة للخبرات السابقة ، وجرت ممارسته ضد جيش عملاق لاضد قوة صغيرة ، فلقد انتهز المسلمون يوم حطين فرصة تخلي المشاة عن الفرسان ، فأبادوا الفرسان الخفاف ، ثم التفتوا نحو الفرسان الثقال ، فبددوا قواهم بقتل خيولهم أو عقرها ، ومع أن دروع الفرسان لم تكن ثقيلة جدا ، ومعيقة بشكل كبير ، إلا أنها لا بد قد غدت ثقيلة جدا ، وحملها منهكا بعد يومين من القتال الشديد ، حتى أن الفرسان الذين ظلوا يقاتلون إلى النهاية على خيولهم ، لا بد انهم كانوا في غاية الانهاك ، ولم يعد بمقدورهم الاستمرار .

وهكذا ربح صلاح الدين معركة حطين ، ربحها بعد جهود جبارة مضنية ، ربحها بعدما بدد قوى عدوه وصان قسواء وأحسن استغلالها ، وهنا ما هو السبب الحقيقي الذي كمن وراء نصره المؤزر ؟ لاشك أنه لم يكن لا في التعداد ولا في القوة ، فالجيشان كان الرجحان في التعداد والاحتراف والتسليح فيهما لصالح الفرنجة ، الحقيقة ساطعة أمامنا هي تفوق صلاح الدين في الاستراتيجية والتكتيك ، حيث استطاع اقتلاع الصليبيين من صفورية ، وتمكن من جذبهم إليه ، وأبعدهم عن الماء ، وأجبرهم على القتال تحت شروط ضاغطة ، فيها عطش وانهاك ، بينما ظلت قواته حرة طليقة ، فالعطش والانهاك دفعا المشاة إلى الفرار ، وكان هذا ضاغطا أكثر من ضغط القتال والهجوم .

وقاد ذلك إلى الضربة اللازمة التي أنزلها بالفرسان ، وعليه فإن فصل السلاحين عن بعضهما البعض هو الحقيقة الحاسمة في المعركة ، لقد عوض صلاح الدين التفاوت بين قواته وقوات أعدائه عن طريق استغلاله لعوامل الطبيعة ، ونجح فيما استهدفه عن طريق

المنافرة البارعة ، لهذا رأينا كيف كان الجيشان قبل التحرك ، وكيف صار حالهما يوم السبت حين التقيا على سهل حطين حيث تبدلت النسبة التعادلية من جوانب القدرة البدنية والقوة الجسدية .

وحين نتفحص بإمعان قضية استراتيجية صلاح الدين ، علينا ألا ننسى أبدا عنصر المخاطرة التي امتزجت فيها ، فالحرب تبقى من أولها إلى آخرها مغامرة ، فوضع صلاح الدين كما سلف التتبان لم يكن مأمونا تماما ، خاصة والبحيرة إلى ظهره ، ولا يوجد مكان للتراجع والالتجاء إليه ، وهو لم يكن بإمكانه المكوث دون تحديد للمدة في تلك المنطقة الوعرة ، وبدون طعام ، وفي ظل تلك الأحوال كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار مشكلة الاحتفاظ بجيشه متماسكا ، فقد جمعت قواته للدخول بمعركة ، وكان تأخير المعركة ، والجند بعيدين عن ديارهم سيسبب بعض التذمر بين صفوف العساكر والمتطوعة ، وباختصار كان سيجد نفسه عاجلا أم آجلا مضطرا إلى الانسحاب أو إلى القتال في ظل الظروف الصعبة نفسها التي فرضها على الصليبيين ، أو التوغل عميقا في الأراضي الصليبية إلى قرب مدنها الحصنة ، كما نصحه بعض ضباطه وتمنى ريموند الثالث وأمل أن يحدث .

ويقول ابن الأثير حول هذا الموضوع في أخبار سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة : « لما اجتمع الفرنج ، وساروا إلى صفورية ، جمع صلاح الدين أمراءه ، واستشارهم ، فأشار أكثرهم عليه بترك اللقاء ، وأن يضعف الفرنج بشن الغارات ، وأخرب الولايات مرة بعد مرة ، وقال له بعض أمرائه : الرأي عندي أن نجوس بلادهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي ، فإن وقف أحد من عسكر الفرنج بين أيدينا لقيناه... فقال صلاح الدين : الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار ، فإن الأمور لاتجري بحكم الانسان ، ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ، ولا ينبغي أن نفرق الجمع إلا بعد الجد بالجهاد.... »

ونعود لنؤكد لو أن صلاح الدين سمع ما قاله بعض ضباطه ،

واختار القتال في ظل تلك الشروط الصعبة كان سيهزم بواسطة ذلك الجيش الصليبي الكبير ، الذي كان أفضل جيش اجتمع مثله للصليبيين ، ولا بد أن الهزيمة كانت ذات وقع حاسم ، مثلما كان انتصاره ، فقبل حطين التقى المسلمون بالصليبيين في أكثر من معركة ، وهزموهم ، ولكن لم يحدث أبدا لا من قبل ولا من بعد أن بددوا لهم جيشا كاملا يمثل هذا الحجم ، وبددوه قتلا واسرا بشكل كامل ، ولهذا لم يكن في يوم حطين أعمال مطاردة أو ملاحقة لفلول الجيش المهزوم .

ومن جهة أخرى كان اختيار الانسحاب معناه التخلي عن خطة الجهاد لاسترداد القدس والأراضي الساحلية ، ومن الضروري تقدير هذه الناحية وفهمها ، فقد روى ابن الأثير أن واحدا من ضباط صلاح قال أثناء مناقشة خطة الغزو قبل حطين : « إن الناس بالشرق يلعنوننا ، ويقولون ترك قتال الكفار ، وأقبل يريد قتال المسلمين ، والرأي أن نفعل فعلا نعذر فيه ، ونكف الألسنة عنا » ، ومؤكد أن صلاح الدين ملك امبراطورية واسعة ، لكن على الرغم من اتساع دولته كان هناك مثبطات كثيرة وعوامل معيقة لجمع جيش كبير ، وفي الحقيقة جمع صلاح الدين أكبر جيش كان بإمكانه جمعه ، أو بالحري أكبر جيش جمعه طيلة حياته ، ومع هذا لم يكن ذلك الجيش كافيا لتأمين نصر أكيد في معركة تتم ضمن شروط متساوية للطرفين ، وسنرى انه بعد حطين مباشرة لم يستطع الاحتفاظ بجيشه متماسكا لمدة طويلة كان فيها بأمر الحاجة لهذا الجيش (أثناء حصار عكا) وعلى هذا لو أن صلاح الدين أخفق سنة ١١٨٧ م في استخدام لجيشه ، كان من المشكوك فيه أنه سيتمكن ثانية ، من جمع جيش مساو له ، فكيف بنا بزيادة حجمه وقوته ، وكما حدث لم يعش صلاح الدين بعد حطين طويلا ليتمتع بنصره كاملا وليقطف جميع ثماره ، ولو انه أخفق في نيل النصر سنة ١١٨٧ م ، ما كان له أن يتمتع بالمكانة التي تمتع بها في العالم الاسلامي والتاريخ الانساني ، ولربما كانت الاحكام ضده قاسية

على ارضية موقفه من نور الدين ، وحروبه الداخلية لوراثة نور الدين ، وتأسيس امبراطوريته الواسعة •

وبحث عدد من الأوروبيين في العصر الحديث في حوادث معركة حطين ، بحث بعضهم لاهتمامه بتاريخ الحروب الصليبية عامة ، وبعضهم الآخر لاهتمامه بفن الحرب في العصور الوسطى وكان من هؤلاء أومان فبالنسبة لهذا الكاتب الانكليزي الكبير ، كان القتال في حطين - بالنسبة للصليبيين - غير ضروري أبدا ، من الممكن تجنبه ، وكان التورط به خطأ قاتلا ، زد على هذا أن هذا الخطأ المميت لم ينجم عن عدم قدرة في المعسكر اللاتيني ، أو عجز لدى قادته في التصدي إلى صلاح الدين البارع والشجاع ، فالفرسان الصليبيون كانوا أنكياء وبارعين وشجعان مثل صلاح الدين في فن الحرب ، وكان ريموند الثالث من الزكاء بمكان ، أمكنه من رؤية نوايا صلاح الدين وأهداف خططه ، وكان بقية البارونات عقلاء إلى درجة كافية تفهموا فيها حجج ريموند وقنعوا فيها ، بعدما أدركوا صحتها ، إن جيرالد هو الذي تقع عليه المسؤولية ، يشاركه فيها أرنات ومن ماثله بالتركيب والصفات ، لكن ما الذي دار في خلد هؤلاء ، وهل مشاعر العداوة لريموند كافية للتسويغ ، أم القضية مرتبطة بالرعونة والطيش وانعدام الصبر والرغبة بالثأر مع التعصب ، والطموح في الاستيلاء على ممتلكات اسلامية جديدة؟!....

والآن ماذا عن غي ، الذي اتخذ القرار تلو القرار ؟ المؤرخون يجمعون على أنه لم يكن يحب جيرالد فقط بل كان يخشاه ، وكان يعتمد عليه اعتمادا مطلقا ، فهو الذي بذل غاية الجهد في سبيله حتى جعله ملكا على القدس ، وهذا يوضح لنا سبب اتباعه لنصيحة جيرالد في كل مناسبة ، ففي الماضي نصيح الملك باعلان الحرب على ريموند ، ففعل وحاصره في طبرية ، مما دفع ريموند إلى التحالف مع صلاح الدين ، فغى لم يملك ليلة صفورية الجراة على مخالفة الرجال الذين صنعوه ملكا ، لهذا استجاب فأعلن الحرب من صفورية ليلا ،

ولعل جبرالد حلم يومذاك بأنه سيفاجئ صلاح الدين مع تباشير الصباح فيوقع به ضربة قاصمة .

لم يكن صلاح الدين من هواة الحرب ، بل من أبطال التحرير ، وقد مت إلى حضارة فيها : « الرأي قبل شجاعة الشجعان » ، فالرأي هو الذي انتصر في حطين ، وكان على كل حال رأيا مدعوما بالقوة والعقيدة ، وبراعة التنفيذ .

وفي البحث في وقائع حطين يجد الباحث نفسه في كل زاوية من زواياها امام عبقرية متناهية ، وامام معاني جديدة ، ولعل ما جرى عرضه حتى الآن يفى بالغرض ، المهم الآن أن ننهي حديثنا في هذا المقام ببضع عبارات تأتي بمثابة خاتمة ، وفي الوقت نفسه مقدمة للحديث المقبل :

لقد بشرت معركة حطين بسقوط مملكة القدس ، هذه المملكة التي لم يتحطم جيشها فقط ، بل أفرغت قلاعها وحصونها ومدنها من خيرة حماتها ، لهذا حالما انتهى القتال في حطين حتى أخذت طبرية دونما قتال ، ثم زحف صلاح الدين ضد مدن الساحل ، فجرى تطويق عكا ، وتم الاستيلاء عليها ، وأخذت عسقلان ولم تسقط صور ، أما المدينة المقدسة فقد استسلمت في ٢ تشرين أول سنة ١١٨٧ م ، أي بعد ثلاثة أشهر من حطين ، وهكذا انتهت مملكة القدس ، وزالت من الوجود بعدما عاشت قرابة قرن من الزمن ، إنما استمرت بالاسم فقط ، والذي بقي الآن من مستعمرات الصليبيين في الشرق لم يتجاوز كونتيية طرابلس ، وإمارة انطاكية (٥) .

حصار حطين

فقد الصليبيون يوم حطين جل فرسانهم ومقاتليهم ، ودمرت مؤسساتهم العسكرية ، بعد أن كانت أداة رعب في الشرق قرابة قرن مضى ، وفي حطين وقع في أسر صلاح الدين أعداد كبيرة من

الصلبيين كان يتصدرهم غي ملك القدس مع أخيه أمسالرك مدير إدارة الحرب في مملكة القدس اللاتينية والمشرف العام عليها ، وعدد من النبلاء مع مقدمي الاسبتارية والداوية ، وأرناط صاحب الكرك ، ولقد صان صلاح الدين حياة غالبية الاسرى وعاملهم معاملة ممتازة ، لكنه لم يبق على أرناط وفرسان الاسبتارية والداوية ، ذلك انه كان قد عاهد نفسه أمام الله على عدم الإبقاء عليهم لما قاموا به من جرائم .

وقام صلاح الدين باستغلال نصره المؤزر فاحتل معظم الأراضي والقلاع التي كانت بأيدي الصليبيين ، وحررها بسرعة خاطفة وببراعة سياسية تجلت فيها عبقريته وادسانيته وأخلاقه ، فقد كان يستهدف تحرير الأرض لاسفك الدماء وكسب الأموال ، علما انه كان يمكنه - دون أن يلام - أن يسفك دماء عشرات الألوف من الصليبيين ، وهذا السلوك ، الذي لم يفهمه حق فهمه كثير من الكتاب تجلى في عمليات تحرير القدس الشريف ، ودون القيام بشرح تفاصيل عمليات ما بعد حطين يمكن أن نجمل ذلك كله بالقول بأنه مع نهاية سنة ١١٨٧ م كان ما بقي للصليبيين في الشرق بعض الممتلكات القليلة التي توزعت حول المدن الرئيسية التالية : أنطاكية ، طرابلس ، وصور .

فأنطاكية كانت بعيدة عن مسرح عمليات حطين ، وطرابلس كانت حصينة وتحتاج إلى حصار طويل ، وكان صلاح الدين قد عمد إلى تحرير المواقع التي عرف بأنها شبه فارغة من المقاتلين .

أما صور فقد كانت حصينة للغاية ، بفضل موقعها المتميز ، وبسبب وصول غالبية الناجين من حطين إليها ، يتقدمهم ريموند الثالث صاحب طرابلس ، وكان فيها عدد كبير من الجنوية بالإضافة إلى قطعة بحرية جنوية كبيرة.

وتنبه صلاح الدين إلى خطورة التطورات في صور ، فقام بحصارها ، رغم جميع المعوقات الداخلية ، ذلك أن امكاناته البحرية

كانت اضعف من أن تتصدى لامكانات أوربة ، وبخاصة أساطيل
اندويلات الايطالية : (البندقية ، بيزا ، جنوى ، أمالفي) ثم إن
قواته ، التي كانت مهيأة لخوض المعارك المكشوفة ، لاتملك أسلحة
ثقيلة ، وكانت أنظمة ادارة الاقطاع العسكري تحول بين المقاتلين
وبين البقاء تحت السلاح مدة طويلة على الأخص في مواسم الفلاحة
وجني المحصولات .

ورغم هذا فقد حاصر صلاح الدين صور ، ونجح في تشديد
الحصار عليها ، وقنط المدافعون عنها ، واتصلوا به وفأوضوه على
تسليم المدينة ، وقبيل موعد التسليم بوقت قصير وصل الى صور
يوم ١٤ تموز نبيل كبير اسمه كونراد أوف مونتفرات ، وهو من
أفراد الأسرة الملكية للقدس ، وكان قد غادر أوربا سنة ١١٨٥ م
يريد الأراضي المقدسة ، لكنه لم يأخذ طريقه إليها مباشرة ، بل مكث
في القسطنطينية ودخل في خدمة الامبراطور البيزنطي ، وظل كذلك
حتى وصلت نداءات ما قبل حطين إلى عاصمة البسفور فطلب الأذن
بالمغادرة ، وركب البحر مع أتباعه ، واتجه نحو عكا ، وجاء وصوله
إلى عكا بعد حطين وتحرير صلاح الدين لهذا الميناء الهام .

ويروى أنه عندما وصل مشارف ميناء عكا ، رأى من المظاهر ما
جعله يرتاب ، لذلك لم يدخلها وتوجه نحو صور ، فنزلها وتسلم على
الفور شؤون الدفاع عنها ، وبذلك حال دون سقوطها بأيدي صلاح
الدين (١) .

وبسرعة غدت مدينة صور مركزا لتجمع الصليبيين في الشرق ،
ومن صور قام كونراد ، مع المقدمين الجديدين للاستبترية والداوية
وجميع الاساقفة اللاتين ، بمراسلة ملوك أوربا الغربية والبابوية
ورجال الاقطاع وسواهم طالبين النجدة ، حتى ليروى أن
كونراد « صور القدس في ورقة عظيمة وصور فيه القيامة التي
يحجون اليها ويعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذي قبر فيه بعد
صلبه ، بزعمهم ، وذلك القبر هو أصل حجهم ، وهو الذي يعتقدون

نزول النور عليه في كل سنة في عيد من أعيادهم ، فصور القبر ، وصور عليه فارس مسلم راكب عليه ، وقد وطيء قبر المسيح ، وقد بال الفرس على القبر ، وأبدى هذه الصورة - وراء البحر في الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها ، ورؤوسهم مكشوفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور ، وللصور عمل في قلوبهم ، فإنها أصل دينهم ، فهاج بذلك خلانق لا يحصى عددهم إلا الله تعالى . كما أرسل كونراد رئيس أساقفة صور واسمه جوسشوس إلى أوربا وحمله العديد من رسائل الاستغاثة ، ووصل هذا المبعوث أولا إلى جزيرة صقلية ، وهناك قابل ملكها وليم الثاني ، الذي استجاب له ، وأرسل حملة بحرية نحو شواطئ الشام ، تمكنت من تقديم المساعدات إلى أنطاكية وحالت دون سقوط طرابلس بيد صلاح الدين .

ومن صقلية قصد رئيس أساقفة صور إيطاليا ومنها توجه إلى فرنسا فكان هناك في مطلع عام ١١٨٩ . ففي ٢٢ كانون الثاني من ذلك العام ، عقد هناك مؤتمر كبير ضم كلا من فيليب أوغسط ملك فرنسا ، وهنري الثاني ملك انكلترا ، وعددا كبيرا من رجالات الكنيسة والنبلاء والاقطاعيين الكبار ، وقد استطاع رئيس الأساقفة أن يؤثر على المجتمعين إلى درجة وعدوه فيها بحمل شارة الصليب والتوجه إلى الشرق لاسترداد القدس ، وتم الاتفاق أن تكون شارة الصليب حمراء للفرنسيين ، وببضاء للانكليز ، وخضراء لبسواهم .

وتحمس ملك انكلترا للذهاب إلى الشرق ، فراسل ملوك أوربة الغربية ودعاهم إلى مشاركته ، كما راسل ملك هنغاريا مخبرا إياه بخطته وطالبا إذنه ومساعدته على عبور أراضي هنغاريا ، كما راسل الامبراطور البيزنطي وقدم له المطالب نفسها ، وقام الملاكين بفرض ضرائب خاصة على شعبيهما عرفت باسم - عشر صلاح الدين - من أجل تمويل الجيوش .

وعلى الرغم من اتفاق ملكي فرنسا وانكلترا على حمل شارة الصليب فانهما كانا متضاربي المصالح وفي عداة دائم ، كما عانى

كل منهما من مشاكل داخلية كبيرة احيانا ، فادى هذا الى تاخير تنفيذ رحيلهما الى الشرق ، وضاق عدد كبير من الاوربيين ذرعا بهذا التأخير فأخذوا يرحلون نحو الشرق جماعات وافرادا ، ولعل أشهر من توجه على رأس حملة معتبرة الامبراطور فريديريك بربروسا ، امبراطور ما عرف باسم الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وقد وصل هذا الامبراطور الى اسية الصغرى ، لكنه غرق هناك فتفرق رجاله ولم يبق منهم سوى حوالي ثلاثمائة فارس ، واصلوا السير الى انطاكية ومنها الى صور ، وكثر عدد الاوربيين الذي وصلوا الى المشرق ، وهذا ما شجع الفرنجة على الأخذ بمبدأ الهجوم ثانية ضد اراضي صلاح الدين وقواته ، ولقد متن عزمهم في هذا السبيل توفر الدعم البحري القوي .

وكان صلاح الدين قد قام عام حطين بحصار مدينة عسقلان ، وعندما صعب عليه فتحها ففاوض المدافعين عنها واتفق معهم على تسليمها له شريطة رحيلهم مع اموالهم عنها وأن يطلق لهم سراح الملك ومقدم الداوية وعدد من كبار النبلاء ، ويبدو ان صلاح الدين اخذ العهد على الملك غي قبل ان يطلق سراحه ان لا يحاربه ثانية ، وكان هذا ما حدث لكن الاخير حافظ على عهده مدة سنة كان قد قضاها في طرابلس وانطاكية .

وتوحي مصادر عصر حطين ان صلاح الدين ، كان يعلم بأن غي لن يحفظ عهده ، ولن يجد صعوبة في ايجاد رجل دين يحلله من موثيق ايمانه ، انما اقدم على تسريحه ليربح عسقلان وكيلا يملك الفرنجة عليهم ملكا جديدا صاحب قدرات كبيرة ، فالملك غي رغم شجاعته كان ملكا بلا ارادة ، وقائدا عسكريا ضعيفا .

ومهما يكن الحال فقد تجمع لدى غي نواة جيش جديد ، فقرر الزحف نحو عكا مستغلا اقامة صلاح الدين في بلدة مرج عيون وانشغاله بحصار حصن شقيف أرنون ، ومر غي أولا بمدينة صور ، وقد منعه كونراد من دخولها ، انما تحالف معه وأمدّه ببعض المساعدات ، ووصلت اخبار تحرك غي الى صلاح الدين فظننها

مناورة صليبية لفك الحصار عن شقيف أرنون ولكنه عندما بلغه توجه الملك نحو عكا سعى لقطع الطريق عليه فأخفق .

وقام صلاح الدين باستدعاء قواته الاحتياطية من كافة المناطق وطلب اليها الاجتماع به في مرج الصفورية ، وعندما استكمل جمع قواته توجه نحو عكا ، فوجدها شبه محاصرة من الجهة الشمالية برا وبحرا مع جزء من الجهة الشرقية ، فعسكر صلاح الدين خلف خط الحصار الصليبي شرقي المدينة وملك في البداية ممرا برريا اليها ، وآخر من جهة البحر انما بصعوبة ، وكان صلاح الدين قبالة عكا في شهر ايلول ١١٨٩ م ، وفي الاسبوعين الاخيرين لهذا الشهر بدأت قواته بمناوشة المهاجمين الفرنجة ، لكنها لم تستطع الالتحام بهم في معركة فاصلة ، ويبدو ان قادة الفرنجة تعلموا من الدرس القاسي الذي لقنه إياهم صلاح الدين في حطين .

وحل موسم الشتاء بقسوته ، وساء حال الصليبيين ، ولكنهم صبروا ، فقد كانوا غرباء عن البلاد ، يعتمدون اعتمادا مطلقا على ماكانت تحمله اليهم سفن الدويلات الايطالية من مؤن واسلحة ورجال ، ولقد اعتادت اساطيل هذه الدويلات على القدوم الى الشرق ابتداء من موسم الربيع ، وكانت اثناء وجودها امام سواحل الشام تملك السيادة عليها ، وكان اختفاؤها في فصل الشتاء يعطي الفرصة لاسطول صلاح الدين الصغير بحرية الحركة ، وهذا الاسطول كان مصريا الى ابعد الحدود ، واعتاد على حمل المؤن والبضائع من مصر ، هذا ولئن أخفق صلاح الدين في اقتلاع الفرنجة من أحواز عكا ، فان سفنه قد استطاعت في شتاء عام ١١٩٠ م أن تنقل كميات جيدة من المؤن والذخائر والأسلحة الى ميناء المدينة ، مما ساعد على تقوية الدفاع عنها .

ومع مرور الأيام تعقد الموقف في منطقة عكا ، وبدأت وقائع ملحمة عنيفة ، قد تكون اشد وقائع تاريخ الحروب الصليبية ، فيها برزت معائب نظام الاقطاع العسكري الاسلامي ، وبانت معالم الخلل السياسي في امبراطورية صلاح الدين ، هذه الامبراطورية

التي بناها بذاته ، فلم تعد تملك الصبر حتى تجتث اواصر الوحدة بينها .

وصحيح ان امبراطورية صلاح الدين حافظت على وحدتها الظاهرية حتى وفاته ، لكن تمزقها الواقعي يكاد يكون المسؤول الاول عما جري امام عكا ، ولقد سعى صلاح الدين الى تدارك الخل فلم يحالفه النجاح ، ذلك ان عمليات سد الخل كانت تقتضي منه القيام بعمليات عسكرية داخلية وهذا ما لم يقدم عليه صلاح الدين ، بسبب وضع المواجهة امام عكا ، ثم ان صلاح الدين الكهل ليس هو صلاح الدين الشاب .

ومهما قيل عن انتكاسات ملحمة عكا وسلبات وحوادث مايعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، فانه ينبغي ان نتذكر دائما ان نصر حطين حكم على الوجود الصليبي في الشرق حكما مبرما بالزوال ، فما كان لقوة ان تغير هذا الحكم ، وكل ماكانت تستطيع هو تعويق التنفيذ بعض الوقت ، ويعودة الى كل من انكلترا وفرنسة ، نجد ان هنري الثاني ملك انكلترا قد توفي وخلفه ابنه ريتشارد الذي شهر بلقب قلب الاسد ، فقد أعلن ريتشارد عن نيته بالتوجه الى الشرق ، لكن تورطه في العديد من المشاكل الداخلية والخارجية اعاق سفره ، وكما ان حالة نظيرة الفرنسي لم تختلف عنه ، فقد دعا هذا عددا كبيرا من نبلاء اوربة وكبار الاقطاعيين فيها الى الابحار نحو منطقة عكا ، وما ان حل ربيع عام ١١٩٠ م حتى بدأ سيل من الرجال والعتاد والمؤن من اوربة يصل الى عكا ، مما أدى الى تحريك الموقف وتغييره .

ويتساءل المرء عن عدد قوات الفرنجة التي تجمعت حول عكا حتى بداية حصار عام ١١٩٠ م ، فيحصل على اجابات متفاوتة ، فالمصادر العربية تحكي غير ماتحكيه المصادر الصليبية ، علما بان اصعب المهام التي يواجهها الباحث في التاريخ العسكري للعصور الوسطى هي تقدير تعداد الجيوش .

وامام عكا نجد انه في حين تتحدث المصادر الأوربية عن بضع مئات من الفرسان ، وأقل من الفين من الرجالة رافقوا الملك في القدوم أولا الى عكا ، نجد القاضي ابن شداد ، وهو شاهد عيان يقول : « وكان عدد راكبهم ألفي فارس ، وعدد راجلهم ثلاثين ألفا ، وماريت من أنقصهم عن ذلك ، ورأيت من حزرهم بزيادة على ذلك ، ومددهم من البحر لا ينقطع (٧) » .

ونظرا لتزايد قوى الفرنجة ، فقد شددوا حصارهم لمدينة عكا ، وكان صلاح الدين قد أوكل شؤون الدفاع عنها من الداخل الى غلامه قراقوش ، ويبدو أن خبرته في التحصين والبناء كانت جيدة ، فقد سبق له القيام بالاشراف على مهام معمارية حربية في القاهرة وسواها ، وشدد الفرنجة ضغطهم على عكا ، وحاول صلاح الدين اقتلاعهم من معسكرهم ، ورأى اخال قواته المشاة الى داخل عكا ، والانتقاضن عليهم بفرسانه من الخارج واستدراجهم حتى يتمكن المشاة من الخروج من المدينة وتطويقهم وابانتهم .

لكن قادة قواته لم يوافقوه ، واحتج بعضهم بأن ما يملكون من جند قليل ولا يستطيع القيام بمثل هذه المخاطرة ، ثم قالوا : « هؤلاء عالم لا يحصى ، قد حضروا من الأدنى والأقصى ، وأزوادهم عن قريب تفرغ ، وأمدادهم في الصبر تبلغ ، وأمدادهم تنقطع ، وانجادهم تمتنع ، وموادهم تقل ، وجوادهم تضل ، ولراكبهم في الشتاء شتات ، ولحبائلهم وحبائلهم انبتات (انقطاع) ، فاما أن يضطروا الى الانفصال ، وأما أن يؤنن فناء أرزاقهم بحلول الأجال ، ويهون علينا حربهم في تلك الحال (٨) »

ويبدو ان الفرنجة قد لاحظوا تردد صلاح الدين ، لذلك التحموا به ، وأوقعوا به خسائر كبيرة وأجبروه على تغيير معسكره وأحكموا حصار عكا ، وقد وصف العماد الأصفهاني الحال حول عكا بقوله « وصرنا محاصرين المحاصرين ، قد أحطنا بالعدو ، وهو بالبلد محيط ، واستشطننا منه وهو

مستشيط ، واحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلها ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ... واستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التحرس والتحرز " (٩) .

وفي أوربة اتخذ ملكا فرنسا وانكلترا قرارا بالابحار نحو الشرق في تموز من عام ١١٩٠ وهكذا كان ريتشارد في الثاني من تموز في ميناء فزلي حيث التقى بملك فرنسا ، وفي الرابع من ذلك الشهر أقلع الملكان نحو ليون ، وكانت مرسيليا مركزا لتجمع الاساطيل ، وقد ابحرت هذه الاساطيل من فرنسا نحو صقلية مسيطرة للشاطلي الايطالي ، وتوقفت الحملة طويلا في مسينا ، وفي نهاية آذار لسنة ١١٩١ م أخذ ملك فرنسا الطريق نحو فلسطين ، وبعده بأيام أبحر ريتشارد على رأس أسطول كبير ضم ١٨٠ سفينة ركاب وحمولة كبيرة ، و ٣٩ سفينة حربية ، فوصل أولا الى كريت ، ثم الى رودس ، وبعدها الى قبرص ، حيث توقف فترة من الزمن .

وفي أثناء هذا كله كانت المعارك محتدمة حول عكا ، وكان صلاح الدين قد وصلت اليه أخبار أساطيل ملكي فرنسا وانكلترا ، مع أخبار قوات جديدة قادمة عبر أسية الصغرى ، فأقلقه ذلك غاية الاقلاق ، فقام بأعداد بعثات زودها برسائل الى خليفة بغداد وأمراء الموصل والجزيرة ، كما أصدر تعليماته بتقوية أسطول مصر ، وفي الوقت نفسه راسل مراكش ، ربما للمرة الثانية ، وكان على عرشها يعقوب المنصور الموحيدي ، وكانت امبراطورية الموحدين آنذاك في نروة قوتها ، تملك من الجيوش الكثير ، مع أساطيل كبيرة وقوية وسواحلها المتوسطية تمتد من ليبيا الى جبل طارق ، وتشمل سواحل الأندلس ، وكان بإمكانها اعاققة الملاحاة في مضيق مسينا ان لم نقل السيطرة عليه .

واستجاب أمراء الشرق لنداءات صلاح الدين ، ووعد خليفة بغداد بارسال بعض النجعات ، وسارع ببعث جماعة من النفاطين ، كما أن باقتراض مبلغ ٢٠ ألف دينار من تجار بغداد لانفاقها في الجهاد ولم يستجب المنصور الموحيدي ، واختلف

المؤرخون في تحليل أسباب ذلك ، ولعل أهم سبب كمن في التوسع الأيوبي في ليبيا الملاصقة لأراضي تونس الموحدية ، ومهما كان الحال ، فقد بات الآن على صلاح الدين تحمل أعباء التصدي للحملة الجديدة بطاقاته الذاتية .

ففي مطلع حزيران لعام ١١٩١ م غادرت أساطيل ملكي انكلترا وفرنسا قبرص واتجهت نحو صور ثم عكا ، وكان قد مضى على حصارها عامان ، أبدى المدافعون خلالهما ضروبا من البطولة النادرة ، ولقد شارك شعب بلاد الشام جميعا في الصراع وظهرت بطولات فردية نادرة ، فعندما شدد الحصار على المدينة ، استخدم المقاتلون العرب السباحة للوصول الى المدينة ، على طريقة « الضفادع البشرية » وغيرها من الطرائق .

وقلت المؤن داخل عكا ، وكاد العتاد ان ينفد ، وكان الصليبيون متفوقين في تقنية صناعة الأبراج المتحركة وغيرها من وسائل القتال الجماعي وأنوات الحصار ، ونلاحظ أثر هذا التفوق في إحدى رسائل القاضي الفاضل - رئيس إدارة صلاح الدين - بقوله : « ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد ، فانهم قاتلوه مرة بالأبرجة ، وأخرى بالمنجنقات ، ورادفه بالدبابات ، وتابعه بالكباش ، وأونه باللولب ، ويومما بالنقب ، وليلا بالسرابت ، وطورا بطم الخنادق ، وأنا بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب » .

وبعد وصول رتشارد وفيليب بقرابة شهر تقريبا بدأ الصليبيون بتضييق الخناق على عكا ، وابتغوا أولا خلخلة دفاعاتها ، يقول القاضي ابن شداد واصفا ذلك : « ولم يزالوا يوالون على الأسوار بالمنجنقات المتواصلة الضرب ، وينقلون أحجارها ، واقتصروا من القتال على هذا القدر ، حتى خلخلوا سور البلد ، واضعفوا بنيانه ، وأنهك التعب والسهرة أهل البلدة لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم ، حتى أن جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلا ... » ولما أحس العدو بذلك شرعوا في الزحف من كل جانب ، وانقسموا

أقساماً وتناوبوا فرقاً ، كلما تعب قسم استراح وقام غيره مقامه ، وبذل صلاح الدين كل ماله من طاقات لتخفيف شدة الحصار على المدينة وإيصال بعض المساعدات إلى داخلها فأخفق ، وهكذا تلقى من المدافعين عن عكا رسالة فيها : « إنا قد بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم ، ونحن في الغد إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا ، . ومجدداً وضح أن صلاح الدين عاجز عن القيام بأي شيء وقام المدافعون عن عكا بالاتصال بالفرنجة وفاوضوهم واتفقوا معهم » على أنهم يسلمون اليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ، ومائتي ألف دينار ، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال ، ومائة فارس معينين من جانبهم ، يختارونهم ، وصليب الصليبوت ، على أن يخرجوا بأنفسهم سالفين ومأمعهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم ، ونزارهم ونسأئهم...»

وفوجى صلاح الدين بخبر الاتفاق ، وحاول القيام بعمل ما لإيقاف التنفيذ « وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ... فما أحس المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادي الآخرة سنة سبع وثمانين وخمسمائة (١٢ - تموز ١١٩٩ م) (١٠) .

وكان أثر سقوط عكا على صلاح الدين مفاجئاً ، لكنه تحمله ، وأصدر أوامره بالانسحاب إلى الخلف مسافة قصيرة ، وبات عليه التحرك بسرعة وفي عدة اتجاهات : فقد صار عليه التصدي للتحرك المقبل للفرنجة ، وانقاذ جنده الذين كانوا داخل المدينة ، ذلك أن الفرنجة اعتبروهم أسرى لديهم ، أو رهائن حتى يتم تنفيذ بنود الاتفاق .

وراسل الأسرى صلاح كما راسله رتشارد قلب الأسد الذي صار المسؤول الأول عن الصليبيين ، ذلك أن فيليب ملك فرنسا رحل عائداً نحو بلاده ، إثر سقوط عكا ، وقد أعلن صلاح الدين عن نيته

الالتزام ببنود الاتفاق والعمل على تنفيذه ، فقام بجمع الأموال المطلوبة وأحضر صليب الصليب مع أعداد من أسرى الفرنجة ، وجاء وفد صليبي الى معسكر صلاح الدين ليشاهد المال والصليب والأسرى ، وهنا حصل خلاف حول الأسرى ، وجرت محاولات لتسوية هذا الخلاف فباعت كلها بالاخفاق .

وكان رتشارد قلب الأسد متهورا ومتعجرفا ، في طباعه رعونة ، وفي أخلاقه ميل شديد الى سفك الدماء واللامبالاة ، لذلك قام اثناء المفاوضات باصدار اوامره باحضار الأسرى « وكانوا زهاء ثلاثة الاف مسلم في الحبال » وأوقف هؤلاء الأسرى في ساحة مكشوفة وحشد فرسانه وقام هو وإياهم « وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد فقتلوه صبرا ، طعنا وضربا بالسيف » .

وهكذا اضاف رتشارد الى السجل الدموي لتاريخ الصليبيين وأعمالهم في الشرق فقرة جديدة ، لم يقتصر أثرها هذه المرة على المؤرخين والأخباريين العرب واللاتين ، وانما حفظهما لنا صاحب ملحمة كتبت في القرن الثاني عشر بالنورماندية القديمة وحملت اسمه ، وقام صاحب الملحمة برواية أخبار الأحداث بشكل رهيب ، فرتشارد لم يكتف بسفك دماء العرب من أسرى وسواهم ، وانما أقدم على أكل لحوم القتلى منهم وذلك بعد طهيها وأصدر أوامره لجنده بفعل ذلك (١١) .

ومن جديد تحمل صلاح الدين ما نزل به ، ولم يشغله حزنه عن رصد نوايا رتشارد ، وتحركاته ، وخاصة بعد أن علم أن رتشارد قد أعاد ترميم أسوار عكا وتحصيناتها .

وفي « مستهل شعبان سنة سبع وثمانين (٢٤ أب ١٩٩١) اشتعلت نيران العدو في سحرة ذلك اليوم ، وعادتهم انهم اذا أرادوا الرحيل أشعلوا نيرانهم ، ولما أن علا النهار شرع العدو في السير على جانب البحر وتفرقوا قطعاً ثلاثة ، وعلم صلاح الدين بذلك فأمر قواته بالتحرك على محور

مقابل لمحرك الفرنجة ، وبأن له أن الوجهة هي عسقلان ومنها إلى القدس .

وإثناء التحرك جرت مناوشات بين الطرفين ، وحاول صلاح الدين استدراج الصليبيين إلى معركة مكشوفة فلم يفلح . وكان رتشارد في غاية الحذر . ومع ذلك فقد خشي أن يعد له صلاح الدين كمينا في غابة أرسوف .

لذلك قام قبل وصوله إلى أرسوف بمراسلة الملك العادل ، أخيه صلاح الدين ، وأبرز رجالات دولته ، وتم الاتفاق على عقد اجتماع بين رتشارد والملك العادل ، وفي ذلك الاجتماع طلب رتشارد عقد صلح مع صلاح الدين فقال له الملك العادل : « انتم تطلبون الصلح ، ولا تذكرون مطلوبكم فيه حتى أتوسط أنا الحال مع السلطان » ، فأجابه رتشارد : « القاعدة أن تعود البلاد كلها إلينا ، وتنصرفون إلى بلادكم ، فأخشن له الجواب وجرت منافرة » ورفض الاجتماع دون نتيجة .

وفي منطقة أرسوف حاول صلاح الدين أنزال ضربة قاصمة بجيش رتشارد ، فلم يفلح ، بل حدث العكس حيث هزمت قواته وتفرق شملها ، وبات الآن صلاح الدين وجنده على قناعة أنهم لن يستطيعوا هزيمة الفرنج ، لذلك سارع صلاح الدين من أرسوف إلى يافا القريبة ، فأخلاها وهدم أسوارها ودفاعاتها ثم قصد عسقلان ، فكرر بها ما صنعه في يافا ، ومن هناك أخذ الطريق إلى الرملة فالقدس حيث شرع في تقوية دفاعات المدينة .

ولدى وصول رتشارد إلى عسقلان حاول أن يعيدها إلى سابق مجدها وحصانتها فلم يفلح ، وفي عسقلان وصلت أخبار مزعجة من أنكلترا استدعت عودته إليها ، ولذلك كثف اتصالاته بصلاح الدين واجتمع بالملك العادل أكثر من مرة ، وتم طرح أكثر من حل لمشاكل الخلافات بين الطرفين ، كان من بينها زواج سياسي بين الملك العادل وأخت رتشارد ، لكن ذلك كله لم يثمر عن نتيجة مفيدة ، وظل صلاح

الدين طوال الوقت متصلبا في مواقفه متصلبا شديدا ، عازما على القتال مهما ساءت الأحوال •

لكن هذا التصلب اضطر صلاح الدين الى التخلي عنه عندما علم بنية رتشارد الزحف على القدس ، وبعدها عرف موقف أمراء جيشه ، فقد اراد اتخاذ موقف الدفاع داخل القدس وعقد لهذه الغاية مجلسا حربيا ضم كبار قادة جيشه وافتتح صلاح الدين ذلك المجلس بخطاب الحضور بقوله :

« الحمد لله ، والصلاة على رسول الله ، اعلموا انكم جند الاسلام اليوم ومنعته ، وانتم تعلمون ان دماء المسلمين واموالهم وذرايعهم معلقة في ذممكم ، فان هذا العدو امن له من المسلمين من تلقاه إلا انتم ، فإن لو يتم اعنتكم - والعياذ بالله - طوى البلاد كطي السجل للكتاب ، وكان ذلك في ذمتكم فإنكم انتم الذين تصديتم لهذا ، واكلتم بيت المال ، والمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام » .

ورد القادة على صلاح الدين بكلام حماسي عام طيبوا به خاطره ، وتفرقوا عنه ، ولكن ما لبثوا في مساء ذلك اليوم ان ابلغوه انهم بعد اجتماعهم ببقية قادة الجيش ، رفضوا فكرة أخذ الموقف الدفاعي وقالوا : لامصلحة في ذلك فإننا نخاف ان نحاصر ويجري علينا ما جرى على أهل عكا ، وعند ذلك تؤخذ بلاد الاسلام أجمع ، والرأي ان نلقي مصافها ، فإن قدر الله تعالى ان يهزمهم ملكنا بقية بلادهم ، وإن تكن الأخرى سلم العسكر ، ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الاسلام بعساكرها مدة بغير القدس .

ويصف ابن شداد حال صلاح الدين عندما بلغه موقف القادة هذا بقوله : « فشق عليه هذه الرسالة ، واقمت تلك الليلة في خدمته حتى الصباح ، وهي من الليالي التي أحيانا ... وكان عنده من القدس أمر عظيم لاتحمله الجبال .. ولما قارب الصبح أشفقت عليه وخاطبته في أن يستريح ساعة » •

ومن جديد تم استئناف المفاوضات بين الطرفين واصيب خلال ذلك الوقت رتشارد بمرض شديد ، وقام صلاح الدين بارسال طبيب خاص لمعالجته واتحفه ببعض الادوية والاطعمة والفواكه والهدايا ، وكان لهذا كله اثره على المفاوضات التي اثمرت اخيرا باتفاق عرف باسم « صلح الرملة » تمت الموافقة عليه « صبيحة الثالث والعشرين من شعبان » سنة ثمان وثمانين وخمسمائة (٣ ايلول ١١٩٢ م) . وقضى هذا الاتفاق بـ :

- ١ - بقاء الشريط الساحلي الضيق الممتد من يافا حتى صور بيد الصليبيين .
- ٢ - اعادة عسقلان الى صلاح الدين شريطة هدم اسوارها .
- ٣ - امتلاك صلاح الدين للمنطقة الساحلية الجنوبية اعتبارا من عسقلان .
- ٤ - احتفاظ صلاح الدين بالقدس .
- ٥ - السماح للحجاج المسيحيين بالوصول الى القدس .
- ٦ - حرية تنقل الافراد والتجار بين البلدين .
- ٧ - السماح لكل من انطاكية وطرابلس الدخول بهذا الاتفاق إذا رغبتا .
- ٨ - مدة الاتفاق ثلاث سنوات .

وبعدما أبرم الصلح « غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلا الله تعالى » لكن صلاح الدين كان على عكس الناس حزينا ذلك أنه كما ذكر ابن شداد « ان الصلح لم يكن من ايثاره ، فإنه قال لي - رحمه الله - في بعض محاوراته في الصلح : اخاف ان اصالح وما ادري أي شيء يكون مني ، فيقوي هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجون لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس قلته - يعني حصنه - وقال : لا انزل ، ويهلك المسلمون » .

ومهما يكن الحال فقد توجه رتشارد إثر ابرام الصلح إلى عكا في التاسع من شهر تشرين الاول من العام نفسه ، وركب البحر عائدا

إلى أوروبا وبذلك انتهت وقائع ما عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، وانتهت معها أهم فترات حياته ، وأكبر انجازاته .

أما صلاح الدين ، فقد سرح قواته ، وتوجه من الرملة الى القدس ، وعقد النية على القيام بجولة تفقدية على جميع مناطق دولته في الشام أولا ثم مصر ، وأعلن عن رغبته بقصد الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، ومن القدس توجه إلى دمشق حيث استقر في قلعتها ، لكن ليس طويلا حيث مالبث أن حل به المرض فألزمه فراشه قرابة اسبوعين غشي أهل دمشق خلالها من الكآبة والحزن ما لا يمكن حكايته « وفي صباح الأربعاء سابع عشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة (٤ آذار ١١٩٣) توفي صلاح الدين فغشي القلعة والبلد والدنيا من الحزن والبكاء عليه ما لا يعلمه الله تعالى . » وبالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم بذقوسهم ، وما سمعت هذا الحديث الا على ضرب من التجوز والترخص الا ذلك اليوم ، فاني علمت من نفسي 'ومن غيري أنه لو قبل الفداء لقدني بالنفس' (١٢) .

وجهز صلاح الدين ودفن خارج قلعة دمشق قريبا من المسجد الأموي في منطقة كان اسمها الكلاسة ، وحوت ارض دمشق الخالدة جسده الطاهر ، وبوفاته طويت صفحة المرحلة الثالثة من مراحل حرب الاسترداد العربية ، وهي أهم مراحل تاريخ الحروب الصليبية واجلها حوادث وأهمها انجازات ، ولعل من ابلغ الدلالات على أهميتها وخلودها انها ارتبطت بخلود دمشق وبعظمة صلاح الدين الأيوبي .

الفصل الرابع

المرحلة الرابعة من حروب الاسترداد في الطور الثاني

(مرحلة القاهرة)

قرانا من قبل ان المؤرخ اللاتيني وليم الصوري المتوفى سنة ١١٨٥ م قد تنبأ بزوال مملكة القدس الصليبية من الوجود على ايدي صلاح الدين ، وهذا ماكان إثر النصر المبين في معركة حطين ، ففي هذه المعركة دمر - كما رأينا - المسلمون المؤسسة العسكرية الصليبية التي كانت لقراية قرن مضى اداة رعب في المشرق وقسام صلاح الدين إثر ذلك باستغلال نصره احسن استغلال فحرر بسرعة خاطفة وببراعة كبيرة معظم الاراضي والقلاع التي كانت في ايدي الصليبيين بما في ذلك بيت المقدس ، وتمت عمليات التحرير دون سفك كبير للدماء وبلا مغائم ومنهوبات فقد كان صلاح الدين باخلاقه ومبادئه وموارثيه السامية بحكم انتمائه الى الحضارة العربية الاسلامية العريقة ، رجل تحرير ولم يكن رجل عدوان (١) .

ومع نهاية عام ١١٨٧ م كان ما بقي للصليبيين في بلاد الشام لايتعدى شريطا ساحليا ضيقا توزع حول صور وطرابلس وانطاكية ، وسعى صلاح الدين الى تحرير هذه المناطق لكنه لم يتمكن من ذلك وصارت الان مدينة صور مركز تجمع للصليبيين في المشرق ومنها جرت مراسلة اوروبا الغربية طلبا للنجدة ، واثارت الانتصارات التي حققها صلاح الدين حملة صليبية جديدة اطلق عليها اسم الحملة الصليبية الثالثة وقد تزعمها ملكا فرنسا وانكلترا وجرت مواجهات قاسية بين قوات هذه الحملة وصلاح الدين تمركزت حول مدينة عكا ، وضيق الصليبيون الخناق على هذه المدينة وعندما سلمت اليهم غدر ريتشارد قلب الاسد بالمسلمين فقتلهم

جميعا غدرا وخيانة وبذلك اضاف الى السجل الدموي لتاريخ الصليبيين في الشرق صفحة مخزية جديدة ، وتابع صلاح الدين تصديه لاسيل البشري الذي تدفق من اوروبا الى ان تمكن في ٢٣ شعبان ٥٥٨ هـ - ٣ ايلول ١١٩٢ م من عقد صلح الرملة مع قادة الحملة الثالثة ، وكان هذا الصلح عبارة عن هدنة غادر بعدها ريتشارد عكا عائدا الى اوروبا ، وكذلك فعل فيليب ملك فرنسا ، كما توجه صلاح الدين نحو القدس ، ومن القدس ذهب الى دمشق حيث استقر في قلعتها معلنا عن نيته القيام بالحج ، لكنه اصيب بمرض الزمه فراشة قرابة اسبوعين ، وفي صباح يوم الاربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة - الموافق ٤ اذار ١١٩٣ م توفي صلاح الدين ، فعم (القلعة والبلد والدنيا من الحزن مالا يعلمه الا الله تعالى ، وبالله - يقول ابن شداد - لقد كنت اسمع من بعض الناس انهم يتمنون فداء من يعز عليهم بنفوسهم وما سمعت هذا الحديث الا ضربا من التجوز والرخص الا ذلك اليوم فاني علمت من نفسي ومن غيري انه لو قبل الفداء لفدي بالنفس) (٢) .

لاشك ان وفاة صلاح الدين المبكرة جاءت خسارة كبرى لعرب الشام ومصر والعالم الاسلامي اجمع وهو باعتراف جمهرة المؤرخين قديما وحديثا في الشرق والغرب كان اعظم شخصية شهدها عصر الحروب الصليبية ، وما يزال يتمتع عبر العصور بشهرة ومكانة لم ينلها قائد اخر ، فشهرة صلاح الدين في اوروبا قد تكون اعظم منها في الشرق ، وجميع الذين كتبوا عنه اشادوا بقوته وعدله وتسامحه وانسانيته .

لقد ترك صلاح الدين خلفه دولة واسعة الاطراف وفراغا كبيرا لم يستطع احد من ابنائه السبعة عشر او اخوانه او ابناء اسرته ان يملأه ، واصاب ابن شداد بقوله واصفا انه « لم يصب الاسلام والمسلمين بمثله منذ فقدوا الخلفاء الراشدين » لقد انذرت وفاة صلاح الدين بقيام منازعات بين ورثته حول تقسيم التركة الضخمة

التي خلفها وحدث هذا في الوقت الذي كان فيه هنري دي شامبين ملك مملكة القدس الصليبية يعمل على توحيد صفوف الصليبيين في انطاكية وارمينيا وقبرص وعكا ، ومن القاء نظرة سريعة على وضع الدولة الايوبية عند وفاة صلاح الدين ندرك مدى المخاطر التي كانت تتهددها وتتهدد وحدثها وكيانها ، ذلك ان صلاح الدين اعتمد قبل وفاته على تعيين اولاده حكاما على المناطق الرئيسية في دولته ، كما استعان ببعض اقاربه وكان الملك الافضل نور الدين علي وهو الابن الاكبر لصلاح الدين ملازما لابيه عند وفاته ، فاحتفظ بدمشق والساحل وبيت المقدس وبلبك وصرخه وبصرى وبانياس وهونين وتبنين الى الداروم ، وكان الملك العزيز عثمان وهو الابن الثاني لصلاح الدين في مصر وقت وفاة ابيه فاحتفظ بها واخذ الابن الثالث الملك الظاهر غازي حلب وجميع اعمالها مع شمالي بلاد الشام ، واختص الملك العادل سيف الدين ابو بكر اخو صلاح الدين بالكرك والشوبك والاردن فضلا عن بعض مناطق الجزيرة وديار بكر .

لقد توزع بقية ابناء صلاح الدين وابناء بيته المناطق الاقل اهمية فاخذ الظاهر خضر بصرى وحوران ، واخذ الامجد بهرام شاه بن اخي صلاح الدين ببلبك ، واخذ المجاهد شيركوه الثاني بن محمد بن شيركوه حمص ، واخذ المنصور الاول محمد بن تقي الدين عمر حماة ، واختص سيف الاسلام طغتكين وهو الاخ الرابع لصلاح الدين باليمن واجزاء من جزيرة العرب .

وعندما توفي صلاح الدين استيقظت مطامح ابناء البيوت القديمة في الجزيرة وغيرها لاسيما افراد البيت الزنكي والارتقي واخذ كل واحد يفكر بمملكة وبالتوسع (٣) ، وهذه النظرة السريعة على اوضاع الدولة التي وحدها صلاح الدين تجعلنا ندرك ان الايام عادت سيرتها الاولى وان تمزق البلدان المحيطة بالصليبيين لن يضر غير المسلمين ، وكان صلاح الدين قبل وفاته قد اوصى بالسلطنة من بعده لابنه الافضل صاحب دمشق ، بمعنى جعله صاحب السلطة العليا في جميع انحاء الدولة الايوبية ، لكن الافضل لم يكن الاختيار المناسب

لضعفه وسوء سيرته ، فقد اتهمه ابو الفداء بأنه كان يشرب الخمرة ويقضي ليله ونهاره في اللهو وسماع الاغاني وقال المقرئزي : انه « اقبل على اللعب ليله ونهاره وتظاهر بلذاته » ووصفه ابو المحاسن في نجومه « بالملك النوام » ، لانه احتجب عن الرعية واشتغل باللهو وزاد من كراهية الناس له تخليه عن رجالات ابيه ووضع ثقته في وزير جديد هو ضياء الدين ابن الاثير ، اخي المؤرخ المشهور ، ولذلك فر المستبعدون من اركان دولة صلاح الدين الى مصر واستعدوا الملك العزيز على اخيه الافضل ، فخرج العزيز من مصر في صيف سنة ١١٩٤ م قاصدا الشام وشرع في محاصرة دمشق الامر الذي جعل الافضل يستنجد بعمه العادل .

من الثابت ان الملك العادل لم يكن راضيا عن نصيبه من تركة اخيه صلاح الدين وكان ذكيا مأكرا حاذقا صبوراً ، فيه اناة وتؤدة ، ورأى في استنجاد الافضل به فرصة ينبغي عدم تضييعها ، لكنه احتاط للامور فالتقى الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، وبالمنصور محمد صاحب حماه ، وبشيركوه صاحب حمص ، وبالامجد صاحب بعلبك واتفق معهم على منع العزيز من الاستيلاء على دمشق لانهم راوا ان الاستيلاء على دمشق يهدد ممالكهم جميعا ، وادرك العزيز عدم قدرته على محاربة امراء بني ايوب جميعا فانصرف عائدا الى مصر ، وقبل انسحابه اجتمع به الملك العادل خارج دمشق وطيب نفسه واعطاه احدى بناته زوجة له . وصنع معه تسوية احتفظ بموجبها الافضل بدمشق ومعها طبرية واعمال الغور ، واخذ الملك الظاهر جبلة واللاذقية ، واخذ الملك العزيز بيت المقدس وماجاوره من اعمال فلسطين ، وثبت خلال هذا كله ان العادل هو رجل بني ايوب وانه حريص على وحدة البيت الايوبي والدفاع عن مصالح المسلمين ضد الصليبيين ، ويقول ابو المحاسن ان العادل عندما التقى بالملك العزيز قال له : « لاتخرب البيت الايوبي ، وتدخل عليه الآفة والعدو وراءنا من كل جانب ارجع الى مصر واحفظ عهد ابيك » .

وثبت ان هذه الذسوية التي صنعها العادل كانت مؤقته وان ماحدث لم يستفد منه الأفضل لتغيير سياسته ، فكان ان خرج العزيز في العام التالي من مصر يريد دمشق ، واستنجد الأفضل مجددا بعمه العادل وقام العادل بتحريض امراء العزيز عليه واستمالهم اليه ، ونجحت خطة العادل فاضطر للعودة الى مصر واتفق عدد من الامراء على عزل العزيز عن مصر واحلال الأفضل محله واعطاء دمشق للعادل ، وجمع الأفضل والعادل جيوشهما وزحفا نحو مصر وقبل الوصول الى القاهرة راسل العادل العزيز سرا وطلب منه الثبات لانه - اي العادل - شعر ان الأفضل لن يسلمه دمشق وأخفقت الحملة وعاد الأفضل الى دمشق ، وبسرعة ازداد السخط عليه فيها ، وهنا وجد العادل ان الظروف باتت مواتية لعزل الأفضل فذهب الى العزيز عثمان وعقد معه اتفاقية لتحقيق هذا الغرض وفي صيف عام ١١٩٦ م سقطت دمشق للعزيز والعادل وحل العادل محل الأفضل في دمشق ، واخذ العزيز لقب السلطنة وبقيت مصر له .

لقد تركت هذه النزاعات اثارا سلبية على الدولة الايوبية واثارت رغبة الصليبيين واطماعهم في استرداد بعض القلاع والحصون ، وفي الافادة من الصراعات بعقد اتفاقات جانبية والحصول على تنازلات. من امراء بني ايوب .

وفي عام ١١٩٢ م توفي العزيز صاحب مصر وكان ابنه الأكبر محمد في العاشرة من عمره ، لذا جرى استدعاء العادل الى مصر من قبل بعض الامراء لكن امراء آخرين استدعوا الأفضل من حوران وسلموه شؤون مصر ، وإثر هذا اتفق الأفضل مع أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب بالعمل ضد عمهما وانتزاع دمشق منه ، وحوصرت دمشق من قبل جيوش الأفضل والظاهر ، وفي اثناء ذلك الحصار استطاع العادل استغلال سوء تدبير الأخوين فأوقع الخلاف بينهما ، واشترى زمم عدد من افراد جيشهما فاضطر الأفضل للعودة الى مصر ، والظاهر الى حلب ، ولم يترك الملك

العادل الأفضل يعود بسلام بل لاحقه الى مصر وتمكن من انتزاع القاهرة منه ، وفي سنة ١٢٠٠ م استبد العادل بملك مصر وصار أقوى رجالات البيت الأيوبي ، حيث تمكن بعد فترة من انتزاع الاعتراف بسيادته من أبناء أخيه ، ونجح العادل في توحيد أجزاء كبيرة من الدولة الأيوبية من جديد ، وحين أعاد تنظيم الدولة استعان بابنائه كما فعل صلاح الدين من قبله (٤) . لذلك كانت هذه الوحدة مؤقته ترتبط ببقاء العادل على قيد الحياة .

وإزداد في هذه الأونة نشاط الحملات حيث كانت الحملة الرابعة التي استولت على القسطنطينية ، ثم حملة الأتراك سنة ١٢١٢ م ، والحملة الهنغارية سنة ١٢١٧ م ، وحملة جنادي برين الكبرى ضد مصر سنة ١٢١٨ م ، ثم الحملة الصليبية الخامسة واخفقت هذه الحملات جميعا .

وحين جاءت الحملة الصليبية السادسة بقيادة فريدريك الثاني كان التمزق الأيوبي والصراع الداخلي على أشده ، لذلك استطاع فريدريك على الرغم من حرمانه كذسيا ومن قلة أعوانه استعادة بيت المقدس من الأيوبيين سلما فدخلها في ١٧ آذار ١١٢٩ م وتوج فيها ملكا على القدس ، ثم مالبت ان اخذ طريق العودة الى اوربا .

في هذه الأثناء كانت الأوضاع السياسية في المشرق العربي الإسلامي قد شهدت تطورات كبيرة بسبب ظهور المغول على مسرح الأحداث ونتيجة للأعمال التوسعية التي قام بها جنكيزخان ، فقد استولى جنكيزخان فيما استولى عليه على دولة خوارزم شاه ، وجاء نحو أطراف الدولة الأيوبية فلول الجيوش الخوارزمية ، وعلى رأسهم السلطان جلال الدين منكبرتي ، ولم يكن الخوارزمية أقل عنفا ووحشية من المغول انفسهم وقد هددوا أراضي الدولة العباسية والممتلكات الأيوبية في أعمال الجزيرة واربينية ، وخلال الفوضى والاضطراب قتل جلال الدين منكبرتي وتشتت قوات الخوارزمية ودخل بعضها الشام كمرتزقة ، وبسات

معظم السبل مفتوحة أمام المغول للتقدم نحو العراق والجزيرة
والشام .

لقد استخدم أمراء بني أيوب الخوارزمية في حروبهم وصراعاتهم
على السلطة ، ودون الدخول في تفاصيل هذه الصراعات
الدمرة ، يكفي ان نشير الى ان الصالح أيوب تمكن بمساعدة
الخوارزمية من استرداد القدس (٥) ، مما أثار قيام الحملة الصليبية
السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وجاءت الحملة الفرنسية
تريد مصر ، وحقت في البداية بعض النجاحات لكنها أخفقت وفي اثناء
التصدي لها توفي الصالح أيوب (٦) وكان حدث وفاته نقطة تحول
سياسي كبير في تاريخ مصر وبلاد الشام تحتاج الى وقفة متأنية
بعض الشيء لأنها خطت بداية النهاية ، نهاية الحكم الأيوبي وقيام
الحكم المملوكي ، هذا ويلاحظ ان الصراعات بين أمراء بني أيوب
قد انعكست على أوضاع بلاد الشام ومصر فأضررت بالاقتصاد
وسببت هزات اجتماعية متوالية كما انها أفقدت الأيوبيين الاحترام
الذي حققه صلاح الدين لهم .

كانت الدولة التي أسسها صلاح الدين قد تبنت ايامه نظام
الاقطاع العسكري وقد ساعد هذا النظام على زيادة التمرقات
وتعميقها بعد صلاح الدين ، وبالنظر لاستمرار الصراعات الداخلية
بين افراد البيت الأيوبي ولعدم توقف التهديدات الصادرة عن
الفرنجة وسواهم اضطر أمراء بني أيوب الى زيادة حجم جيوشهم
عن طريق الرقيق الأبيض وعن طريق المرتزقة ، وكان جل الرقيق
الأبيض الذي استخدم في جيوش المشرق العربي من اصل تركي .

لقد كان ايضا من جملة النتائج التي نجمت عن الحروب الصليبية
ان بلاد الشام ومصر قد شهدتا تطورا كبيرا في ميادين الفنون
العسكرية من تسليح وتدريب حيث تحول العمل العسكري الى
احتراف خضع لقواعد خاصة للتدريب والتسرفي في
المراتب ، والمستعرض لتاريخ الجنود من اصل تركي منذ أيام

المعتصم بالله العباسي يرى أن الغلمان الأتراك ما أن ملكوا القوة العسكرية حتى تطلعوا نحو السلطة فتمرد بعضهم على أسياده . وسعى بعضهم إلى التحكم بالخلافة وظلت سمة التطلع نحو السلطة ملازمة للعسكريين المسلمين ، حتى أن صلاح الدين نفسه كان من هذا الصنف ، فهو ما أن صار سيد مصر حتى أخذ يوسع ملكه ، ومعارك صلاح الدين الداخلية أكبر عددا من معاركه ضد الفرنجة ، ولايعنينا هذا الموضوع بقدر أن نخلص إلى ماقاله الباحثون — أن الملك الصليبي — لـح ايوب (٦٣٧ هـ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) قد أكثر بعدما تسلم عرش مصر من شراء المماليك الأتراك واعتنى بهم عناية لم يفعلها غيره من أهل بيته وأباح لهم عمل كل شيء أرادوه فاعتدوا على أموال الناس وأنفسهم مما كاد يؤدي إلى الثورة ضده في القاهرة ، فاضطر إلى بناء قلعة خاصة بمماليكه وبه ، بناها وسط جزيرة الروضة على بحر النيل ، ومن هنا عرف المماليك الأوائل باسم المماليك البحرية الصالحية (٧) .

ويرتبط وصول المماليك البحرية إلى السلطة بتعرض مصر لهجوم قوات الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع (القديس لويس) ملك فرنسا ، وترتبط هذه الحملة بأهداف الصليبيين الأساسية في الاستيلاء على فلسطين واستعادة القدس المحررة ، ولكن لم توجهت ضد مصر ولم تقدم إلى الأراضي المقدسة مباشرة ؟

لهذا تعليقات كثيرة ، ارتبط أهمها بالدور القيادي الذي شغلته مصر منذ أيام صلاح الدين الأيوبي كما يلاحظ أنه إذا كان تحرير القدس من قبل صلاح الدين سنة ٥٨٢ هـ - ١١٨٧ م هو الذي أثار الحملة الصليبية الثالثة فإن تحريرها ثانية (٨) من قبل الصالح نجم الدين سنة ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م هو الذي بسبب قيام الحملة السابعة وقدمها إلى مصر .

وهناك خلاف واضح بين وقائع هاتين الحملتين

ونتائجهما ، والذي يعنينا منهما هو ان نذكر انه نتج عن الحملة الثالثة ، فيما نتج ، استيلاء الصليبيين على مدينة عكا ومن ثم اعادة احياء مملكة القدس ، وغدت عكا عاصمة لهذه المملكة ، وبعد وفاة صلاح الدين وبسبب نزوح الخلافت الشديدة بين امراء الاسرة الايوبية وسع الفرنجة رقعة ممتلكاتهم وباتوا يتحكمون بجزء كبير من الساحل الشامي امتد من عسقلان في الجنوب الى ما بعد طرابلس في الشمال مع مناطق في الداخل تمثلت ببلدة صفد والمنطقة القائمة بينها وبين عكا . وفي سنة ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م تسلم الامبراطور فريديريك الثاني من الملك الكامل الايوبي القدس وبیت لحم والناصر . وكان هذا الحدث من محصلات الحملة الصليبية السادسة وتم نتيجة لحركة الامبراطور السياسية ولم يرتكز على قوة السلاح .

وبعد تحرير القدس من قبل الصالح ايوب تحفز الغرب واعد حملة جديدة هي السابعة ، وقاد هذه الحملة القديس لويس ، ووجهها ضد مصر ، مقدرا انه اذا ماتمكن من قهر هذه البلاد سهل عليه استرداد فلسطين ، وفي حزيران - من عام ٦٤٧ هـ - ١٢٤٩ م تمكنت الحملة الصليبية من احتلال دمياط ، وكان الملك الصالح مريضا ، وقد توفي في تلك الاثناء ، مما شجع الملك الفرنسي على اتخاذ قرار الزحف نحو القاهرة ، وادى هذا الى إخفاق الغزاة ووقوع الملك وجيشه في الاسر في عام ٦٤٨ هـ - ١٢٥٠ م (٩) .

قام بإدارة الأمور في تلك الآونة شجر الدر أرملة الصالح ايوب ، وتم استدعاء تورانشاه بن الصالح ايوب ، لكن هذا السلطان الجديد أخفق في مهمته ، ومن ثم اغتيل من قبل قادة مماليك أبيه يوم ٧ محرم ٦٤٨ هـ / ٢ ايار - ١٢٥٠ م وبمقتله انتهى الحكم الايوبي لمصر وتأسست سلطنة المماليك (١٠) .

وتسلم السلطة أولا شجرة الدر ، ثم مالبثت ان اختير لها عز الدين أيبك من امراء المماليك زوجا ، ومن ثم سلطنا (١١) وفي مدة

سلطنتها التي دامت ثمانين يوما تم الاتفاق مع الملك الفرنسي ،
فاطلق سراحه ، فتوجه نحو عكا حيث استقر بها مدة اربع
سنوات (١٢) .

ونجم عن تسلم الممالك للسلطة في مصر نتائج داخلية خطيرة
وردت فعل خارجية شديدة ، فقد رفض الحكام الأيوبيون في الشام
الاقرار بالوضع الجديد ، وحدثت صراعات دموية بين أمراء الممالك
اضطرت عددا كبيرا منهم إلى ترك مصر والتوجه إلى الشام حيث
نشطوا فيها كمرتزقة ، وحاول لويس التاسع استغلال الأوضاع
المضطربة (١٣) .

تسلم الملك الفرنسي مسؤوليات الحكم في عكا ، وبات سيد ما
عرف باسم مملكة القدس ، في الوقت الذي راسل فيه فرنسا وبلدان
أوروبا لاثارة حملة صليبية جديدة ، ونشط محليا عن طريق
استغلال الصراع الأيوبي المملوكي ، وتقوية دفاعات الممتلكات
الصليبية ، وشهدت الفترة التي أقام خلالها الملك لويس ذروة أعمال
التحصين الفرنجية في المشرق عامة وفي فلسطين خاصة ، و أنتجت
نماذج من الحصون والقلاع تمتعت بقدرات دفاعية هائلة ، كما أن
المدن وخاصة عكا عززت دفاعاتها وأسوارها . فقد ملكت المدينة
سورا مضاعفا الآن ، تخفره مجموعة من الأبراج امتدت على
طوله ، وزودت الأسوار والأبراج بوسائل لرمي النشاب
وسواه ، ومنتت بوابات المدن والقلاع ، وحفرت الخنادق حول
الأسوار ، كما جهزت المرافق بمشآت دفاعية خاصة ، وزود مدخل
ميناء عكا بعدد من الأبراج الدفاعية التي مدت بينها السلاسل (١٤) .

كانت عكا آنذاك مقامة على نشز من الأرض مثلث الشكل ، أطل
ضلعان منه على البحر وقام الثالث على سهل يبلغ اتساعه قرابة
سنة أميال في أوسع جهاته ، وكان هذا السهل عظيم الخصوبة فيه
بساتين وكروم وحقول ومراع للمواشي (١٥) .

وجعل موقع عكا المتوسطي منها سوقا تجارية دولية ، كانت ترد

اليها البضائع من الشرق الاسلامي ومن الموصل ودمشق وحلب ومصر ، وكانت تقيم فيها جاليات تجارية اسلامية واخرى مثلت جمهوريات ايطاليا التجارية وخاصة البندقية وبيزا وجنوا (١٦) .

وبعدما استولى المماليك على السلطة في القاهرة انتهز الملك الناصر يوسف ، صاحب حلب وحفيد صلاح الدين الايوبي الفرصة ، فاستولى على دمشق ، فأصبح سيد معظم اجزاء بلاد الشام ، وقد عقد العزم على الزحف على القاهرة للاستيلاء عليها وإحياء ملك اله فيها (١٧) .

واعتقد الناصر ان عليه التحالف مع الملك لويس ، فراسله عارضا التعاون معه للانتقام من المماليك مقابل إعطائه مدينة القدس التي كانت تحت أمرته ، وكان هذا العرض مغريا جدا ، فيه تحقيق للهدف الذي قدم الملك الفرنسي من أجله إلى الشرق وفيه انتقام للهزيمة وللعار الذي لحق به نتيجة أسره .

لكن من الذي كان يضمن النجاح في هذه المهمة ويضمن الوفاء بالعهد أيضا ، أضف إلى هذا ان ما ملكه لويس آنذاك من قوات عسكرية ضاربة كان قليل العدد والامكانات ، وكان لا يزال في مصر ما يزيد على اثني عشر ألف أسير من جنده .

وعلم عز الدين أيبك بأنباء هذه العروض والاتصالات فبعث إلى الملك الفرنسي يتهدده بقتل الأسرى جميعا ، وعرض عليه في الوقت نفسه تعديل شروط معاهدة دمياط التي أطلق بموجبها سراحه وذلك بالتنازل له عن أموال الفدية المتبقية عليه .

ودرس لويس الموقف من مختلف الوجوه ، فوجد ان المنطق يفرض عليه البقاء على الحياد ، لذلك أرسل سفارة إلى الملك الناصر أعلمه فيها أنه طلب من أمراء مصر تعديل المعاهدة التي عقدها معهم والتعويض عليه وأنهم إذا ما رفضوا فسيقف إلى جانبه ، وترك لويس بهذا الرد الباب مفتوحا لاتصالات مستقبلية مع

الناصر ، ووقف يرقب الصراع من حوله ويعد العدة للافادة منه (١٨)

وتبعاً لجوانفيل الذي أرخ لحياة لويس وكان بصحبته ، بعث الملك الفرنسي وفداً إلى مصر عرض على سلطاتها موقف لويس ومطالبه ، ونجح الوفد في مهمته وأطلق المماليك سراح مائتين من الفرسان الأسرى لديهم مع ما يقارب ألف مقاتل من أصحاب الرتب الأدنى ، وبعثوا برسلاً من عندهم للاجتماع مع الملك الفرنسي وبحث شروط تحالف معه . وزاد لويس من مطالبه واستجيب له واستمرت المفاوضات بين الطرفين ولم تنقطع .

وربح لويس وازداد حجم قواته العسكرية (١٩) ، وفقد الناصر يوسف الأمل في التحالف معه فقاد قواته يريد القاهرة ، وسارع أيبك إلى لقائه ، وأقدم قبل ذلك على هدم مدينة دمياط ، وفي ١٠ ذي القعدة ٦٢٨ هـ / شباط - ٢٥١ م التحمت القوات المملوكية بالقوات الأيوبية عند بلدة العباسية بين بلبيس والصالحية ، وانجلى القتال عن هزيمة الأيوبيين وتراجعهم نحو دمشق (٢٠) ، وقام أيبك بعد فترة وجيزة بإرسال وحدة من قواته استولت على غزة.

واغتتم الملك لويس انشغال المسلمين بصراعاتهم فتوجه نحو بلدة قيسارية فأعاد تحصينها . فاستؤنف أثناء ذلك المفاوضات بينه وبين أمراء المماليك وتمخضت عن إبرام معاهدة جديدة بينهما في ربيع الأول ٦٥٠ هـ / أيار ١٢٥٢ م ، وقد حدثنا عنها جوانفيل بقوله: « وبينما كان الملك يقوم بتحسين قيسارية عاد رسله من مصر جالبين معهم معاهدة أيرمت وفقاً للشروط التي وضعها جلالته وقضت المعاهدة بين الملك والأمراء بأن يتوجه إلى يافا في موعد محدد ، بينما يذهبون هم إلى غزة في اليوم نفسه ، وقد أقسموا على تسليمه مملكة القدس ، وأقسم الملك ورجالات جيشه على تنفيذ المعاهدة ، وكان معنى هذا أننا ارتبطنا بوعدهم بتقديم المساعدة للأمراء ضد سلطان دمشق.

وتنفيذاً لهذا الاتفاق تقدم الملك لويس نحو يافا فاحتلها ، وكان

أيبك قد بعث بقواته لاحتلال غزة ، وعلم الناصر يوسف بأخبار هذا التحالف فبادر إلى إرسال قواته نحو غزة فاحتلها وعسكرت فيها وبذلك حالت دون قيام أي اتصال بين الفرنجة والمماليك . وخرجت قوات المماليك من القاهرة لكنها لم تتجرا على التقدم نحو غزة ، وبذلك أخفقت خطط المتحالفين وتجمد الوضع قرابة عامين . وتدخلت الخلافة العباسية بين الطرفين الشامي والمصري ، وأمكن في صفر ٦٥١ هـ / نيسان ١٢٥٣ م عقد صلح بينهما ، اعترف الناصر بموجبه بالحكم الملوكي في القاهرة وتنازل لهذا الحكم عن غزة والقدس ونابلس (٢٣) .

وكان الخاسر في هذه الجولة الملك لويس ، ثم إن المماليك لم يتمكنوا من استغلال ما منحهم الاتفاق من فرص حيث تورطوا في نزاع داخلي على السلطة أودى بحياة شجر الدر وعز الدين أيبك وعدد من الأمراء الكبار ، ونشط الملك لويس قليلا ثم قام أخيرا في نيسان ١٢٥٤ م بمغادرة الأراضي المقدسة وذلك بعدما يؤسر من وصول حملة جديدة من أوربا ، وبعدما بلغه وفاة والدته في فرنسا ، وهي التي كانت تتولى إدارة الأمور في غيابه (٢٤) .

قد يرى بعض الباحثين أن ما حدث حتى الآن قد مهد السبيل أمام المماليك للسيطرة على بلاد الشام وفي مقدمتها فلسطين ، وقبل معالجة هذا الرأي لابد من سؤال هو : هل كانت السلطات المملوكية ترغب بالاستيلاء على فلسطين ومجمل بلاد الشام ؟ ليس هنالك ما يفيد بالإيجاب في كل ما حوته مصادرنا من معلومات . هذا ولا يجوز لنا أن نذهب إلى الافتراض أن المماليك كانوا لابد وأن يسيروا على هدي حكام مصر المستقلة السالفين في سياستهم الخارجية تجاه بلاد الشام . وسبب هذا أننا لا يمكن أن نتحدث عن وجود سياسة خارجية مرسومة لدى المماليك ، بل كان هنالك ردات فعل تجاه الوقائع والأحداث ، ثم إن المماليك لم يعرفوا الحكم المستقر ولم تتوفر لديهم البيروقراطية المستقرة ، بل كان هنالك انقلابات مستمرة وحركات عصيان متواصلة ومؤامرات دائمة . أضف إلى

هذا أن أمراء الممالك ورجالاتهم لم يتحرروا من عقدة الرق ، وكان حكام الشام يملكون الاعتراف الشرعي (٢٥) .

ودخلت بلاد الشام في ظل الحكم المملوكي بفضل أحداث غزو خارجي ، وهو الغزو المغولي ، ولهذا الغزو ولصده علاقة مباشرة ببلاد الشام ، وقبل أن ندخل بتفاصيله من المفيد أن نذكر أن الحكم المملوكي قد مر بطورين ، عرف الأول منهما بالطور التركي والثاني بالطور الشركسي ، وقد ارتبطت بداية كل طور منهما بغزو مغولي كبير .

ليس المقام هنا الحديث عن المغول وتأسيس امبراطوريتهم (٢٦) ، ويهمننا أن نذكر أنه عندما وصلت أخبار ظهور جنكيزخان إلى أوربا ظننته مسيحيا وخيل إليها أنه المخلص القادم من المشرق ، ولهذا جرت اتصالات بين المغول ومختلف قوى أوروبا ومحاولات للتحالف . وتطلع الفرنجة في الشام بأمال عظيمة إلى أخبار الحملات المغولية ضد بلدان العالم الإسلامي في المشرق . وعندما زحف هولاكو حفيد جنكيزخان نحو بغداد رأوا فيه - مع أنه كان بونيا كما هو المرجح - « داود الهندي » الذي سيتمكن من استرداد القدس من المسلمين وبناء أسوارها « بحجارة من ذهب وفضة » .

في سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م استولى هولاكو على بغداد وأزال الخلافة العباسية من الوجود ، ووجه ضربة قاتلة إلى الحضارة العربية وإلى تراثها المجيد ، ولهذا خيل للمسلمين « أن العالم على وشك الانحلال وأن الساعة آتية عن قريب » . وتابع المغول زحفهم نحو بلاد الشام فاستولوا على حلب في صفر ٢٥٨ هـ / كانون الثاني - ١٢٦٠ م ، ثم قصدوا دمشق وكانت قد اجتمعت فيها قوة كبيرة للناصر يوسف صاحبها ، ومع ذلك عجز هذا الأمير الأيوبي عن الصمود وتراجع نحو غزة وعسكر فيها ، واستولى المغول على دمشق في ربيع الأول ٦٥٨ هـ / آذار - ١٢٦٠ م ، واخذوا يعدون العدة للزحف نحو مصر .

وكان تسلم السلطنة في القاهرة الأمير قطز ، وهو مملوك قيل إنه من أصل خوارزمي وأنه يمت بصلة القرابة لأسرتها الحاكمة التي حاولت التصدي للمغول . فتراسل قطز مع الناصر يوسف ، والأهم من ذلك أنه وجد الفرصة لإعادة توحيد قوى المماليك جميعها وذلك بعدما انضم إليه بيبرس البندقداري قادما من الشام .

ولم يطل مكوث الناصر في غزة ، فقد تخلت عنه عساكره فعاد نحو الشام ، فألقى المغول القبض عليه وحملوه إلى هولاكو الذي اجتفط به ووعدته بإعادة ملك أبيائه إليه ، وبالفعل انضم عدد من بقايا الأيوبيين إلى المغول .

لقد ملك المغول طاقات قتالية هائلة ، وتأثرت طرائقهم بالقتال وأساليبهم بطرائق الصين وأساليبها . وكانت خبرة المسلمين إزاء هذه الطرائق شبه منعدمة ، هذا ، وكان المغول قد احتلوا في تلك الآونة روسيا ، وقام أمراء المغول هناك وهم من « القبيلة الذهبية » باعتراف الإسلام ، ولهذا عارض زعيمها « بركة خان » أعمال هولاكو ودخوله بغداد وقامت اتصالات بين المماليك والقبيلة الذهبية إلى حد أن بعض الروايات تذهب إلى القول إن مساعدات رمزية كانت وصلت منها إلى مصر واشتركت في الحرب ضد مغول هولاكو ، وإذا صح هذا فإن معناه حصول المماليك على بعض المعلومات العسكرية عن فنون القتال لدى المغول .

ويلاحظ أن الجيش المملوكي وإن لم يكن عظيم الحجم كان جيشا محترفا بكل ما تعنيه هذه الكلمة سواء من حيث التسليح أو التدريب والمقدرة السوقية والبراعة في المناورة والتكتيك الحربي . لقد كان الجيش المملوكي أفضل جيش مدرب في عالم عصره ، لهذا عندما توحدت قطعاته لم يكن غريبا أن يهزم جيوش المغول التي قهرت العالم أجمع ولم تذق طعم الهزيمة من قبل .

وقرر هولاكو عدم الاكتفاء بدمشق ، وإن تتابع قواته فتحتل أولا القدس ثم تتابع سبيلها نحو مصر ، ويشير هنا أنه فضلا عن

الصلوات المغولية مع الصليبيين والأوروبيين ، كانت نساء بلاط هولاكو البارزات مسيحيات حسب العقيدة الذسطورية وكان لهن مكانتهن ونفوذهن العظيم عليه .

وبعث هولاكو برسالة قاسية إلى قطز تهدده فيها وتوعده ، ورد قطز عليه بقتل رسله وإعلان تصميمه على لقاء المغول . وواجه في هذا السبيل بعض المصاعب الداخلية ، لكنه استطاع أن يذلها وحشد قواته وبعث طلائعه نحو غزة بقيادة بيبرس البندقداري ، واصطدم بيبرس بطلائع المغول عند غزة فناوشها وهزمها واشتبك مع قوى المغول المتقدمة لمدة أيام وكان لهذه الاشتباكات أهمية عالية جدا فقد أفادت من الجانب المعنوي ، وكانت بمثابة استطلاع قتالي مباشر واختبار لقدرات العدو وخطته من جميع الجوانب ، زد على هذا أنها موته عليه وقدمت تغطية كاملة لتحركات قطعات الجيش الرئيسية بقيادة قطز ، فقد سلكت هذه القطعات الطريق الساحلي ، وعرجت أولا على عكا لاستطلاع موقف الفرنجة فيها .

وكان الفرنجة انذاك يعيشون في أوضاع محرجة ، الخلافات الداخلية على أشدها بين طوائفهم ومنظماتهم ، وكانوا يدركون أنه ليس بإمكانهم القيام بدور فعال ، لذلك أخبروا المماليك بوقوفهم على الحياد .

وفي هذه الأثناء اضطر هولاكو إلى مغادرة بلاد الشام والعودة نحو العراق ومن ثم إلى خراسان ، حيث بلغه وفاة خان المغول وكان يطمح في أن يجري اختياره خليفة له.

ولم يضعف زهابه قسوة المغول ، وقد ناب عنه القائد كتبغانوين ، وزحفت قوات المغول وكانت تزيد على الثلاثين ألف فارس وعندما وصلت إلى نهر الأردن قام بعض المسلمين الموجودين معها بإرسال رسل إلى المماليك بالمعلومات والتشجيع والوعد بالتخلي عن المغول أثناء القتال ، فقد تحدث صامم الدين

أزبك ، وكان مملوكا أيوبيا قد دخل في خدمة هولاكو قال :
« لما قدمت الشام ، وجدت التتار مجتمعين على نهر
الأردن ، وقد خرجوا قاصدين الديار المصرية ، وقد خرج المسلمون
للقائهم ، فلما علمت أن التتار لا بد لهم من الديار المصرية بعثت
غلما لي في صفة جاسوس ، وأمرته أن يجتمع بالملك المظفر قطز
والأمير بيبرس البندقداري ، وبلبان الرشيد ، وسنقر
الرومي ، ويعرفهم أن التتار لا شيء فلا تخافوا منهم ، وأن تكون
ميسرة المسلمين قوية بالخيول والرجال... وأوصيته أن يراعي
المسلمون أن يكون الملتقى عند طلوع الشمس ».

وقام المماليك باستطلاع الأرض وقرروا أن يكون اللقاء في منطقة
عين جالوت بين بيسان ونابلس ، بين نهري جلبوع وجالوت
مستفيدين من المستنقعات التي كانت موجودة على الجانبين.

اعتمدت خطط المسلمين فيما سبق في حروبهم ضد الفرنجة على
نظام فصل أسلحة العدو عن بعضها والايقاع بكل منها على
انفراد ، لكن الوضع كان مختلفا الآن . فقد كان المغول من الفرسان
الخفاف ، سلاحهم الرئيسي القوس والذشاب - حسب عادات بداءة
سهوب أواسط آسيا - يقاتلون عن بعد ويضر بهم الالتحام والقتال
القريب ، وقد اعتادوا فقط على الهجمات السريعة والقتال
الخاطف . ولهذا قامت خطة المماليك على اعتماد مبدأ الدفاع
المتحرك ، واستهدفوا احتواء الهجوم المغولي وتدميره .

ولهذا صفوا قواتهم التي لعلها لم تتجاوز الثلاثين ألفا بصفوف
طويلة واجبروا المغول على الهجوم الجبهوي بعد اشتباكات دامت
عدة أيام ، وفي يوم الجمعة ٢٥ رمضان ٦٥٨ هـ / ٦ أيلول - ١٢٦٠ م
أمكن احتواء الهجوم المغولي ، وتطويق المهاجمين وتدميرهم ، فقد
حرى قتل كتبغا نوين وعدد كبير من قادة المغول وجرت أعمال
مطاردة كاملة (٢٧) .

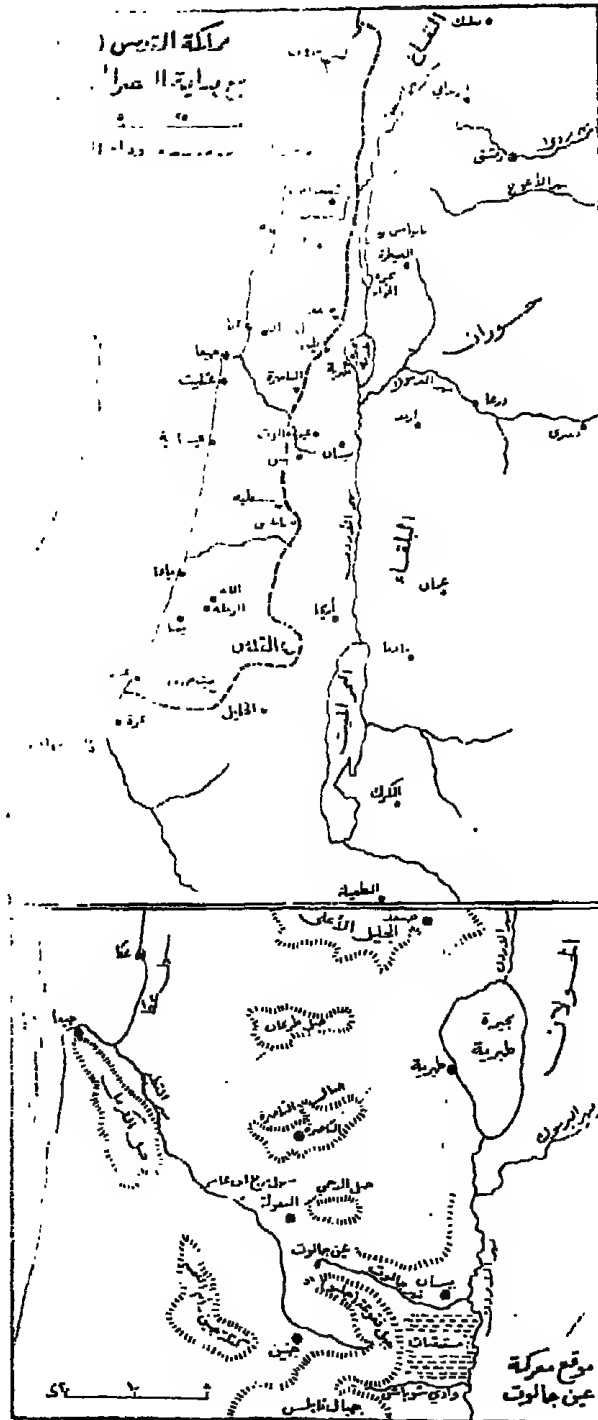
وقبل الحديث عن نتائج هذه المعركة الكبرى لابد من الإشارة الى انه يستفاد مما اورده المقرئزي عن اخبار المعركة أن « أهل القرى من الفلاحين » (٢٨) الفلاستينيين قد شاركوا بشكل فعال ومؤثر في القتال وان اعدادهم كانت كبيرة ، ويضيف هذا على المعركة صبغة خاصة ، ذلك ان الظهير الشعبي حاسم في جميع المعارك .

لقد كانت معركة عين جالوت نقطة تحول عظمى في التاريخ ، اذ انها اوقفت المد المغولي وحولته الى جزر ، وبرهنت ان الاحتراف العسكري المدعوم شعبيا والمستند على الايمان والمتحلي بالعبقريه يمكنه ان يهزم اية قوة مهما بلغ جبروتها . وحفظ نصر عين جالوت مصر وسان الشمال الافريقي وضمن تحرير بلاد الشام وطرد المغول الى ماوراء نهر الفرات ، وهيا الفرصة للعمل على تصفية الوجود الصليبي في المشرق .

لقد منح هذا النصر القاهرة مكانة الزعامة السياسية ومركز الاشعاع الفكري خاصة بعد دمار بغداد ومجدة العلماء ونوي الاختصاص والحرفيين وسواهم من المشرق الى مصر .

لقد ربح المماليك الشام كلها ، ذلك ان المغول كانوا قد ازالوا الحكم الايوبي ، وهكذا امتد الحكم المملوكي الى الشام بدون معارضة ، وليس من الغلو القول ان دولة المماليك قد ارسيت قواعدها نتيجة للنصر في عين جالوت ، ويعتبر بيبرس البندقداري هو الذي تولى بناء هيكل هذه الدولة ، فقد قام بيبرس بعد انقضاء معركة عين جالوت بفترة وجيزة باغتيال السلطان قطز واحل نفسه محله بلقب الظاهر .

واكمل المؤرخ البعلبكي موسى بن محمد اليونيني ماشهدته بلاد الشام سنة ٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م بقوله :
« في هذه السنة كثر تغير الدول ومتولي الحكم بالشام ، فكان من اول السنة الى نصف صفر في مملكة الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، وهو آخر من ملك من بني ايوب رحمهم الله



وايانا ، ثم صار في مملكة التتار الى الخامس والعشرين من شهر رمضان المعظم ، ثم صار في مملكة المظفر سيف الدين قطز صاحب الديار المصرية الى ان قتل في ذي القعدة ثم صار في مملكة الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري « (٢٩) » .

وحافظ المماليك على الاوضاع السياسية الموروثة في بلاد الشام ، ذلك انهم لم تكن لديهم سياسة خارجية مصرية مرسومة تجاه بلاد الشام ، بل كانت دولتهم تشبه اتحاد اقطاعات عسكرية متفاوتة الاحجام ، ويمكن ان ندرك هذا مما قاله اليونيني في وصفه لاحداث سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٣ م « دخلت هذه السنة وليس للناس خليفة ، وسلطان الديار المصرية والشامية والحلبية الى الفرات ، الملك الظاهر ركن الدين بيبرس » ثم اردف واصفا احداث السنة التالية ٦٦٢ هـ - ١٢٦٤ م ، وكان الملك الظاهر قد استولى على الكرك وازال الحكم الايوبي منها واسس خلافة عباسية جديدة ، بقوله :

« دخلت هذه السنة وخليفة المسلمين الامام الحاكم بأمر الله ابو العباس احمد العباسي امير المؤمنين ، وسلطان مصر والكرك والشام السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس » (٣٠) :

والمتفحص لاضاع سلطنة المماليك ايام بيبرس يلاحظ ان هذه السلطنة العسكرية كانت لها ثلاث جبهات رئيسية : واحدة في مصر ، واخرى في دمشق ، وثالثة في حلب . فقد تعرضت مصر للغزو الصليبي برا وبحرا ، وارتبط استيلاء المماليك على السلطة مع وقائع الحملة الصليبية السابعة ، اما دمشق فقد كانت جبهة مواجهة مع بقايا الصليبيين في الشام ، واهم من ذلك مواجهة الخطر المغولي القادم من الشرق ، اما حلب فقد واجهت دولة ارمينية الصغرى (سيس) والخطر المغولي .

لقد اقتضى اشتداد الخطر المغولي ان تتفرغ دمشق للتصدي له ، ودفع هذا السلطان بيبرس الى ايجاد قوة اسلامية تتمكن من

رصد فرنجة عكا والتصدي لهم ، وهكذا اقتضى الحال تحرير صنف واقامة نيابة مملوكية فيها .

ومتتبع اخبار الممالك يجد ان حكمهم لم يعرف الاستقرار ولا ديمومة الولاء والخلاص ، بل ساد الصراع ، وقد نافس حكام الشام سلاطين القاهرة وسعوا الى الاستقلال عنهم او احتلال مناصبهم وتميز تاريخ الممالك بتحالف رجالاتهم مع رجال الدين الاسلامي ، واهتم الممالك اهتماما كبيرا باظهار شدة تمسكهم بالاسلام واحترامهم للاماكن المقدسة واكثرهم من بناء المساجد ومدارس الدين والزوايا.

ويتصدر السلطان الظاهر بيبرس قائمة اسماء سلاطين الممالك الذين تولوا اعمال التحرير . وبيبرس كما هو معروف هو الذي ارسى قواعد السلطنة المملوكية ونظم شؤونها جميعا ، وقد اعتلى العرش اثر معركة عين جالوت ، وكان ذلك بعد اغتياله لقطز ، وفعل الظاهر بيبرس ما فعله معتمدا على نفسه ، وبلغ غرضه بمفرده ، وذلك بين العساكر العظيمة والاحتراز الشديد ، وما قدر احد ان يتكلم ، ولا جسر ان يمد يده اليه .

وتسلم بيبرس السلطة في القاهرة ، وواجه في البداية عددا من الثورات واعمال المعارضة في القاهرة ودمشق . واستطاع بسرعة وحزم ان يقضي عليها جميعا ، فالتفت الى الجوانب التنظيمية والادارية ، ولعل اهم ما قام به في هذا المجال هو بعث الخلافة العباسية واعادة تأسيسها في القاهرة (٢١) .

كان الحكم المملوكي الجديد بحاجة الى الشرعية ومثل هذه الشرعية كان بإمكان الخلفاء وحدهم منحها . ونحن وان كنا لانجد المكان مناسباً للحديث عن تطور السلطة لدى العباسيين ، الا انه من المفيد ان نبين ان الظاهر بيبرس قد تمسك بمفهوم السلطة الموروثة عن السلطنة السلجوقية ، فقد كان مثل السلجوقية ، من اصل تركي .

وكان السلاجقة بعدما استولوا على بغداد واقاموا دولتهم العظمى قد احدثوا تغييرا في مفهوم السلطة ، فهم لم يتحكموا بالخلفاء العباسيين كما فعل رجال بني بويه قبلهم بل اعتمدوا مبدأ ازدواجية السلطة ، وهو مبدأ تركي متوارث ، وتبعاً لهذا المفهوم كان يتولى رئاسة الدولة رجل عرف باسم الخاقان لا يملك اية صلاحيات بل كانت رئاسته اسمية ، والى جانبه يتولى مباشرة السلطة ال « بك » وغالبا ما كانت وظيفته عسكرية . ويلاحظ بالنسبة لتاريخ سلاطين السلاجقة والمماليك ان السمة العسكرية قد غلبت عليهم .

كما يلاحظ انه في زمن السلاجقة جرى توسيع قواعد نظام الاقطاع العسكري . ونتيجة لسياستهم الدينية عظم شأن علماء الدين السنة ودورهم الى حد يمكننا فيه الحديث عن قيام اقطاع ديني تحالف وتعاون مع الاقطاع العسكري . وكان لرجال الدين دور خطير جدا في ايام الحكم المملوكي وغالبا ما قاموا بالوساطة بين المماليك وطوائف المجتمع على اختلافها (٣٢) .

توجه السلطان الظاهر بيبرس نحو دمشق في العام التالي لتولية السلطنة ٦٥٩ هـ - ١٢٦١ م ، ويبدو انه سلك الطريق الساحلي مستطاعا اوضاع المنطقة الساحلية وضاعطا على الصليبيين هناك ، وفي طريقه جاءه كونت يافا فأكرمه السلطان وكتب له منشورا ببلاده ، ورده سالما الى مدينته . وفي دمشق « حضر رسول من جهة عكا يسأله امانا للرسول المتوجهين من البيوت (الداوية والاسبتارية) كلها فكتب الى والي بانياس بتمكينهم ، فحضر اكابر الفرنج والتمسوا الصلح ، فوقف السلطان عليهم ، وطلب منهم امورا كثيرة ، فلما امتنعوا زجرهم السلطان واهانهم » . ثم تقرر الهدنة مع تبادل الاسرى ورفع المقاطعة الاقتصادية (٣٣) .

ويلاحظ في هذا المقام ان مؤسسات الفرنجة السياسية والعسكرية في الشام تصرفت في بداية العصر المملوكي وكأنها جزء من المنظومة السياسية الشامية المحلية ، وان بيبرس شعر ان

المخاطر العظيمة على سيطرته على بلاد الشام ليست صادرة عن الفرنجة بل عن امارة الكرك ، التي مازال تحت الحكم الايوبي ، ومازال حاكمها يطمع بسلطنة القاهرة . ولهذا اتخذ الظاهر بيبرس قراره بالاستيلاء على الكرك ، وكان يحتاج حتى يتمكن من انجاز هذا العمل حماية ظهره من مخاطر المغول ، ولهذا جهز حملة عسكرية بعثها نحو العراق تحت لواء احد الناجين العباسيين وبإيعه بيبرس بالخلافة وقد حمل لقب المستنصر بالله وقيل ان اسمه « ابو القاسم احمد بن الامام الظاهر » (٣٤) .

وما ان فرغ بيبرس من هذه الاعمال حتى بادر بالعمل ضد امارة الكرك فاستولى اولا في هذه السنة نفسها ٦٥٩ هـ - ١٢٦١ م على قلعة الشوبك ثم شرع يتدبر امور الكرك وكانت من امنع القلاع في بلاد الشام ، فتمكن ببراعة مطلقة من الاستيلاء عليها في سنة ٦٦١ هـ - ١٢٦٣ م (٣٥) وبذلك ازال الوجود الايوبي من جنوبي بلاد الشام ، وبات من الممكن التفرغ للعمل ضد الصليبيين .

وادام السلطان اثناء عمله ضد الكرك الاتصالات الدبلوماسية مع الصليبيين :

« ولم تزل رسلهم في هذا ومثله إلى فرغ السلطان من شغله الذي كان في نفسه ، وهو حديث الكرك » .

وما ان انتهى منه حتى زحف على راس جيوشه الى قلب الاراضي والممتلكات الصليبية ، واستقبل اثناء ذلك رسل مؤسسات الفرنجة الذين عرضوا عليه التمسك باتفاقات الهدنة فرفض ، وبعدما بين لهم الاحوال التي لم يتمسكوا بها بشروط الهدنة اوضح لهم عن مقاصده وشروطه بقوله :

« انتم في ايام الصالح اسماعيل اخذتم صمد والشقيف على انكم تنجدونه على السلطان الشهيد الملك الصالح (ايوب) ... وبالجمله فانتم اخذتم هذه البلاد من الصالح اسماعيل لاعانة مملكة الشام وغيرها لي ، وما انا محتاج الى نصرتكم ولا الى نجدتكم ، فتريدون

ما أخذتم للإسلام بهذا الطريق ، وتفكون أسرى المسلمين جميعهم ، وغير ذلك لأقبله» (٣٦) ، ثم أمر بطرد الرسل ورسم بهدم كنيسة الناصرة ، « وهي أكبر مواطن العبادة التي لهم ، ويقولون منها خر دين النصرانية.. (ووجه من) هدمها الى الأرض ، فلم يجسر أحد من سائر الفرنجة أن يخرج من باب عكا» (٣٧) .

وسبب ذلك انه ارسل قطعة كبيرة من جنده للاغارة على عكا ، ثم اتبع بيبيرس ذلك بقيامه في يوم ٤ جمادى الآخرة ٦٦١ هـ / ١٥ نيسان ١٢٦٣ م بالزحف ضد عكا ، « ولم يزل سائقا الى ان طاف بها من جهة البحر ، وسير جماعة الى برج كان قريبا منها فيه جماعة فحاصره ، ولوقت أحدثت فيه الذقوب ، وكان توجه السلطان اليها في هذه الجماعة إنما هو لكشفها » ، وكان الفرنج « قد حفروا خنادق حول تل الفضول وجعلوها معائر في الطريق ، وبسرعة متناهية تمكن جند بيبيرس من ردم الخنادق وطلع الناس الى تل الفضول ، وانهزمت الفرنج الى المدينة ، وحرق الناس ما حول عكا من الأبراج والأسوار وقطعوا الأشجار وحرقوا الثمار » ، وحاول بيبيرس اقتحام المدينة فأخفق ، وبعد قيام جيشه بعده هجمات أمره بالانسحاب ، حيث توجه نحو الكرك ومن هناك عاد الى القاهرة (٣٨) .

ويبدو ان أهداف بيبيرس في حملته هذه كانت أكبر من ايقاع الضرر بالفرنجة أو استعراض قواه امامهم وفرض هيبة عليهم ، ولا حتى مجرد الاستطلاع والتعرف على طبيعة المنطقة . لقد أراد بيبيرس احتلال عكا ، مقدرا إمكانية ذلك ، بسبب أوضاع عكا الداخلية ، فقد كان الفرنجة قد وصلوا في هذه الفترة الى درجة كبيرة من الضعف ونجم ذلك عن القتال بين البنادقة والجنوبيين فيها (٣٩) .

ووصلت الأخبار في عام ٦٦٢ هـ - ١٢٦٤ م عن تحرك مغولي ضد بلاد الشام لذلك أصدر السلطان بيبيرس تعليماته باستنفار

القوات في الشام ، وشحن القلاع ورممها . وتحرك السلطان على رأس قواته من مصر فقصده غزة ومن هناك تحرك نحو منطقة يافا ، وبينما هو على الطريق وصلته الأخبار بهجوم المغول على المناطق الشمالية من الشام ، وصد ذلك الهجوم ، ولذلك بادر الى تغيير خطط زحفه واستغلال الموقف في البقاع التي كان فيها .

وبناء عليه « ثنى اعنته الى جهة الفرنج ليدينهم كما دانوا ويكون لهم كما كانوا ، وما علم أحد مغزاه ، ولا فهم أين مرامه ومرماه » ، وتظاهر بالانشغال بأعمال الصيد في غابة أرسوف ، فقام باستطلاع أرسوف وقيسارية ، وأمر باحضار الأخشاب واعداد المجانيق وأسلحة الحصار ، وأحضر الصناع والحجارين (سلاح المهندسين) ، وهاجم قيسارية ، و« نزل عليها يوم الخميس في التاسع من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وستمائة (٢٨ شباط ١٢٦٥ م) ولوقته طاف بها . وهاجمها الناس . والقوا نفوسهم في خنادقها وعمدوا الى السكك الحديد التي للذيل والشبح والمقاود فتعلقوا فيها وطلعوا من كل جانب ، ونصبت عليها السناجق وحرقت أبوابها وهتك حجابها ، فهرب أهلها الى قلعتها .. »

وشرعت القوات المملوكية بحصار قلعة قيسارية ، وكانت « من أحسن القلاع وأحسنها ، وتعرف بالخضراء ، وكان الريدافرانس (لويس التاسع) حمل اليها العمدة الصوان وأتقنها ، ومارؤي في الساحل أحسن منها عمارة ولا أمنع ولا أرفع لأن البحر المالح حاف بها ، وجائز في خنادقها ، والنقوب لا تعمل فيها للعمدة الصوان الصلبة في بنائها » وشدد بيبرس الحصار عليها وضيق الخناق على المدافعين عنها ، وبعد مضي أسبوع هرب الفرنج بحسرا الى يافا ، « واسلموا القلعة بما فيها ، وتسلق المسلمون اليها من الأسوار ، وحرقوا الأبواب ، ودخلوها من أعلاها وأسفلها » وأمر بيبرس على الفور بهدم قيسارية مع قلعتها « ووقف يهدم

بنفسه ، وراه الناس فتشبهوا به ، وعملوا بنفوسهم ، وصار
يباشر ذلك بنفسه ويده « (٤٠) .

لقد برهن بيبرس في جميع معاركه على أنه صاحب عبقرية
عسكرية متميزة ، فعندما قرر مهاجمة قيسارية أرسل بعض وحدات
جيشه نحو عكا للاغارة عليها ، والحيلولة بين أهلها وبين إنجاد
قيسارية ، وجاء تحرير قيسارية بمثابة ضربة قاسية ضد
الفرنجة ، حيث خسروا أهم نقاط الدفاع المتقدمة لديهم .

إن الهجوم على قيسارية يدل على وجود خطة محكمة للتحرير قد
وضعها بيبرس . فقيسارية كانت أهم مواقع الصليبيين وأحصنها
على الساحل فيما بين عكا وغزة ، وبعدما نجحت خطة الاستيلاء
على قيسارية عمد بيبرس الى اجراء عسكري له شقان : الشق
الاول تصفية الممتلكات الصليبية فيما بين قيسارية وغزة ، والشق
الثاني التقدم في الوقت نفسه خطوة أخرى باتجاه عكا . فبينما كانت
عمليات الهدم مستمرة في قيسارية أرسل بيبرس في ٢٦ جمادى
الاولى ٦٦٣ هـ / ١٧١ آذار ١٢٦٥ م مجموعة كبيرة من عساكره
نحو حيفا « فساروا اليها ودخلوا قلعتها ، فنجا الفرنج بأنفسهم
الى المراكب بعد ان قتل منهم واسر ... واخربوا المدينة وقلعتها
وأحرقوا ابوابها ، وجعلوها خاوية على عروشها ، كأن لم تغن
بالأمر ، وكان اخذها وما اعتمد فيها من قتل واسر وإخراب
وإحراق في يوم واحد » .

وفي الوقت الذي تعرضت فيه حيفا للغارة المدمرة المحزنة سار
السلطان الظاهر بيبرس بنفسه على رأس قطعة كبيرة أخرى من
جيشه الى عتليت . وبعدما استطلعها أمر عساكره بالاغارة عليها
« وأمر بتشيعيتها وقطع أشجارها ، فقطعت جميعها وخربت
أبنيتها » ثم عاد نحو قيسارية لمتابعة أعمال الهدم وإعداد خطة
هجوم جديد .

وكان الهدف الآن هو بلدة أرسوف ، وبعدما أعد بيبرس الأسلحة الجماعية ومعدات الحصار ، القى الحصار على أرسوف وشده وكانت أسوارها متينة وعالية ، وقامت قوات بيبرس بالتقدم نحو الأسوار في ظل ستائر من الأخشاب على شكل أبراج متحركة ، وحاولت هذه القوات حفر نفقين تحت الأسوار بغية شحنها بالأخشاب وإحراقها تحت طرف من أطراف الأسوار بغية هدمه ، وقام الفرنجة بخطط معاكسة وذلك بحفر أنفاق مضادة ونشر الدخان فيها بشكل مفاجيء .

وبعد حصار دام أربعين يوما لم يتوقف القصف والرمي فيها أمكن فتح ثغرات واسعة في الأسوار ، وهكذا تمكن الجند من اقتحام المدينة والدخول الى حصنها . وهنا توقف المدافعون عن القتال والقوا أسلحتهم واستسلموا ، وحررت أرسوف وعادت الى أهلها يوم الخميس ١١ رجب ٦٦٣ هـ / ٢٦ نيسان ١٢٦٥ م . وأمر بيبرس بهدم أرسوف ثم وجه انذارا الى كونت يافا جاء فيه :

« إنا لا نحتمل الهزيمة ، وإذا أخذ أحد لنا مزرعة أخذنا عوضها قلعة مرتفعة ، وإذا هدموا جدارا هدمنا أسوارا ، والسيف في يد الضارب ، والجواد عنانه في قبضة الراكب ، ولنا يد تقطع الأعناق ، ويد تصل الأرزاق ، ومن تحرش فعن تجربة ، ومن أراد شيئا من الأشياء فهذه الأمور له مرتبة » .

لا شك أن إنجازات أعمال التحرير لهذا العام كانت جلية ومحصلاتها عظيمة لا سيما في بناء قلعة قاقون . وقبل تعليل أسباب هدم الحصون المستولى عليها والباعث على بناء قاقون ، من الضروري الإشارة الى أن أعمال التحرير هذه لم يتوقف إنجازها على العسكريين المحترفين من جند بيبرس ، فلقد كان الحضور الشعبي كبيرا ، أثناء القتال وأعمال الحصار ، وشارك العرب الفلسطينيون مع إخوانهم من أهل الشام نساء ورجالا ، وكان لهم

السهل ويحتاج الى مجهود كبير ووقت طويل ، وان هنالك مسائل ومخاطر ملحة أخرى في المناطق المحتلة من قبل الصليبيين خارج فلسطين ، فقد كانت هنالك طرابلس ، وقلعة حصن الاكراد وانطاكية ، لذلك تابع العمل على تجريد عكا من ممتلكاتها واخذ يعد العدة لتحرير صيد ، واقدام اولاً على اعادة تحصين قلعة قاقون .

كانت قاقون تعد من أعمال قيصرية ، وقد سكن قلعتها فرسان المعبد (الداوية) وقد ورد ذكرها في عمليات الحروب الصليبية . وهي وإن كانت قلعة داخلية لم تكن بعيدة عن الساحل ، لذلك توفرت فيها الشروط المطلوبة ، وأمر بيبرس بإعادة بناء قلعتها ، ورسم كنيستها وحولها الى جامع ، وأوقف عليها الأوقاف وشحنها بالمقاتلة وانتهت هذه الأعمال سنة ٦٦٥ هـ - ١٢٦٧ م ونمت قاقون خلال فترة وجيزة فصارت عامرة بالناس وغدت محطة للقوافل الذاهبة الى غزة والأيبة منها ومركزاً من أهم مراكز البريد ، ذلك أن بيبرس اعتنى عناية فائقة بالبريد حتى كان الخبر يحتاج الى أربعة أيام للوصول من دمشق الى القاهرة (٤٢) .

وبعد انقضاء موسم أمطار عام ٦٦٤ هـ - ١٢٦٦ م جهز السلطان الظاهر بيبرس قواته وأخذ الطريق نحو غزة يريد بلاد الشام ، وفي غزة كلف بعض أمراء جيشه بقيادة وحداتهم والاغارة على ممتلكات الفرنجة في الساحل ما بين طرابلس وصور ، ومن غزة توجه بيبرس شخصياً نحو مدينة الخليل « فدخل الى مقام ابراهيم وزار وكشف المظالم » واتخذ عدة إجراءات لصيانة حرمة المكان ثم توجه نحو القدس فأتى « الحرم الشريف مستخفياً في نفرين أو ثلاثة ، وصلى الجمعة بالقدس ، ورحل الى عين جالوت نحو عكا وعسكر أمامها وأمر باجتماع قواته اليه » .

وعاد ثانية فضغط على عكا وأغارت قواته على المناطق المحيطة بها ، بغية إضعافها اقتصادياً وعسكرياً ، وراسله مقدم الاستبارية

من عكا من أجل الهدنة وفق الشروط التي يفرضها ، وعندما تهيأت الأجواء توجه بيبرس نحو صفد فهي قد كانت هدفه « لأنها الغصة في حلق الشام ، والشجا في صدر الاسلام » (٤٣) .

وقبل البحث في أحداث تحرير صفد نحتاج الى وقفة قصيرة بغية التعرف الى موقع هذه البلدة مع شيء من تاريخها الاسلامي :

تقع صفد في الجليل الأعلى ، وترتفع حوالي ٨٤٠ م عن سطح البحر وتبعد نحو ٢٠٦ كم عن القدس ، وهي ذات موقع استراتيجي هام « كانت أولا تلا ، وكان على التل قرية عامرة تحت برج اليتيم... لم تذكر في شيء من الكتب الموضوعة في التاريخ في صدر الاسلام » وقد سقطت بيد الصليبيين في الحملة الاولى فعمروا قلعتها سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م وسكنها فيما بعد سنة ١١٦٧ م فرسان المعبد (الداوية) وحصنوها وظلت في أيدي الصليبيين حتى حررها « السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد حصار شديد » سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م والت منذ ذلك التاريخ الى السلطات الأيوبية في دمشق الى أن هدمها المسلمون سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م « وبقيت خرابا ، وبلاها في يد من يملك دمشق لا يهتم ببنائها ملك الى أن اعطاها الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل للفرنج فيما اعطاهم من البلاد في سنة ثمان وخمسين وستمئة (١٢٦٠) .

ثم الت ملكيتها الى فرسان الداوية ، فقاموا بتجديدها وتوسيع رقعة حصنها حتى بات يتسع لحوالي ٢٢٠٠ من الفرسان والمقاتلة وقد « شحنتها بالمؤن والعتاد وجلبوا اليها الماء من العيون المجاورة » ، وعظم شأن صفد في هذه الآونة وتحولت الى بلدة كبيرة لها نشاطات وإمكانات تؤهلها لأن تصبح نواة نيابة في المستقبل (٤٤)

وكان الداوية أفراد إحدى أهم منظمات الصليبيين وإخوانياتهم

العسكرية، وكانوا يديرون في هذه الآونة أعمالا اقتصادية ونشاطات مالية واسعة . وعلى قاعدة من ملك المال ملك السلطة ، مارس الداوية نفوذا كبيرا على حكام الفرنجة في الشام ، كما أن تاريخهم مع الاستبشارية في المشرق ملطخ أكثر من سواهم بجميع أنواع الوصمات من كذب وغدر ومذابح بلا رحمة . ولهذا عمد حكام المسلمين إلى اعتبارهم « مجرمي حرب » لا يجوز الإبقاء على أي منهم عندما يؤخذ أسيرا ، وهذا ما طبقه صلاح الدين إثر انتصاره في معركة حطين .

وقرر السلطان الظاهر بيبرس الاستيلاء على صفد فأعد لذلك ما لزم من معدات وبعدها وجه أقسى الضربات لكل من عكا والمناطق القائمة بين طرابلس وصور ، تحرك نحو صفد ، واستنفر قوات الشام ، ويبدو أن حجم الاستعدادات كان واسعا ، وكانت الخطة الموضوعية لمهاجمة صفد محكمة.

الموقع كان في غاية الحصانة والمدافعون عنه كانوا من أشرس المقاتلين الصليبيين وأكثرهم تمرسا وأشداهم صبرا ، وعمل بيبرس على عزل صفد ومنع وصول النجذات إليها ، حيث بعث قطعة من قواته لمشاغلة حصن الشقيف ورصد الطرق والممرات فقد حرص بيبرس على سلامة وصول المعدات والمجانيق والأخشاب من دمشق حرصه على منع النجذات عن صفد .

ويحدثنا ابن عبد الظاهر أن الجمال التي حملت المجانيق أصابها الوهن أثناء توجيهها نحو صفد «فجهز (بيبرس) الأمراء والجند وسائر الناس لحملها على الرقاب من جسر يعقوب ، وهو مرحلة من صفد ، وخرج السلطان بنفسه وخواصه ، وجر أخشاب المجانيق مع البقية» . وبدأ حصار صفد يوم ٨ رمضان ٦٦٤ هـ - ١٣ حزيران ١٢٦٦ م وأشرف بيبرس بنفسه على تجهيز المجانيق ووجه رمياتها . وشدد المسلمون

الحصار على صفد ، وعملوا في سبيل فتح ثغرة في الأسوار ، وانقضى شهر رمضان والقتال مستعر ، وأصاب الهلع الفرنجة وسعوا إلى الاستسلام ، لكن بيبرس تشدد في شروطه وأصر على قتل فرسان الداوية .

كان بيبرس اثناء الحصار في ذروة اليقظة والنشاط وقد ضرب مثلاً أعلى لجنده . كان يتفقد عساكره ويبنل لهم الأرزاق ، ويبني الخيام ، ويحضر الأطباء والجراحين ويطلق الأطعمة والأشربة للجند لاثارة حماسهم و لرفع معنوياتهم . وبعد انقضاء شهر رمضان بدأ السلطان بيبرس زحفاً ضد صفد في اليوم الثاني لعيد الفطر (٢ شوال / ٦ تموز) ولم يثمر هذا الهجوم وأخفق في اختراق دفاعات صفد وبعد مضي أسبوع جدد بيبرس المحاولة ، ومن جديد أخفق . ثم حاول ثلاثة يوم ١٤ - ١٧ ، وألح بيبرس وشدد الهجوم في اليوم التالي ، وسقطت باشمورة القلعة واقتحمت عساكر

بيبرس القلعة ، وهنا أدرك الفرنجة أنه لا فائدة من متابعة المقاومة وعرضوا الاستسلام ، وأصدر بيبرس أوامره « بأن لا يرموا أحداً من الفرنج والنصارى والمستعربة غير الداوية ، فأمسك الفرنج من تلك الساعة عن القتال » . وتابع الداوية المقاومة عدة أيام ثم طلبوا الأمان مجدداً فمنحهم ما طلبوا بعد أن « اشترط عليهم أن لا يستصحبوا سلاحاً ولا لامة حرب ولا شيئاً من الفضيات ولا يؤذوا شيئاً من ذخائر القلعة بنار ولا هدم » .

وتوقف القتال وخرج المدافعون عن صفد ودخلت عساكر بيبرس إليها ، وبعدها تفقدوها وجدوها بدون أموال و ذخائر وأسلحة فردية . وأمر بيبرس بتفتيش الفرنجة فوجد أنهم « أخرجوا معهم الأسلحة والفضيات وأخفوها في قماشهم . وتحدثوا على جماعة من أسرى المسلمين أخذوهم على أنهم نصارى ، كذلك صغار المسلمين

المأسورين عندهم « (٤٥) . واعتبر السلطان ما اقترفه الفرنجة نقضا لشروط الاستسلام يسوغ له الأمر بإعدامهم .

وكان بيبرس ينتظر مثل هذا المسوغ ، فأصدر أوامره بقتل الفرنجة جميعا فيما عدا اثنين منهم ، أولهما أعلن عن اسلامه ، وثانيهما أطلق سراحه ليخبر بني جلدته بما وقع في صفد .

ويبدو أن الذين أعدموا كانوا من الداوية فقط ، ذلك أنه بعدما سقطت باشمورة القلعة أفسح المسلمون السبيل أمام الفرنجة العاديين وسواهم للهرب ، إن لم نقل شجعوهم على ذلك . أضف إلى هذا أن الاسلام عرض على الذين نقضوا الاتفاق ، وواحد فقط هو الذي تحول إلى الاسلام ، ورفض البقية ، مما يدل على أنهم كانوا من الداوية الذين شهروا بشدة التعصب .

وكما حدث في المعارك السالفة كان الحضور الشعبي كبيرا أيضا أثناء حصار صفد ، وقد قتل عدد من المتطوعة ، وهذا يؤكد من جديد أن عمليات التحرير أسهمت الأمة فيها لا عن طريق تحمل نفقات جند الممالك وإعداد الأسلحة وتأمين المؤن ورجالات الإدارة فحسب ، بل عن طريق المقاتلين أيضا . وعلى هذا تحمل شعب فلسطين وأهل الشام القسمة الأكبر من أعباء تحرير الأرض ، وذلك بعدما كانوا قد تمسكوا بالأرض وتحملوا مشاق الاحتلال .

وعين بيبرس واليا لصفد « وأمر بعمارتها والزيادة فيها ، وحمل إليها الذخائر والسلاح » وولى قلعتها واحدا من قادة جيشه وشحنها بعدد من الجند ثم ارتحل مسرعا نحو دمشق (٤٦) لتجريد القوات ضد مملكة أرمينيا الصغرى.

وكان لتحرير صفد أصداء واسعة ، حيث سارع ممثلوا بقية الفرنجة نحو بيبرس يعلنون خضوعهم له ، كما سقطت قلعتا هونين وتبزين ، وقرر بيبرس إعادة ترميم قلعة صفد بعد ما لحقها من تهديم كبير

وذهب بيبرس إلى القاهرة حيث مكث هناك وقتا قصيرا ثم توجه مجددا سنة ٦٦٥ هـ - ١٢٦٧ م نحو بلاد الشام .

وعند وصوله الى غزة وصل اليه رسل الفرنج يحملون الهدايا مع بعض أسرى المسلمين ويطلبون تأكيد اتفاقيات الهدنة . وتوجه بيبرس نحو صفد وهو على نية إعادة بنائها ، لكنه ما أن وصلها حتى أدته الأخبار بتوجه حملة مغولية نحو الشام ، فترك صفد وذهب إلى دمشق ، وفي دمشق عرف بعودة المغول فعاد هو وأدراجة نحو صفد ، وعلى الفور أمر بإعادة حفر خندق القلعة فقسمه « على الأمراء ، وأخذ نصيبا وافرا لنفسه ومماليكه وحاشيته ، وشرع الناس في العمل ، وعمل السلطان بنفسه ويديه ، وكذلك جميع بيوتاته من بابية وغيرهم ، ولم يتوفر أحد من العمل ، ولأزموا نقل الحجارة ورمي التراب ، وتسابق الناس في النجاز ».

لقد تميز بيبرس بقدرات على المناورة السياسية مساوت قدراته العسكرية ونشاطه في الميادين ، فقد وصل إليه وهو على صفد رسل الفرنج « وشاهدوا من أمرها واهتمام السلطان بها ما قطع أكبادهم حشرات ، وتحدثوا مع السلطان في أمر بلادهم » . وبعدما وجه

بيبرس النقد إلى سفراء الفرنجة طالبهم بشروط ومطالب قاسية ، وأبدى عدم اهتمامه لهم ، وأرسل أثناء المفاوضات ، وحدات من جيشه أغارت عدة مرات على عكا ، وتوجه هو نفسه نحو عكا ، وخيم بتل الفضول على مقربة منها ، وبات ليلته هناك ثم أعمل الغارة ضدها في اليوم التالي فقتل وأسر ودمر . ثم عاد نحو صفد ، واستدعى إليه رسل الفرنج فعرض عليهم ما حملة أثناء غارته للضغط عليهم ويبدو أن ذلك لم يؤثر عليهم لذلك أمر بردهم بدون جواب (٤٧) .

وقام بيبرس إثر هذا بالاغارة على عكا ، فحاصرها عدة أيام ، لكنه عندما شعر بتعذر الاستيلاء عليها انسحب نحو صفد فأشرف على إكمال ترميمها « فعمر الباشورة وبنى فيها أبرجة واسواقا وخانات ، وحمامات ، فصارت بما أحدثه فيها من أحصن القلاع وأمنعها ، وأطيب البقاع وأخصبها » .

وكتب بيبرس على قلعة صفد بعدما جدها :

(ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبيادي الصالحون) (الأنبياء : ١٠٥) . (أولئك حزب الله إلا إن حزب الله هم المفلحون) (المجادلة : ٢٢) . أمر بتجديد هذه القلعة وتحصينها وتكملة عمارتها وتحسينها ، من خلاصها من أسر الفرنج الملاحين وردها إلى يد المسلمين ، ونقلها من حوزة الديوية إلى حوزة المؤمنين ، وأعادها إلى الإيمان كما بدأ بها أول مرة ، وجعلها للكفار خسارة وحسرة ، واجتهد وجاهد حتى بدل الكفر بالإيمان والناقوس بالأذان والانجيل بالقرآن ، ووقف بنفسه حتى حمل تراب خنادقها وحجارتها منه بنفسه وبخواصه على الرؤوس . السلطان الملك الظاهر أبو الفتح بيبرس ، فمن صارت إليه هذه القلعة من ملوك الاسلام ، ومن سكنها من المجاهدين ، فليجعل له نصيبا من أجره ، ولا يخله من الترحم في سره وجهره ، فقد صار يقال عمر الله

صرحها ، بعدما كان يقال عجل الله فتحها ، والعاقبة للمتقين إلى يوم الدين .»

وعندما كان السلطان الظاهر بيبرس مقيما في صفد يعمل على إعادة بنائها وصله رسول من عند صاحب يافا يطلب تجديد الهدنة فرفض ، وفي جمادى الآخرة لعام ٦٦٦ هـ - شباط / ١٢٦٨ م وصلت بيبرس الأخبار بعزم المغول الاغارة على حلب ، فاستنفذ قواته وقادها نحو غزة ، وفي الوقت نفسه أمر باستنفار قوات دمشق وسواها وانتظار اوامر جديدة ، وتحرك جيش السلطان نحو دمشق ، وعندما وصل إلى العوجا رفعت تقارير إلى السلطان بأن اهل يافا يحملون الميرة إلى عكا ، وكانت الميرة ممنوعة عن اهل عكا ، واقاموا في يافا حانة ، ووقفوا فيها عدة من المسلمات ، واعتمدوا اسبابا ليست في هدنة ، وقرر بيبرس مهاجمة يافا وتحريرها ، وقبل أن يحرك قواته بعث إليها وفدا يطلب تسليمها إليه ، ثم ما لبث أن قاد قواته وهاجمها على حين غرة ، فتمكن منها ثم زحف ضد قلعتها «فسلمها اهلها» في يوم ٢٠ جمادى الآخرة / ١٢٦٨ م ، وقام بيبرس باجلاء سكانها ثم أمر بهدمها ، واكتفى بإقامة بعض المحارس ونقاط الانذار على الساحل* (٤٨)

كان تحرير يافا آخر إنجازات بيبرس وفتوحاته الكبرى في فلسطين ، لكنه لم يكن بطبيعة الحال آخر أعماله ضد الصليبيين في بلاد الشام ، ولا حتى آخر نشاطاته في فلسطين نفسها ، وقام بيبرس بعد تحريره ليافا بانتزاع حصن الشقيف من فرسان الداوية ، كما حرر أجزاء هامة من سواحل الشام ، وأمكنه تحرير مدينة أنطاكية ، وبذلك أزال من الوجود ثنائي دول الصليبيين تأسيسا في الشرق كما حرر قلعة حصن الاكراد في منطقة حمص.

وجاء تحرير أنطاكية سنة ٦٦٦ هـ - ١٢٦٨ م ، فبعدها هاجم بيبرس طرابلس ثم قلعة الحصن سار إلى حماه وهناك قسم قواته إلى ثلاثة أقسام أرسل الأول منها نحو مملكة كليكيا الأرمنية ،

وارسل القسم الثاني نحو شاطئ البحر المتوسط قرب السويدية ، وقاد بنفسه القسم الثالث نحو أنطاكية ، حيث شدد عليها الحصار بعدما عزلها من جميع الجهات ، وعجز الفرنجة عن الدفاع عن أنطاكية ، وبعد حرب ضروس تمكنت قوات بيبرس من تسليق أسوار المدينة وفتحها ، وإثر هذا استسلمت قلعة أنطاكية ، وتبع تحرير أنطاكية تحرير ما حولها ، وطلب هيثوم ملك أرمينيا الصغرى المهادنة على أساس دفع الجزية ، وبثحرير أنطاكية يكون الشام الشمالي قد تحرر تماما ، وبات على المسلمين تصفية الجيوب الداخلية وتحرير طرابلس و عكا ، وبالفعل تمكن بيبرس بعد وقت قصير من تحرير قلعة الحصن وأخذ يعد العدة لتحرير عكا وطرابلس (٤٩) .

وأولى بيبرس عكا كل اهتمامه فلم يتوقف عن الاغارة عليها ، مع تعريضها للضغط السياسي والاقتصادي . ولعل ما استجد من تحركات مغولية ضد بلاد الشام قد حال دون تركيز طاقات الدولة العسكرية ضد عكا ، أضف إلى ذلك أن المساعدات تدفقت على عكا من قبرص ومن أوروبا التي عاد اليها القديس لويس ونشط فيها في سبيل حملة صليبية جديدة.

وزاد الصليبيون من تحصين عكا لأن سقوطها كان يعني نهاية وجودهم في المشرق وتقدمت الإشارة الى قيام الاتصالات بين المغول وحكام أوروبا وتبادل الرسل والتباحث في سبيل عمل مشترك ضد بلاد الشام (٥٠) .

وكان السلطان بيبرس قد توجه عام ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨ م سرا نحو مكة ففضى فريضة الحج ، ثم عاد الى بلاد الشام فتفقدتها جميعا ثم توجه إلى مصر ، وما كاد يستقر في القاهرة حتى جاءته الأخبار مع حلول عام ٦٦٨ هـ / خريف ١٢٦٩ م بتحريك المغول « وأنهم تواعدوا مع الفرنج الساحلية » الذين شعروا بالقوة إثر وصول بعض النجيدات الأوروبية إليهم . واستشار بيبرس أركان دولته

فأشاروا عليه بتجريد الجيوش نحو الشام والبقاء شخصيا في القاهرة ، لكنه رفض هذا الرأي مقدرا أن وجوده ضروري لأن « اسمه يرد الأعداء المتوثبة من كل جانب ، ويصيبهم بسهام المصائب » .

وسير بيبرس قواته نحو بلاد الشام ، وتحرك هو على رأس قطعة صغيرة من فرسانه ، وكان فرنجة عكا قد وصلتهم نجدة أوربية اشعرتهم بالقوة ، فراسلوا مجددا أبغا بن هولاكو وخرج فرنج الغرب وأهل عكا ، وخيموا بظاهر عكا ، وصاروا يركبون وتعجبهم نفوسهم ، وبلغتهم قلة من وصل مع السلطان الى الشام فتوهموا أنه لا يقصدهم ، وبلغ بيبرس هذا التحرك فراسل قواته في دمشق وصفد وأمر قوات صفد بالانغارة على عكا واستدراج قواتها الى كمين أعده وقاده شخصيا ، ونفذت الخطة بإحكام وأنزل بيبرس ضربة شديدة بالصلبيين . ومن ثم توجه نحو صفد ومنها الى دمشق (٥١) .

وكان القديس لويس قد أقبل في ســـــــــــــــــنة ٦٦٩ هـ - ١٢٧١ م بحملة صليبية جديدة قادها ضد تونس ، وأخفقت هذه الحملة ولاقى الملك الفرنسي مصرعه ، والذي يهمننا ذكره هنا أن بعض الفرنجة وصلوا بسبب هذه الحملة الى عكا ، وهو ما جعل قواتها تغير مواقفها وتجدد نشاطاتها العدوانية ضد المسلمين ولاسيما ضد صفد ، وكان الظاهر بيبرس مشغولا في المناطق الوسطى والشمالية من الشام ، وعندما فرغ من أعماله هناك توجه نحو فلسطين وقصد هذه المرة قلعة القرين التي كانت تقع في تلال الجليل الغربية الى الشمال الشرقي من عكا وعلى مسافة ثلاثين كم منها ، وكان حصن القرين هذا لاسبتار الألمان ولم يكن لهم بالساحل غيره ، وكان من أمنع الحصون وأضرها بصفد ، وكان السلطان نوبة فتوح صفد أغار عليه ، بل غار عليه أن يكون مثله للكفر ... فسار الى صفد ، وجهز منها المنجنيقات وساقها الى القرين ونازله « وشدد عليه الحصار وبعد قتال دام

عشرة أيام عرض المدافعون الاستسلام فتم الاتفاق معهم ، وتسلم بيبرس الحصن وأمر بتدميره(٥٢).

وبعد سقوط القرين عقد بيبرس مفاوضات مع جون مونتفرت صاحب صور انتهت الى عقد هدنة فرض بيبرس شروطها واضطر الى قبولها للتفرغ لعكا وللفرنجة الذين وصلوا اليها في اواخر عام ٦٦٩ هـ - ١٢٧١ م ، فقد اغار هؤلاء على بعض اراضي صفد ونهبوها(٥٣) ذلك ان بيبرس كان قد قصد القاهرة بعد تحريره للقرين .

وازداد في عام ٦٧٠ هـ - ١٢٧٢ م نشاط فرنجة عكا ضد ممتلكات صفد كما عظم نشاط المغول في المناطق الشمالية من بلاد الشام وتم ذلك بتنسيق بين الطرفين . وتحرك بيبرس باتجاه حلب ، واستطاعت قوات قاقون رد الفرنجة ودفعتهم عنها ، وبعدما عاد بيبرس الى دمشق ، خرج منها :

« واستصحب العساكر المصرية والشامية بغية الغارة على عكا ، فتوالت امطار كثيرة ... وكاد الناس يهلكون لعدم ما يستظلون به ، فانثنى عزمه عن الاغارة ، ورد العسكر الشامي ، وسار الى الديار المصرية » (٥٤) .

وفي القاهرة استقبل بيبرس رسل فرنجة عكا وتفاوض معهم وتم التوصل الى عقد هدنة مدتها عشر سنوات وعشرة اشهر تبدأ من ٢١ رمضان ٦٧٠ هـ - ٢٢ اذار ١٢٧٢ م ، وحلف كل طرف متعهدا بالالتزام والوفاء(٥٥) .

ويبدو ان بيبرس قبل بعقد هذه الهدنة لادراكه ان عكا لا يمكن الاستيلاء عليها والدولة مهددة من المغول والمواصلات مفتوحة بدون توقف بين عكا وقبرص وأوروبا . وهو لا يملك قوة بحرية يمكنها مساعدة القوات البرية في حصار عكا . ويبدو ان فرنجة عكا رضوا بعقد الهدنة لشراء سلامتهم سيما وقد برهن تحالفهم مع المغول على عدم جدواه .

بهذا الاتفاق ختم الظاهر بيبرس نشاطه العسكري ضد الفرنجة في فلسطين . ولا شك ان ما أنجزه كان عظيما ، وليس من المغالاة القول إن بيبرس استأنف مسيرة صلاح الدين ، وإن أعماله كانت متممة لما شرع به صلاح الدين بعد حطين وتوقف بسبب الحملة الصليبية الثالثة ووفاته المبكرة ، ويأتي الظاهر بيبرس بما حققه من نجاحات عظمت في المرتبة نفسها التي احتلها : عماد الدين زنكي ، ونور الدين محمود ، وصلاح الدين الأيوبي ، ذلك أن زنكي قاد أعمال التحرير الأولى في مرحلة الموصل ، ونور الدين محمود قاد أعمال التحرير والوحدة في مرحلة حلب ، وصلاح الدين قاد مرحلة دمشق وحقق النصر في حطين ، وبيبرس الآن قاد مرحلة القاهرة وأعمال تصفية الوجود الصليبي في فلسطين والشام .

وتوفي بيبرس سنة ٦٧٦ هـ — ١٢٧٧ م وهو في ذروة نشاطه ، ولعله سقى السم . وقد دفن في دمشق ليس بعيدا عن قبر صلاح الدين ، ذلك أن أبطال المراحل الأربع قد دفنوا في أرض الشام وحظي بيبرس بمكانة لدى أهل الشام ومصر لم يحظ بها سواه من سلاطين المماليك ، الى حد أن أخباره تحولت الى ملاحم شعبية امتزجت فيها حقائق التاريخ بالخيال القصصي الملحمي ، فهناك أكثر من ملحمة متداولة تحت اسم السيرة الظاهرية أو سيرة الملك الظاهر ، وتصور هذه الملاحم مشاعر شعب تعلق دوما بالأرض في عصر شهد أعظم الأعمال في سبيل التحرير ولاعجب في ذلك ، صحيح أن بيبرس قاد رسميا قوات المماليك المحترفة لكن حجم المتطوعة في حملاته لم يكن أقل عددا ولادورا من المماليك مع الأخذ بعين الاعتبار . ان الشعب العربي في الشام ومصر هو الذي تحمل أوزار الحرب ونفقاتها وصنع السلاح والعتاد وبنى القلاع وقدم الإداريين وسواهم .

وكان بيبرس قد خطط قبل وفاته الى انتقال الملك من بعده الى ابنه الملك السعيد بركة ، وهذا ما حدث ، فما ان وصلت الأخبار الى القاهرة حتى جرتبيعة بركة بالسلطنة ، وكان شابا في مقتبل العمر

ساعات اعتبارا من يوم ٢٧ ربيع
الأول ٦٨٠ هـ - ٥ تموز ١٢٨١ م .

واستمرت حالة الهدنة مسع طرابلس حتى
سنة ٦٨٧ هـ - ١٢٨٨ م ففي نهاية هذه السنة نقض فرنجة
طرابلس شروط الهدنة حيث أقدموا على نهب مجموعة من التجار
المسلمين وأسروا عددا منهم ، وحين وقع هذا كانت أوضاع
السلطنة مستقرة وجيوشها جاهزة ، لذلك ما أن بلغ السلطان خبر
ما حدث حتى زحف نحو طرابلس على رأس قوات الشام
ومصر ، ونزل عليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذها عنوة
في ٤ ربيع الآخر ٦٨٨ هـ - ٢٤ نيسان ١٢٨٩ م .

وبتحرير طرابلس زالت فعليا المملكة الرابعة التي أسسها
الفرنجة في المشرق ، وبهذا أكمل قلاوون ما قام به رفيقه بالسلح من
قبله السلطان بيبرس ، ولم يبق الآن للصليبيين سوى عكا ، وكان
لابد من انتظار الفرصة المناسبة للزحف ضدها وتحريرها (٥٧) .

هذا ويلاحظ أن الهدنة - التي ذكرناها أعلاه - التي عقدت مع
استبارية عكا ، شملت أفراد هذه المنظمة فقط ولم تشمل بقية قوى
الصليبيين ومؤسساتهم في عكا ، وبناء عليه جرت مفاوضات بين
السلطنة المملوكية وبين الداوية انتهت بعقد اتفاقية هدنة مماثلة
بين « السلطان الملك المنصور وولده الملك الصالح علاء الدين والدين
علي وبين المقدم افرير كويوم ديباجوك مقدم بيت الداوية بعكا
والساحل وبين جميع الأخوة الداوية... لمدة عشر سنين كوامل
متواليات ومتتابعات وعشرة شهور ، أول ذلك يوم الأربعاء خامس
المحرم سنة احدى وثمانين وستمئة للهجرة النبوية
المحمدية ، ١٥ نيسان ١٢٨٢ م (٥٨) .

لقد كانت قوى أوروبا ممثلة في عكا ، وبعدها عقد الداوية
والاستبارية الهدنة مع السلطنة بات من الضروري عقد هدنة جماعية

باسم عكا بما في ذلك المنظمات التي كانت فيها ، وبالفعل توجه وفد الى القاهرة مثل قوى عكا الصليبية ومنها الداوية والاسبتارية ، وبعد مفاوضات تم التوصل الى عقد هدنة بين « السلطان الملك المنصور وولده السلطان الملك الصالح علاء الدنيا والدين علي ... وبين الحكام بمملكة عكا وصيدا وعتليت وبيلاها » وأبصر الاتفاق في ٥ ربيع الاول ٦٨٢ هـ - ٢ حزيران ١٢٨٢ م ، وكانت أهم بنوده :

- ١- مدة الهدنة عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام .
- ٢- منح التجار من رعايا السلطان الأمن وحرية العمل التجاري في عكا والبلاد الساحلية .
- ٣- توقف الفرنجة عن الاعتداء على أراضي دولة السلطان .
- ٤- لا يجدد الفرنجة في عكا وعتليت وصيدا حصنا ولا سورا .
- ٥- تبادل الرعايا الفارين ضمن شروط محددة .
- ٦- حرية الملاحة وتقديم العون للسفن الجانحة والمحافظة على محتويات السفن لتسليمها الى أصحابها أو من يلون بهم .
- ٧- يتولى فرنجة عكا إنذار السلطان وإعلامه بأي تحرك أوروبي مضاد له وكذلك بالنسبة لتحركات المغول .
- ٨- يضمن السلطان حماية عكا وعتليت من أعمال القرصنة .
- ٩- السماح للحجاج الأوروبيين بالوصول الى الأماكن المقدسة وضمان أمنهم وسلامتهم وحرية تعبدهم (٥٩) .

ويبدو أن اوضاع السلطنة الداخلية وتعاضم الخطر المغولي واشتداده هي التي أجبرت السلطان قلاوون على توقيع هذه المعاهدة وغيرها ، فقد أغار المغول على الشام ووصلت قواتهم قرب حمص سنة ٦٨٠ هـ - ١٢٨١ م (٦٠) .

كما أن قلاوون قد واجه في تلك الآونة حركة تمرد خطيرة ضده في دمشق قادها سنقر الأشقر واستمرت أعمال التآمر ضده دونما توقف (٦١) .

لقد غدت عكا تحت رحمة السلطان قلاوون ، كما أنه كان إسقوط طرابلس أهداء واسعة في أوروبا ، وسعت البابوية الى إثارة حملة صليبية جديدة ، لكن جهودها لم تثمر الا قليلا .

وكانت عكا قد استولى عليها سنة ٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م هنري الثاني ملك قبرص (١٢) وتوج بها ملكا ، وتجددت الاتصالات المغولية الصليبية ، وبذلت الجهود للقيام بعمل صليبي مغولي مشترك (١٣) واثمرت هذه الجهود كلها باستجابة بعض « رعاع الفلاحين والمتعطلين من سكان المدن الصغيرة » في شمالي ايطاليا ، وقدم هؤلاء الى عكا تحت قيادة اسقف طرابلس سابقا .

وكان الملك هنري الثاني جدد الهدنة مع السلطان قلاوون وبعث هذا كله بعض الأمل في عكا ، لكنه لم يتعد الشكل السرابي ، وكان إسقوط طرابلس وقنوم النجيدات من أوروبا واستمرار النجيدات من قبرص قد زاد من حجم سكان مدينة عكا ، وبالتالي رفع من قدرتها العسكرية .

« واجتمع داخل أسوار عكا طوائف تمثل مختلف الأمم المسيحية ، وعاشت كل طائفة منعزلة عن الأخرى في حي خاص بها ، وأخذ كل واحد من قادة المناطق في الشام ومقدمي الاخوانيات العسكرية الكبرى وممثلي ملوك فرنسا وانكلترا والقدس ، يمارس سلطات مستقلة ، وعلى هذا كان في عكا سبع عشرة سلطة مستقلة ، الأمر الذي نجم عنه فوضى كبيرة » .

ولذلك لاغرابة أن المدينة غدت بؤرة فساد وشروا ونحطاط خلقي واضطراب مستمر ، ورخاء مادي كبير وأرباح تجارية خيالية ، فمقر الداوية لم يعد ديرا للفرسان ولتقديم الخدمات بل مستودعا للأموال والنخائر وبنكا للاقراض بنسب فائدة عالية جدا .

وقام القادمون الجدد من الايطاليين بإثارة المزيد من الفوضى والاخلال بالأمن وأخذوا يسلبون وينهبون التجار والباعة من المسلمين ، وكان هنالك صراع مرير بين البيوتات التجارية التابعة لجنوا والبندقية وسواهما .

وفي صيف سنة ٦٨٩ هـ - ١٢٩٠ م انفجرت أعمال العنف في عكا ، ووجهت هذه الأعمال ضد المسلمين داخل المدينة وخارجها ، وقد ذبح الصليبيون كل مسلم صادفوه ونهبوا مساكن معه من مال وبضائع (١٤) .

ووصلت أخبار المذبحة هذه الى السلطان قلاوون فاشتعل غضبا ، واعتبر ان الفرنجة عكا قد خرقتوا اتفاق الهدنة ، وأنه يملك جميع المسوغات لاعتبار الهدنة ملغاة ، وسارع قلاوون فأرسل تجريدة من قواته نحو منطقة عكا لاستطلاع خبر ما حدث ، ولتثبيت الوجود المملوكي في المنطقة ، وفي الوقت نفسه أصدر أوامره بحشد جميع القوات في الشام ومصر ، وجرى فرض الضرائب على قرى غوطة دمشق وبعليك في سبيل تحصيل الكميات اللازمة من الأخشاب لصنع المجانيق والأبراج المتحركة وغيرها من أدوات الحصار .

وتناوشت تجريدة قلاوون مع قوات عكا ، وسارعت سلطات عكا الى مراسلة السلطان وتقديم الاعتذار له ، ثم أعقب ذلك وصول رسله الى عكا حيث طالبوا بإصرار على تسليمهم الذين تولوا أعمال القتل والمذابح ، وبعد طول مناقشات لم يستجب لمطلب السلطان فحسب ، بل حاول المسؤولون في عكا اقناع رسله بأن بعض تجار المسلمين هم الذين فجروا الفتنة .

وملك قلاوون الآن جميع المسوغات للاحتكام الى السلاح ، وهكذا زحف على رأس قواته يريد عكا وصدرت الأوامر الى قوات الشام للاجتماع مع قوات السلطان قرب قيسارية .

وكان قلاوون قبل مغادرته القاهرة مريضا ، لكن مرضه لم يثنه

عن مقصده غير أنه ما أن غادر القاهرة حتى اشتد به المرض فتوفي ، وكان ذلك يوم ٦ ذي القعدة ٦٨٩ هـ - ١٠ تشرين الثاني ١٢٩٠ م (٦٥) .

وتنفس أهل عكا الصعداء وخيل اليهم أنهم نجوا وكتببت سلامتهم ، لكن لبعض الوقت ، فعلي بن قلاوون ، وولي عهده ، كان قد توفي من قبل ، وعزم قلاوون على تسمية ابنه خليل وليا لعهده لكنه تراجع ، وتوهم الصليبيون أن صراعا سيدشب على السلطة كما جرت العادة ، وبالفعل جرى شيء من هذا القبيل ، لكن خليل بن قلاوون برهن على قدرات واسعة وطاقت كبيرة ، واستطاع الأشرف خليل السيطرة على الأوضاع وتثبيت قدميه بالسلطة ، والتفت على الفور نحو عكا عازما على متابعة ماشرع به والده قبله .

وأرسلت سلطات عكا رسلا الى الأشرف خليل لتهنئته بإرتقائه عرش السلطنة ، وللاعتذار له عما حدث في عكا مع طلب تجديد الهدنة ، لكن الأشرف لم يستمع لما جاء به الرسل وألقى بهم في السجن فكان آخر العهد بهم ، وعبر بذلك عن تصميمه على قصد عكا بجيوشه .

لقد حشد الأشرف قواتا عملاقة ، وأعد الأسلحة والمعدات ولاسيما المجانيق ، وأبراج الحصار ، وتحركت القوات نحو عكا في ربيع الأول ٦٩٠ هـ - أذار ١٢٩١ م ، وكان المؤرخ المشهور أبو الفداء بين أفراد القوات التي تحركت من حماة نحو عكا ، ويحدثنا عن زحف القوات وعما عانته أثناء ذلك بقوله :

« وتسلمنا منه (حصن الأكراد) منجنيقا عظيما يسمى المنصوري حمل مئة عجلة ، ففرقت في العسكر الحموي ، وكان المسلم منه الي عجلة واحدة لأنني كنت اذ ذاك أمير عشيرة ، وكان مسيرنا بالعجل في أواخر فصل الشتاء ، فاتفق وقوع الأمطار والثلوج علينا بين حصن الأكراد ودمشق ، فقاسينا من ذلك بسبب

جر العجل وضعف البقر وموتها بسبب البرد شدة عظيمة ، وسرنا بسبب العجل من حصن الاكراد الى عكا شهرا وذلك مسير نحو ثمانية ايام للخيول على العادة ، وكذلك امر السلطان الملك الأشرف بجر المجانيق الكبار والصغار مالم يجتمع على غيرها .

وكان تعداد القوات التي تجمعت امام عكا كبيرا « معها اثنان وتسعون منجنيقا » من مختلف الانواع والأحجام ، وبعدما اكتمل تجمع القوات وتجهيز المعدات صدر صباح الجمعة ١٧ جمادى الأولى ٦٩٠ هـ - ١٨ ايار ١٢٩١ م الأمر بالهجوم بوساطة قرع كمية هائلة من الطبول وأدوات موسيقى الحرب رتبت على ظهور ثلاثمائة جمل . وفي داخل عكا كان الصليبيون قد اعدوا العدة للدفاع ، ولنتذكر هنا ان المدينة حوصرت من جانب البر فقط وبقيت غير مهددة من الجانبين البحريين وكانت النجدة والمؤن والمعدات تصلها بلا انقطاع من قبرص وسواها ، ولهذا « لم يغلق الفرنج غالب أبوابها (عكا) بل كانت مفتحة وهم يقاتلون فيها » .

واشتد الحصار ونشط المسلمون في قصف أسوار المدينة وفي فتح الثغرات فيها ونقب الأبراج ، وقاوم الفرنجة ، وقام فرسانهم بأكثر من هجوم ليلي على معسكر المسلمين ، ويحدثنا أبو الفداء عن المقاومة بقوله :

« فكنا على جانب البحر ، والبحر عن يميننا اذا واجهنا عكا ، وكان يحضر اليها مراكب مقببة بالخشب المليس جلود الجواميس ، وكانوا يرموننا بالذخاب والجروح ، وكان القتال من قدامنا من جهة المدينة ومن جهة يميننا من البحر وأحضروا بطسة (مركبا) فيها منجنيق يرمي علينا وعلى خيمننا من جهة البحر ، فكنا منه في شدة » .

ونجح المسلمون بعد حصار استمر قرابة الشهر ونصف الشهر في خرق الأسوار ودكها وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة :
« ولما هجمها المسلمون هرب جماعة من أهلها في المراكب ، وكان

في داخل البلد عدة أبرجة عاصية بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها .

ودار قتال عنيف داخل طرقات عكا ، وتسابق الفرنجة نحو ميناء المدينة وتزاحموا على الأرصفة ، ويبدو أن عدد المراكب لم يكن كافيا ، وقاتل فرسان الداوية دفاعا عن حصنهم في المدينة ، وقبل أن يسقط حصنهم :

« تمكن أحد عشر واحدا منهم من الهرب من بساب سري ، وصعدوا إلى ظهر مركب كان بانتظارهم وحملوا معهم جميع الثروات التي جمعوها في الشرق خلال قرنين من الزمن » (٦٦) .

وبعدما صفت عكا للمسلمين أمر السلطان الأشرف خليل بتدميرها حسب القاعدة التي كان السلطان الظاهر بيبرس طبقها ، وما إن وصلت أخبار تحرير عكا إلى المناطق الساحلية التي كانت ماتزال بأيدي الفرنجة مثل عتليت وصيدا وبيروت « حتى ألقى الله الرعب » في قلوب أهلها فأخلوها وهربوا .



بذلك طويت ملحمة الحروب الصليبية ، وهي بلاشك من أعظم ملاحم التاريخ وأطولها ، استمرت وقائعها مدة تقارب القرنين من الزمن واشتركت فيها أوروبا كلها بشعوبها وطاقتها .

ولوقائع هذه الحروب دروس وعبر ونتائج خطيرة على المشرق العربي وأوروبا سواء من الجوانب السياسية والاقتصادية والحضارية والعسكرية كافة . ولاشك أن أهم دروس وعبر هذه الملحمة هو : أن العرب تحل بهم الهزيمة عندما تكون صفوفهم ممزقة وقواهم مبعثرة ، ولا يمكن لشمل العرب أن يجتمع إلا بالوحدة . وبعدما طرد الصليبيون من المشرق ، وقبل أن يزول

الخطر المغولي انتاب الضعف دولة المماليك وأخذت تتخبط بأزمات وصراعات مدمرة ، ومنذ ذلك الحين شرعت قوة العرب بالشرق بالضعف وحضارتهم بالتدهور السريع والجمود المقيت ، بينما بعثت في أوروبا التي خسرت الحروب الصليبية حضارة سببت لها القوة وقادتها من جديد نحو ديار العروبة والإسلام .

ويتساءل الباحث عن أسباب انحطاط العرب مع أنهم حازوا النصر ، وبعث أوروبا مع أنها كانت المهزومة ؟ ولعل من بين أسباب ذلك أن أوروبا الاقطاعية الشديدة التمسك بالكاثوليكية حين خسرت الحرب كانت تلك الخسارة ضربة مميتة للنظام الاقطاعي والكنيسة معاني أوروبا الغربية ، وفي المقابل نجد أن الحروب الصليبية التي طال أمدها قد مكنت في البداية القادة العسكريين الغرباء في الشرق المسلم من تسلم زمام الأمور ، وساعدت على التعصب الديني ، وعلى حلول الغيبيات محل العقل ، وخلقت إلى جانب الاقطاع العسكري اقطاعا دينيا كان جديدا كل الجدة في تاريخ الإسلام ، ومع الأيام زادت صلاحيات الجند على حساب المؤسسات المدنية ، وترسخت قواعد أنظمة للكهنة الاقطاعي في الإسلام .

وعندما توقفت الحرب أصبح الجند المماليك عالة على الأمة ، ثم إن الشعور بالنصر والسلام والأمان بعد عهود طويلة من الحروب والدمار ، مع سيطرة التصوف وجبروت شيوخ الطرق ، ومع زوال عوامل التحدي دفع العرب نحو الاخلاص إلى الراحة والسكينة ، وإلى قبول نوع جديد من التمزق السياسي ، أضف إلى هذا بما أن الأمة وجهت أيام الحروب معظم طاقاتها ، ورصدت كافة إمكاناتها المادية والعقلية للمعركة ، ولوجود حالة استثناء (طوارئ) بشكل دائم ، عطل هذا مع الأيام الكثير من جوانب التجديد في الحياة والحضارة ، وولد الأوهام والتسليم لشطحات الصوفية ، ومعروف أن حالة الاستثناء تلغي دور العقل لأنها تعطل الحرية ، ويولد هذا بالتالي التعصب الأعمى والتزمت والجهل والاحتكار والامية .

إن تعطيل الحريات وإهمال الحضارة والثقافة والتعصب الأعمى كان وما زال الداء العضال وافة العرب العظمى ، ومعلوم أن العرب لم يتمكنوا قط من صنع حضارة وثقافة وهم مستعبدون ممزقون ، لكنهم كلما اتحدوا ، وملكوا استخدام العقل بكل اتزان وحرية وبسامحوا بمنطق متفتح ، صنعوا كل شيء مفيد ، ففي الوحدة الهادفة الواعية كمن - ولا يزال يمكن - سر نهوض العرب والمسلمين ، لأن الله مع الجماعة .

الحواشي والهوامش

الباب الثاني

الفصل الأول

- ١ - تاريخ حلب للعظيمي - ط . دمشق ١٩٨٤ ص ٣٥٦ .
- ٢ - الحرب الصليبية الأولى لدسن حبشي - ط . القاهرة ١٩٤٧ ص ٢١ - ٢٢ .
- ٣ - أوروبا العصور الوسطى لسعيد عبد الفتاح عاشور - ط . القاهرة ١٩٦٦ .
- ص ٣٥٦ - ٣٦ ، ٩١٦ . باهوات من الحي اليهودي - ترجمة عربية - ط . دمشق ١٩٨٣ ص ٢٠٩ - ٢٤٠ .
- ٤ - أعمال الفرنجة ، ٨٢ ، ٨٥ - ٨٦ ، ٩٢ - ٩٦ ، ابن القلانسي ، ١٣٣ - ١٣٦ ، العظيمي ، ١٩١ و - ط ، الكامل ، ط ، القاهرة ، ٨ / ١٨٦ - ١٨٧ ، زبدة الحلب ، ٢ / ١٢٩ - ١٣٨ ، بغية الطلب ، أحمد الثالث ، ٦ / ٨٩ ط - ٩٠ و ، الحركة الصليبية ، للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٣ ، ١ / ٢٠٠ - ٢١٨ ،
- ٥ - سنتعرف إلى هؤلاء بالتفاصيل الواقية في الجزء التالي .
- ٦ - سنقدم بعد قليل عرضاً موجزاً حول تاريخ الدولة البورية في دمشق .
- ٧ - ابن القلانسي ص ٢١٤ .
- ٨ - ابن القلانسي ص ٢١٤ .
- ٩ - ابن القلانسي ص ٢١٤ ، ٢٢٣ ، ترجمتا دقاق وطفتكين من تاريخ ابن عساكر - زكار مدخل ص ٢٨٦ ، ٤٠٨ .
- ١٠ - ابن القلانسي ص ٢٣٤ .
- ١١ - ابن القلانسي ص ٢٣٥ .
- ١٢ - ابن القلانسي ص ٢٣٥ . انظر أيضاً مرآة الزمان : سنة ٤٩٨ هـ .
- ١٣ - ابن القلانسي ص ٢٤٠ . الكامل - ط . القاهرة - ٨٠ ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- ١٤ - ابن القلانسي ص ٢٤١ - ٢٤٤ ، ٢٥٠ - ٢٦٣ . الكامل - ط . القاهرة - ٨٠ ص ٢١١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ، ٢٥٠ - ٢٥١ ، ٢٥٦ ، ٢٥٨ - ٢٥٩ . سبط ابن الجوزي يوسف ابن قزاوغي - مرآة الزمان في تاريخ الأعيان - ط . حيدرآباد الدكن ١٩٥١ ج ١ ص ٢٥ ، ٢٧ - ٢٨ .
- ١٥ - ابن القلانسي ص ٢٦٣ - ٢٦٤ .
- ١٦ - انظر وصف عملية اغتيال مودود لدى ابن القلانسي ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ، وفي نصروصنا المقبلة مع رأي وإيم الصدوري ص ٥٥٠ .
- ١٧ - ابن القلانسي ص ٣٠٦ - ٣١٣ ، حيث أثبت نسخة كاملة لهذا المذخور .
- ١٨ - ابن القلانسي ص ٢٤٢ - ٢٤٣ ، ٣٤٧ - ٣٤٨ ، الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ ص ٣٢٦ - ٣٢٧ .

- مرآة الزمان - ط . حيدر آباد ج ١ من ١١٨ ، ١٢٧ ، ١٢٨ .
- ١٩ - ابن القلاسي من ٢٥٠ - ٢٧١ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ من ٣٢٧ - ٣٣٧ .
- مرآة الزمان - ط . حيدر آباد - ج ١ من ١٢٧ - ١٤٣ . ولیم الصوري ج ٢ من ٦٤٥ - ٦٤٧ .
- ٢٠ - ابن القلاسي من ٣٧٢ - ٣٨٩ . الكامل - ط . القاهرة . - ج ٨ من ٢٣٩ - ٢٤٦ .
- مرآة الزمان - ط . حيدر آباد - ج ١ من ١٤٥ - ١٥٣ .
- ٢١ - ابن القلاسي من ٣٩٠ - ٣٩٢ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ من ٢٤٦ . مرآة الزمان - ط . حيدر آباد - ج ١ من ١٥٣ - ١٥٤ .
- ٢٢ - ابن القلاسي من ٢٩٧ ، ٤١٣ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ من ٣٥٩ ، ٣٦٤ .
- ٢٣ - ابن القلاسي من ٤١٨ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٨ من ٣٦٤ .
- مرآة الزمان - ط . حيدر آباد - ج ١ من ١٧١ - ١٧٢ .
- ٢٤ - ابن القلاسي من ٤٢٤ - ٤٢٧ . الكامل - ط . القاهرة . ج ٨ من ٣٦٤ - ٣٦٥ .
- ٣٦٧ - ٣٦٨ . مرآة الزمان - ط . حيدر آباد - ج ١ من ١٧١ - ١٧٢ . ولیم الصوري ج ٢ من ٧٠٥ - ٧٠٧ .
- ٢٥ - ابن القلاسي من ٤٥٠ - ٤٥٣ . ولیم الصوري ج ٢ من ٧٤٢ - ٧٥٢ .
- ٢٦ - ابن القلاسي من ٤٦٣ .
- ٢٧ - ابن القلاسي من ٤٦٣ - ٤٦٦ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٩ من ٢٠ - ٢١ .
- مرآة الزمان - ط . حيدر آباد ج ١ من ١٩٧ - ٢٠٠ . ولیم الصوري ج ٢ من ٧٧٨ - ٧٨٧ .
- ٢٨ - ابن القلاسي من ٤٧٥ - ٤٧٦ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٩ من ٢٦ - مرآة الزمان - ط . حيدر آباد ج ١ من ٢٠١ - ٢٠٣ .
- ٢٩ - ابن القلاسي من ٤٩١ .
- ٣٠ - ابن القلاسي من ٥٠٤ . الكامل - ط . القاهرة - ج ٩ من ٤٥ - ٤٦ . مرآة الزمان - ط . حيدر آباد ج ١ من ٢٢٠ - ٢٢٣ . ولیم الصوري ج ٢ من ٨١٤ - ٥١٥ .
- ٣١ - ولیم الصوري ج ٢ من ٨١٥ .

الفصل الثاني

- ١ - الباهر لابن الأثير : ١٦ - ٣٥ .
- ٢ - الباهر : ٣٥ .. الكامل لابن الأثير : ٨ / ٣٢٥ - ٣٢٦ .
- ٣ - الباهر : ٣٥ - ٢٨ .
- ٤ - الكامل لابن الأثير ٩ / ٨ - ٩ : الباهر : ٦٦ - ٧١ .
- ٥ - أوسع التفاصيل حول هذه الحملة متوفرة في نصوص موسوعتنا .
- ٦ - لدينا تفاصيل شاهد عيان لاستعانة الرها في رواية السرياني المجهول فلتتظر ضمن النصوص السريانية من موسوعتنا .
- ٧ - وليم الصوري ج ٢ ص ٧٧٩ - ٧٨٧ . ابن القلازي : ٤٦٢ - ٤٦٥ . الروضتين لأبي شامة ج ١ ص ٥١ - ٥٣ .
- ٨ - وليم الصوري ج ٢ ص ٨١٥ . ابن القلازي : ٥٠٢ - ٥٠٥ . مفرج الكروبي ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٨ . الباهر ١٠٧ - ١٠٨ .
- ٩ - الباهر : ١٠٧ .
- ١٠ - ابن القلازي : ٥٢١ - ٥٣٦ . وليم الصوري : ٨٤٥ - ٨٥٨ . الروضتين ج ١ ص ١٢٠ - ١٢١ .
- ١١ - جلب صلاح الدين هذا المنبر إلى القدس بعد تحريرها وظل مسجوناً في المسجد الأقصى حتى إحراقه مع قسم من هذا المسجد إثر حرب ١٩٦٧ .
- ١٢ - الكامل : ١١ / ١٢٨ ، الباهر : ١١٩ - ١٢٠ ، الروضتين ١ / ٨٥ - ٨٨ / ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، المحاسن اليوسفية : ٦٠ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٠ - ٤٢ ، زينة الحلب : ٢ / ٢٥٥ .
- ١٣ - الروضتين : ١ / ١٠٠ .
- ١٤ - لقد عالجت هذه القضايا بشكل مفصل في كتيبي التالية : منخل إلى تاريخ الحروب الصليبية . الدعوة الاسماعيلية الجديدة الجامع في أخبار القرامطة - تاريخ العرب والاسلام . فلتتظر .
- ١٥ - النوادر السلطانية : ٣٦ ، سنا البرق الشامي : ٦٠ - ٦١ ، الباهر : ١٢٢ ، الروضتين : ١ / ٢٢٩ - ١٣٢ ، شفاء القلوب : ٢٥ - ٤٦ ، نور الدين مؤنس : ٢٨٩ - ٢٩٧ .
- ١٦ - الروضتين : ١ / ١٤٢ - ١٤٥ ، النوادر السلطانية : ٣٧ - ٣٩ ، سنا البرق الشامي : ١ / ٦٢ - ٦٥ ، مرآة الزمان : ١ / ٣٦٨ - ٣٧٠ ، الباهر : ١٣٢ - ١٣٤ ، شفاء القلوب : ٢٨ - ٣١ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٣ ، مؤنس : ٢٩٧ - ٣٠٤ .
- ١٨ - سنا البرق الشامي : ٧٧ - ١١٥ ، النوادر السلطانية : ٤١ - ٤٥ ، الروضتين : ١ / ١٧٨ - ٢٠٣ ، الباهر : ١٤٣ - ١٥٩ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٧٩ - ٢٩٥ ، النجوم الزاهرة : ١٦ / ٢٤ .
- ١٩ - الروضتين : ١ / ١٥٩ ، الباهر : ١٥٦ - ١٥٨ ، خطط المقريزي : ١ / ٨٦ - ٨٧ ، السلوك : ١ / ١ / ٧٥ ، دراسات في حضارة الاسلام لجب : ٩٧ - ١٠٣ .
- ٢٠ - الباهر : ١٥٨ - ١٦٢ ، الروضتين : ١ / ٢٠٦ - ٢٣١ ، سنا البرق الشامي : ١٢٣ / ١٥٥ ، النوادر السلطانية : ٤٥ - ٤٧ ، مرآة الزمان : ١ / ٢٩٢ - ٣٢٥ ، النجوم

- ١٣٨٦ -

الزاهرة : ٦ / ٦٤ - ٧١ ، السلوك : ١ / ١ / ٤٨ - ٥٥ ، نور الدين : ٣٤١ - ٣٥٧ ، جيب :
١٠٠ - ١٠٢ .
٢١ - انظر كتابي امارة حلب - ط دمشق ، دار الكتاب العربي ص ٣٤ - ٤٢ ،
٩٦ - ١٠٢ -

الفصل الرابع

- ١ - ولیم الصوري - الأعمال المنجزة : ج ٢ ، ص ٣٧٥ .
ابن شداد - المحاسن الهوسفية : ص ٤٩ - ٥٥ .
- أبو شامة - الروضتين : ج ٢ ، ص ٧٥ - ٨١ .
- العماد محمد بن محمد الاصفهاني ، الفتح الاسي في الفتح القدسي ، ط القاهرة
ص ٣٦ - ٥٠ .
- مجير الدين العليمي الحنبلي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ط . عمان ١٩٧٣ ،
ج ١ ، ص ٣١١ - ٣٢١ .
- الحنبلي ، شفاء القلوب : ص ١٢٨ - ١٣٠ .
ابن العديم : زينة الحلب ، ج ٣ ، ص ٨٢٩ - ٨٤٦ .
- سبط ابن الجوزي - المرة : ج ١ ، ص ٣٨٩ - ٤٠٢ .
- اسماعيل بن عمر بن كثير - البداية والنهاية . ط . القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٣ ، ج ١٢ ،
ص ٣٢٢ - ٣٢٧ .
٢ - ابن شداد - المحاسن ص ١٧٤ - ٢٤٨ .
- العماد الاصفهاني ، الفتح ، ص ٥٢٨ - ٦٢٧ .
ابو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ١٩٠ - ٢١٣ .
٣ - العماد الاصفهاني ، المصدر نفسه ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ .
- ابن واصل ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .
- أبو شامة ، المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ .
٤ - ابن واصل ، مفرح ، ج ٢ ص ٣٧ - ٦١ .
- أبو شامة ، الروضتين ، ج ٢ ، ص ٢٢٩ - ٢٣١ .
المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ١١٧ - ١٤١ .
- اسماعيل بن علي أبو الفداء صاحب حماء ، المختصر في أخبار البشر دار المعرفة ، ج ٣ ،
ص ٦٦ - ١٠٠ .
- يوسف بن تفرج بردي ، النجوم الزاهرة في معرفة ملوك مصر والقاهرة ط . القاهرة
١٩٢٩ - ١٩٣٦ ، ج ٦ ، ص ١١٦ - ١٢٢ .
٥ - أبو الفداء ، المختصر ، ج ٣ ، ص ١٢٧ - ١٧٥ .
- المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣٨ - ٢٤١ ، ٣٠٥ - ٣١٥ .
- أبو المحاسن ، النجوم ، ج ٦ ، ص ٢٣٣ ، ٣٢٢ .
- أبو شامة ، نيل الروضتين ، ج ١ ، ص ١٧٤ - ١٧٨ .
٦ - ابن واصل ، مفرح ، ج ٤ ، ص ٢٤١ - ٢٥٣ .
- المقرئزي ، السلوك ، ج ١ ، ص ٢٦٨ - ٢٧٥ ، ٣٣٩ - ٣٦٠ .
- محمد بن علي بن نظيف الحموي ، التاريخ المنصوري ، ط . دمشق ، ١٩٨٢ ،
ص ١٧٦ - ١٩٤ .
- احمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى ، ط . بيروت ١٩٦٩ م ص ١٠٤ - ١١٣ .
٧ - ابن واصل ، مفرح ، ج ٢ ، ص ٣٢٩ - ٣٤٠ .
- محمد بن احمد ابن اياس - بدائع الزهور في وقائع الدهور - ط . القاهرة

- ج ٢ ، ص ١٨٨ - ١٨٩ ؛ وأبو الفدح ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٣ - ٢٤ ؛
وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٨٣ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٤٢ ؛
ورنسيما ، تاريخ الحروب ، ج ٣ ، ص ٦٩٣ - ٦٩٤ .
- ٦٥ - المقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٣ ؛ وابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ،
ص ٩٨ ، ١١٠ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم
الزاهرة ، ج ٨ ، ص ٣ - ٥ ؛ وأبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٢٥ ؛
والذهبي ، دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ ؛ ورنسيما ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ، ص ٦٩٥ .
- ٦٦ - أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ج ٤ ، ص ٢٤ - ٢٦ ؛ وابن الفرات ، تاريخ
ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ١١٠ - ١١٤ ؛ وابن حبيب ، تذكرة النبيه ، ج ١ ، ص ١٣٧ - ١٣٩ ؛
والمقرئ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٧٦٤ - ٧٦٦ ؛ وابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ،
ص ٥ - ١١ ؛ وابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٢٠ - ٣٢١ ؛ والذهبي ، دول
الاسلام ، ج ٢ ، ص ١٨٩ - ١٩٢ ؛ ورنسيما ، تاريخ الحروب ... ، ج ٣ ،
ص ٦٩٤ - ٧١٣ ؛ وسرور ، دولة بني قلاوون ، ص ٢٤١ - ٢٤٤ ؛ والطراونة ، مملكة صفد ،
ص ٦٣ - ٦٨ .

جريدة أهم المصادر والمراجع

- إبراهيم بن أبي الدم ، تاريخ ابن أبي الدم ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة البودليان مارش ٦٠ .
- إبراهيم بن محمد الاصطخري ، المسالك والممالك ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦١ .
- إبراهيم محمد علي مهدي ، « إدارة القدس في عهد المماليك » ، (رساله لنيل شهادة الماجستير ، غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- أحمد بيلى ، حياة صلاح الدين الايوبى ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٢٦ .
- أحمد دراج ، وثائق بير صهيون بالقدس الشريف ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ .
- أحمد بن عبد الحليم (ابن تيمية) ، الحسبة ، القاهرة ، كتاب الجمهورية الدينى ، د . ت .
- أحمد عبد الحليم يونس ، مدينة صدد في عهد المماليك ، (رسالة لنيل شهادة الماجستير ، غير منشورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب والعلوم الانسانية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٩ .
- أحمد بن عبد الله القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ، ١٩١٠ - ١٩٢٠ .
- ، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان ، القاهرة ، دار الكتب الحديثة ، ١٩٦٤ .
- ، مآثر الانافة في معالم الخلافة ، الكويت ، وزارة الارشاد والانباء ، ١٩٦٤ .
- أحمد بن عبد الوهاب الذويرى ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي .

- أحمد بن علي بن حجر العسقلاني ، انباء الغمر بأبناء العمر ،
القاهرة ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، ١٩٦٩ .
- ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، طبعة مصورة ،
بيروت ، دار الجليل ، د . ت .
- أحمد بن علي المقرئ ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، القاهرة ،
لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥٧ .
- ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، مطبعة
إحياء العلوم ، د . ت .
- ، الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك ،
القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٥ .
- ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، القاهرة ، لجنة التأليف
والترجمة ، ١٩٧٠ - ١٩٧٣ .
- ، شذور العقود بذكر النقود ، النجف ، المطبعة الحيدرية ،
١٩٦٧ .
- ، المقفى الكبير في تراجم أهل مصر والوافين عليها .
- أحمد بن عمر بن رسته ، كتاب الأعلام النفيسة ، لندن ، مطبعة
برل ، ١٨٩٢ .
- أحمد عيسى ، البيمارستانات في الإسلام ، بيروت ، دار الرائد
العربي ، ١٩٨١ .
- أحمد بن فضل الله ، التعريف بالمصطلح الشريف ، القاهرة ،
مطبعة العاصمة ، ١٣١٢ هـ .
- أحمد بن فضلان ، رسالة ابن فضلان ، دمشق ، وزارة الثقافة
والإرشاد القومي ، ١٩٧٧ .
- أحمد بن القاسم بن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات
الاطباء ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٧٩ .
- أحمد بن قاضي شهبة ، تاريخ ابن قاضي شهبة ، دمشق ، المعهد
الفرنسي للدراسات العربية ، ١٩٧٧ .
- أحمد بن محمد بن خلكان ، وفيات الأعيان ، القاهرة ، دار
المأمون .

- أحمد بن محمد بن الفقيه الهمذاني ، كتاب البلدان ، لبنان ، مطبعة بيرل ، ١٩٨٥ .
- أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الأولى ، بيروت ، دار النهضة العربية للنشر ، ١٩٦٩ .
- أحمد اليونيني البعلبكي ، نيل مرآة الزمان ، حيدر آباد / الهند ، المطبعة العثمانية ، ١٩٥٤ .
- إسماعيل بن الأثير الحلبي ، عبرة أولى الأبصار في ملوك الأمصار ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة المتحف البريطاني (٣٣٤ - ٢٣) .
- إسماعيل بن علي (أبو الفداء صاحب حماة) ، تقويم البلدان ، باريس ، ١٨٤٠ .
- ، المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، مصورة دار المعرفة ، د . ت .
- إسماعيل بن عمر بن كثير ، البداية والنهاية ، القاهرة ، مطبعة السعانة ، ١٩٣٢ .
- إلهام مكي ، مملكة صفد في العهد المملوكي ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، كلية الآداب - الجامعة اللبنانية ، بيروت ، ١٩٧٨ .
- أنتوني بروج ، تاريخ الحروب الصليبية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار قتيبة ، ١٩٨٦ .
- أنور زقلمة ، المماليك في مصر ، القاهرة ، مطبعة المجلة الجيدة ، د . ت .
- ايرامارفين لايبندوس ، من الشام في العصر المملوكي ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٥ .
- برتولد شبولر ، العالم الاسلامي في العصر المغولي ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .
- بنيامين التيطيلي ، رحلة بنيامين ، (ترجمة عربية) ، بغداد ، المطبعة الشرقية ، ١٩٤٥ .
- جعفر حسين خصبك ، العراق في عهد المغول الايلخانيين ،

- بغداد ، مطبعة العاني ، ١٩٦٨ .
- جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبي على بلاد الشام ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
- ، العدوان الصليبي على مصر ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
- ، العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الاولى ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .
- جوناثان ايلي سميث ، الاسبتارية ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٤ .
- حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، لايبزغ ، ١٨٣٧ .
- الحسن بن عمر بن حبيب ، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه ، القاهرة ، وزارة الثقافة ، مركز تحقيق التراث ، ١٩٧٦ .
- حسنين محمد ربيع ، النظم المالية في مصر زمن الأيوبيين ، القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ .
- حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٦٧ .
- حمزة بن أسد بن علي القلانسي ، كتاب تاريخ دمشق ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٣ .
- حياة ناصر الحجي ، أحوال العامة في حكم المماليك ، الكويت ، شركة كاظمة للنشر ، ١٩٨٤ .
- خليفة بن خياط العصفري ، تاريخ خليفة بن خياط ، دمشق ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦٧ .
- خليل بن أيبك (الصلاح الصفدي) ، أمراء دمشق في الاسلام ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥٥ .
- ، الوافي بـالوفيات ، بيروت ، المعهد الألماني ، ١٩٤٩ - ١٩٧٩ .
- خليل بن شاهين الظاهري ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، باريس ، المطبعة الجمهورية ، ١٨٩٤ .

- خليل خـومط ، الدولة المملوكية ، بيروت ، دار الحداثة ، ١٩٨٠ .
- ر . سي . سميث ، فن الحرب عند الصليبيين ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٢ .
- رينيه غروسيه ، جنكيز خان ، (ترجمة عربية) ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .
- زكريا بن محمد بن محمود القزويني ، كتاب أثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت ، دار الصياد ، ١٩٦٠ .
- ستيفن رنسيمن ، تاريخ الحروب الصليبية ، (ترجمة عربية) ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٧ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور ، « أضواء جنية على مدينة القدس في عصر سلاطين المماليك » ، بحث ألقى في المؤتمر الدولي الثالث لتاريخ بلاد الشام ، عمان ، ١٩٨٠ .
- ، تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦ .
- ، الحركة الصليبية ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٣ .
- ، الظاهر بيبرس ، القاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، ١٩٦٣ .
- ، مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٢ .
- ، مصر في عصر دولة المماليك البحرية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٩ .
- سهيل زكار ، أخبار القرامطة ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٢ .
- ، الحروب الصليبية ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٤ .
- ، حطين ، دمشق ، دار حسان ، ١٩٨٤ .
- ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٤ .

السيد الباز العريني ، الماليك ، بيروت ، دار النهضة العربية ،
١٩٦٧ .

صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، بيروت ، دار المشرق ، ١٩٦٧ .
طاشكبري زاده ، الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ،
بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٥ .

طه ثلجي الطراونة ، مملكة صافد في العصر المملوكي ، بيروت ،
دار الآفاق الجديدة ، ١٩٨٢ .

عادل زيتون ، العلاقات الاقتصادية بين المشرق والمغرب في
العصور الوسطى ، دمشق ، دعر دمشق ، ١٩٨٠ .
عبد الجليل حسن عبد المهدي ، المدارس في بيت المقدس ، عمان ،
مكتبة الأقصى ، ١٩٨١ .

عبد الحي بن العماد الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من
ذهب ، القاهرة ، مكتبة القدسي ، ١٩٣١ - ١٩٣٢ .

عبد الرحمن بن إسماعيل (أبو شامة) ، الروضتين في أخبار
الدولتين مع النيل (تراجم رجال القرنين السادس والسابع) ،
بيروت ، دار الجيل ، ٤ . ت .

عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي ، بغية الوعاة في طبقات
اللغويين والنحاة ، القاهرة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، ١٩٦٥ .
— ، تاريخ الخلفاء ، القاهرة ، المكتبة التجارية الكبرى ،
١٩٦٤ .

— ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ، المطبعة
الشرقية ، ١٣٢٧ .

عبد الرحمن بن الجوزي ، فضائل القدس ، بيروت ، دار الآفاق
الجديدة ، ١٩٨٠ .

— ، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ، حيدرآباد - الهند ، المطبعة
العثمانية ، ١٩٤٠ .

عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ورحلته غربا
وشرقا ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٥١ .

— ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨ .

عبد الرحمن بن محمد العلمي الحنبلي ، الأذس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، عمان ، مكتبة الحديث ، ١٩٧٣ ، مصر ، المطبعة الوهبية ١٢٨٣ هـ .

عبد الرحمن بن نصر الشيزري ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، بيروت ، دار الثقافة ، ١٩٦٩ .

عبد الرحيم بن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، بيروت ، المطبعة الاميركانية ، ١٩٣٦ ، ١٩٤٢ ، وبغداد ، مطبعة حداد ، ١٩٦٧ .

عبد القادر بن محمد النعيمي ، الدارس في أخبار المدارس ، دمشق ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٤٨ .

عبد الله بن أسعد اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، بيروت ، مؤسسة الاعلمي ، ١٩٧٠ .

عبد الله بن عبد الله ابن خرداذبة ، كتاب المسالك والممالك ، لين ، مطبعة برل ، ١٨٨٩ .

عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي ، كتاب مرآة الاطلاع ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٤ .

عبد الله بن عبد الظاهر (محيي الدين) ، الاطراف الخفية ، لايبزغ ، ١٩٠٢ ، د . ت .

— ، تشریف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، ١٩٦١ .

— ، الروض الظاهر في سيرة الملك الظاهر ، الرياض ، المحقق ، ١٩٧٦ .

عبد الوهاب السبكي ، معيد النعم ومبيد النقم ، بيروت ، دار الحديث ، ١٨٣ .

عنان البخيت ، مملكة الكرك في العهد المملوكي ، عمان ، جامعة اليرموك ، ١٩٧٦ .

علي إبراهيم حسن ، دراسات في تاريخ الماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٧ .

علي أحمد ، « الاندلسيون في بلاد الشام منذ نهاية القرن الخامس وحتى نهاية القرن التاسع الهجري » ، (رسالة ماجستير غير مذكورة) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة دمشق ، ١٩٨١ .

علي ابن أبي بكر الهروي ، الاشارات إلى معرفة الزيارات ، دمشق ، المعهد الفردي ، ١٩٥٣ .

علي بن الحسن بن عساكر ، تاريخ دمشق ، مخطوطة الظاهرية ، ٥٣١٦ ، عام ٢٠٥ ، د . دمشق ، المجلد الأول والثانية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٥١ ، المجلد العاشر تحقيق أحمد دهمان ، المجمع العلمي العربي ، ١٩٦٣ .

علي بن داود الصيرفي ، أنباء الهصر بأبناء العصر ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ .

— ، نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٠ - ١٩٧٤ .

علي اللبودي ، فضل الاكتساب وأحكام الكسب وآداب المعيشة ، نسخة مصورة في مكتبة الباحث عن مخطوطة تشدسبرييتي - ديلن .

علي بن محمد ، أبو الحسن ، (ابن الأثير) ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، القاهرة ، دار الكتاب الحديثة ، ١٩٦٣ م .

— ، الكامل في التاريخ ، القاهرة ، المطبعة المنيرية ، ١٣٤٨ هـ .

علي بن يوسف القفطي ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، لايبزغ ، ١٩٠٣ .

عمر بن أحمد بن العليم ، زينة الحلب من تاريخ حلب ، دمشق ، المعهد الفردي ، ١٩٥١ ، ١٩٥٤ ، ١٩٦٨ .

عمر بن الوردي ، تنمة المختصر في أخبار البشر ، بيروت ، دار المعرفة ، ١٩٧٠ .

فاروق عمر ، تاريخ فلسطين السياسي في العصور الإسلامية ، أبو ظبي ، مؤسسة الاتحاد للصحافة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ .

فايد حماد عاشور ، العلاقات السياسية بين المماليك والمغول في الدولة المملوكية الأولى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٤ .

- فضل الله الصقاعى ، تالي ونهيات الاعيان ، دمشق ، المعهد
الفرنسي ، ١٩٧٤ .
- فولفغانغ مولر - فيز ، القلاع أيام الحروب الصليبية ، (ترجمة
عربية) ، دمشق ، مركز الدراسات العسكرية ، ١٩٨٢ .
- قسطنطين خمار ، أسماء الأماكن والمواقع والمعالم الطبيعية
والإنشائية والجغرافية المعروفة في فلسطين حتى عام ١٩٤٨ ،
بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، ١٩٨٠ .
- كامل جميل العسلي ، من آثارنا في بيت المقدس ، عمان ، جمعية
عمال المطابع التعاونية ، ١٩٨٢ .
- محمد بن أحمد بن إياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ،
القاهرة ، كتاب الشعب ، ١٩٦٠ - ١٩٦١ .
- محمد بن أحمد بن بسام الحديثية نهاية الرتبة في طلب الحسبة ،
بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٦٨ .
- محمد أحمد دهمان ، ولاية دمشق في عهد المماليك ، دمشق ، دار
الفكر ، ١٩٨١ .
- محمد بن أحمد بن قايمان الذهبي ، دول الإسلام ، القاهرة ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٤ .
- محمد بن أحمد القرشي (ابن الأخوة) ، معالم القرية في أحكام
الحسبة ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦ .
- محمد بن أحمد المقدسي ، كتاب أحسن التقاسيم في معرفة
الأقاليم ، لبنان ، مطبعة بريل ، ١٩٠٦ .
- محمد بن جبير ، رحلة ابن جبير ، القاهرة ، مكتبة مصر ،
١٩٥٥ .
- محمد بن جرير الطبري ، كتاب تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ،
دعير المعارف ، د . ت .
- محمد جمال الدين سرور ، دولة بني قلاوون في مصر ، القاهرة ،
دار الفكر العربي ، ١٩٤٧ .
- ، دولة الظاهر بيبرس ، القاهرة ، دار الفكر العربي ،
١٩٦٠ .

محمد بن حوقل النصيبي ، كتاب صورة الأرض ، بيروت ، دار
مكتبة الحياة ، د . ت .

محمد بن خليل الاسدي ، التيسير والاعتبار والتحرير
والاختبار ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٦٧ .

محمد بن رافع السلامي ، الوفيات ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ،
١٩٨٢ .

محمد بن سالم بن واصل الحموي ، مفرج الكروب في أخبار بني
أيوب ، الجزء الثاني ، القاهرة ، المطبعة الاميرية ، ١٩٥٧ .

محمد بن شاذي الكندي ، فوات الوفيات ، القاهرة ، ١٩٥١ .

محمد بن الشحنة (ينسب له) ، البدن الزاهر في نصرة الملك
الناصر محمد بن قايتباي ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٨٣ .

محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (شيخ الربوة) ، نخبة
الدهر في عجائب البر والبحر ، ط . مصورة ، بغداد ، مكتبة المثنى .

محمد بن طولون الصالحي الدمشقي ، اعلام الوري بمن ولي
نائباً من الأتراك بدمشق والشام الكبرى ، دمشق ، وزارة الثقافة
والارشاد القومي ، ١٩٦٤ .

— ، قضاة دمشق ، دمشق ، (المجمع العلمي العربي) ،
١٩٥٦ .

— ، مفاكهة الخلان ، القاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد
القومي ، ١٩٦٢ .

محمد بن عبد الرحمن السخاوي ، التبر المسبوك في نيل
السلوك ، ط . القاهرة ، مكتبة الكليات الاظهرية ، د . ت .

— ، النيل على رفح الاصر عن قضاة مصر ، القاهرة ، الدار
المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٦ .

— ، الضوء اللامع لاهل القرن التاسع ، بيروت ، دار الحياة ،
طبعة مصورة ، د . ت .

محمد بن عبد الرحمن العثماني ، قطعة من تاريخ صدد ،
محمد العبدري الحيحي ، رحلة العبدري أو (الرحلة المغربية) ،

الرباط جامعة محمد الخامس ، ١٩٦٨ .

- محمد عبد العزيز مرزوق ، الناصر محمد بن قلاوون ، القاهرة ،
وزارة الثقافة والارشاد القومي ، د . ت .
محمد بن عبد الله اللواتي (المعروف بابن بطوطة) ، القاهرة ،
المكتبة التجارية الكبرى ، ١٩٥٨ .
محمد عبد الهادي شعيرة ، المرابطون ، القاهرة ، مكتبة القاهرة
الحديثة ، ١٩٦٩ .
محمد بن عبد الواحد الحنبلي ، فضائل بيت المقدس ، دمشق ،
دار الفكر ، ١٩٨٥ .
محمد بن علي بن شداد ، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام
والجزيرة ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، ١٩٦٢ .
— ، تاريخ الملك الظاهر ، بيروت ، المعد الألماني ، ١٩٨٣ .
محمد بن علي الحموي ، التاريخ المنصوري ، دمشق ، مجمع
اللسة العربية ، ١٩٨٢ .
محمد بن علي الشوكاني ، البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن
السابع ، القاهرة ، مطبعة السعانة ، ١٣٤٨ هـ .
محمد علي العظمي ، تاريخ حلب ، دمشق ، المحقق ، ١٩٨٤ :
محمد عيسى صالحية ، حوليات كلية الآداب ، من وثائق الحرم
القدس الشريف المملوكية ، الرسالة السادسة والعشرون ، الكويت ،
١٩٨٥ .
محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ، مكتبة النوري ،
١٩٨٣ .
محمد بن محمد بن مصري ، الدرر المضيئة في الدولة الظاهرية ،
كاليفورنيا ، ١٩٦٣ .
محمد بن محمد (العماد الأصفهاني) ، الفتح القسي في الفتح
القدس ، القاهرة ، مطبعة الموسوعات ، ١٣٢١ هـ .
محمد بن محمود الحلبي (الملقب بابن أجا) ، العراق بين
المماليك والعثمانيين الأتراك ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٨٦ .
محمد بن محمود بن خليل الحلبي ، تاريخ الأمير يشبك
الظاهري ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٣ .

- محمد بن يحيى بن الجيعان ، القول المستظرف في سفر مولانا
الملك الاشرف ، بيروت ، جروس - برس ، ١٩٨٤ .
- محمود بن أحمد بن موسى (بدر الدين العيني) ، السيف المهند
في سيرة الملك المؤيد (شيخ الحمودي) ، القاهرة ، دار الكاتب
العربي للطباعة والنشر ، ١٩٦٧ .
- ، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ، القاهرة ، دار إحياء
الكتب العربية ، ١٩٦٢ .
- مصطفى طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والاسلام ،
القاهرة ، دار الفكر العربي ، د . ت .
- مصطفى مراد الدباغ ، بلادنا فلسطين ، بيروت ، دار الطليعة ،
١٩٦٥ ، ١٩٧٦ .
- ، الموجز في تاريخ الدول الإسلامية وعهودها في فلسطين ،
بيروت ، دار الطليعة ، ١٩٨١ .
- مظهر شهاب ، تيمورلنك ، (أطروحة دكتوراه غير منشورة) ،
الجامعة اليسوعية بيروت ، ١٩٨١ .
- منصور بن بكرة النهمي ، كشف الاسرار العلمية بدار الضرب
المصرية بيروت ، ١٩٨١ .
- مؤرخ شامي مجهول ، حوليات دمشق ، القاهرة ، مكتبة
الانجلو المصرية ، ١٩٦٨ .
- المورد ، مجلة تراثية فصلية ، « الفكر العسكري عند
العرب » ، المجلد الثاني عشر العدد الرابع بغداد ١٩٨٣ .
- ناصر خسرو ، سفرنامه ، (ترجمة عربية) ، القاهرة ،
١٩٤٥ .
- نجم الدين الغزي ، الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة ،
بيروت ، محمد أمين دمج وشركاه ، ١٩٤٥ .
- نقولا زياته ، « فيلكس فابري في فلسطين » ، (بحث أقي في
المؤتمر الثالث لبلاد الشام) ، عمان ، ١٩٨٠ .
- ياقوت بن عبد الله الحموي ، إرشاد الأريب إلى المعرفة الأديب
(معجم الأدباء) ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٩٠٧ - ١٩٢٧ .
- ، معجم البلدان ، بيروت ، دار الصياد ، د . ت .

يوسف بن تغري بردي ، (أبوالمحسن) ، المنهل الصافي
والمستوفى بعد الوافي ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ،
١٩٥٦ .

— ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ، ط .
مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٥٦ .

— ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة ،
ط . . مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية ، د . ت .
يوسف غوانمة ، إمارة الكرك الأيوبية ، عمان ، دار الفكر ،
١٩٨٢ .

— ، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى ، وزارة
الثقافة والشباب ، عمان ، دار الفكر ، ١٩٨٢ .

— ، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى ، وزارة
الثقافة والشباب ، عمان ، ١٩٧٩ .

— ، تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي ، عمان ، دار
الحياة ، ١٩٨٢ .

المحتوى

٣ - توطئة

٩ - الباب الأول

- ١٠ - الفصل الأول - الانتقال من المصور الكلاسيكية إلى المصور الوسطى .
- ١٧ - المسيحية والعالم الروماني
- ٢٧ - الامبراطورية الرومانية والشعوب البربرية
- ٥٣ - الامبراطورية البيزنطية والحضارة الارثوذكسية الشرقية .
- ٥٦ - الامبراطورية البيزنطية وخصومها .
- ٧٢ - الفصل الثاني - الفرنجة ودولهم، الدولة الميروفنجية
- ٧٩ - حضارة الدولة الميروفنجية، الحياة الاقتصادية
- ٨١ - الحياة الفكرية والفنية
- ٨٤ - الحياة الدينية - الكنيسة الميروفنجية
- ٨٥ - الحياة الرهبانية
- ٨٧ - بريطانيا - الملكة الانكلوسكسونية
- ٩١ - النظم الانكلو - سكسونية
- ٩٥ - الامبراطورية الكارولنجية
- ٩٦ - تأسيس الملكية الكارولنجية بين القصير
- ٩٨ - بين القصير والكرسي المقدس
- ١٠٠ - بين وزعيم السلطة الملكية
- ١٠١ - شخصية شارلمان وبداية حكمه
- ١٠٢ - التدخل في ايطاليا
- ١٠٤ - اعمال شارلمان التوسعية والحروب مع السكسون
- ١٠٦ - الحرب مع العرب في اسبانيا
- ١٠٧ - اخضاع بافاريا والافار
- ١٠٨ - تدوير شارلمان امبرطورا
- ١١٤ - انحلال الامبراطورية الكارولنجية
- ١١٧ - المنازعات العائلية وتقسيم الامبراطورية
- ١١٨ - معاهدة فرنان
- ١١٩ - الممالك الفرنجية وواخر الكارولنجيين
- ١٢١ - جرمانيا
- ١٢٦ - خلفاء شارل الاصلع
- ١٢٩ - الحضارة الكارولنجية - الحياة الاقتصادية
- ١٣٣ - المجتمع
- ١٣٥ - نظام الحكم والادارة
- ١٣٦ - الحرب
- ١٣٨ - التنظيم الاداري
- ١٤٠ - إخفاء المديونة الدينية على الملكة
- ١٤١ - الكنيسة الكارولنجية

- ١٤٥ - الحياة الفكرية والفنية
١٤٩ - الفايكنغ
١٥٣ - الغارات الفايكنغ على الامبراطورية الكارولنجية
١٦١ - غارات الفايكنغ على انكلترا
١٦٤ - غزوات الفايكنغ لآيرلندا
١٦٦ - الفايكنغ في الجزر الشمالية
١٦٦ - توسع السويديين شرقا
١٦٩ - حضارة الفايكنغ
١٧١ - أسيرة كايية في فرنسا
١٧٦ - الامبراطورية الكارولنجية ، بيزنطة وشارلمان
١٧٩ - فترة حكم نةفور
١٩٠ - الاسرة العمورية
٢١٠ - فترة حكم الاسرة المكدونية
٢١٤ - العلاقات البيزنطية العربية
٢٢٥ - العلاقات مع الملهار والمجر
٢٢٩ - العلاقات بين بيزنطة والروس
٢٣٢ - العلاقات مع ايطاليا وأوروبا الغربية
٢٣٤ - شؤون الكنيسة
٢٤١ - الباب الثاني
٢٤٢ - الفصل الأول - الطور الأول من تاريخ الحروب الصليبية (الاحتلال)
٣٦٦ - البيرونيون أتاككة دمشق
٧٦٢ - الفصل الثاني - المرحلتان الاولى والثانية من حروب الاسترداد في الطور الثاني
٢٩٣ - قيام صلاح الدين
٣١٧ - الفصل الثالث - المرحلة الثالثة من حروب الاسترداد في الطور الثاني (مرحلة دمشق :
٣٦٣ - حصاد حطين
٣٩٩ - الفصل الرابع - المرحلة الرابعة من حروب الاسترداد في الطور الثاني (مرحلة القاهرة)
٤٥١ - الحواشي
جريدة المصادر والمراجع